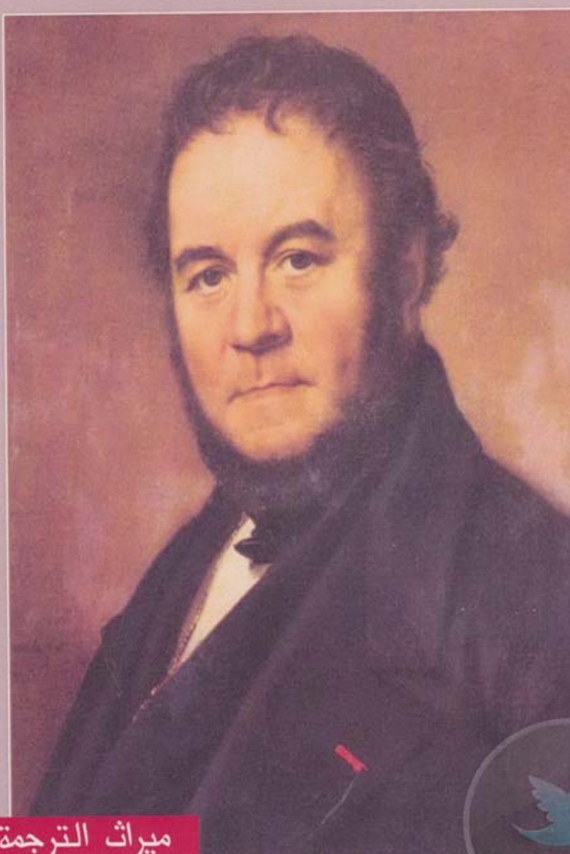
المركز القومى للترجمة

ستندال

الأحمر والأسود

(الجزء الثانى)

ترجمة: عبد الحميد الدواخلى
مراجعة: إبراهيم مدكور



ميراث الترجمة

1721

الأحمر والأسود

(الجزء الثاني)

تـــأليف: ستنـــــــــــــــدال

ترجمـــــة: عبد الحميد الدواخلى

مراجعـــة: إبـــراهيم مـــدكور

2015

الأحمر والأسود

(الجزء الثاني)

المركز القومى للترجمة
تأسس فى أكتوبر ٢٠٠٦ تحت إشراف: جابر عصفور
مدير المركز: أنور مغيث

سلسلة ميراث الترجمة
المشرف على السلسلة: مصطفى لبيب

- العدد: 1721
- الأحمر والأسود (الجزء الثانى)
- ستندال
- عبد الحميد الدواخلى
- إبراهيم مدكور
- اللغة: الفرنسية
- 2015

هذه ترجمة كتاب:

Le Rouge et le Noir

Par: Stendhal

شارع الجبلاية بالأوبرا- الجزيرة- القاهرة. ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤

El Gabalaya St. Opera House, El Gezira, Cairo.

E-mail: nctegypt@nctegypt.org Tel: 27354524 Fax: 27354554

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

بيل – ماري هنري، ١٧٨٣ – ١٨٤٢
الأحمر والأسود: ج٢ / تأليف: ستندال، ترجمة: عبد الحميد الدواخلي،
مراجعة: إبراهيم مدكور؛
ط ١ – القاهرة: المركز القومي للترجمة، ٢٠١٥
٤٤٤ ص، ٢٤ سم
١ – القصص الفرنسية
(أ) الدواخلي، عبد الحميد (مُترجم)
(ب) مدكور، إبراهيم (مُراجع)
٢ – العنوان ٨٤٣

رقم الإيداع: ٢٣٣٤٢ /٢٠١٣
الترقيم الدولى: I.S.B.N - 978 - 977 - 718 - 208 - 9
طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

الألف كتاب (١٦)

ستندال

الأحمر والأسود

الجزء الثانى

ترجمه

عبد الحميد الدواخلى

الأستاذ المساعد بكلية دار العلوم

راجعه

الدكتور ابراهيم مدكور

عضو مجمع اللغة العربية

الفصل الأول
لذات الريف

أيها الريف ، متى أنعم برؤياك ! ؟

فرجيل

قصد جوليان إلى نزل ليتناول فيه غداءه ، فقال له صاحبه :

— لاشكّ أن السيد ينتظر عربة باريس ، أليس كذلك ؟

— عربة اليوم أو عربة الغد فذلك عندى سواء !

ووصلت العربة ، وجوليان لا يبدى اهتماما بموعد سفره ، وكان بها مكانان خاليان .

وصعد جوليان إليها مع مسافر آخر ، فسمع ذلك المسافر يقول مخاطباً شخصاً آتيا من جهة جنيف :

— ماذا ، أهذا أنت يافالكو ؟

فأجابه فالكو :

— لقد ظننتك مقيما بإحدى ضواحى ليون ، فى واد جميل على مقربة من نهر الرون ! أليس كذلك ؟

— إقامة سعيدة ، إنّى أولّى الأدبار . فضحك فالكو قائلا :

— ماذا تقول ؟ أتولّى الأدبار ياسان جيرو ؟ إنّ هيئتك لتدلّ على عقل ورزانة ، فهل ارتكبت جرماً على الرغم من ذلك ؟

— لاأخفى عليك أنّ حالى كحال من ارتكب جريمة . إنى أفرّ من

هذه الحياة الكريهة التي نحياها في الريف . وأنت تعرف أنني أحبّ الهواء المنعش ، هواء الغابات ؛ والهدوء الجميل ، هدوء الحقول . وكثيراً ما اتهمتني أنت بأني خيالى . لم أحب أبداً أن أتحدث عن السياسة أو أن أخوض غمارها .

— ولكن إلى أيّ الأحزاب تنتمى ؟

— لا أنتمى إلى أيّ حزب وفى هذا ضياعى . أما السياسة المحبّبة إلى نفسى فهى أنى أهوى الموسيقى والرسم . وإذا وقع لى كتاب قيّم ، عددت هذا حدثاً عظيما . وسأبلغ الرابعة والأربعين من العمر بعد قليل ، فماذا يبقى لى من أيام أحياها ؟ خمسة عشر عاماً أو عشرون عاماً على الأكثر ؟ حسناً يخيّل إلىّ أن الوزراء بعد ثلاثين عاما سيكونون أكثر مهارة منهم الآن ، ولكنهم سيكونون فى أمانة وزراء اليوم ! وتاريخ انجلترا مرآة أستخدمها فى معرفة مستقبلنا : سيكون هنا دائماً ملك يريد أن يوسع فى امتيازاته ، وسيظلّ الطموح فى التمثيل النيابىّ مسيطراً على النفوس ، وكذلك المجد والحصول على مئات الآلاف كما فعل ميرابو : كل هذا يحرم الأغنياء فى الريف لذة التمتع بالراحة ، وهم مع ذلك يزعمون أنهم أحرار وأنهم يحبون الشعب . والرغبة الملحة فى أن يكون الإنسان نبيلا أو سيداً من سادات مجلس النواب ، تدفع بالمغالين إلى الركض الشديد . وكم يودّ كل رجل أن يحتل مكاناً فى هذه السفينة الحكومية ، مادام العمل فيها يدرّ عليه مالا وفيراً . وبعد ، ألا يجد المسافر البائس فيها مكاناً متواضعاً ؟

— حقاً ، حقاً ، إنّ هذا لا يتفق مع ما فطرت عليه من وداعة

وهدوء . ولكن ترى أهي الانتخابات الأخيرة التي تطوّح بك بعيداً عن الأقليم الذي تعيش فيه ؟

— الشرّ الذي ألقاه أعمق من ذلك أثراً ، فمنذ أربعة أعوام كنت فى الأربعين من عمرى وكانت ثروتى خمسمائة ألف من الفرنكات . أما اليوم فقد زاد عمرى أربعة أعوام ونقصت ثروتى ما يقرب من خمسين ألفاً من الفرنكات سأخسرها فى بيع قصرى فى مونفليرى على مقربة من الرون فى موقع بديع . لقد زهدت الحياة الپاريسية نظراً لتلك المهزلة المتكررة التى تسمونها حضارة القرن التاسع عشر ، والتى نضطر إليها اضطراراً . كنت متعطشاً إلى حياة السذاجة والبساطة ، فاشتريت أرضاً فى الجبال القريبة من الرون فى موقع جميل لا يضارعه مكان آخر فى العالم كله . وكان قس القرية وعمد الأماكن المجاورة يتملقوننى وظلوا كذلك ستة شهور وكنت أدعوهم إلى العشاء عندى فقلت لهم مرة : إننى غادرت پاريس حتى لا أتكلم فى السياسة ولا أسمع عنها حديثاً ولا أخوض فى ذكرها . وأنتم ترون أنى لست مشتركا فى صحيفة من الصحف . وكلما قلّت الرسائل التى يحملها إلىّ ساعى البريد ، زادت بذلك سعادتى .

ولم يرض هذا المسلك خورىّ القرية ، فشعرت بعد قليل بوطأة آلاف من الطلبات التى تخلو من كل لياقة ، وانهالت علىّ المضايقات . وكنت أرغب فى أن أوزع على الفقراء مائتين أو ثلثمائة من الفرنكات فى كل عام ، ولكنى طولبت بمثل هذا المبلغ للجمعيات الدينية كجمعية القديس يوسف أو جمعية العذراء وما إليهما . ولما رفضت دفع ما طلب

منى ، لحقتنى إهانات كثيرة . ولم أكن أستطيع الخروج صباحاً لأتمتع بجمال الجبال دون أن ألقى مضايقات تنتزعنى من أحلامى وتذكرنى فى قسوة شديدة مافطر عليه الناس من شرّ وغلظة . وكان الخورىّ فى الصلوات التى تقام من أجل خصوبة الأرض ، يرفض أن يبارك حقولى بحجة أن صاحبها كافر ، مع أنّ الترتيل فى هذه الصلاة يعجبنى ؛ ولعلّ ذلك ناشىء من أنها إغريقية الأنغام . وماتت بقرة عجوز تقية ، فعلّلت العجوز موت بقرتها لمجاورتها لبركة يملكها كافر ، فيلسوف وفد عليهم من باريس . وبعد ذلك بثمانية أيام ، وجدت سمكى ميتاً كلّه ؛ لأنهم وضعوا فى البركة جيراً فمات السمك مسموماً . وهكذا لاحقتنى مضايقات من كل جانب وفى صور شتى . أما قاضى الصلح فهو رجل أمين لكنه جدّ حريص على مركزه ، ولذلك كان يديننى دائماً . لقد أصبحت أرى هدوء الحقول جحيماً ؛ لأن الناس ما كادوا يرون علاقتى بالخورىّ قد ساءت ، وهو كما تعلم رئيس اتحاد القرية ، وما كادوا يتبينون أن القائد المحال إلى المعاش قد تخلّى عنى ، وهو رئيس الأحرار فى تلك المنطقة ، ما كادوا يرون هذا حتى أضمروا جميعاً لى الشرّ ؛ فالبنّاء الذى عُلته أعواماً قلب لى ظهر المجن ، والنجار الذى يصلح المحاريث أراد أن يسرقنى علانية .

وأخيراً عنّ لى أن أنتمى إلى الأحرار ليشتد أزرى وأكسب بعض قضاياى : وأتت هذه الانتخابات اللعينة كما قلت أنت وطلب صوتى منى......

— لشخص لا تعرفه ؟

— لا ، أبداً ، بل لشخص أعرفه حق المعرفة ورفضت الطلب ، ويا له من حمق شديد ! . فقد أصبح الأحرار ضدى منذ ذلك الوقت ، وصار مركزى شديد الحرج . ويخيّل إلىّ الآن أن الخورىّ إن فكّر فى اتهامى بقتل خادمتى لوجد عشرين شاهداً من الحزبين يقسمون بأنهم رأونى متلبساً بالجريمة .

— أتريد أن تعيش فى الريف دون أن تعاون جيرانك فى الوصول إلى ما يطمحون إليه ، ودون أن تستمع إلى ثرثرتهم ؟ لقد أتيت أمراً إدًّا !

— وأصلحت أخيراً ما وقعت فيه من خطأ . سيباع قصر مونفليرى ، وعزمت على أن أخسر فيه خمسين ألف فرنك ؛ ومع كل هذا ترانى أشعر بفرح لا حدّ له ، لأنى سأغادر جحيما آهلا بالنفاق والمضايقات وسأذهب إلى حياة العزلة والهدوء الريفى فى المكان الوحيد الذى يتوافران فيه فى فرنسا ، وهو طابق رابع مطلّ على الشانزلزيه . على أننى مع ذلك سأجد كثيراً من المشقة إذا بدأت حياتى السياسية فى حىّ «دى رول» دون أن أحمل الخبز المقدس إلى الخورْنيّة .

فقال فالنو والشرّ يتطاير من عينيه والحسرة تفيض من نظراته :

— لو أنّ بونابرت كان لا يزال فى الحكم ما حدث لك شىء من هذا كله !

— حسناً ، ولكن لم لم يتمكن بونابرت الذى تشيد بذكره من الاحتفاظ بمركزه ؟ إنّه سبب كلّ ما أشكوه الآن .

ولما وصلا فى الحديث إلى هذا الحدّ ، زاد انتباه چوليان . فقد أدرك

منذ الكلمة الأولى أنّ المتعصب لبوناپرت هو فالكو صديق الطفولة للسيد دى رينال ، الذى تخلّى عنه عمدة ڤرييرفى سنة ١٨١٦ . أما الفيلسوف سان جيرو فلا بدّ أن يكون أخاً للرئيس الذى استطاع أن ينال المناصب العامة بأثمان ضئيلة ، والذى يعمل رئيس مكتب فى مديرية . . . .

— كلّ هذه الأشياء من عمل بوناپرت ، فالرجل الأمين المسالم الذى يبلغ الأربعين من عمره وتبلغ ثروته خمسمائة ألف فرنك لا يستطيع أن يقيم فى الريف ولا أن يجد فيه ما يبتغيه من راحة وهدوء لأن قسس بوناپرت وأشرافه بالمرصاد لهذا الرجل يطاردونه أينما حلّ .

— آه ! لا تذكره بسوء ، فإن فرنسا لم تبلغ مكانة عالية بين الشعوب كمكانتها فى الثلاثة عشر عاماً التى حكمها . كان كلّ ما يصدر منه عظيما خطيراً !

— لم يكن إمبراطورك عظيما إلاّ فى ساحات القتال وحين نظّم مالية فرنسا سنة ١٨٠٢ . فليذهب إمبراطورك إلى الجحيم ، وماذا ينطوى عليه مسلكه منذ ذلك الوقت ؟ لقد وقع فى تلك الحماقات الملكية بما اتخذه لنفسه من حجّاب ، وبالأبهة التى اعتادها والاستقبالات التى كان قصر التويلرى مسرحاً لها . فأعادها فى طبعة منقحة قُدّر لها أن تعيش قرناً أو قرنين آخرين . وأراد الأشراف والقسس أن يعودوا إلى حياتهم القديمة ، لكنهم لم يكونوا أقوياء فيروّجوا لما يريدون بين طبقات الشعب .

— هذه لغة ناشر قديم ! فاستطرد الناشر فى غضب :

— من الذى يطردنى من أملاكى ؟ هم القسس الذين عقد ناپليون

معهم اتفاقاً بدل أن يعاملهم كما تعامل الدولة الأطباء والمحامين والفلكيين كمواطنين ، لا أكثر ولا أقل بغض النظر عن المهنة التى يمتهنونها طلباً للرزق . لو أن بونابرت لم يمنح ألقاب بارون وكونت جزافاً ، ما رأينا اليوم سادة جبلوا على الغلظة والقحة ، لأن ذلك العصر كان قد انتهى تماماً . لقد لقيت الأمرّين من القسس أولا ثم من أعيان الريف الذين سبّبوا لى آلاماً كثيرة واضطرونى إلى أن أكون من الأحرار .

وظلّ الحديث على هذه الوتيرة مدة طويلة ، لأنّ هذه الآراء ستظلّ تشغل فرنسا نصف قرن . وبينما كان سان چيرو يؤكد لصديقه فى ثقة أن الحياة فى الريف لا تطاق ، ذكر چوليان ، فى حياء ، السيّد دى رينال على سبيل المثال لمن يعيشون فى الريف سعداء . فصاح فالكو قائلا :

— يا إلهى ! أنت طيب القلب أيها الشاب ! لقد جعل من نفسه مطرقة حتى لا يكون سنداناً ، وقد كان مطرقة شديدة الوطأة . ولكنى أرى أن ڤالنو سيطغى عليه ؛ فهل تعرف هذا الرجل الحقير ؟ إنه دنئ حقّا . وماذا يقول السيد دى رينال حين يرى نفسه قريباً قد خلع من منصبه وحلّ محله ڤالنو !

فقال سان چيرو :

— إنه سيفرغ لمواجهة الآثام التى ارتكبها . أتعرف ڤريير أيها الشاب ؟ حسناً ! لتنزل السماء الخزى والعار ببونابرت وبالآثار البالية الملكية ، لأنه هو الذى مكّن لأمثال دى رينال وشيلان ومن سيأتى من أمثال ڤالنو ومالون .

أذهل چوليان هذا الحديث السياسى القاتم وانتزعه من أحلامه اللذيذة انتزاعاً شديداً . ولم يتأثر بمنظر باريس وهى ترى من بعد . وكانت الآمال الكبيرة التى يبنيها على مصيره فى العاصمة تتضارب تضارباً شديداً مع ذكريات اليوم الذى قضاه فى ڤريير ، هذه الذكريات الماثلة أمامه والتى طغت على مشاعره . لقد أقسم ألاّ يهجر أبناء صديقته ، وحلف ليتخلينّ عن كل شىء إذا ما كانوا فى حاجة إلى حمايته إن سوّلت للقسس نفوسهم بأن يقلبوا الحكم جمهورياً ، وأملى عليهم السّفه أن يحرضوا على الأشراف .

ماذا كان عساه أن يحدث لو أن چوليان ليلة وصوله إلى ڤريير وساعة أن أسند السلم إلى نافذة غرفة صديقته وجد فيها رجلا غريبا أو وجد السيد دى رينال ؟

ولكن أية لذة نالها فى الساعتين الأوليين ، حين كانت صديقته مصرة بإخلاص على أن يفارقها ، وهو جالس إلى جوارها فى الظلام يدافع عن نفسه دفاعاً حاراً !

إن نفساً كنفس چوليان لتهيم فى مثل تلك الذكريات طول الحياة . أما بقية حديثهما فقد أشبهت حديث أيام حبهما الأولى ، أحاديث حياتهما المشتركة قبل ذلك بأربعة عشر شهراً .

وانتبه چوليان من أحلامه العميقة حين وقفت العربة بعد أن دخلت فى فناء موقف شارع چان چاك روسو . ورأى عربة صغيرة تقترب منه فقال لسائقها :

أريد أن أذهب إلى مالميزون .

— فى هذه الساعة ياسيدى ! وماذا تريد أن تعمل هناك ؟

— وما شأنك أنت ! سر فى طريقك .

إنّ العاطفة الصادقة لا تُشغل إلا بنفسها فحسب . ولهذا يخيل إلىّ أن العواطف فى باريس مدعاة إلى السخرية لأن كل جار يزعم أنّ جاره يفكر فيه كثيراً . وسأتجنب الحديث عن مشاعر چوليان حين وصل إلى مالميزون . لقد بكى . ماذا ؟ أيبكى على الرغم مما يرى من جدران بيضاء بنيت لعامها فمزقت الحديقة شرّ ممزق ؟ نعم ياسيدى لقد بكى ! لأنه هو وأمثاله من الشبان ، لا يفرّقون بين أركول وسانت هيلانه ومالميزون .

ثم تردّد چوليان فى المساء طويلا قبل أن يدخل فى غمار الحياة الباريسية لأن أفكاراً غريبة شغلت ذهنه فاعتقد أن هذا المكان مثوى هلاك وتلف . وحذر حذراً حال بينه وبين أن يعجب بباريس اليقظة الحية ، بحيث لم تؤثر فى نفسه إلا الآثار التى خلفّها بطاله .

وكان يقول فى نفسه : أنا الآن فى المكان الذى تحاك فيه الدسائس ويستعلى النفاق ؟ هنا يتحكم الذين يبسطون حمايتهم على الأب فريلير .

وفى مساء اليوم الثالث، تغلّب حب الاستطلاع فى نفس چوليان فأراد رؤية كل شيء قبل أن يذهب إلى الأب پيرار . وحينما لقى مديره السابق تحدث الكاهن إليه فى فتور عن الحياة التى سيحياها عند المركيز دى لامول قائلا له :

— إذا مضت عليك بضعة شهور ، وتبيّن أنك لا تصلح لما يسند

إليك من عمل فستدخل المدرسة من جديد ولكن في كرامة . والمركيز من أكبر سادة فرنسا وستقيم في قصره ، وتلبس الملابس السوداء كأنك في حداد لا على غرار رجال الدين . على أني أريد أن تتابع دراستك في اللاهوت ثلاث مرات في الأسبوع في مدرسة سأصحبك إليها . وفي ظهر كل يوم ، تذهب إلى مكتبة المركيز الذي يريد أن يسند إليك كتابة خطابات قضاياه وأعماله الأخرى . وسيكتب لك المركيز في هامش كل خطاب يتلقاه كلمتين توضحان لك نوع الإجابة التي ينبغي أن تكتبها . وقد زعمت له أنك بعد ثلاثة شهور ستتمكن من كتابة الردود وحدك ، وأنه سيوقع ثمانية خطابات أو تسعة من اثني عشر خطاباً تقدمها إليه . وفي الساعة الثامنة مساء ، عليك أن ترتب مكتبه وفي الساعة العاشرة تماما ينتهي عملك .

واستطرد بيرار : ومن المحتمل أن تغريك امرأة عجوز أو رجل رقيق الحديث بمنافع كثيرة وفوائد جمة أو بعبارة مبتذلة يقدم لك ذهباً لتطلعهما على المكاتبات التي ترد إلى المركيز . . .

فاحمرّ وجه جوليان وصاح قائلا :

— آه ياسيدي ! فابتسم بيرار ابتسامة مرّة وقال :

— يدهشني أنك لا زلت تغضب للفضيلة على الرغم من فقرك وأنك قضيت في المدرسة عاماً ، ومما لا شك فيه أنك كنت أعمى البصر والبصيرة !

ثم ساءل الأب نفسه في صوت خفيض : أيرجع هذا إلى كرم محتده؟ ونظر إلى جوليان وقال له :

— من العجيب أن يعرفك المركيز . . . وأنا لا أدرى كيف تأتى له ذلك . سيعطيك مائة لويس مرتباً تبدأ به عملك عنده حتى إذا ما سُرّ منك زادك إلى ثمانية آلاف من الفرنكات .

واستطرد الكاهن فى لهجة قاسية يقول :

— ولكنك تعلم جيداً أنه لا يعطيك هذا المال الكثير لسحر عيونك . فعليك أن تؤدى العمل فى صدق وإخلاص . ولو أننى كنت مكانك لتكلمت بمقدار ، ممسكا عن الخوض فيما لا أعرفه .

آه ! لقد حصلت لك على معلومات ، وأنسيت أن أتحدث إليك عن أسرة المركيز دى لامول . هو أب لولدين فتاة وفتى فى التاسعة عشرة من عمره ، أنيق كل الأناقة ، لكنه أحمق لا يعرف فى الظهر ماذا سيعمل فى الساعة الثانية ، وهو ذكىّ شجاع حارب فى أسبانيا . والمركيز يرجو أن تصبح صديق ابنه الشاب الكونت نوربير ، ولا أعلم أنا سبباً لذلك . وأخبرت الأب بأنك تجيد اللاتينية ، فلعله يرجو أن تعلّم ابنه بعض جمل من شيشيرون وفرجيل .

لو كنت مكانك ما تركت فرصة لهذا الشاب الجميل يسخر فيها منى ، وقبل أن أتقبل منه ما يقوله أتركه يعيد حديثه على مسامعى غير مرة ، على الرغم من أن مايقوله كله أدب وإن كان لا يخلو من سخرية لاذعة .

ولست أخفى عليك أن الكونت الشاب دى لامول سيحتقرك أول الأمر ، لأنك لا تزيد على أن تكون برجوازيا صغيراً . وقد كان أحد أجداده يعيش فى البلاط ، وختم حياته بشرف كبير حين قطع رأسه فى ميدان

جريف فى ٢٦ من أبريل سنة ١٥٧٤ ، على أثر مؤامرة سياسية . أما أنت فابن نجار من ڤريير تعمل عند أبيه ؛ فضع هذه الفروق نصب عينيك دائما ، وادرس تاريخ هذه الأسرة فى موريرى ؛ وكل المتملقين الذين يطعمون على مائدة دى لامول يعمدون إلى ذكر بعض حوادث هذه الأسرة بين آن وآخر ، زاعمين أن هذا يعدّ إشارة رقيقة لا غنى لهم عنها . خذ حذرك وأنت تجيب الكونت نوربير دى لامول رئيس فرقة الفرسان وعضو المجلس الأعلى بعد قليل ، فأنا لا أحبّ أن تأتى إلىّ شاكيا منه .

فاحمرّ وجه جوليان وقال :

— يخيل إلىّ أنه لا ينبغى إطلاقا أن أجيب رجلا يحتقرنى .

— أنت لا تعلم شيئاً عن هذا الاحتقار ، لأنه مشوب دائما بثناء كثير قد يكون مبالغاً فيه . فإذا كنت غرّا كان فى استطاعتك أن تغضى عنه ، وإذا أردت أن يكون لك شأن فعليك ألاّ تقيم وزناً لما تسمع .

— لو أنّ كل ماحدثنى به لم يعد يلائمنى ، فهل أعدّ ناكراً للجميل إذا عدت إلى غرفتى الصغيرة رقم ١٠٣ ؟

— لا شك أن كل المرائين من المتردّدين على آل دى لامول سيصبون عليك جام غضبهم ، ولكنى سأكون عضداً لك ، وسأخبرهم بأننى أشرت عليك بهذا .

كان جوليان مغيظاً من هذه اللهجة القاسية الجافة التى تحدّث بها الأب پيرار ؛ وأفسدت هذه اللهجة تماماً آخر عبارة من عبارات بطلنا .

وفى الحق أن الـكاهن كان فريسة للوم شديد من ضميره ، لأنه أحب جوليان ، ولقى عذاباً دينياً كبيراً حين تدخل فى مصيره بطريقة مباشرة .

واستطرد يقول بتلك اللهجة النابية ، كما لو كان يريد أن يفرغ من واجب ثقيل الوطأة على نفسه :

— سترى أيضاً المركيزة دى لامول ، وهى سيدة طويلة القامة شقراء ، متديّنة ، متعالية ، جمّة الأدب ، لـكنها تافهة . وهى كريمة العجوز دوق شون المشهور بترهات فى الحسب والنسب . وهذه السيدة الـكبيرة صورة موجزة لما تنطوى عليه أخلاق سيدات الطبقة المنتمية إليها . وهى لا تزال تذكر أنّ كلّ إعجابها فى الحيـاة مقصور على أن لها أسلافاً اشتركوا فى الحروب الصليبية ،وهذا هو المقياس الوحيد الذى نقيم له وزنا . أمّا المـال فثانوى بالنسبة إليها . أيدهشك هذا ؟ إننا لم نعد نعيش فى الريف ياصديقى العزيز .

سترى فى صالونها الـكثيرين من كبار السادة يتحدثون عن الأمراء فى استخفاف شديد ؛ أما هى فتخفض صوتها إكباراً وإجلالاً كلما ورد على لسانها اسم أمير . ويزداد إكبارها إذا ذكرت إحدى الأميرات . وأنا لا أنصح لك أن تذكر أمامها أن فيليب الثانى أو هنرى الثامن كانا فظّين غليظى القلب ، فقد كانا ملـكين ، وهما بهذا يستحقان الإكبار والتبجيل من كل الناس ، ولا سيما من أولئك الذين لا يعدّون من ذوى المحتد الـكريم مثلى ومثلك !

وبعد فنحن قسيسون ، لأنها ستعتبرك قسيساً ، وهى تضعنا فى صفّ

خدمها وحشمها اللازمين لراحتها ، الساهرين على سلامتها .

— سيّدى يخيّل إلىّ أنى لن أبقى فى باريس طويلا .

— حسنا ، ولكن لاحظ أننا فى حاجة إلى هؤلاء السادة إذا ما أردنا أن نشقّ طريقنا فى الحياة . فى خلقك شىء لا أستطيع أن أصفه لك أو هذا على الأقل ما يتراءى لى ، فلو أنك لم تصل إلى مركز مالى مرموق لاضطهدت ، وليس أمامك إلاّ هذه الطريقة ؛ فلا تخدع نفسك . فالناس لا يرون أنهم يدخلون السرور على نفسك إذا ما تحدثوا إليك ؛ والشقاء مصيرك فى بلد نظامه الاجتماعى على ما ترى إذا لم تنل إكبار الناس واحترامهم . ماذا يكون مصيرك فى بيزانسون لولا هذه النزوة التى بدرت من المركيز دى لامول ؟ ستدرك يوما غرابة ما أقدم عليه من أجلك ، وإذا لم تكن شيطاناً فستظلّ تذكر له ولأسرته هذا الجميل . كم خورىّ فقير أكثر منك علماً عاش سنوات طويلة فى باريس لا يتناول إلا خمسة وسبعين سنتيما من القداس ، وخمسين سنتيما من السربون ! . . . ثم تذكر ما قصصته عليك فى الشتاء الماضى عن السنوات الأولى التى قضاها الكردينال ديبوا ، ذلك الشرير . فهل يملى عليك غرورك أنك أكثر منه نبوغاً ؟

ولأضرب لك بنفسى مثلا ، فأنا رجل فطرت على التواضع والهدوء . كنت أعتقد أننى سأبقى فى المدرسة حتى يوافينى الأجل ، وكنت غرّا حين تعلقت بها . وتعلم أننى كنت على وشك أن أفصل من منصبى فيها حين قدّمت استقالتى ! فهل تعرف كم كانت ثروتى ؟ . . . كان رأس مالى

خمسمائة وعشرين فرنكا لا تزيد ، ولم يكن لى صديق ، وإنما كنت أعرف شخصين أو ثلاثة . لم أكن قد رأيت السيد دى لامول من قبل ، ومع ذلك فقد انتشلنى من هذه الوهدة . وحينما أشار إليهم إشارة رفيقة ، عينت فى خَوَرْنِيّة كلّ رعاياها أغنياء ، يترفعون عن ارتكاب الرذائل المقوتة ، وأصبحت أخجل من كثرة ما تدرّه علىّ من مال ، لأن دخلى أكثر من عملى الذى أقوم به .

لم أتحدث إليك هذا الحديث الطويل إلاّ لأعلمك الرزانة والحكمة . وأحبّ أن أقول لك كلمة أخرى : من سوء حظى أننى سريع الغضب ؛ ومن المحتمل أننا لن نتكلم سوياً بعد هذا .

لو ضقت ذرعاً بكبرياء المركيزة أو تهكم ابنها بك ، وأصبحت لا تطيق العيش معهم فأنصحك أن تكمل دراستك فى مدرسة تبعد عن پاريس ثلاثين فرسخاً إلى الشمال لا إلى الجنوب . فحضارة الشمال أرقى من حضارة الجنوب ، وهو أقل جوراً وظلماً . ثم قال بصوت منخفض : علىّ أن أعترف بأن مجاورة الصحف الپاريسية تدخل الرعب فى قلوب صغار الطغاة .

وإذا ظلت العلاقة بيننا على خير ما يرام ، ولم تحل لك الإقامة فى منزل المركيز فإنى أعرض عليك منصب نائبى ونقتسم مناصفة ماتدره علينا الخَوَرْنِيّة . فأخذ جوليان يشكره فقاطعه قائلا : إنّى مدين لك بهذا وبأكثر منه للعرض الكريم الذى عرضته علىّ فى بيزانسون . ولو أنى لم أكن أملك عشرين وخمسمائة من الفرنكات لأنقذتنى أنت بما عرضته على .

تخلّت عن الكاهن لهجته الجافة وأحسّ چوليان دموعاً تترقرق في عينيه على كره منه ؛ وودّ لو نهض ليحتضن صديقه ، ولم يتمكن من أن يمنع نفسه من أن يقول في لهجة تنطوى على الرجولة :

— كان أبى يكرهنى منذ الطفولة وهذا هو علّة شقائى ؛ ولن أشكو بعد الآن من المصادفات لأنى قد وجدت فيك أباً يا سيدى .

فارتبك الرجل وقال بلغة مدير المدرسة تلك العبارة التى أنقذته :

— هذا حسن ، هذا حسن ، ولكن عليك يابنىّ ألا تقول المصادفات وقل دائماً إنها العناية الإلهيّة .

وقفت العربة ورفع الحوذى مقرعة من النحاس ركبت على باب ضخم ، فكانا أمام قصر دى لامول . ولكيلا يشكّ المارة فى أن هذا القصر هو قصر دى لامول ، كتبت هذه العبارة على رخامة سوداء من فوق الباب : « قصر دى لامول » .

وكره چوليان هذا التكلّف وقال فى نفسه : إنّهم لشديدو الرعب من الثائرين ! يرون خلف كلّ حاجز عربةً تقلّ روبسپير ، ومع ذلك فهم يعلنون عن منازلهم ليعرفها الرعاع فيسلبوها إذا ما اشتعلت ثورة !

وأطلع چوليان الأب بيرار على أفكاره هذه فقال له :

— آه ! ستصبح يا بنى المسكين نائباً لى بعد قليل ، فما هذا الرأى البغيض الذى يدور بخلدك ؟ !

— أعتقد أنّ هذا رأى يسير .

أعجب چوليان بوقار البواب ونظافة الفناء تحت الشمس الساطعة الجميلة ، فقال لصديقه :

— يا لها من هندسة معمارية جميلة !

وكان القصر فى الواقع من تلك القصور ذات الواجهة المسطحة التى ترى فى حىّ سان چرمان ، بنيت زمن أن مات ڤولتير . ولم يتنافر الجمال وذوق العصر من قبل إطلاقا كما تنافرا فى بناء هذه القصور .

الفصل الثانى

مخالطة الناس

[إنها لذكريات عزيزة وإن كانت تدعو إلى السخرية: تلك التى تذكر الإنسان بأول صالون غشيه وهو فى الثامنة عشرة من عمره لا سند له ولا نصير ! ونظرة امرأة نحوى كانت تبعث الخجل فى نفسى ، وكلما أردت أن أعجب من حولى كثرت أخطائى وكانت أحكامى على الأشياء خاطئة ، فكنت أركن إلى الناس دون ما سبب أو أعد من ينظر إلى نظرة رزينة عدوا لى . لكنه على الرغم من حيائى الشديد وما جره على من آلام ومتاعب، فإننى عشت عيشة سعيدة، ليتها دامت !]

كانت

وقف جوليان فى وسط الفناء تبدو عليه علامات الدهشة والحيرة ، فقال له الأب پيرار :

— عليك إذن بالفطنة وتمسك بالبصيرة ، فإن آراء منكرة تدور فى ذهنك ، وأنت لا تزال طفلا ! أنسيت مبدأ هوراس الذى يدعو إلى عدم الانفعال ؟ وتذكر أن هذا العدد الكبير من الخدم والأتباع حينما يرون أنك ستقيم هنا سيحاولون جاهدين أن يسخروا منك ، وسينظرون إليك على أنك واحد منهم ، وإن كنت تشغل بالباطل مرتبة أعلى من مراتبهم . سيتظرفون معك ويبذلون لك النصح ويظهرون الرغبة فى إرشادك إلى سواء السبيل ، ولكنهم يخفون من وراء كل هذا الرغبة الحقة فى أن يقودوك إلى ارتكاب حماقة شديدة .

عض جوليان على شفتيه واستعاد هدوءه وحذره ثم قال :

— لن أمكنهم من هذا .

كانت الصالونات التى اجتازها هذان السيدان فى الدور الأول ، قبل أن يصلا إلى مكتب المركيز ، تبدو لك أيها القارىء قاتمة وإن كانت رائعة. ولو أنها عرضت عليك لتقطنها على حالتها الراهنة لرفضت ، فهى تبعث على التثاؤب والتفكير الحزين ، وإن زادت جوليان إعجاباً على إعجاب فأخذ يقول :

— كيف يمكن أن يكون المرء شقياً إذا أتيح له أن يقضى بعض أيام حياته فى مثل هذا المكان الجميل ! ؟

وأخيراً وصلا إلى أقبح غرفة فى هذه الشقة البديعة ، كان الضوء فيها ضئيلا ، وفيها رجل قصير صغير الجسم ، قوى النظرات ، يلبس شعراً مستعاراً أشقر . التفت الأب إلى جوليان وقدمه إلى المركيز دى لامول . فعانى جوليان مشقة كبيرة فى أن يتعرف عليه لأنه كان بادى الأدب فى ذلك اليوم . لم يكن ذلك السيد المتعجرف الذى رآه فى دير براى لاهو . وخيل إليه أن شعره المستعار اليوم أكثر منه غزارة من قبل . وقوت هذه الأحاسيس من نفسه فلم يستول عليه الخجل ولم يضطرب . وظن أول الأمر أن سليل صديق هنرى الثالث ذو هيئة تبعث على الرحمة والشفقة لشدة ضآلة جسمه وحركته الدائبة .

ولكنه لحظ بعد قليل ، أن المركيز قد أوتى من أدب الحديث ما لم يؤته رئيس أساقفة بيزانسون نفسه . ولم يدم اجتماعهما بالمركيز أكثر من

ثلاث دقائق ، خرجا بعدها فقال الأب پيرار لجوليان :

— لقد كنت تنظر إليه نظرة فاحصة كأنك سترسم له صورة . وأنا لست من أولئك المتشددين فيما يسمونه الأدب ، وستعرف بعد قليل من هذا الأدب أكثر مما أعرف أنا منه ، ولكنني لا أحب أن أخفى عليك أنّ نظراتك الجريئة لا توصف إلاّ بالقحة على ما أعتقد .

وركبا العربة مرة ثانية ، فإذا ما وصل الحوذىّ بهما إلى شارع كبير وقف ؛ وذهب الأب إلى مبنى به عدة صالونات ومعه چوليان الذى لحظ أن هذه الصالونات تكاد تكون خالية من الأثاث . ورأى ساعة مذهبة فخمة معلقة على جدار تمثل إنساناً عدّه چوليان متهتكا ؛ وبينما هو ينظر إلى ما حوله دخل عليهما رجل أنيق صبوح الوجه ، فحياه چوليان تحية خفيفة ، فابتسم الرجل ووضع يده فوق كتفه ففزع چوليان وارتدّ قليلا إلى الخلف ، واشتدّ به الغضب ، فضحك الكاهن پيرار ضحكا شديداً على الرغم من وقاره لأن هذا السيد لم يكن إلاّ حائكا .

وبينما هما يغادران الحائك ، قال الأب پيرار لچوليان :

— سأطلق سراحك يومين كاملين تتقدم بعدهما إلى السيدة المركيزة دى لامول . ولو كان غيرى موكلا بك لحافظ عليك كما يحافظ على عذراء وخاصة فى هذه الأيام الأولى التى تقضيها فى المدينة التى تعد بمثابة بابيلون الجديدة . تنقّل فيها كما تشاء وسأكفى نفسى مؤونة التفكير فيك ؛ وبعد غد صباحا ، سيحمل إليك هذا الحائك ثوبين ، وعليك أن تعطى العامل الذى يقيسهما لك خمسة فرنكات . وأوصيك ألا تسمع هؤلاء الباريسيين

صوتك ، لأنك إن نطقت بكلمة وجدوا سبيلا إلى السخرية منك ؛ وهذه هى عبقريتهم . ثم تعال إلىّ فى ظهر بعد غد .... إذهب وتنقّل فى باريس كما تشاء ..... لقد نسيت .... اشتر أحذية وقمصاناً وقبعة من المتاجر التى بهذه الرقعة .

أخذ چوليان يتأمل الخط الذى كتبت به العناوين ، فقال له الأب :

— إنه خط المركيز ؛ وهو رجل نشيط يفكر فى كل شىء ويحبّ أن يعمل بنفسه أكثر مما يأمر الناس بعمل ما يريد . وسيدخلك فى خدمته لتوفر عليه مثل هذه الأعمال التافهة . فهل أنت على جانب كبير من الذكاء ، يمكنك من تنفيذ كل ما يأمر به هـذا الرجل النشيط ؟ لن يقول لك إلاّ بضع كلمات وعليك أنت أن تفهم ما يرمى إليه . وسيرينا المستقبل ما إذا كنت جديراً بهذا ، فخذ حذرك !

دخل چوليان على العمال الذين أرسله إليهم الأب پيرار دون أن يتكلم ؛ ولحظ أنه استقبل فى حفاوة وتبجيل حتى أنّ الحذّاء وهو يدوّن اسمه فى سجله كتب : السيّد چوليان دى سورل .

ثم ذهب إلى مقبرة «پيرلا شزّ» فتطوع رجل جمّ الأدب ، متطرف فى آرائه وعرض عليه أن يدلّه على قبر المارشال «نى» الذى حالت السياسة بينه وبين شرف كتابة عبارة تدلّ المرء على قبره . ولـكنه حين فارق هذا الرجل — الذى كانت الدموع تترقرق فى عينيه وهو يودعه ، وأبى إلاّ أن يحتضن چوليان — تفقّد ساعته فلم يجدها . وأفادته هذه التجربة كثيراً ، حتى أنه وفى بوعده فذهب إلى الأب پيرار فى ظهر اليوم الموعود ونظر إليه

الأب طويلا ثم قال له فى لهجة قاسية :

— يخيل إلىّ أنك ستكون غرّا أبله .

وقد كانت هيئته تدل على أنه شاب فى مقتبل العمر يلبس ثياب الحداد . كان فى الواقع جميلا أنيقاً لكنه لا يزال يحرك كتفيه فى سيره على عادة أهل الريف الذين يعدون هذه الحركة أناقة وعظمة . وهذا الأب الطيب كان بدوره ريفياً كذلك ، فلم ينتبه إلى هذه الحركة المعيبة . ولما وقع نظر المركيز على چوليان ، كان له فى أناقته رأى يخالف رأى الأب پيرار ؛ فسأل الأب قائلا :

— أتمانع فى أن يتعلم السيد سورل بعض دروس فى الرقص ؟

فذهل الأب ذهولا شديداً ؛ ثم أجاب المركيز بعد برهة :

— لا ، لأنه ليس قسيساً .

صعد المركيز سلمّاً جانبياً ليدلّ بطلنا بنفسه على المسكن الذى أعدّ له ، وكان يصعد كل درجتين فى وثبة واحدة حتى وصل إلى سطح جميل مطلّ على حديقة القصر . ثم سأله عن عدد القمصان التى اشتراها . واستولى الحياء على چوليان حين رأى هـذا السيد الخطير يشغل نفسه بمثل هذه التفاصيل التافهة وقال له :

— لقد اشتريت قميصين .

فقال المركيز فى جدّ وفى لهجة تنطوى على الإيجاز والأمر ، جعلت چوليان يفكر فى أمره :

— حسنا ، حسنا ! اشتر اثنين وعشرين قميصا أخرى . وهاك مقدار الربع الأول من مرتبك .

ثم نزلا من السطح ، فنادى المركيز رجلا مسنا :

— آرسين ، أنت الموكل بخدمة السيّد سورل .

وما مضت دقائق حتى وجد جوليان نفسه فى مكتبة فخمة ، فأحسّ بأنه فى أجمل ساعات حياته . وأراد أن يخفى مشاعره ، فذهب ليختفى فى جانب مظلم من جوانب المكتبة ، وتطلع فى شغف كبير إلى ظهور الكتب البراقة وهو يقول فى نفسه : فى استطاعتى أن أقرأ كل هذه الكتب ، فكيف إذن لا ترضينى الإقامة هنا ؟ لو أن السيد دى رينال عمل لى جزءاً من مائة مما عمله المركيز لعدّ نفسه مسلوب الشرف إلى الأبد .

وبدأ عمله فى الخطابات المطلوبة منه ، حتى إذا ما انتهى أحسّ جرأة فى نفسه فاقترب من الكتب . وكم كان سروره عظيما حين عثر على مؤلفات ڤولتير . أسرع ففتح باب المكتبة حتى يأمن من أن يفاجأ وهو مكبّ على القراءة ؛ ثم أخذ يتصفح فى سرور كبير هذه الكتب الثمانين كتاباً بعد كتاب . وكانت كلها مجلدة تجليداً فاخراً عند خير عمال لندن ، فزاد ذلك من سروره وسعادته .

ودخل عليه المركيز بعد ذلك بساعة ، وتصفح الخطابات التى كتبها واشدّ ماعجب حين رآه قد كتب Cela [1] بلامين لا بلام واحدة . فقال فى نفسه : هل خدعنى الكاهن پيرار حين تحدّث إلىّ عن علمه الغزير ؟ وأصيب بقنوط إلاّ أنه قال فى حنان :

— ألست مستوثقاً من قواعد الإملاء ؟

(١) كان هنرى بيل قد أخطأ فى كتابة هذه الكلمة أول يوم عمل فيه بمكاتب قريبه بيير دارو راجع آخر صفحة « ج » من مقدمة الجزء الأول « المعرب » .

فأجابه جوليان دون تفكير فيما وقع فيه من خطأ ، وكان متأثراً برقته التي ذكرته لهجة السيد دى رينال القاسية الخشنة :

— الحقّ أنى ضعيف فى الإملاء .

فقال المركيز فى نفسه : إنها تجربة فاشلة تلك التى دفعنى إليها الكاهن ، ولكنى كنت فى أشدّ الحاجة إلى رجل أمين أثق به ! ثم قال لجوليان :

— Cela تكتب بلام واحدة ، وإذا ما انتهيت من كتابة الخطابات فتصفح المعجم لتبحث عن الكلمات التى تشكّ فى هجائها . ثم استدعاه المركيز فى الساعة السادسة ، ولما مثّل بين يديه نظر إلى حذائه فى ألم شديد وقال له : لقد ارتكبت خطأ لا أغتفره لنفسى لأنى لم أقل لك إنه ينبغى أن ترتدى ثياباً أنيقة فى منتصف الساعة السادسة من مساء كل يوم .

فنظر جوليان إليه دون أن يدرك ما يرمى إليه ، فقال المركيز :

— أعنى أنه يجب أن ترتدى الجوارب . وأرسين سيذكرك بهذا . أما اليوم فإن لك عذراً .

وحينما انتهى المركيز من هذه العبارة ، تقدم جوليان إلى صالون مذهب رائع . وتذكر جوليان أن السيد دى رينال كان يسرع فى خطاه فى مثل هذه المناسبات ليكون هو أول الداخلين . فحمله غرور مولاه السابق على أن يسير فى أثر المركيز على مقربة شديدة منه ، فسبّب هذا للمركيز ألماً شديداً ، لأنه كان مريضاً بالنقرس فقال فى نفسه :

— آه ! إنه فوق ذلك كله أبله ! ثم قدم جوليان إلى سيدة ممشوقة

القدّ ، كثيرة التعالى ، وما كانت سوى المركيزة . رآها چوليان فوجدها تكاد تشبه مدام دى موچيرون عقيلة وكيل والى المقاطعة التى تقع فيها ڤريير ، فهيئتها تنطوى على القحة يوم رآها فى عشاء سان شارل . وأذهلته روعة الصالون وأبهته فلم ينصت إلى ما قاله المركيز دى لامول ؛ وتنازلت المركيزة ونظرت إليه نظرة خاطفة ، وكان بعض الرجال يجلسون معها . ولشدّ مافرح چوليان حين نظر فوجد من بينهم رئيس أساقفة « آجد » الذى تفضّل فتحدث إليه منذ بضعة شهور قبيل الحفلة التى أقيمت فى براى لاهو . وممّا لا شك فيه أنّ هذا القس الشاب قد اضطرب قليلا حين رأى أن نظراته التى تحمل الحنان والحياء لا تفارق وجهه ؛ على أنه لم يعبأ كثيراً بالتعرف على هذا الريفى الذى يطيل النظر إليه .

رأى چوليان فى وجوه المجتمعين فى الصالون حين تصفحها معانى من الحزن والتزمت ، فهم يتحدثون فى باريس بصوت منخفض ولا يبالغون فى توافه الأشياء .

وفى منتصف الساعة السابعة ، دخل شاب له شارب شاحب اللون ممشوق القامة ، صغير الرأس إلى حدّ بعيد ، فقبل يد المركيزة التى قالت له :

— إنك تتأخر دائماً عن الميعاد .

وأدرك چوليان أن هذا الشاب هو الكونت دى لامول ؛ وقد أحبه بطلنا لأول نظرة . وقال فى نفسه : أهذا هو الرجل الذى ستطردنى سخريته اللاذعة من هذا المنزل ؟

ثم نظر طويلا إلى الكونت نور بير ، فرآه قد لبس حذاء ركوب

ومهمازا ؛ فقال فى نفسه : أما أنا فيجب أن ألبس حذاء لأننى أقلّ شأناً منهم كما توحى بذلك الظواهر . ثم انتقل الجميع إلى المائدة . وسمع چوليان المركيزة وهى تنطق بعبارة شديدة ، وقد رفعت بها صوتها قليلا . وفى نفس الوقت رأى فتاة جدّ شقراء ، على جانب كبير من الجمال تأتى فتجلس تجاهه ، ولم يعجب بها چوليان بادىء الأمر ، لكنّه لمّا أمعن النظر فيها ، رأى أن لها عينين لم ير مثلهما من قبل وإن كانتا تدلان على نفس جبلت على فتور شديد . ثم رآهما تنمّان عن الملل ، وتذكر أن مدامّ دى رينال كانت لها عيون ساحرة يثنى عليها الناس ثناء كثيراً ، لكنها لاتشبه عيون هذه الشقراء فى شىء . وكان لا يعرف أن مايراه من نظرات لامعة فى الفينة بعد الفينة ، إنما يدّل على حيوية النفس وقوتها ؛ وقد سمع بعض الحاضرين ينادى هذه الفتاة باسم ماتيلد . وحينما كانت تلمع نظرات مدام دى رينال ، فما ذلك إلا استجابة إلى عواطفها القوية أو اشمئزازاً من قصة كريهة تقص عليها وتنطوى على الشر . ولما انتهت الوجبة ، وفّق چوليان إلى ما يصف به جمال عيون الآنسة دى لامول فقال : إنهما براقتان متلألئتان ، وفيما عدا هذا فهى تشبه أمها شبهاً كبيراً ، تلك المركيزة التى أخذ چوليان ينفر منها قليلا قليلا حتى لم يعد ينظر إليها . أما الكونت نوربير فقد كسب محبته حتى رأى چوليان فيه الكمال بكل ألوانه وأعجب به اعجاباً كبيراً ، ولم يفكر فى أن يغار منه أو يكرهه ما دام أكثر منه مالا وأشرف محتدا . وأمّا المركيز فقد كان يستولى عليه السأم لو صح ظن چوليان .

كان الخدم يقدمون اللون الثانى من الطعام فقال المركيز لابنه :

— نور بير ، أوصيك خيرا بالسيّد چوليان سورل الذى عينته لخدمتى ، وكم أود أن أجعل منه رجلا لو صحّ هذا . ثم قال لأحد جيرانه :

— إنه سكرتيرى غير أنه يكتب Cela بلامين !

ونظر إليه الحاضرون فحياهم بخفض رأسه بحركة رأى نور بير أنه بالغ فيها ؛ ولكنهم سروا بنظراته على كل حال .

ولا شك أن المركيز قد حدّثهم عن ثقافته لأن أحد المدعوّين سأله وتحدّث إليه عن هوراس . فقال چوليان فى نفسه : لقد نلت رضا رئيس أساقفة بيزانسون حين تحدثت إليه عن هوراس . ويخيّل إلىّ أن هؤلاء الناس لا يعرفون غيره من الأدباء . ومنذ هذه اللحظة أصبح مسيطراً على نفسه ، وتخفف من عبء أولئك الذين يراهم لأول مرة . وقد خيل إليه أنّ الآنسة دى لامول لن تكون يوما ما امرأة يفتن بها . أما الرجال فقد ساء بهم ظنه منذ أن لقى منهم فى المدرسة شراً وعنتا ، وأصبح لا يخشاهم فى سهولة ويسر . ولو أن غرفة الطعام كانت أقلّ روعة وزينة مما كانت عليه ، لاستمتع بهدوئه وسيطر تماما على نفسه . كان فى الغرفة مرآتان كبيرتان ارتفاع كل منهما ثمانى أقدام ، فكان چوليان ينظر إلى محدثه خلالهما وهو يتكلم عن هوراس بجمل قصيرة على غير عادة أهل الريف ، وعيناه الجميلتان البراقتان يتجلى فيهما حياء وسعادة ، ويزداد بريقهما كلما أجاب أجابة حسنة حتى سر منه الحاضرون. وألقى هذا اللون من الامتحان بعض اللذة خلال هذا العشاء الوقور . وقد اشار المركيز إلى محدث چوليان

أن يشتدّ عليه فى الأسئلة ، قائلا فى نفسه : أيعقل أن يعرف هذا الشاب شيئاً !

فكان يجيب عن هذه الأسئلة ، وسرعان ما فارقه حياؤه ، لا ليظهر ظرفاً لأن هذا لا يتيسر لمن يجهل لغة الباريسيين ، بل أدلى بآراء جديدة وإن لم تقدم لمستمعيها فى طرافة وظرف ، لكنها كانت برهاناً قويّاً على أنه يجيد اللاتينية .

كان محدث چوليان عضواً فى مجمع الآثار ، ومن غريب المصادفات أنه يعرف اللاتينية . فلما رأى الشاب يجيد الآداب القديمة بحيث لا يخشى عليه أن يخجل أمام الناس اشتدّ عليه فى الأسئلة والنقاش ، واحتدمت المعركة ، ونسى چوليان روعة الغرفة وجمال أثاثها ، فأدلى عن الشعراء اللاتينيين بآراء لم يذكر محدثه أنه قرأها من قبل . فأثنى الرجل على هذا السكرتير الشاب ثناء مستطابا . وأخذ الحاضرون — لحسن الحظ — يناقشون فى ثروة هوراس ، وهل هو غنى أو فقير ، وهل كان ظريفاً محباً للذاته مقبلا عليها ، يقرض الشعر للذته الشخصية مثل شاپل صديق موليير ومثل لافونتن ؟ أوكان شاعراً بائساً ينال قصب السبق بما يقرضه من شعر يوم عيد ميلاد الملك ، مثله فى ذلك مثل سوزى الذى اتهم اللورد بيرون ؟ وعرضوا بعد ذلك إلى حالة المجتمع فى حكم أوجست وجورج الرابع ، أثناء هاتين الفترتين اللتين كانت الأرستقراطية فيهما فى أوج قوتها ، ثم عرضوا إلى ضعفها فى روما حيث انتزع منها ميسين سلطانها ، مع أنه لم يكن إلا فارساً عادياً غير ذى بال . أما فى انجلترا ، فقد جعلت الأرستقراطية من الملك

جورج الرابع شخصاً كرئيس مشيخة البندقية . وأثار هذا النقاش المركيز وانتزعه من الخمول الذى كان سابحاً فيه فى بدء العشاء من شدة السّأم .

كان چوليان لا يدرى شيئاً عن هذه الأسماء الحديثة مثل سوزى ولورد بيرون وجورج الرابع ، فقد سمعها هنا لأول مرة فى حياته . ولكن لم يفت على الحاضرين أنّ معرفته بالأحداث القديمة التى تتصل بروما و بالمؤلفين القدماء أمثال هوراس ومارسيال وتاسيت ومن إليهم ، معرفة صحيحة عميقة لا يجارى فيها . وأخذ چوليان يعرض كثيراً من الآراء التى تعلمها من رئيس أساقفة بيزانسون ليلة تحدثا معاً ؛ وكان لهذه الآراء قيمتها عند السامعين .

ثم ملّ الحاضرون الحديث عن الشعراء ، وتفضلت المركيزة فنظرت إلى چوليان لأنها فطرت على الإعجاب بكل ما يسرّ زوجها ، واتخذت هذا المبدأ قانوناً تسير عليه فى حياتها . وقال لها عضو المجمع الذى كان يجلس على مقربة منها : يخيّل إلىّ أنّ هذا الخورىّ شاب واسع الثقافة على الرغم من أن فى طرقه خرقاً وغفلة . وقد سمع چوليان بعض ما قاله هذا المجمعى ، وكانت الجمل والعبارات التى تقال على هذا النحو تعجب المركيزة ؛ حتى اقتبست العبارة التى سمعتها عن چوليان لتتمثل بها فيما بعد ، ثم دعته إلى تناول العشاء اعترافاً بفضله عليها قائلة :

— إنه يدخل السرور على نفس المركيز دى لامول .

الفصل الثالث

الخطوات الأولى

[هذا الوادى الشاسع الذى تشع فى أرجائه أضواء متلألئة كثيرة ويزدحم فيه النـاس يعشى بصرى : لا يعرفنى واحد من هؤلاء ، وهم جميعاً خير منى . إن عقلى ليضل !]

يونجى دلآف رينا

جلس چوليان فى المـكتبة فى ساعة مبكرة من صباح اليوم التالى يكتب خطابات ، فدخلت عليه الآنسة ماتيلد من باب جانبى صغير ، أخفته ظهور الـكتب عن أن تراه العيون . كان هو معجباً بهذا الاختراع حين رأى باباً ينفذ فى الجدار ، وكانت هى فى حيرة من أمرها لأنها لم تـكن تتوقع أن تراه فى المـكتبة . فتضايقت حين وقع بصرها عليه . رآها وقد لفّت شعرها تريد تجعيده فـكانت قاسية الهيئة متعالية ، ليس فيها شىء من الأنوثة . أمّا دخولها المـكتبة فـكان لأنها اعتادت أن تسرق من مكتبة أبيها كتباً دون أن ينتبه أحد إلى ما تفعل ؛ وقد حال وجود چوليان بينها و بين ما تريد . فغضبت لاسيما وقد حضرت لتأخذ المجلّد الثانى من «أميرة بابليون» تأليف فولتير ، وهو ضرب من الاطلاع يعتبر تتمة محترمة لتعليم ملـكىّ متطرف ، وروح دينية خالصة شبّت عليها فى معاهد القلب المقدس ! وهذه الفتاة البائسة ، وهى فى التاسعة عشرة من عمرها ، لا تزال

في حاجة إلى ما يستهوى نفسها لتقرأ قصة .

وفى الساعة الثالثة ، ذهب الكونت نور بير إلى المكتبة يدرس صحيفة يومية ليستطيع التحدث فى السياسة مساء ؛ وسُرّ بلقاء چوليان وكان قد أنس بوجوده . كان جمّ الأدب معه حتى عرض عليه أن يصحبه فى نزهة على ظهر جواد قائلا :

— إن أبى يعطينا إجازة حتى وقت العشاء .

فهم چوليان نون الجماعة فى قوله يعطينا ، وسرّ من هذه اللفتة الكريمة وقال له :

— يا إلهى ! لو أن سيّدى الكونت طلب منى أن أقطع شجرة يبلغ ارتفاعها ثمانين قدماً ، ثم أنحتها وأقطعها ألواحاً لجرؤت على أن أقول : إننى سأقوم بهذا العمل خير قيام ، أما أن أمتطى جواداً فإنى لم أفعل ذلك من قبل أكثر من ست مرات فى حياتى .

— ستكون هذه هى المرة السابعة .

والواقع أن چوليان تذكر دخول ملك . . . ڤرييد ، وظنّ أنه يجيد ركوب الجياد . ولكنه عند عودته من غابة بولونيا سقط عن ظهر جواده ، فتلطخ بالأوحال فى وسط شارع باك حين أراد أن يتفادى عربة من العربات . ومن حسن الحظ أن قد اشتروا له حلتين . وأراد المركيز أن يتحدث إليه وقت العشاء فسأله عن نزهته ؛ فأسرع نور بير فى الإجابة بعبارات عامة ، لكنّ چوليان قال :

— إنّ سيدى الكونت لكبير الطيبة معى إلى أبعد حد ، وإنى

لأشعر بهذا وأقدره حقّ قدره وأشكره عليه كثيراً ؛ فقد تفضل فأعطانى خير الجياد وأجملها وأسلسها قياداً ، ولكنه نسى أن يربطنى على ظهر الجواد فسقطت وسط ذلك الشارع الطويل القريب من الجسر .

وحاولت الآنسة ماتيلد أن تخفى ضحكة عالية عند ما سمعت حديثه ، وسرعان ما دفعها فضولها إلى أن تطلب منه التفاصيل . فأجابها چوليان إجابة فيها كثير من البساطة ، ولا تخلو من ظرف غير مقصود ، فقال المركيز لعضو المجمع :

— إنى أتفاءل خيراً لهذا القسّ الشاب . ياله من ريفى ساذج فى مثل هذه الأحوال ! لم أر له نظيراً ولن أرى له مثيلا ! والأدهى من ذلك أنه يقصّ علينا ما أصابه من سوء على مسمع من السيدات !

وسرّ المدعوون بما قصه عليهم چوليان سروراً كبيراً ، حتى أن الآنسة ماتيلد سألت أخاها فى نهاية العشاء عن هذا الحادث المؤلم . وطرق الضيفان موضوعاً آخر أخذوا يتحدثون فيه ، على حين ظلت أسئلتها وقتاً طويلا ، وچوليان ينظر إلى عينيها ويجيب عن أسئلتها مباشرة دون أن تسأله . وكان ثلاثتهم يضحكون كما يفعل شبان ثلاثة من سكان قرية فى داخل غابة .

وفى اليوم التالى ، ذهب چوليان يتلقى درسين فى علم اللاهوت ثم عاد ليكتب عشرين خطاباً ، رأى فى المكتبة على مقربة منه شاباً أنيقاً لكنّ هيئته تدلّ على الحقارة ووجهه ينمّ عن الحسد .

دخل المركيز وخاطب هذا الشاب فى لهجة شديدة :

— ماذا تفعل هنا يا سيّد تانبو ؟

فابتسم الشاب فى حقارة قائلا :

— كنت أظن . . . .

— لا يا سـيدى ، أنت لا تظن شيئاً . لقد كانت تجربة إلاّ أنها فاشلة .

فنهض تانبو غاضباً واختفى . وتانبو هذا حفيد عضو المجمع صديق مدام دى لامول ، وكان مكلفاً بكتابة الخطابات . وقد استطاع عضو المجمع أن يجعله سكرتيراً للمركيز . كان تانبو يعمل فى غرفة بعيدة ، ولما علم بما يلقاه چوليان من عطف ومودة ، أراد أن يشاطره هذه العواطف الكريمة فأتى فى الصباح بأدوات الكتابة وجلس فى المكتبة .

وفى الساعة الرابعة جرؤ چوليان على أن يتقدم إلى الكونت نوربير بعد أن تردّد طويلا ، وكان الكونت الشاب على وشك أن يمتطى جواده ، فلما ظهر چوليان اضطرب لأنه جم الأدب وقال له :

— يخيل إلىّ أنك ستذهب قريباً لترويض الخيل ، وبعد بضعة أسابيع سأكون سعيداً جدّا حين تستطيع أن تشاركنى نزهاتى .

فقال چوليان فى لهجة جادّة :

— أردت أن أتشرّف بشكرك على ما أظهرته لى من عطف ورعاية ، وإنى لأقدر هذا العطف حقّ قدره ، ثم إنى أودّ أن أمتطى جوادك اليوم إذا لم يكن قد جرح أمس من سوء تصرفى ، أو إذا لم يكن سيركبه الآن غيرى .

— لك ما تريد يا عزيزى سورل ولكن أنت المسئول عمّا يحدث لك . وهب أننى عارضت فى اصطحابك كما يملى علىّ الحذر والفطنة ، فلا شك أنى سأضيع وقتى سدى والساعة الآن الرابعة .

ولما امتطى چوليان الجواد سأل الكونت :

— ماذا يجب أن أفعل حتى لا أقع ؟

فضحك الشاب ضحكا عالياً وقال :

— أشياء كثيرة كأن يكون جسمك دائماً إلى الخلف .

وكانا قد وصلا إلى ميدان لويس السادس عشر فأخذ چوليان يعدو بجواده فقال نوربير :

— آه ! يالك من شاب جرىء ! إنّ الطريق مزدحم بعربات يسوقها الحمقى ! ولو أنك سقطت لمرّت على جسمك هذه العجلات دون أن يعنوا كثيراً بشدّ أعنّة الجياد ليوقفوها من أجلك ؛ وذلك حتى لا يجرحوا أفواهها .

وكم من مرة رأى نوربير چوليان وهو يكاد يسقط عن ظهر الجواد ، ولكنّ نزهتهما انتهت مع هذا فى سلام ! ثم عادا إلى القصر فقال الكونت لأخته :

— أقدّم إليك شاباً جريئاً غير هيّاب ولا يخاف المخاطر !

وتحدث إلى والده أثناء العشاء ، وكان عند طرف المائدة وأبوه عند الطرف الآخر ، فأثنى على جرأة چوليان ؛ وأخبره بأن الجرأة هى خير ما يمدح فيه حين يمتطى جواداً .

وكان الكونت الشاب قد سمع فى الصباح سوّاس الخيل يتحدثون عن سقوط چوليان فى الشارع ويتناولونه بالسخرية اللاذعة .

وعلى الرغم من كل هذا العطف وهذه الرقة ، فسرعان ما شعر چوليان بأنه غريب عن هذه الأسرة ، لأن عاداتهم غريبة عليه لا علم له بها من قبل ، ولأن أخطاءه مصدر سرور الخدم .

أما الأب پيرار فقد سافر للاستشفاء قائلا فى نفسه : إذا كان چوليان شخصاً ضعيفاً فليهلك ؛ أما إذا كان قويّا شجاعاً فلن يحتاج إلى من يعتمد عليه وسينجو من كل ما يصيبه .

الفصل الرابع

قصر دى لامول

[ماذا يعمل هنا ؟ هل تعجبه الإقامة ؟ وهل يفكر في أن الإقامة هنا سترضيه ؟]

رونسار

إن بدا كلّ شيء غريباً على چوليان فى هذا الصالون الفخم ، صالون قصر دى لا مول ، فقد كان هـذا الشاب الشاحب المتشح بالسواد يبدو بدوره غريباً كذلك لأولئك الذين كانوا يتفضلون فينظرون إليه . واقترحت مدام دى لامول على زوجها أن يكلفه عملا خارج القصر فى الأيام التى يدعون فيها شخصيات كبيرة لتناول الطعام على مائدتهم .

فقال لها زوجها :

— فى نيتى أن أطبّق هذه التجربة حتى النهاية ، لأن الأب پيرار يزعم أننا مخطئون حين نعمد إلى جرح كبرياء أولئك الذين يعملون عندنا . والمرء لا يعتمد إلاّ على من يستطيع المقاومة . . . ولا عيب فى چوليان إلا وجهه الغريب على من يترددون علينا ، أمّا ماعدا هذا فهو أصمّ أبكم .

وكان چوليان قد تحدث إلى نفسه قائلا : لـكى أعرف هذه الوجوه التى تتردّد على الصالون ، يجب أن أكتب أسماءهم وكلمة عن أخلاق كل واحد منهم .

ثم وضع فى رأس القائمة أسماء خمسة أو ستة من أصدقاء المنزل الذين

يتملقون چوليان و يتقربون إليه فى كل فرصة ، مؤمنين بأنه مقرّب إلى المركيز إرضاء لإحدى نزواته . إنهم أناس فطروا على المذلة والهوان ؛ ولكن يجب أن نعترف ، إنصافاً لهذه الطبقة من الرجال التى نراها فى صالونات الأرستقراطيين اليوم ، أنها لا تقبل الذلة والهوان من جميع الناس . فمنهم من يقبل الإهانة من المركيز ولكنه يثور إذا سمع كلة قاسية من مدام دى لامول .

وخلق المركيز والمركيزة ينطوى على كبر شديد وسأم مميت ، لقد اعتادا أن يتخاصا من سأمهما بما يوجهان إلى الناس من إهانة وسبّ ، فأصبح لا يبقى عليهما إلاّ أخلص الأصدقاء . وفيما عدا الأيام العصيبة واللحظات التى يستولى عليهما فيها الملل — وما أقل ذلك — كانا يتصفان دائماً بأدب جمّ . لو أن هؤلاء الخمسة أو الستة من الرجال غادروا قصر دى لامول ، لشعرت المركيزة بوحدة قاتلة . والوحدة فى نظر سيدات هذه الطبقة مخيفة مؤلمة ، لأنها علامة مقت وغضب ، لذلك حرصت على بقاء هؤلاء الذين كانوا يظهرون لچوليان صداقة كبيرة وعطفاً أبويّاً .

وكان المركيز مهذّباً مع امرأته إلى أبعد الحدود ؛ دائم العناية بصالونه ، حريصاً على أن يؤمه الكثير من الناس . وكان يرى أن زملاءه أعضاء المجلس الأعلى ليسوا عريقين فى الأرستقراطية ليترددوا عليه كأصدقاء ، وليسوا مسلّين ليدخلوا صالونه كتابعين .

ولم يكتشف چوليان هذا السرّ إلا بعد وقت طويل من إقامته فى القصر . فالسياسة الموجّهة التى تتحدث بها الطبقات البرچوازية دائماً

لا تعرض لها الطبقات الأرستقراطية إلا فى الأوقات العصيبة .

وظاهرة الرغبة فى أن يسرى الإنسان عن نفسه فى هذا القرن الذى استولى عليه الملل تتجلّى حتى فى أيام الولائم التى تقام فى القصر ، إذ ما يكاد المركيز يغادر الصالون حتى يفر المدعوون فراراً . ويستطيع الإنسان أن يتحدّث فى كل شىء ما لم يسخر من الله أو من القسس أو من الملك أو من ذوى الشأن ، أو من الفنانين الذين يحميهم البلاط ، أو من كل ماهو ثابت مقرر . ويستطيع كذلك أن يتحدث فى كل شىء : يمدح بيرانجيه أو صحف المعارضة ، ما لم يذكر فضل ڤولتير وروسو وأضرابهما ممن يشيدون بحرية الرأى ، وما لم يخض على الأخصّ فى أمور سياسية .

وأولئك الذين يبلغ دخلهم مائة ألف إيكو ، أو يحليهم الوسام الأزرق ، عاجزون عن محاربة القواعد التى تسير عليها هذه الصالونات . وكل رأى فيه شىء من القوة يوصف بأنه رأى وقح . كان الملل يقرأ فى وجوه جميع من يغشون صالون المركيز على الرغم من لهجتهم الظريفة وأدبهم الجم ، ورغبتهم الأكيدة فى أن يكونوا موضع إعجاب الحاضرين . أما الشبّان الذين كانوا يزورون دى لامول ، أداء لواجب يفرض عليهم ، فإنهم يخافون خوفاً شديداً من أن يفضحهم رأى يدلون به ، أو قراءة حرّمت عليهم ، فيلزمون الصمت بعد أن ينطقوا بعبارات طريفة عن روسينى وحالة الجو .

ولاحظ جوليان أن الحديث يظلّ قوياً حين يتولاه اثنان بلقب ڤيكونت ، وخمسة من البارونات عرفهم المركيز دى لامول أثناء هجرته . وكان كل واحد من هؤلاء السادة يبلغ دخله ستة آلاف أو ثمانية آلاف

من الفرنكات ؛ يتحزب أربعة منهم لجريدة « لا كوتدين » ويتحزب الثلاثة الآخرون لجريدة « جازت دى فرانس » . وكان أحدهم يقص كل يوم قصصاً تقابل بالاستحسان ، وقد لاحظ چوليان أنه يتحلى بخمسة أوسمة ، أما الآخرون فليس لكل منهم عادةً إلا ثلاثة أوسمة فقط .

ويمتاز قصر المركيز دى لامول بشىء آخر : ففى ردهته خدم عليهم ملابس فاخرة ، يقومون على راحة المدعوّين ويقدّمون لهم المثلجات أو الشاى فى كل ربع ساعة . وفى منتصف الليل يقدّم لهم طعام ونبيذ وشمبانيا . وكان هذا هو السبب الذى يحمل چوليان على البقاء حتى نهاية السهرة . وفيما عدا ذلك لم يكن يستطيع أن يدرك كيف ينصت الإنسان فى جدّ ووقار إلى تلك الأحاديث التى تدور فى هذا الصالون الذى زين أفخر زينة . وكان ينظر فى بعض الأحيان إلى المتحدثين ليرى ما إذا كانوا يسخرون هم أنفسهم مما يقولون . وكثيراً ما كان يقول فى نفسه : إن السيد دى ميستر الذى حفظ كلامه عن ظهر قلب قال كلاماً خيراً من هذا مائة مرة ، ومع ذلك فهو يبدو لى مملّا .

لم يكن چوليان وحده هو الذى يشعر بوطأة هذا الاختناق الأدبى . لكن غيره كانوا يتناولون مثلجات كثيرة تخفف عنهم ما هم فيه ؛ وآخرون يمكثون ليفاخروا بأنهم قضوا السهرة فى قصر دى لامول حيث حدّثوا بأن روسيا ....

وعلم چوليان من أحد المتملقين أن مدام دى لامول كافأت البارون لى برجونيون منذ ستة أشهر على مواظبته التامة طوال عشرين عاماً ،

قعيّن حاكما بعد أن كان حاكما بالنيابة من عهد إعادة الملكية . فزاد هذا الحادث الكبير من همة هؤلاء السادة ومن نشاطهم . وقد كانوا من قبل يغضبون لأقل شيء ، فأصبحوا الآن لا يغضبون من شيء إطلاقا . وكان المترددون على آل دى لامول يعاملون بالحسنى ، لكن حدث أن استمع مرتين أو ثلاث مرات إلى حديث دار على المائدة بين المركيز وزوجه ؛ حديث قصير موجز لكنه يجرح الذين كانوا على مقربة منهما ؛ لأن هؤلاء الأشراف يخفون احتقارهم للذين هم من غير سلالة من اصطحبوا الملوك . وقد لحظ جوليان أن كلمة صليبية هى الكلمة الوحيدة التى تطبع على وجوههم علامة الجد العميق الذى يخالطه الاحترام . أما التجلة العادية فكان فيها شيء من الملاطفة والخفة .

وكان جوليان لا يهتم إلاّ بالمركيز دى لامول على الرغم من هذا الترف الذى يعيش فيه وهذا السأم الذى يلازمه ؛ وكم سرّ حين سمعه يوماً يحتج على ما نسب إليه من ترقية لى بورجونيون ، وكانت هذه لفتة منه لصالح المركيزة ، وعرف جوليان الحقيقة من الأب پيرار :

فبينما كان يعمل هو والكاهن پيرار ذات صباح فى المكتبة مكبيّن على دراسة القضية العتيقة : قضية فريلير ، سأله جوليان بغتة قائلا :

— هل العشاء يا سيّدى مع المركيزة فى كل ليلة واجب من واجباتى أو هو عطف علىّ منهم ؟ فأجابه پيرار كأنه صعق مما سمع :

— إنه شرف عظيم ! إنّ عضو المجمع السيد . ن . . الذى يتملقها منذ خمسة عشر عاماً لم يستطع أن ينال مثل هذا الشرف لحفيده السيد تانبو .

— أنا أعدّ هذا العشاء يا سيدى أشقّ شىء علىّ فى عملى الحاضر . كنت فى المدرسة لا ألقى ما ألقاه الآن من الملل أثناء هذه الوجبات . وإنى لأرى الكل يتثاءب حتى الآنسة دى لامول التى اعتادت رؤية الأصدقاء المتردّدين على المنزل . وأنا أخشى أن يغلبنى النعاس . فرفقاً بى يا سيدى ، واحصل لى على إذن لأغيب عن العشاء ، فخير لى أن أتناول طعاماً بفرنكين فى نزل حقير .

كان الأب بيرار من المحدثين الذين يرون فى تناول الطعام على مائدة سيد عظيم شرفاً كبيراً ، فجعل يحاول جهده أن يفهم چوليان هذا الشعور ويقنعه به . وبينما هما كذلك إذْ سمعا ضوضاء خفيفة فالتفتا فوقع نظر چوليان على الآنسة دى لامول التى كانت تنصت إلى حديثهما ، فاحمرّ وجهها خجلا . لكنها قالت فى نفسها : ليس لهذا الشاب مثل وضاعة هذا الكاهن العجوز ، فيا له يا إلهى من كهل قبيح !

لم يجرؤ چوليان على النظر إليها أثناء العشاء ، فتلطفت معه ووجهت إليه بعض عبارات . وفى ذلك اليوم كانوا ينتظرون زيارة كثيرين من المتردّدين عليهم ، فطلبت منه أن يبقى . والفتيات الپاريسيات لا يحببن من تقدمت بهم السن من الرجال وخاصة إذا تأنقوا فى ملبسهم . ولم يكن چوليان فى حاجة إلى كثير من الفطنة ليدرك أن أصدقاء لى بورجنيون الذين ظلوا جالسين فى الصالون نالوا شرف سخرية لاذعة من الآنسة دى لامول .

وسواء أكانت تتظاهر بهذا فى ذلك اليوم أم كان هو طبعها الحقيقى ، فإنها كانت قاسية شديدة الوطأة على أولئك الذين بعثوا الملل فى نفوس

الحاضرين . كانت الآنسة دى لامول المحور الذى يدور حوله فريق من الشبان ، يجتمعون كل مساء خلف المقعد الكبير الذى تجلس عليه المركيزة . فيأتى المركيز دى كروازنوا والكونت دى كايلوس والفيكونت دى لوز واثنان أو ثلاثة من الضباط الشبان من أصدقاء الكونت نور بير أو من أصدقاء أخته ؛ ثم يجلس هؤلاء السادة جميعاً على أريكة زرقاء . أما جوليان فكان يجلس على مقعد منخفض صغير من القش ،وضع إلى طرف أريكة تقابل تلك التى كانت تجلس عليها ماتيلد . وكان كثير من المتملقين يحسدونه على مكانه المتواضع . كان جوليان يلزم الصمت إلا أن الكونت نور بير كان يرعاه لأنه كان سكرتير أبيه ، فيوجه إليه بعض كلمات أو يذكر اسمه مرة أو مرتين أثناء السهرة . وفى ذلك اليوم سألته الآنسة دى لامول عن مقدار ارتفاع الجبل الذى تقوم عليه قلعة بيزانسون ، فلم يستطع أن يجيب لأنه لم يكن يعرف ما إذا كان هذا الجبل أعلى من مونمارتر أو أقل منها ارتفاعاً . وكثيراً ما كان يضحك فى سرور كبير مما يقوله هؤلاء الشبان : ولكنه كان يشعر بأنه عاجز تمام العجز عن أن يقول مثل ما يسمع . كان كأنه يسمع لغة أجنبية ، يفهمها ولا يستطيع التحدث بها .

وكان أصدقاء ماتيلد فى هذه الليلة بالمرصاد لكل الوافدين على هذا الصالون الواسع . والأصدقاء المترددون على القصر أولى بالتجريح لأنهم أكثر معرفة بهم من سواهم . ولسنا فى حاجة إلى أن نقول إن جوليان كان شديد الانتباه لما يقال ؛ لأنه معجب بطريقة نقد هؤلاء الناس والعبث بهم . قالت ماتيلد لأصدقائها :

— آه ! هاهو السيد ديكولى، إنه لم يعد يضع شعراً مستعاراً على رأسه. أيبغى أن يصل إلى أن يكون حا كما بفضل عبقريته ؟ إنه يعرض علينا هذه الجبهة الصلعاء التى يقول إنها تحوى آراء قيمة .

فقال المركيز كروازينوا :

— إنه يعرف الأرض ومن عليها ، وكثيراً ما يتردد على عمّى الكردينال . وله مائتان أو ثلثمائة صديق يعرف كيف يكذب على كل منهم ، و يتعهد كذبه سنوات عديدة . وعبقريته تظهر فى حرصه الشديد على صداقة أصدقائه . وهو كما ترونه يذهب إلى منزل من منازل أصدقائه شتاء فى الساعة السابعة صباحاً ، ولو كان الوحل عالقاً بملابسه . وقد تسوء العلاقة بينه و بين صديق فى يوم من الأيام ، فيكتب لهذا الصديق سبعة خطابات أو ثمانية يعلنه فيها بانتهاء الصداقة بينهما ، ثم تعود الصداقة من جديد . وهو كما يكتب خطابات للقطيعة فإن لديه ثمانية خطابات تعبّر عن مشاعر الصداقة الخالصة . وأهمّ ما يمتاز به ميله إلى الصراحة والإخلاص ، مثله فى هذا مثل الرجل الطيب القلب الذى لا تنطوى نفسه على الكراهية والبغضاء . وهذه الصفة تظهر بوضوح وجلاء حين تكون له حاجة عند إنسان . و إن أحد نواب عمى الكردينال يصوّر حياة السيد ديكولى منذ عودة الملكية تصويراً بارعاً حقاً ، وسأحضر لكم هذا النائب .

فقال الكونت دى كيلوس :

— آه إنّى لا أصدق ما يقال ، لأن مصدره الغيرة بين أمثال هؤلاء الناس الذين يعملون فى مهنة واحدة فقال المركيز :

— إنّ السيد ديكولى سيُذكر اسمه فى التاريخ ؛ فهو الذى أعاد الملكية هو والكاهن دى پرادت والسيدان تاليران و بوزودى بورجو .

وقال نور بير :

— لقد قاد هذا الرجل الملايين من الناس ، و يخيل إلىّ أنه لا يأتى هنا ليأخذ من أبى نقوداً على مايسمعه من هجاء مقذع فى كثير من الأحيان. لقد قال له أبى منذ أيام : كم خنت صديقاً لك يا عزيزى ديكلو ؟ وكان يقول له ذلك من طرف المائدة ليسمعه وهو فى الطرف الآخر .

فسألت الآنسة دى لامول :

— ولكن هل خان أصدقاءه حقاً ؟ ومن ذا الذى لم يخن ؟

فقالت الكونت دى كيلوس لنور بير :

— من أرى ؟ أهذا هو السيد سينكلر ؟ إنّه لشهير بين الأحرار . يا للشيطان ! لماذا جاء هنا ؟ يجب أن أقترب منه وأن أتحدث إليه وأحمله على أن يتكلم معى . لقد قيل لى أنه شديد الفطنة !

فسأله المركيز دى كروازينوا :

— ولكن خبّرنى كيف تحمل والدتك على استقباله ؟ إنه لرجل متطرف فى آرائه ، حر العقيدة والفكر . . . . فقالت الآنسة دى لامول :

— أنظروا لتروا هذا الرجل ، ذا العقيدة الحرة والآراء الشخصية ، كيف يحيي السيد ديكولى . إنه لينحنى حتى يكاد يلمس الأرض ؛ وقد كدت أعتقد أنه يمسك بيده ليقبلها . فقال دى كروازينوا :

— يخيل إلىّ أن ديكولى على صلة بأولى الأمر أكثر مما نظن .

فقال له نور بير :

— إن سينكلار يتردّد علينا ليختار عضوا فى المجمع ، فانظر يا كرواز ينوا كيف يحيي البارون ل . . . فقال السيد دى لوز :

— لو أنه ركع أمامه ما كان أقلّ حطّة وضعة من موقفه الحالى .

ثم قال نور بير :

— عزيزى سورل ، إنك لذو ذكاء ولكنك وفدت علينا من الجبال ، لحذار أن تحيّي الناس كما يفعل هذا الشاعر الكبير . لا تفعل مثله إلاّ وأنت تصلّى لله .

ثم قالت الآنسة دى لامول ، وهى تحاكى صوت الخادم الذى يعلن قدوم الزائرين بأسمائهم :

— آه ها هو ذا الرجل الذكىّ حقاً البارون باثون .

فقال السيد دى كايلوس :

— يخيل إلىّ أن خدمكم يسخرون منه ، فياله من اسم : البارون باثون !

فقالت ماتيلد :

— لقد قال لنا منذ أيام إنّ الاسم لا يضير حامله واستطرد يقول : تصوّروا أن شخصاً يسمّى الدوق دى بويّون ينطق اسمه لأول مرة أمام الجماهير ، قد يعجبون لهذا الاسم حين سماعه ولكنهم سرعان ما يعتادونه بعد ذلك .

غادر جوليان مقعده بجوار الأريكة ولم يتأثر كثيراً بما يبديه هؤلاء الشبان من سخرية لاذعة تنمّ عن روح لطيفة ونفس رقيقة ، زاعماً أنّ

النكتة لا تضحك إلاّ إذا كان التفكير عنصراً أساسياً فيها . ولم يلمح فى كلام هؤلاء الشبان إلاّ لهجة تنطوى على الازدراء ، فتألم منها . وقد صوّر له حياؤه الريفى أو الإنجليزى أنهم يحسدون من ينقدونهم من الرجال، وقد أخطأ فى ظنه هذا خطأً كبيراً .

أخذ يتحدّث إلى نفسه قائلا : لقد أراد الكونت نور بير أن يكتب لرئيسه الكولونل خطاباً لا يزيد على عشرين سطراً فسوّد هذا الخطاب ثلاث مرات على مرأى منى . وكم كان سعيداً لو أنه استطاع أن يكتب فى حياته صفحة واحدة من تلك الصفحات التى يكتبها السيد سينكلر !

وأخذ چوليان ينتقل بين الجماعات لا يشعر به أحد لأنه ليس ذا خطر. ثم عمل على أن يتتبع ما يقوله البارون باتون وينصت من بعيد إليه . وخيّل إليه أن هذا الرجل الشديد الذكاء كان يبدو عليه القلق ؛ وتبيّن لچوليان أن البارون لم يطمئن إلى نفسه إلاّ حين عثر على بعض عبارات مثيرة ، فبدا لبطلنا أن مثل هذا اللون من الذكاء فى حاجة كبيرة إلى فضاء واسع لتظهر مواهبه .

والواقع أنّ هذا البارون كانت لا تنفعه الكلمات ، فقد كان فى حاجة إلى أربع جمل تتكون كل منها من ستة سطور ليظهر ذكاؤه اللامع ، حتى أن أحد الحاضرين ممن كانوا يقفون خلف چوليان قال :

— هذا الرجل لا يتكلم وإنما يفاوض !

التفت چوليان مسروراً حين سمع اسم الكونت شلقيه الذى يعدّ ألطف رجال العصر نفساً وأرقهم حساً . وكثيراً ما صادف چوليان هذا

الاسم وهو يقرأ مذكرات سانت هيلانه والأخبار التاريخية التي أملاها نابليون بنفسه. كان الكونت شلقيه يتوخّى الإيجاز الشديد فى أحاديثه. وكلماته صائبة قوية عميقة كأنها البرق ؛ إذا طرق أمراً دار فيه الحديث بين الحاضرين بسرعة كبيرة. لكنه يدلى فيه بوقائع صائبة، يدخل بها السرور على قلوب سامعيه. أما فى السياسة فهو سفيه كلّ السفاهة. وكان فى هذه الليلة يتحدث إلى سيد زُيّن صدره بثلاثة أوسمة، وكأنّ شلقيه كان يسخر منه حين قال له:

— إنى مستقلّ. ولماذا تطالبنى بأن أتمسّك بنفس الرأى الذى أبديته منذ ستة أسابيع ؟ إنّى إن فعلت هذا كنت عبداً لرأيى.

وكان يقف بجوار الكونت أربعة رجال تظهر على وجوههم دلائل الجدّ والوقار. وسمعوا حديثه فبدا عليهم الامتعاض، لأنهم لا يحبّون هذا اللون من المزاح والسخرية. فأدرك الكونت أنه ترك نفسه يقول أكثر مما ينبغى ؛ ومن حسن حظه أن رأى السيد بلّلان، الرجل الأمين، المنافق فى أمانته، فتحدث إليه واقترب منهما بعض الحاضرين، وقد أدركوا أن هذا الرجل التعس سيكون ضحية من ضحايا شلقيه بما سيسمعه من سخرية مريرة. ذلك أن السيّد بلّلان بدأ حياته بدءا يصعب علينا أن نعرض له. وعلى الرغم من أنه قبيح الوجه إلى أبعد حدّ، فقد تمكن من أن يتزوج سيدة كبيرة الثراء بفضل ما كان يزعمه من تمسك بالأخلاق والسيرة الحميدة. وماتت هذه السيدة فتزوج أخرى كثيرة المال لكن الناس لم يعودوا يرونها فى المجتمعات. وقد أصبح السيد بلّلان يتمتع بدخل يبلغ

ستين ألفاً من الفرنــكات ، أتاح له أن يحاط بالمتملقين فى غدواته وروحاته .
تحدث إليه الـكونت شلفيه فى هذا كله ، دون أن تأخذه به رأفة أو رحمة ؛
وسرعان ما التفّ حول الرجلين عدد كبير من الحاضرين يبلغ ثلاثين
شخصاً ، وأخذوا يبتسمون جميعاً حتى أولئك المتوقرون من الشباب
الذين هم أمل عصرهم الحاضر .

أخذ چوليان يسائل نفسه : لماذا يأتى هذا الرجل إلى قصر المركيز
دى لامول ، وهو موضع سخرية واستهزاء فيه ؟ ثم اقترب من الـكاهن
پيرار علّه يجد عنــده جواباً ، فرأى السيد بللان ينصرف وسمع
نور بير يقول :

— حسناً ! لقد غادرنا جاسوس من جواسيس أبى ولم يبق إلا هذا
الصغير الأعرج ناپيپه .

فقال چوليان فى نفسه : هل تـكشف لى هذه العبارة عن السر ؟
وإذا صحّ هذا فلماذا يستقبل المركيز السيد بلّلان ؟

كان الـكاهن پيرار فى ركن من أركان الصالون يكفهرّ وجهه حينما
يسمع الخدم يعلنون أسماء القادمين ، فأخذ يقول كما قال بازيل :

— كأن هذا الصالون كهف لا أرى فيه إلاّ الذين خلعوا عذار الحياء .
ذلك لأن هذا الـكاهن الصارم لا يعرف ما يدور فى المجتمع الراقى ولا فيما
يمت إليه بصلة . ولـكنه علم من أصدقائه المتعصبين مثله لمذهب يَنْسِينْيُوس
أشياء كثيرة دقيقة عن المتردّدين على الصالونات . علم أنهم لا يبتغون
من وراء ذلك إلاّ خدمة الأحزاب جميعاً ، أو يبغون نفعاً خاصاً ، لا يرغبون

فى سبيل الحصول عليه عهداً ولا ذمّة . ظل پيرار بضع دقائق يجيب على أسئلة چوليان و بطلنا يوجه إليه السؤال إثر السؤال ، ثم توقف عن الإجابة بغتة وهو حزين كاسف البال لأنه لم يتناول الناس فى إجاباته إلاّ بالذم والعيب و يصفهم بالإثم والعدوان . كان الأب غضو باً متعصّبا ، مؤمناً بالمبادىء المسيحية فى التسامح : من أجل ذلك كانت حياته فى المجتمع معركة مشبو بة الأوار .

ولمّا اقترب چوليان من أريكة الآنسة دى لامول سمعها تقول :

— يا له من وجه . . . هذا الذى يحمله الأب پيرار !

أحسّ چوليان الغضب يسرى فى نفسه ، و إن كانت محقة فيما تقول ؛ على أنّ الكاهن پيرار كان خير الذين هم فى الصالون فى هذه الليلة ، وأعفّهم قلباً وأشرفهم نفساً ، و إن كست وجهه حبوب حمراء ، و بدا عليه ما يُسرّه ضميره من آلام ، فظهر وجهه كأقبح ما يكون . ثم قال چوليان فى نفسه : هل أومن بعد هذا بما يبدو على الوجوه ؟ والأب پيرار تبدو على وجهه القسوة إذا أحسّ أنه ارتكب خطأ يسيرا ، أما وجه ناپيبه فالسعادة ترتسم عليه دائماً خالصة صافية ، مع أن الناس جميعاً يعلمون بأنه جاسوس . ومع ذلك فالأب پيرار قد خرج على تقشف حزبه إذ اتخذ خادماً ولبس الملابس الأنيقة . ثم لاحظ چوليان فى الصالون شيئاً عجيباً : فقد اتجهت الأبصار كلها إلى الباب وخفتت الأصوات حين أعلن الخادم قدوم البارون دى توللى ، الذى حولت الانتخابات إليه الأنظار ، فعرفه كل الناس ؛ فاقترب منه چوليان متفرّساً فيه . كان البارون رئيساً للجنة

انتخابية مقرها إحدى المدارس ، فطرأت له فكرة فذّة وهى أن يخفى تلك الأوراق المربعة التى تحمل اسم حزب من الأحزاب ، ولكيلا يفتضح الأمر ، وضع مكانها أوراقاً تحمل اسم حزب يميل إليه . ولكن بعض الناخبين أدركوا ما عمله فسارعوا إلى تهنئته . وكان البارون دى توالّى لا يزال شاحب اللون من هذه الفعلة الشنعاء ، وكانت بعض النفوس السيئة قد ذكرت السجن ، واستقبله المركيز دى لامول بفتور ؛ فأسرع البارون التعس فى الهروب . عندئذ بدا للكونت شلقيه أن يقول :

— إنه ذاهب إلى السيد الكونت[1] . . . ما دام قد غادرنا بهذه السرعة . فضحك الحاضرون مما قال .

كان تانبو الصغير واقفاً مع بعض السادة الذين يؤثرون الصمت وبعض الرسامين ذوى النفوس الوضيعة وإن كانوا قد عرفوا بالذكاء . والصالون فى هذه الليلة غاص بمختلف الطبقات لأن الإشاعات انتشرت بتولّى المركيز دى لامول إحدى الوزارات . وكان تانبو يعدّ العدّة فى هذه الليلة ليكسب قلب المركيز ، وهو إن لم يوهب الإدراك العميق ولطافة الحسّ فى مواجهة الأمور ؛ فإنه كان يتكلم فى حمية وقوة ، كان يقول ساعة أن اقترب جوليان من الجماعة التى وقف بينها :

— لم لا يزجّ بهذا الرجل فى غياهب السجن عشرة أعوام كاملة ؟ يجب أن تلقى هذه الحشرات فى أعماق الحفر وأن تموت فى الظلام ، وإلاّ انتشرت سمومها وأصبحت أشد خطراً مما هى الآن . ما قيمة ألف الايكو

---

(١) ورد فى تعليق سنة ١٨٥٠ أنه كان مشعوذا معروفا فى ذلك العصر « المعرب »

التى يدفعها غرامة ؟ إنه فقير ، هذا حق ، ولكنّ حزبه يدفع له الغرامة . كان يجب أن يحكم عليه بخمسمائة فرنك غرامة وعشرة أعوام يقضيها فى السجن .

عجب جوليان من لهجة زميله التى تحمل الشرّ ، ومن حركاته المضطربة ؛ وأخذ يسأل نفسه : يا إلهى ! من هذا الشيطان الذى يتحدّث عنه تانبو ؟ وكان وجه هذا الشاب الذى يرعاه قريبه عضو المجمع مطبوعاً فى هذه اللحظة بطابع قبيح وشرّ . وبعد قليل علم جوليان أنّ الذى يتحدث عنه تانبو هو أكبر شاعر فى عصره[1] ، فترقرقت فى عينيه الدموع من شدة الغيظ ، وصاح فى صوت يكاد يكون مسموعا :

— آه ! يا لك من شيطان رجيم ! ويا لك من صعلوك ! لن أغفر لك أبداً ما قلت .

ومع ذلك فإنه من أولئك الشبان الضالين الذين ينتمون إلى الحزب الذى كان المركيز أحد رؤسائه ! وإن هذا الرجل العظيم الذى يصبّ عليه جام حقده لو أنه أراد أن يبيع نفسه ومواهبه ، ولا أقول لحكومة السيد دى نرفال[2] ، ولكن لأحد الوزراء الذين عرفوا ببعض العفة والشرف والذين رأيناهم يتلو بعضهم بعضاً فى الحكم — لو أنه أراد أن يبيع نفسه لانهالت عليه الأوسمة والأموال دون أن يقوم بأى عمل ! .

أشار الكاهن پيرار إلى جوليان من بعيد ، وقال له المركيز دى لامول

---

(١) اشارة إلى « بيرانجية » الذى كان الاحرار يبالغون فى تمجيده ومدحه ، وقد حكم عليه بالسجن والغرامة سنة ١٨٢٨ — المعرب

(٢) لقد عرض من خلال هذا الاسم المستعار الوزيران فاليل و بولينياك « المعرب »

كلمة ، واقترب چوليان ينصت إلى الكاهن غاضاً بصره ، ولما انفرد الكاهن بنفسه إتجه إليه چوليان فرآه مغيظاً محنقاً من هذا الشاب الوضيع تانبو ، الذى أخذ يتملقه ويتقرب إليه ، وإن كانت نفسه تنطوى على الكراهية والبغضاء ؛ لما له من فضل على چوليان ولاعتقاده أنه ولىّ نعمته .

كان هذا الشاب المدعى الأدب يتكلم بعبارات قوية ركيكة كعبارات الإنجيل متسائلا : متى يقضى الموت على هذا الفساد العتيق ؟ وكان تانبو يتحدث هذه المرة عن هذا اللورد المبجّل ، اللورد هولاند الذى تظهر مزاياه فى معرفة حياة الرجال المعاصرين معرفة دقيقة ؛ وكان فى هذه الآونة يعرض عرضاً سريعاً أولئك الذين يأملون خيراً من العهد الجديد ، عهد ملك انجلترا الذى ولى حديثاً .

ذهب الكاهن پيرار إلى صالون مجاور وتبعه چوليان ، وحينما أصبحا وحدهما قال الكاهن :

— إنّ المركيز لا يحب صغار الكتاب ، وهذه هى الطبقة الوحيدة التى ينفر منها ، فلا تنسى هذا . تعلّم اللاتينية واليونانية إذا استطعت ، واعرف تاريخ المصريين والفرس وغيرهم ، وستجد منه مقصداً وحامياً لك ولعلمك ؛ ولكنك إذا كتبت صفحة واحدة بالفرنسية تناولت فيها أشياء خطيرة تسمو على مركزك الاجتماعى فإنه سيسميك كُوَيْتِباً ويعدّك شؤماً عليه ، أنت تقيم فى قصر سيّد كبير ، وكيف لاتعرف عبارة الدوق دى كاسترى

التى قالها فى دلمبير وروسو : هو شخص ، أيجب أن يفكر فى كل شىء ، ودخله لا يبلغ ألف إيكو ؟

فأخذ جوليان يقول فى نفسه : كل شىء يعرف هنا كما كان يُذاع فى المدرسة ! ذلك أنه كان قد كتب ثمانى صفحات أو عشراً بأسلوب لا يخلو من تفخيم ، يمدح فيها الجراح العجوز ويؤرخ له ؛ لأنه قد جعل من جوليان رجلا على حدّ تعبير بطلنا ، الذى يخبرنا بأن هذه الكراسة كانت مخبأة فى مكان ظنّ أنّ الأيدى لا تصل إليها فيه ! ثم صعد إلى مسكنه وأحرق ما كتب وعاد إلى الصالون ، فوجد أن الخبثاء الأذكياء قد غادروه ، ولم يبق إلاّ أولئك الذين يحملون الأوسمة .

أحضر الخدم مائدة عليها أنواع مختلفة من الطعام والشراب ، وجلس إليها سبع سيدات أو ثمان كلهن عريقات الأصل ، تقيات صالحات ، متصنعات متكلفات ، تتراوح أعمارهن بين الثلاثين والخامسة والثلاثين . دخلت امرأة للشير دى فرفاك ، وهى سيدة وضاءة ، معتذرة لوصولها فى ساعة متأخرة ؛ فقد أتت بعد أن انتصف الليل . ثم اتجهت إلى المركيزة دى لامول لتجلس بجوارها ، واضطرب جوليان حينما وقع بصره على هذه السيدة لأن عينيها ونظراتها كانت تشبه عيون مدام دى رينال ونظراتها .

أما فريق الآنسة دى لامول فكان لا يزال على كثرته ووفرة عدده . اقترب جوليان منهم فوجدهم مشغولين بالسخرية من هذا الكونت التعس دى تالر[1] ، وهو الابن الوحيد لذلك اليهودى المشهور بثرائه العريض ،

(١) اشارة إلى البارون « دوتلتيلد » — المعرب

الذى حصل عليه من إقراض الأموال للملوك ليحاربوا بها الشعوب . مات هذا اليهودى وترك لإبنه دخلا يبلغ مائة ألف إيكو فى الشهر واسماً لا يجهله أحد مع كل أسف ! وكان هذا الموقف العجيب يتطلب بساطة فى الطباع أو قوة إرادة شديدة .

ولكن الكونت مع الأسف قد أفسده المتملقون الملتفون به فأدخلوا الغرور والزهو فى نفسه بعد أن كان رجلا متواضعاً .

وزعم دى كايلوس أن هؤلاء المتملقين قد أدخلوا فى روعه أنه جدير بالزواج من الآنسة دى لامول (التى يغازلها المركيز دى كروازينوا الذى سيصبح دوقاً و يبلغ دخله مائة ألف فرنك) فقال نوربير فى إشفاق :

— آه ! لا تتهمه بأن له إرادة .

إن ما كان يعوزه الكونت دى تالير هو معرفة ما يريد ؛ وهو لهذا جدير بأن يكون ملكا . وهو و إن كان كثير المشاورة لمن حوله فإنه ليس لديه الشجاعة فى أن يتتبع رأياً حتى النهاية .

وقد قالت الآنسة دى لامول : إن وجهه يكفى وحده لإدخال السرور الدائم إلى نفسها . فقد كان وجهه يعتوره القلق و يرتسم عليه اليأس ، لكنه يُلمع فيه بين آونة وأخرى دلائل الخطورة وتُسمع منه لهجة حازمة تميّز أغنى رجل فى فرنسا ، لا سيما وأنه ليس قبيح الوجه والجسم ، ولم يبلغ بعد السادسة والثلاثين من عمره . وقال دى كروازينوا : إنه سفيه شديد السفاهة . وأخذ نوربير والكونت دى كايلوس واثنان أو ثلاثة من الشبان ذوى الشوارب يسخرون منه سخرية شديدة دون أن يشعر ؛ وحينما وافته

الساعة الأولى صباحاً تخلصوا منه إذ قال له نور بير :

— أهى جيادك العربية التى تنتظرك بالباب فى مثل هذا الجو ؟

— لا ، إنهما جوادان أقل ثمناً من الجياد العربية ؛ فالحصان الأيسر قد اشتريته بمائة ألف فرنك ، أما الأيمن فثمنه مائة لويس فقط ؛ ولكني أرجو أن تعرف أنهما لا يجران عربتى إلاّ ليلا ، وإن كانا يشبهان الجياد العربية .

فهم الكونت تالير من سؤال نور بير أنه لا يحسن برجل يحب الخيل ويشغف بها أن يترك جياده تبلّلها الأمطار فانصرف ، وتبعه بعد قليل هؤلاء السادة وهم يسخرون منه .

وحينما سمع جوليان ضحكهم وهم يهبطون درجات السلم قال فى نفسه : لقد أتيح لى الليلة أن أرى حرج موقفى ! فدخلى لا يبلغ عشرين لويسا ، وقد كنت بجوار رجل يبلغ دخله عشرين لويساً فى الساعة ، ولكنهم يسخرون منه . . . إنّ فى مثل هذا ما يشفى القلوب من الحسد .

الفصل الخامس

الحساسية وسيلة كبيرة تقية

[إن رأياً فيه بعض الحرارة يبدو كأنه غلطة ؛ لأن الناس تعودوا سماع الكلام التافه ، وويل لمن يقول جديداً إذا ما تكلم !]

نوبلاس

قضى جوليان بضعة شهور فى قصر المركيز يعمل و يراقب مولاه عمله ، وحدث أن سلمه مدير القصر الربع الثالث من راتبه . وكلفه المركيز الإشراف على إدارة أراضيه فى نورمانديا و بريتانيا . فأصبح جوليان بهذا كثير التنقل إلى هذه الأصقاع ، كما صار كبير الكتاب المشرفين على القضية المشهورة : قضية المركيز والأب فريلير ، وأمد الكاهن پيرار جوليان بالمعلومات الكافية .

كان جوليان يحرر الخطابات معتمداً على الملاحظات القصيرة التى يكتبها على هامش ما يصله من أوراق ؛ وكان المركيز يوقع أكثر الخطابات التى يكتبها جوليان .

ولما كان بطلنا فى مدرسة اللاهوت كان معلموه كثيرى الشكوى من سوء مواظبته ، و إن كانوا يعدونه من خير التلاميذ وأكثرهم اطلاعاً . وكان مقبلا على الأعمال المتنوعة ، التى وكلت إليه فى قوة وحمية ، مدفوعاً بالطموح المسيطر عليه ؛ حتى فقد لونه الوردى الجميل الذى سبغه

عليه هواء الريف ، وكان شحوبه يعد ميزة فى نظر أصدقائه الشباب من تلاميذ المدرسة ؛ فاعتبروه أقل شراً وأزهد فى المال من زملائه البيزنسيين الذين كانوا يقولون إنه مصاب بداء الصدر ، وأعطاه المركيز جواداً . وكم كان يخشى أن يلقاه أحد زملائه وهو يركب الجواد . لذلك عزم على أن يخبرهم بأن ركوب الخيل تمرين رياضى فرضه عليه الأطباء . واصطحبه الكاهن پيرار معه فى مجتمعات دينية جانسينيسية ، فذهل حين رأى قوما أتقياء صارمين ، لا يفكرون أبداً فى المال . وقد كان من قبل يؤمن بأن فكرة الدين مرتبطه بالنفاق والأمل فى جمع المال . وأخلص كثير من هؤلاء الجانسينيسيين النصح لبطلنا واتخذوه صديقاً ، فظهرت له آفاق جديدة فى الحياة . وتعرف فى اجتماعات هؤلاء القوم بالكونت[1] ألتاميرا الذى تبلغ قامته أكثر من ستة أقدام ، وهو من الأحرار الذين حكم عليهم بالإعدام فى بلده إلا أنه متدين . وقد دهش چوليان من رجل يجمع بين النقيضين التدين وعشق الحرية . وكانت العلاقة بينه و بين الكونت الشاب يسودها شىء من الفساد ، لأن نور بير رآه يردّ فى كثير من الجرأة والقوة نكات بعض أصدقائه . وقد خالف چوليان القواعد التى يسير عليها مرة أو مرتين ، فأخذ على نفسه ألاّ يتحدّث مع الآنسة ما تيلد . لكن أهل دى لامول كانوا يراعون الأدب التام معه ، وكان هو قد لاحظ أنّ مكانته لم تعد كما كانت عليه من قبل. وأوحت

(١) يشير ستندال إلى أحد أصدقائه هو « دى فيودى » من نابولى وقد حكم عليه بالإعدام ، ولكنه هرب ولجأ إلى باريس. « المعرب »

إليه فطنته الريفية أنّ هذه الظاهرة يفسرها المثل العامى : كل جديد جميل .

ربما أصبح چوليان أكثر بصيرة بالأمور ، أو ربما فارقته النزعة التى سيطرت عليه أول أيامه ، وهى سحر باريس .

وإذا ما فرغ من عمله وقع تحت طائلة من ملل قاتل لا يجد لنفسه مخرجا منه ؛ إنه الأثر الجاف للأدب الجمّ الذى يطبع الطبقة الراقية فتظهره بمقاييس دقيقة ، تختلف باختلاف المراكز الاجتماعية . والنفس التى فطرت على قليل من الحساسية تدرك هذا التصنع الظاهر . ولا ريب أنّ أهل الريف طبعوا على لهجة عامة قد لا تحمل كثيراً من الأدب ؛ لكنهم يتحمسون قليلا حينما يجيبونك . لم تجرح كرامة چوليان مرة واحدة فى قصر دى لامول ، ولكنه كثيراً ما كان يجد فى نفسه حاجة ملحة إلى البكاء إذا ما انتهى يومه .

إنّ العامل فى مقهى ريفى يهتم بك إذا حدث لك حادث وأنت تدخل مقهاه ؛ أما إذا كان فى الحادث ما يجرح كرامتك فإنه يتألم لك وإن لم يمنعه ذلك من أن يكرر على مسامعك عشر مرات كلمة تسوءك . وفى باريس يعمد الناس إلى الضحك مستترين ، وهم يرون فيك دائماً رجلا غريباً عنهم .

لا نريد أن نعرض للمخاطرات التافهة التى ارتكبها چوليان ، والتى عرضته للسخرية ، لو أنه من أولئك الذين تنال السخرية من كرامتهم . وكانت حساسية الجنون تحمله على ارتكاب هفوات لا حصر لها ؛ ولذاته

جميعاً لم تكن إلاّ لونا من الحيطة والحذر : فكان يتعلم إطلاق النار كل يوم ، وكان من خير تلاميذ أشهر معلم المسابقة . وإذا وجد لديه فراغاً جرى إلى حظيرة الخيل وطلب أشدّ الجياد عسراً . ولم يعد يقبل على القراءة كما كان يفعل من قبل : كان يخرج إلى النزهة مع رئيس ترويض الخيل وكثيراً ما كانت تُلقى به الجياد عن ظهورها .

وجد المركيز فى جوليان شخصاً يقبل على العمل إقبالا شديداً ، يؤثر الصمت ويتصف بالذكاء ، فأخذ يعهد إليه قليلا قليلا بجميع الأمور المعقدة التى تحتاج إلى روية وصبر . وفى اللحظات التى يبرأ فيها المركيز من طموحه الشديد ، كان يقوم بأعمال تدلّ على الفطنة والكياسة ، أنه على صلة بالأخبار فكان يعقد صفقات رابحة : اشترى منازل وغابات . ولكنه سريع الغضب ، يعطى فى سخاء مئات من اللويسات ويتشاحن لبضع مئات من الفرنكات ، لأن الأغنياء ذوى النفوس الكبيرة يهتمون باللذة التى يجلبها العمل أكثر مما يهتمون بالنتائج التى يحصلون عليها . وكان المركيز فى حاجة حقاً إلى رئيس يتعهّد معاملاته المالية فيضع لها نظاماً واضحاً سهلا يسيراً .

أما مدام دى لامول ، ذات الأدب الجم ، فقد كانت تسخر من جوليان فى بعض الأحيان ، لأن كل طارىء جديد تخلقه الحساسية ، تشمئز منه نفوس هؤلاء السيدات الراقيات اللائى يرين أنه يغاير ما تواضعن عليه من عرف . وقد أخذ المركيز يناصر جوليان مرتين أو ثلاثة قائلا لزوجته :

— إذا ظهر تظاهر السخرية فى صالونك فهو دائم الانتصار فى مكتبه .

أما چوليان فقد خيّل إليه أنه أدرك سرّ المركيزة ، فهى تهتمّ بكل شىء حينما يعلن الخادم قدوم البارون دى لاچومات . وهو كائن فيه فتور ، ذو وجه لا تعرف المشاعر إليه سبيلا ، قصير القامة نحيل الجسم قبيح الخلقة ، أنيق الملبس ، يقضى حيــاته فى القصر ، وهو عادة لا يقول شيئاً أبداً . وكان چوليان يعتقد أن المركيزة دى لامول ستلقى السعادة لأوّل مرة فى حياتها ؛ لو أتيح لها أن تعمل على أن يتزوج البارون دى لا چومات من ابنتها .

الفصل السادس

طريقة النطق

[تنحصر مهمتهم الكبيرة فى أن يحكموا فى هدوء على الحوادث الصغيرة التى تجرى فى حياة الناس . وإن فطنتهم لتدرك ما يعتور الناس من اضطراب بسبب أمور تافهة أو حوادث تجسمها الشهرة حين ينتقل بها الصوت من مكان إلى مكان بعيد .]

جيرائيوس

لم يرتكب چوليان كثيراً من الحماقات فى حياته الجديدة ، على الرغم من أن كبرياءه لم تسمح له بأن يسأل عمّا لا يعلم.. أراد يوما أن يتقى مطراً هطل بغتة ، فأوى إلى مقهى بشارع سانت أونورى ، فأذهلت نظراته الصارمة رجلا مديد القامة يرتدى الردنجوت ، فلفت ذلك نظر چوليان ؛ ورأى أنّ هذه النظرات كتلك التى وجّهها إليه عشيق الآنسة أماندا فى إحدى مقاهى بيزانسون ، والتى كثيراً مالام نفسه على أنه لم ينتقم من ذلك العاشق لنظراته تلك التى تحمل معانى الإهانة . ولما سأل ذا الردنجوت عن سبب نظراته ، صب عليه فى الحال أقذع الشتائم ، وسرعان ما التفّ حوله جميع من بالمقهى ، ووقف المارة أمام الباب . كان چوليان يحتفظ دائما بمسدسات صغيرة على عادة الريفيين ، فأمسك بها فى حركة مضطربة ؛ لكنه عاد فآثر الحكمة واكتفى بأن يقول للرجل فى فترات متباعدة : أيها السيد ، هات عنوانك . إننى أحتقرك .

وكان العزم الذى ينطوى عليه حديثه ، وهو ينطق بهذه الكلمات ، عزما وطيداً أذهل السامعين فأخذوا يقولون :

يا لله ! إنّ هذا الرجل الذى يتحدث وحده يجب أن يعطيه عنوانه .

فقذف الرجل فى وجه جوليان بخمس بطاقات أوست ، نزولا على حكم الجماهير وقد أخذوا يرددونه . ولم تمسّ البطاقات وجه بطلنا لحسن الحظ ؛ وكان عازما على ألاّ يستعمل سلاحه إلاّ إذا مست وجهه إحداها . ثم انصرف الرجل متلفتاً متوعّداً بالضرب ، ناثراً حوله الشتائم . فتصبب جوليان عرقا وامتلأ غضبا ، وأخذ يقول فى نفسه : أفى استطاعة أحط الرجال أن يستثيرنى إلى هذا الحد ! فكيف أستطيع القضاء على هذه الحساسية المهينة ؟

من أين لى بشاهد ؟ ذلك لأنه لم يكن له صديق فى باريس ؛ كان يعرف بعض الناس ولكن معرفته لا تدوم أكثر من ستة أسابيع ، ثم يعتزلونه جميعاً ؛ فقال فى نفسه : لست مدنياً بطبعى ككلّ إنسان ، وهأنذا ألقى جزائى . ثم فكّر أخيراً فى ملازم سابق بالفرقة السادسة والتسعين إسمه ليفن ، وهو شخص تعس ، كثيراً ما كان يتدرّب معه على استعمال السلاح ، وكثيراً ما أخلص له جوليان .

قال له ليفن حين التقيا وأطلعه جوليان على الأمر :

— أنا أقبل أن أكون شاهدك ولكن على شرط أن تقتلنى فى الحال إذا لم تجرح خصمك . فسرّ بطلنا وأجاب صديقه إلى ما طلب ؛ ثم ذهبا يبحثان عن السيد ش. دى بوفوازى فى عنوان بطاقاته فى ربض سان جرمان .

كانت الساعة السابعة صباحا حينما ذهبا ، ودخل الخادم يعلن قدوم الزائرين لسيده فتذكر چوليان أن غريمه قد يكون قريباً لمدام دى رينال، وهو الذى كان يعمل من قبل فى سفارة روما أو نابولى ، والذى أعطى چيرونيمو المغنى خطاب التوصية .

وقدم چوليان للخادم الطويل الذى استقبله بطاقة من التى ألقيت بالأمس فى وجهه وبطاقة أخرى تحمل إسمه . ثم ظل هو وشاهده ينتظران ثلاثة أرباع الساعة ، حتى أدخلا مسكنا على جانب كبير من الأناقة والروعة . ووقع بصرهما على شاب طويل ، أنيق الملبس ، تدل تقاطيعه على الجمال الإغريقى فى أروع صوره ، كما تمثل تفاهته . أما رأسه فضيق جدا يحمل شعراً غزيراً جميل الشقرة ، جعد فى عناية شديدة حتى لا ترى فيه شعرة من الشعرات قد نشرت عن موضعها . فقال ملازم الفرقة السادسة والتسعين : ما جعلنا هذا الغر اللعين ننتظر هذا الوقت الطويل إلا ليجعد شعره على هذا النحو الجميل . كان يلبس (روب دى شامبر) مزخرفا وسراويل الصباح وبابوجا مزينا . وكل ذلك يدل على عنايته الشديدة بهندامه وعلى حسن ذوقه . ويدل وجهه على محتد كريم وتفاهة بالغة ويلمح فيه الإنسان ما ينطوى عليه من آراء لها قيمتها وغرابتها ؛ وعلى الجملة فهو المثل الأعلى لما يكون عليه الرجل الظريف ، يكره الأشياء المباغتة كراهية شديدة ولا يحب الفكاهة لأنه جبل على الوقار الشديد .

وأفهم الملازم چوليان أن خصمه قد ألحق به إهانة شديدة حين تركه ينتظر طويلا ، فدخل فى جفوة على السيد دى بوڤوازى ؛ وصمم على أن

يكون سيء الأدب معه ولكن بطريقة مستترة .

ولشد ما ذهل حين رأى وداعة السيد دى بوفوازى وحسن طباعه وما هو عليه من اتزان وأناقة كبيرة فى كل ما يحيط به ، فرجع فى الحال عن عزمه فى أن يكون سيء الأدب . لم يكن هذا السيد هو الرجل الذى أهانه بالأمس ، فعجب چوليان ، حتى لم يستطع أن ينطق بحرف حين رأى هذا السيد المهذب بدل أن يرى ذلك الفظ الغليظ الذى لقيه بالأمس. فقدم إليه بطاقة من تلك التى قذفت فى وجهه ، فقال له هذا الرجل المتحضر الذى بعث الثوب الأسود فى نفسه شيئاً من الاحتقار لچوليان حين طرق بابه فى الساعة السابعة صباحا .

— هذا اسمى ولكن لم يكن لى الشرف أن . . . . وألقت الطريقة التى قال بها كلماته هذه غضبا فى نفس چوليان فقال :

— لقد جئت يا سيدى لأبارزك . ثم قص عليه ما حدث أمس فى المقهى .

فكر السيد شارل دى بوفوازى فى الأمر جديا ، وهو ينظر إلى چوليان منصتا إلى حديثه فسرته طريقة حياكة ثيابه السوداء ، فقال فى نفسه : من المحقق أن من عمل ستوب ، فهذه الصدرية بديعة ، وهذا الحذاء جميل . ولكن يا إلهى ! هذا الثوب الأسود فى تلك الساعة المبكرة من النهار ! . . لقد لبس هذه الملابس لينجو من الرصاصة . ثم عاد إلى أدبه الجم مع چوليان، وعامله معاملة الأنداد . وظل الحديث بينهما وقتاً طويلا لأن الأمر كان دقيقاً ، ولكن چوليان رأى فى جلاء ووضوح أن هذا الرجل الكريم

المحتد الذى يراه لا يشبه الفظّ الغليظ الذى أهانه أقل شبه .

شعر چوليان فى نفسه باشمئزاز إذا ما انصرف دون أن يلقى غريمه ، فأطال الحديث وتأمل حسن طباع الفارس دى بوڤوازى ، وهو الإسم الذى أطلقه على نفسه ، لأنه لم يرض أن يناديه چوليان بالسّيد وهو يتحدث إليه . أعجب چوليان بوقاره وإن كان فيه غطرسة لا تفارقه لحظة من اللحظات ، لكنها غطرسة لا مبالغة فيها . وذهل من طريقته العجيبة التى يحرك بها لسانه حين يتكلّم . . . ولكنه على الرغم من كلّ هذا لم يجد مسوغاً لأن يختلف أو يتشاجر مع هذا السيد . عرض السياسى الشاب فى كثير من الظرف أن يبارز چوليان ، ولكن الملازم السابق فى الفرقة السادسة والتسعين قرّر أنّ صديقه السيد سورل ليس من خلقه أن يبارز رجلا سرقت بطاقته واستغلّت استغلالا سيئاً . وكان هذا الملازم يجلس طيلة الوقت مفتوح الساقين ، ويداه على فخذيه ومرفقاه لا يرتكزان على شىء .

ثم غادر چوليان الفارس دى بوڤوازى غاضباً أشدّ الغضب . وكانت عربة الفارس تنتظره فى الفناء أمام السلم الخارجى ولما رفع چوليان بصره إليها رأى الرجل الذى أهانه بالأمس ، ولم يكن سوى سائق العربة ؛ فجذبه من سترته الكبيرة فى سرعة خاطفة حتى هوى من أعلى المقعد وانهال عليه ضرباً بالسوط . وأراد خادمان أن ينصرا زميلهما فضربا چوليان ، فأطلق عليهما النّار فولّيا الأدبار . وجرى كلّ هذا فى دقيقة واحدة .

هبط الفارس درجات السلم فى وقاره الذى يدعو إلى السخرية ،

سائلا بطريقته العجيبة فى النطق ، طريقة السيد العظيم : ما هذا ؟ ما هذا ؟

ولا ريب أن حبّ الاستطلاع كان مالكا عليه نفسه فى هذه اللحظة ، ولكنّ خطورة السياسيين حالت بينه و بين أن يظهر اهتماماً بما حدث . ثم أطلع على ما جرى ، فكانت تقاطيع وجهه فريسة للكبر والهدوء اللذين يتسم بهما كلّ من يعمل فى السلك السياسى .

أدرك الملازم أن السيد دى بوڤوازى يريد مبارزة چوليان ، فأراد أن يحتفظ لصديقه بميزات البادىء بطلب المبارزة ، فصاح قائلا :

— إنّ هذا الأمر يستدعى المبارزة . فأجاب الفارس :

— أنا أشاركك هذا الرأى . ثم قال لخدمه :

— إنى أطرد هذا الوغد من خدمتى ، فليصعد إلى مكانه شخص آخر .

وفتح باب العربة ليركب ثلاثتهم ، وأكرمهما الفارس حين قدمهما على نفسه . ثم ذهبوا ليحضروا شاهداً لدى بوڤوازى ، وهو صديق له ، دلّهم على مكان هادىء يتبارزن فيه . وكان الحديث بينهم فى الذهاب هادئاً وديّا ، ولم تكن هناك ظاهرة غريبة إلا أن يرتدى رجل فى السلك السياسى مبذلا (روب دى شامبر) .

لاحظ چوليان أن هذين السيدين ليسا مملّين ، وإن كانا كريمى المحتد ، كأولئك الذين يختلفون إلى موائد المركيز دى لامول . وبعد قليل أخذ يقول فى نفسه : أدركت الآن السبب فى أنهم يسمحون لأنفسهم أن يقولوا الفُحش حينما يتحدثون . لقد تناولا فى حديثهما راقصات نلن

إعجاب الجمهور وتقديره فى قطعة راقصة مثلت بالأمس . وكان هذان السيدان يقصّان قصصاً لاذعة يجهلها چوليان وصديقه الملازم جهلا تاماً .
ولم يشأ چوليان أن يرتكب حماقة فيدّعى أنه على علم بها ، بل آثر أن يخبرهما بأنه يجهل ما يقولون ، وإن لم يخل اعترافه من ظرف كبير . وأعجب صديق الفارس دى بوڤوازى بصراحة چوليان ، فأخذ يقصّ عليه هذه القصص فى إطناب ، وفى أسلوب جذّاب .

كان فى وسط الشارع مذبح مزين لذباح القربان بمناسبة موكب عيد الإلـه ، ، فوقفت العربة قليلا . وكم ذهل چوليان حين سمع السيدين يتهكمان ويسخران قائلين إن الخورىّ ابن لرئيس الأساقفة . وهذا تهكم لم يسمعه فى قصر المركيز دى لامول الذى يريد أن يكون دوقاً ، ولا يجرؤ إنسان على أن ينطق بمثل هذه الكلمة فى القصر .

انتهت المبارزة فى وقت قصير حين أصيب چوليان برصاصة فى ذراعه ، وضمدّوها له بمناديل بلّت بالخمر ، ورجا الفارس دى بوڤوازى چوليان فى أدب جم أن يسمح له بأن يوصله فى العربة إلى مسكنه . ولمّا أعطاه الجريح عنوان قصر المركيز دى لامول ، تبادل الفارس وصديقه النظرات .

وآثر چوليان أن يبقى فى عربة الفارس ، وإن كانت عربته بانتظاره لأن حديث السيدين كان أمتع من حديث صديقه الملازم . وأخذ بطلنا يتحدث إلى نفسه قائلا :

يا إلهى ؟ أهذه هى المبارزة ؟ كم أنا سعيد بأنى لقيت هذا الحوذى ! ولو أننى أهنت مرة أخرى فى مقهى لكنت أشقى الناس جميعاً ! وظلّ

الحديث الطلىّ بين الصديقين مستمراً طوال الوقت ، وأدرك چوليان أن تـكلف رجال السلك السياسى له فائدته .

ثم قال فى نفسه : إنّ السأم لا يعرف سبيله إلى نفوس هؤلاء السادة ما داموا يتحدثون فيما بينهم بمثل هذا الحديث الطريف ! هم يسخرون من موكب الاحتفال بعيد الإلـه ، ويجرؤون على تناول قصص شاقة عسيرة فيتحدثون فى أدق تفصيلاتها ، لا يعوزهم إلا المنطق على الأمور السياسية ، وهذا النقص يعوضه ما جبلوا عليه من ظرف فى لهجتهم حين يتحدثون وما يستعملون فى كلامهم من عبارات رقيقة . ثم شعر نحوهما بميل كبير ، وأخذ يقول : ليتنى أسعد بلقائهما كثيراً !

ولم يكادوا يفترقون حتى أسرع الفارس دى بوفوازى فى الاستعلام عن غريمه ، لـكن ما علمه عنه لم يكن مشرفاً . كان فى حاجة شديدة إلى أن يعرف شيئاً عن هذا الغريم ، وهل يستحقّ أن يُزار ؟ على أنّ ما وصل إليه من معلومات ضئيلة لم يشجع على هذه الزيارة . قال لشاهده :

— هذا أمر جدّ عسير على نفسى ! لا أستطيع أن أعترف أنى بارزت شخصاً لا يعمل إلاّ سكرتيراً للمركيز دى لامول ! ولم بارزته ؟ لأن سائق عربتى سرق بطاقاتى !

— سيجد الناس ولا شكّ فى هذا موضعاً للسخرية بك .

وما حلّ المساء حتى أذاع الفارس دى بوفوازى وصديقه فى كل مكان أن السيد سورل ، فضلا عن صفاته الـكاملة ، ابن طبيعى لصديق من

أكثر الأصدقاء مودة للمركيز دى لامول . وصدّق الناس ما قالوه في سهولة ويسر . ولما وجداهم آمنوا بما قالا ، تفضلا فزارا چوليان بضع مرات حين اعتكف فى غرفته خمسة عشر يوماً . واعترف لهما چوليان وهما يزورانه بأنه لم يذهب إلى الأوبرا فى حياته إلاّ مرة واحدة .

— هذا أمر عجيب ! إننا لا نذهب إلاّ إلى هناك . ويجب أن يكون أول شيء تشاهده حين تخرج هو تمثيل رواية الكونت أورى .

ثم قدّمه الفارس إلى المغنّى جيرونيمو الذى نال نجاحاً كبيراً .

تملّق چوليان الفارس وتقرّب منه ، لأنه كان معجباً باحترامه لنفسه ، وبالخطورة الغامضة والكبرياء اللتين تبدوان على وجهه ، فقد كان مثلا يتمتم قليلا إذا ما تكلم ، لأنه كثيراً ما كان يشرف بلقاء سيّد كبير فى لسانه لكنة ، ولم ير چوليان من قبل إنساناً اجتمعت فيه فى وقت واحد سخرية عابثة وشمائل طيبة ، فجعل يعمل على محاكاته فيها . ثم تردّد على دار الأوبرا فى صحبة الفارس دى بوڤوازى فأخذ اسمه يذيع بين الناس لهذه الصلة الجديدة . وقد قال له المركيز دى لامول فى يوم من الأيام .

— حسناً ! هل علمت أنك ابن طبيعى لأحد أصدقائى المقربين وهو سيّد ثرى من فرانش كونتيه ؟

فشاء چوليان أن يحتج على هذه الإشاعة قائلا : إنه لا دخل له فى ترويجها ، لكن المركيز قاطعه بعد أن قال :

— إنّ الفارس دى بوڤوازى لم يرد أن يبارز ابن نجار .

— أعلم هذا ، نعم أعلمه ، وعليّ الآن أن أؤيد هذه الرواية التي تنفعني ؛ ولكن أودّ أن أكلفك عملا لن يستغرق من وقتك إلاّ نصف ساعة على الأكثر ، أريد أن تذهب كل مساء إلى ردهة الأوبرا في منتصف الساعة الثانية عشرة لترى الناس وهم يخرجون . . . إني أرى فيك جفوة أهل الريف وعليك أن تتخلص منها ، وعلى كلٍّ فمن الخير أن تعرف هذه الشخصيات الكبيرة فربما كلفتك عملا وأرسلتك إليهم .. عليك أن تعرفهم ولو شكلا . . . إذهب إلى مكتب تأجير الأماكن بالأوبرا ليعرفوك ؛ لقد أتيح لك الدخول .

الفصل السابع

أزمة مرض النقرس

[لم تكن مواهبي سبب رفعتي وإنما ارتقيت لأن سيدي كان مريضاً بداء المفاصل].

برتولثي

ربما عجب القارئ من هذه اللهجة الودّية الصريحة التي يتحدّث بها المركيز إلى چوليان ، ولقد أُنسينا أن نذكر أن دي لامول معتكف في قصره منذ ستة أسابيع لأن أزمة حادة من مرض النقرس قد حلّت به. والآنسة دي لامول وأمها في هيير عند جدّتها أم المركيز ، والكونت نوربير لا يرى أباه إلاّ لحظات قصيرة ، ولو أن العلاقة وطيدة بين الأب وابنه لكنهما لا يجدان ما يقولانه إذا ما اجتمعا . ولم يجد المركيز غير چوليان يتردّد عليه ويعنى بشئونه ، ولشدّ ما دهش حين رأى أن هذا الشاب ذو رأى وذكاء وفطنة . كان چوليان يقرأ للمركيز الصحف كل يوم ولكنّه بعد قليل ، استطاع أن يقرأ من تلقاء نفسه القطع التي تعجب المركيز . وكان دي لامول يكره صحيفة صدرت أخيراً حتى أقسم ألاّ يقرأها أبداً . ومع ذلك كان يتحدث عنها كل يوم ، وچوليان يضحك من هذا التناقض العجيب . وكان المركيز ناقماً على حياة عصره فطلب من چوليان أن يقرأ له تيت ليف ، وكم كان يُسرّ من تلك الترجمة المرتجلة لهذا النص اللاتيني .

حدث المركيز چوليان يوماً بلهجته التي تنطوى على الأدب الجم والتى كثيراً ما كان ينفد صبر چوليان عند سماعها ، فقال :

— إسمح لى يا عزيزى سورل أن أقدم إليك حلة زرقاء هدية منى ، وإذا راقك أن تقبلها ، فستكون فى نظرى إذا ما لبستها الأخ الأصغر للكونت شون أعنى ابن صديقى الدوق العجوز .

فلم يدرك چوليان تماماً ما يرمى إليه ، على أنه لبس فى نفس المساء هذه الحلة الزرقاء وذهب إليه فعامله المركيز معاملة الأنداد . كانت نفس چوليان تدرك الأدب الكامل حق الإدراك ، لكنّه ما كان يعرف الدقائق التى لا تفوت شباب الأرستقراطيين . يعلم حق العلم أن المركيز يحسن وفادته دائماً ، وقد أكرم قبل ذلك مثواه حتى جعل يقول فى كل فرصة : يا لعبقرية هذا الرجل ! ولمّا نهض تلك الليلة منصرفاً ، اعتذر له المركيز من عدم استطاعته القيام مودّعاً لأنه مريض .

وشغلته هذه الفكرة الغريبة فأخذ يسائل نفسه : أهو يسخر منى ؟ وذهب إلى الأب پيرار يشاوره فى الأمر ، فوجد الكاهن لا يحظى بأدب المركيز ، فأخذ يصفر وهو يجيبه ، ثم تحدث إليه فى أشياء أخرى . وحلّ اليوم التالى ، فذهب إلى المركيز بملابسه السوداء حاملا حقيبته وخطابات للتوقيع ، فاستقبله مولاه كما كان يستقبله قبل أن يرتدى الحلة الزرقاء . وجاء المساء فلبس هذه الحلة فكانت لهجة المركيز معه وطريقته تنطويان على الأدب الجمّ كما كان بالأمس تماماً ، وقال له :

— أصبحت أرى أن الزيارات التى تتفضل علىّ بها لا تبعث

فى نفسك الملل ، وأنا اليوم شيخ مريض ، فينبغى أن تتحدث إلىّ بما جرى لك فى حياتك الماضية دون أن تخفى عنى شيئاً مهما يكن تافهاً . قصّ علىّ كل شىء فى وضوح و بطريقة مسلية ، لأنه يجب على المرء أن يتسلّى ؛ فليس فى الحياة شىء حقيقى إلاّ اللهو واللذة . ليس من المستطاع أن يتاح لى كلّ يوم رجل ينجينى من الموت فى الحرب ، أو يعطينى كل يوم مليوناً من الفرنكات . ولو أنّ ريفا رول كان بجوار مقعدى هنا لانتزعنى من الألم والسأم ساعة فى كل يوم . لقد خالطته كثيراً أثناء الهجرة فى همبورج .

ثم قصّ المركيز على چوليان قصص ريفا رول مع أهل همبورج الذين كانوا يجتمعون أربعة أربعة ليتعاونوا على فهم فكاهات ريفا رول .

وهكذا أصبح المركيز دى لامول لا يعاشر فى تلك الحقبة ، على الرغم منه ، إلاّ هذا الشاب الذى يعدّ نفسه للكنيسة فأراد أن يدخل عليه السرور . وحرّك فيه نزعة الشرف حين طلب إليه ألاّ يقول إلا الحق . فعزم چوليان على أن يعترف له بكل شىء ما عدا أمرين : أولهما تعصبه الشديد و إعجابه بشخص يغضب المركيز غضباً لا حدّ له إذا ما ذكر اسمه ، أما الثانى فهو عدم إيمان چوليان وجحوده جحوداً تاماً مما لا يتمشى مع الحياة الكنسية التى يعدّ نفسه لها . وجعل يتكلم فأعجبت المركيز قصته الصغيرة مع الفارس دى بوفوازى ، وضحك حتى سالت دموعه مما حدث بين چوليان والحوذى فى مقهى شارع سانت أونورى ، ومن الشتائم القذرة التى قالها له الحوذى . كانت هذه الفترة من حياة چوليان فى قصر المركيز فترة صريحة فى علاقة الفتى بمولاه . وأخذ المركيز دى لامول يهتمّ بهذا العجيب . كان

فى بادىء الأمر يتقبل من چوليان ما يقع فيه من خطأ ، وكان فى ذلك مصدر سرور له ؛ ولـكنه سرعان ما أصبح يهتمّ بإصلاح أخطائه فى رفق وهوادة ، وينبهه إلى ما فى طرائقه وطباعه من شذوذ لا يليق بالحياة التى يحياها الآن . وكثيراً ما كان المركيز يقول فى نفسه: إن الريفيين الذين يفدون على باريس يعجبون بكل شىء ، أما هذا الشاب فيكره كلّ شىء ؛ فى طباعهم كثير من الزيف والتصنع ، أما هو فينقصه بعض هذا ، ولـكن الحمقى يعدّونه أحمق .

طالت أزمة المرض على المركيز من برد الشتاء فاستمرت شهوراً . وطالما حدث نفسه قائلا : كثيراً ما يتعلق الإنسان بكلب ، فأىّ ضير علىّ من أن أتعلّق بهذا الشاب ؟ وأىّ خزى يصيبنى من وراء ذلك ؟ إنه لفريد من نوعه . إنى أعامله معاملة الأب لابنه ، فلعمرى أى عيب فيم أعمل ؟ وإن دامت هذه النزوة كلفتنى ماسة ثمنها خمسمائة لويس ينالها چوليان بعد مماتى ، وأنصّ عليها فى وصيتى .

رأى المركيز صرامة خلق چوليان فعهد إليه كل يوم بأمر جديد . وارتاع چوليان حين رأى أن هذا السيد الخطير يعطيه قرارات متعارضة فى مسألة واحدة . وأدرك أنّ هذا قد يجر عليه متاعب لا حدّ لها ، فأخذ لا يعمل معه إلا وبيده سجلّ كبير يدوّن فيه القرارات ويوقّع عليه المركيز . واتخذ له كاتباً يدون القرارات الخاصة بكل مسألة على انفراد فى سجل خاص ، تـكتب فيه أيضاً صور الخطابات المتعلقة بها .

وبدا هذا النظام أول الأمر مصدر سخرية وإملال ، لـكن المركيز

أحس فائدته كاملة بعد شهرين من العمل به . واقترح عليه جوليان أن يتّخذ له كاتباً تعلّم عند صيرفيّ ليقيد جميع حساب الدخل والمنصرف لكل الأراضي التي يشرف جوليان على إدارتها .

وأضاءت هذه الإجراءات السبيل للمركيز في أموره المالية ، حتى قام بنفسه بعمليتين ماليتين ، دون أن يلجأ إلى من كان يقوم بهذه الصفات من قبل ؛ وقد تبين له أن هذا الشخص يسرقه . وقال المركيز يوماً ما لوزيره الشاب :

— خذ لنفسك ثلاثة آلاف من الفرنكات .

— سيّدي ، قد يعاب مسلكي إن فعلت هذا ، فغضب المركيز وسأله :

— ماذا تريد إذن ؟

— أن تتفضل فتكتب بخطك في السجل قراراً بإعطائي هذا المبلغ ؛ على أن الأب بيرار هو صاحب الفكرة في طريقة المحاسبة التي أسير عليها الآن . وتجهّم وجه المركيز كما يفعل المركيز دي مونكاد[1] ، وهو يصغي إلى حسابات السيد بواسون مدير أعماله ، ثم كتب لجوليان القرار .

ولما رجع إليه في المساء مرتدياً حلّته الزرقاء ، لم يتحدث إليه المركيز إطلاقاً في الأمور المادية ؛ وهذا حسن معاملة دائم من المركيز يرضي كرامة جوليان المعذبة دائماً إرضاء تاماً ، فشعر على الرغم منه برابطة نفسية قوية تربطه بهذا الشيخ الظريف . ولم تكن حساسيته السبب في هذا كما يذهب الباريسيون ، ولكنه لم يكن وحشيّ الخلق ، لم يتحدث إليه إنسان منذ مات الجراح العجوز بهذه الطيبة التي يظهرها له المركيز . وقد

(١) يشير ستندال هنا إلى مسرحية طالما شاهدها وهي تمثل وكثيرا ماذكرها في مؤلفاته هي : مدرسة البرجوازيين من تأليف دي ليتفال سنة ١٧٢٨ — المعرب —

لحظ أن يتحاشى جرح كبريائه بطرق لم يعهدها فى صديقه الجراح ، لأنها تنطوى على الأدب الكثير . وأدرك أخيراً أن الجراح كان أشد فخراً بوسام الصليب من المركيز بوسام الحبل الأزرق . وكان أبو المركيز سيداً له مكانته وخطره .

وفى جلسة من جلسات الصباح التى يرتدى فيها چوليان ملابسه السوداء ، سُرّ منه المركيز سروراً عظيما واستبقاه ساعتين ، وأراد أن يمنحه بعض أوراق مالية أحضرها له المتعامل باسمه من البورصة ، وأصر المركيز على أن يقبلها چوليان ، لكنه قال له :

— أرجو يا سيدى المركيز ألاّ أبتعد عن الاحترام العميق الذى أكنه لك إذا رجوتك فى أن تتفضل فتسمح لى بكلمة .

— تكلم يا صديقى .

— ليسمح لى سيدى المركيز أن أرفض هذه الهبة . إنّها لم تقدم إلى ذى الملابس السوداء ، وستفسد تماماً الطرق التى تتفضل فتغضى عنها حين تصدر من ذى الحلة الزرقاء . ثم حيّاه فى احترام كبير وانصرف دون أن ينظر إليه .

سُرّ المركيز كثيراً من هذا التصرف ، ثم قصه فى نفس المساء على الأب پيرار :

— يجب أن أعترف أخيراً لك بشىء يا عزيزى الكاهن . أنا أعرف نشأة چوليان ، وأرجو ألا يكون ما قلته لك سرا .

ثم قال فى نفسه : إن تصرفه معى هذا الصباح لا يصدر إلاّ

من شريف ، وأنا أعمل على أن يكون شريفاً .

واستطاع المركيز الخروج بعد ذلك بوقت قصير ، فقال لجوليان :

— إذهب لتقضي شهرين فى لندن . وسيحمل إليك البريد السريع وغيره الخطابات التى تصلنى وعليها ملاحظاتى . وستكتب أنت رد كل خطاب وترسله إلىّ ، على أن ترفقه بالخطاب . وقد قدرت أن التأخير لا يعدو خمسة أيام .

وكان جوليان فى طريقه إلى كاليه ، فأخذ يستعرض الأعمال التى كلف أداءها فى لندن فوجدها تافهة لا تحتمل هذه الرحلة .

ولا نريد أن نعرض إلى الكراهية والاحتقار اللذين استوليا على نفس جوليان حين وطأت قدماه الأراضى الإنجليزية ، لأن القارىء يعرف شغفه الكبير ببونابرت . فقد كان يرى فى كل ضابط تقع عينه عليه « السير هدسون لو » وفى كل سيد كبير لورد باثورست الذى ارتكب أموراً شائنة فى سانت هيلانه ، وكوفىء على ذلك بأن ظل وزيراً عشرة أعوام . رأى فى لندن الغطرسة بأجلى مظاهرها : وصادق شباباً من الروس كرام المحتد علّموه ما كان ينبغى له أن يعلم ، قالوا له :

— أنت قد أعددت خير إعداد يا عزيزنا سورل ، إن وجهك ليبدو فيه الفتور ولا تظهر عليه أبداً أحاسيس عصرنا ، وهذا ما نتمناه جميعاً لأنفسنا وقال له الأمير كورازوف .

— إنك لم تفهم القرن الذى تعيش فيه : إعمل دائماً عكس ما ينتظر منك . وأقسم لك أن هذا هو المبدأ الذى يسير عليه عصرنا الحاضر .

لا تكن مجنوناً ولا متصنعاً ، لأن الناس يتوقعون منك إذاً أعمالا جنونية أو زيفاً ، وعلى هذا فلن يتم تطبيق المبدأ .

نال چوليان مجداً كبيراً فى صالون الدوق فيتزفولك الذى دعاه هو والأمير كورازوف لتناول الطعام . فتأخر چوليان عن موعده ساعة كاملة . والطريقة التى اتبعها وهو يدخل على عشرين شخصاً ينتظرون قدومه جميعاً لا يزال يرددها كل الشبان من موظفى السفارات فى لندن ، إذ كان وجهه عجيباً إلى أبعد الحدود .

ذهب ليرى فيليب ڤان الرجل الشهير والفيلسوف الوحيد الذى ظهر فى انجلترا بعد لوك ، ذهب ليراه فى السجن وقد أتم السنة السابعة فى غياهبه ؛ وكان أصدقاء چوليان المدللون قد نصحوا له بألا يفعل فلم يستمع . ولما رأى ڤان قال فى نفسه : إن لا رستقراطية فى هذا البلد لا تعرف المزاح وفضلا عن هذا فإن ڤان مشرد محقر .

رآه چوليان رجلا مديد القامة ، يتميز غيظاً من الطبقة الأرستقراطية . فقال فى نفسه وهو يغادر السجن : هذا هو الرجل المرح الوحيد الذى لقيته فى انجلترا كلها .

قال له ڤان : الفكرة التى تقدم للطغاة أجل الخدمات هى فكرة الإله ... ولا نريد أن نعرض لبقية آرائه لأنها من بدع الفلاسفة .

ولما عاد إلى فرنسا سأله المركيز دى لامول :

— أى فكرة سارة حملتها إلىّ من انجلترا فسكت چوليان ، وعاد المركيز يقول فى قوة :

— أى فكرة سارة أو غير سارة حملت إلينا ؟

فأجاب چوليان :

— أولا : أكثر الإنجليز يجنّ ساعة فى كل يوم ، وشيطان الانتحار الذى يعد إلـه انجلترا يزوره و يتردد عليه .

ثانياً : الذكاء والعبقرية يفقدان ٣٥ ٪ من قيمتهما حينما يصلان إلى انجلترا .

ثالثاً : ليس فى العالم كله ما هو أجمل ولا أعجب ولا أدق من المناظر الطبيعية الإنجليزية .

— والآن — يقول المركيز — سأتحدث أنا إليك .

أولا : ما الذى حملك على أن تقول فى حفل الرقص الذى أقامه سفير روسيا : إن فى فرنسا ثلثمائة ألف شاب فى الخامسة والعشرين من عمرهم يودون من صميم أفئدتهم أن تشتعل نار الحرب ؟ أتعتقد أن قولك هذا يرضى الملوك ؟ !

— لا يعرف الإنسان فى الواقع كيف يتكلم مع كبار السياسيين فهم يتظاهرون بأنهم يفتحون باب مناقشات جديدة . و إذا اقتصر المسئول على الآراء العامة التي ترددها الصحف قيل عنه إنه غر أحمق ، وأما إذا سمح لنفسه بأن يقول جديداً صحيحاً ذهلوا ولم يعرفوا كيف يجيبون ، وفى الساعة السابعة من صباح اليوم التالى يرسلون إليه السكرتير الأول للسفارة ليقول له: إنك قد جاوزت الحد . فضحك المركيز قائلا :

— لا بأس . ولكنى أراهن أيها السيد البعيد النظر على أنك لم تعرف سبب ذهابك إلى انجلترا .

— معذرة سيدى ، فقد ذهبت إليها لأتناول العشاء مرة كل أسبوع على مائدة سفير الملك الذى أعده أكثر الناس أدبا .

— ذهبت لتبحث عن هذا الوسام . لا أريد أن أحملك على أن تتخلى عن ثيابك السوداء ، ولقد اعتدت تلك اللهجة المسلية التى أتحدث بها مع الرجل ذى الثوب الأزرق . أصغ إلىّ واعمل بما أقول حتى أصدر إليك أوامر أخرى : حينما أحصل على هذا الوسام ، ستكون الابن الأصغر لصديقى الدوق دى شون ، وهذا الابن موظف فى السلك السياسى منذ ستة شهور على غير علم منه . ثم استطرد المركيز يقول فى لهجة جادة لا تظرف فيها : لاحظ أنى لا أرغب فى أن أحملك على التخلى عما أنت فيه ، لأن هذا خطأ ونحسٌ يقع فيهما ولىّ النعمة والمولى . ثم قال فى لهجة جافة : وحينما تزهد فى قضاياى أو أستغنى أنا عن خدماتك ، سأطلب لك خورية تدرّ عليك الرزق كخورية صديقنا الكاهن پيرار ، لا أكثر من ذلك ولا أقل .

أرضى هذا الوسام كبرياء جوليان ، وأخذ يتكلم كثيراً أكثر من ذى قبل . واعتقد أن الإهانات أصبحت لا تتناوله فى سهولة ، وأخذ يزهو بما يقول ، وإن كان بعض كلامه لا يخلو مما يجانب الأدب حين يكون النقاش حاداً حامى الوطيس ، مثله فى هذا مثل الناس جميعاً .

وسبّب له هذا الوسام زيارة ما كانت تخطر له على بال ، فقد أتى إليه البارون دى ڤالنو الذى وفد إلى پاريس ليشكر أولى الأمر على البارونية ويتفاهم معهم . وكان البارون على وشك أن يعين عمدة لڤرييز بدلا من السيد دى رينال .

وكم ضحك چوليان فى نفسه حين أخبره البارون دى ڤالنو أنهم قد اكتشفوا أن السيد دى رينال يعقوبى ثائر . والحقيقة هى أن انتخابات جديدة كانت تعدّ ، وكان البارون الجديد مرشح الحكومة ، وفى أكبر مدرسة فى المقاطعة تعرف بالمغالاة ، ناصر الأحرار السيد دى رينال وحاول چوليان عبثاً معرفة بعض أخبار مدام دى رينال ، لأن البارون على ما يظهر كان لا يزال يذكر المنافسة القديمة بينهما من أجلها ، فلم يقل له شيئاً . وانتهى الحديث بينهما بأن طلب البارون من چوليان صوت أبيه فى الانتخابات التى ستجرى بعد قليل ، فوعده چوليان بأنه سيكتب إلى أبيه . ثم قال البارون :

— عليك يا سيدى الفارس أن تقدمنى إلى المركيز دى لامول .

فقال چوليان فى نفسه : يجب ذلك فى الواقع ولكن يا له من وغد ! . . . .

ثم قال للبارون :

— فى الحقيقة أننى أشغل مركزاً متواضعاً جداً فى قصر المركيز ، لا يسمح لى بأن أقدم إليه أحداً .

ثم أخبر المركيز بكل ما حدث ، وقص عليه فى المساء غرور ڤالنو وكل حركاته وأعماله منذ عام ١٨١٤ . فقال له المركيز فى جد :

— غداً تقدم إلىّ البارون الجديد وسأدعوه لتناول الطعام بعد غد ؛ إنه سيكون واحداً من حكام مقاطعاتنا الجدد .

فأجابه فى فتور :

— إذا عيّن البـارون حاكما فإنى أطالب بوظيفة مدير صندوق الإحسان لوالدى .

فقال المركيز فى مرح ظاهر :

— لك ما تريد ؛ كنت أتوقع سماع محاضرة فى الأخلاق ، لـكنك بدأت تدرك الأمور وتجارى الحوادث .

أخبر السيد ڤالنو جوليان أن رئيس مكتب « اليانصيب » قد مات ؛ فأراد جوليان أن يسند هذا المنصب إلى السيد شولان ، ذلك الشيخ الأحمق الذى كتب طلباً إلى المركيز يرجوه فيه إسناد هذا المنصب إليـه ، وقد عثر عليـه جوليان فى الغرفة التى كان يشغلها المركيز بمنزل السيد دى رينال . ضحك المركيز ضحكا شديداً وجوليان يقرأ عليه طلب شولان ، وهو يوقع خطاباً إلى وزير المالية يطلب لشولان فيه هذا المنصب .

ولم يكد السيد دى شولان يعيّن حتى علم جوليان أن وفداً من المقاطعة طلب هذا العمل للسيد « جرو » الرياضى الشهير ، الذى لا يزيد دخله على ألف وأربعمائة فرنك فى العام ، وكان يستدين سنوياً من المدير

المتوفى ستمائة فرنك ليواجه بها نفقات أسرته .

ذهل جوليان ذهولا شديداً مما فعل ، لـكنه قال فى نفسه : ليس فيما فعلت ضير علىّ ، وسأرتـكب مظالم أخرى إذا أردت أن أصل إلى ما أرمى إليه . على أن أخفيها تحت ستار عاطفى فأقول : مسكين السيد جرو ! إنه هو الذى يستحق الوسام الذى أحمله ، وعلىّ أن أعمل وفق أهواء الحـكومة التى منحتنى هذا الوسام .

الفصل الثامن

آية زينة تجلب الفخار ؟

[قالت العبقرية الظمأى : إن ماءك لا يرويني ومع ذلك فالبئر أعذب آبار ديار بكر] .

بليكو

عاد جوليان يوماً من أرض ڤيلـيـكيه الجميلة على شاطئ السين ، تلك الأرض التي يعنى بهـا المركيز عناية شديدة ، لأنها كانت ملـكاً من قبل للرجل الشهير بونيفاس دى لامول ، فلما عاد ألفى المركيزة وابنتها قد رجعتا من هيير .

أصبح جوليان الآن شاباً مولعاً بالزينة ، يتقن فنّ الحياة فى باريس . وقد أبدى فتوراً تاماً حين رأى الآنسة دى لامول ، وتظاهر بأنه لم يبق فى ذاكرته أى أثر من أسئلتها الـكثيرة المرحة التى كانت توجهها إليه لتعلم تفاصيل سقوطه عن ظهر الجواد . ثم لحظت الآنسة دى لامول أنه قد طالت قامته وازداد شحوب وجهه فأصبحت هيئته وطريقته فى كل مايأتى به لا تنمان عن شيء من عادات أهل الريف ؛ أما حديثه فلا يزال مصطبغاً بصبغته الريفية القديمة . . . فيه كثير من الجدّ ، ويواجه الواقع من الأمور وفضلا عن هذه الصفات الجميلة فإن حديثه ليس فيه شيء من ذلة المرءوس للرئيس ، لما جبل عليه من عزة وكبرياء . ثم رأت أنه لا يزال يعلق أهمية

كبرى على كثير من الأشياء ، ولكنه كان يؤيّد مايقول . فقالت لأبيها ، وهى تداعبه فى أمر وسام جوليان :

— تنقصه يا أبى الخفة وإن كان يزينه العقل . لقد طلب منك أخى هذا الوسام ثمانية عشر شهراً متصلة ، وهو من أسرة دى لامول ! . . .

— أجل يا بنيتى ، ولكن جوليان يأتى بما لا يتوقع من الأمور ، وهو ما لا يستطيعه من تتحدثين عنه من أسرة دى لامول .

وأعلن الخادم قدوم الدوق دى ريتز .

فأحست ماتيلد فى الحال بملل لايقاوم ، لأنها تعرف ما يملأ صالون أبيها من عاديّات مذهبة ومن يغشاه من الناس . وكانت فى هيير تعرف مقدار السأم الذى سيستولى عليها حين تعود إلى باريس ، ومع ذلك فكم أسفت على فراقها باريس .

قالت فى نفسها : ومهما يكن من أمر ، فأنا فى التاسعة عشرة ! إنها سنّ السعادة ، كما يزعم أولئك الحمقى فى كتبهم ذات الجوانب المذهبة . ثم أخذت تنظر إلى ثمانية مجلدات أو عشرة من الشعر الحديث أحضرت أثناء رحلتها فى « پروڤنس » ، ووضعت فوق قطعة من أثاث الصالون .

وكان من سوء حظها أنها أكثر ذكاء من السادة دى كروازينوا ، ودى كالوسى ، ودى لوز و باقى أصدقائهم . وأخذت تتنبأ بما سيقولون حين يلقونها ، فإن ما سيقولون لن يعدو جمال سماء البروڤنس والشعر وجنوب فرنسا . . . ولحظت عيناها الجميلتان جوليان ، عيناها الفاتنتان اللتان يشع منهما الملل الموجع ، وما هو أدهى من الملل وأشدّ ، يشع منهما

يشع منهما القنوط من وجدان اللذة والسرور . فأخذت تقول فى نفسها : إنه على الأقل ليس كغيره من الشبان . ثم قالت له فى صوت قوى موجز العبارات ليس فيه شىء من صفات اللائى ينتمين إلى الطبقة الراقية :

— يا سيّد سورل ، هل ستشهد الليلة مرقص الدوق دى ريتز ؟

— إننى يا آنستى لم أنل شرف التعرف بالدوق . ونطق هذه الكلمة بطريقة يخيل إلى السامع أنها قد جرحت فمه .

— لقد طلب من أخى أن يصحبك إلى المرقص ، وحينما نلتقى هناك فستحدثنى عن أرض فيلكييه وتمدنى عنها بمعلومات ، لأننى أريد أن أذهب إليها فى الربيع . أحب أن أعرف هل يصلح القصر للسكنى ، وهل الضواحى جميلة حقاً كما يصورونها ، لأن الشهرة فى كثير من الحالات لا تطابق الواقع ! . . .

وسمع جوليان هذا ، فلزم الصمت . فقالت بلهجة جافة :

— تعال إلى حفلة الرقص مع أخى .

فحياها فى احترام شديد ، ثم قال فى نفسه : حتى فى حفلة الرقص ينبغى أن أدلى إلى أفراد الأسرة بمعلومات . ولم لا ؟ ألست آخذ أجراً على أننى من رجال الأعمال ؟ ثم استمع إلى وحى نفسه التى لم تكن صافية ، فكانت تقول : يعلم الله ما إذا كان ما أفضى به إليها لا يعوق مشروعات أبيها ، أو أخيها أو أمها ! هذا القصر كأنه بلاط أمير من الأسرة المالكة . يجب أن يلغى المرء نفسه تماماً ، على ألا يعطى أى إنسان سبيلا لأن يشكو .

استدعت المركيزة إبنتها لتقدمها إلى بعض صديقاتها ، فنظر إليها چوليان وهى تسير ثم قال : كم أكره هذه الفتاة المديدة القامة ! إنها تبالغ فيما تلبس ، وثوبها لا يعلق بكتفيها . . . هى أكثر شحوباً مما كانت عليه قبل رحلتها . . . يا لهذا الشعر الباهت من كثرة الشقرة ! يخيل إلى المرء أن الضوء لا يتخلله ! . . . لشد ما فطرت على كبرياء تبدو وهى تحيي الناس . . . ثم وهى تنظر إليهم ! إن حركاتها حركات ملكة ! . .

نادت الآنسة دى لامول أخاها ساعة غادر الصالون . واقترب الكونت نور بير من چوليان قائلا له :

— أين تريد أن ألقاك يا عزيزى سورل عند ما ينتصف الليل لتذهب معى إلى مرقص الدوق دى ريتز ؟ لقد شدّد علىّ فى ضرورة حضورك . فقال چوليان وهو يحييه فى إكبار كثير :

— أنا أعرف لمن أنا مدين بهذه الرعاية الكبيرة .

ثم دفعه سوء مزاجه إلى التفكير فيما قاله له نور بير ، فرأى أنه ينطوى على الأدب والاهتمام به ؛ ولما استرجع ما قاله هو رأى أنّ إجابته عن هذه الكلمة الطيبة الرقيقة فيها شىء من الانحطاط .

ووصل إلى المرقص فى المساء ، فذهل لروعة قصر الدوق دى ريتز وفخامته : فناؤه مغطى كله بنسج من الكتان قرمزى على شكل خيمة كبيرة ، علقت فى سمائها نجوم من الذهب ، فدل هذا على روعة وأناقة . وتحوّل الفناء إلى غابة آهلة بأشجار البرتقال وأزهار الزقوم . ووضعت فيه أوان كثيرة على الأرض بعناية تخيل للناظر أن هذه الأشجار مغروسة

فى أرض الفناء نفسها . أما الطريق الذى تسير فيه العربات فقد كان مفروشاً بالرمال .

ورأى هذا الشاب الريفى ذلك المنظر خارقاً للعادة ، لأنه لم يألف مثل هذه الروعة ولم ير لها نظيراً فاضطرم خياله حتى فارقه غضبه وحزنه . وكان نور بير مرحاً كل المرح وهو قادم إلى المرقص فى صحبة چوليان الذى يبدو عليه هم وكآبة ، ولكنهما ما دخلا الفناء حتى تبدل حالهما ، فرأى نور بير أشياء صغيرة لم يعن بها العناية الكافية وسط هذه الزينة الفخمة فانتقدها ثم أخذ يقدر تكاليف كل ما يراه حتى إذا ما بلغ الرقم حداً عالياً ، رأى چوليان الغيرة تدب فى نفسه و يملك قلبه الغضب .

وصل چوليان إلى الصالون الأول الذى يدور فية الراقصون فأعجب به كل الإعجاب وتنازعه إكبار وشيء من خجل لفرط ما تأثر بسحر هذه الزينة وذلك الزخرف . وكان الناس مزدحمين على باب الصالون الثانى ازدحاماً شديداً ، فلم يستطع أن يتقدم خطوة واحدة ، وكانت زينة هذا الصالون تمثل منظر الهمبرا بغرناطة . وطرق سمع چوليان حديث من شاب ذى شارب كان ملاصقاً له بحيث تمس كتفه صدر چوليان فسمعه وهو يقول لجاره :

— إنها ملكة المرقص ما فى ذلك شك .

فقال الجار : إن الآنسة فورمون ، التى ظلت طول الشتاء أجمل فتاة ، ترى أنها أصبحت فى المكان الثانى ، أنظر إلى هيئتها العجيبة .

— حقاً إنها تستخدم كل وسيلة لتسحر الناس . أنظر إلى بسمتها

الساحرة حين تكون وحدها فى الرقص . هذا شرف بعيد المنال .

— والآنسة دى لامول تظهر بمظهر المسيطرة على نفسها وذلك لسرورها بانتصارها الذى تدركه تمام الإدراك . ويبدو عليها أنها تخشى من أن يعجب بها من تتحدث إليه .

— حسناً جداً ! ذلك هو فن الإغراء .

حاول جوليان عبثاً أن يرى الفتاة الساحرة التى تحدثا عنها ولكن ثمانية رجال أطول منه قامة حالوا بينه وبين رؤيتها . ثم عاد ذو الشارب يقول :

— إن فى التواضع النبيل الذى تظهر به لدلالا وفتنة .

— وهاتان العينان الكبيرتان الزرقاوان تغضان البصر قليلا حين تعتقد أنهما ستفضيان بما فى نفسها . ليس فى بنات حواء أمهر منها؛ وأقسم على ذلك . فقال شاب ثالث :

— إن الآنسة فورمون الجميلة لا تعد شيئاً بجانبها .

— وكأن هيئتها تقول : كم أقدم إليك من لذة وسرور ، لو أنك كنت الرجل الذى يستحقنى !

— ومن ذا الذى يستطيع أن ينال ما تيلد الرائعة ؟ أمير من أمراء البيت المالك ، جميل ، ظريف ، ممشوق القوام ، بطل فى الحرب ، لا يزيد عمره على خمسة وعشرين عاماً .

— أو الإبن الطبيعى لإمبراطور روسيا . . . على أن يتولى الحكم

إكراماً لهذا الزواج . . . أو على الأقل الـكونت دى تالير بمظهره الذى ينم عن ريفى أنيق الملبس .

ثم خفت وطأة الزحام على الباب فاستطاع چوليان أن يدخل الصالون . وقال فى نفسه : يجب أن أفحصها عن قرب ما دامت تعدّ فاتنة فى نظر هذه الدّمى ، لأرى مثل الجمال الأعلى فى نظر هؤلاء الشبان . وجعل يبحث عنها بعينيه فأبصرته ما تيلد . فقال فى نفسه : إن الواجب ينادينى ، وقد كانت نفسه خالصة من الغضب والحزن ، بحيث لم يبق لهما أثر إلا على مظهره فحسب . ودفعه حب الاستطلاع إلى أن يتقدم نحوها فى سرعة وسرور ، وزاد فرحه حين رأى ثوبها وقد كشف عن كتفيها ، وإن كان يرى أن هرولته إليها لا ترضى كرامته . وأخذ يقول فى نفسه : إن جمالها لينطوى على الشباب . وقف بينه و بينها خمسة من الشبان أو ستة عرف من بينهم أولئك الذين كانوا يتحدثون عنها بالباب . وخاطبته ماتيلد قائلة :

— لقد كنت هنا يا سيدى طول الشتاء ، ألست توافقنى أن هذه الحفلة خير حفلات الموسم ؟ لـكنه لم يجب ، فاستطردت تقول .

— ورقصة كولان هذه بديعة حقاً ، وكم تجيد رقصها السيدات .

فتلفّت الشبان ليروا الرجل السعيد الذى تلح عليه الآنسة دى لامول فى أن يجيبها لـكنهم سمعوه يجيب إجابة غير مشجعة .

— لست أصلح حكما فى هذا يا سيدتى ، لأننى أقضى حيـاتى فى الـكتابة . وهذا أول مرقص أغشاه فأرى الزينة البديعة الرائعة .

فارتاع ذوو الشوارب مما أجاب . وقالت ماتيلد فى لهجة تدل على إهتمامها به :

— أنت حكيم يا سيد سورل ، و إنك لترى هذه المراقص ، وتشهد الأعياد والحفلات كما يراها الفيلسوف وكما كان يراها من قبل جان چاك روسو . فهذه الحماقات تدهشك أكثر مما تغريك . فأجابها قائلا :

— أنا أعدّ چان چاك روسو أحمق حين يحكم على الطبقة الراقية ، إنه لم يستطع أن يفهمها ، فكأنه فى أحكامه خادم حديث العهد بالثراء .

فقالت فى لهجة كلها إجلال :

— لقد كتب العقد الاجتماعى .

— على أنه يدعو إلى الجمهورية و إلى القضاء على الملكية . وكم كان هذا المحدث ثملا بالسعادة لو تفضل دوق فغيّر اتجاه نزهته بعد العشاء ليرافق صديقاً من أصدقائه .

فقالت فى لذة من يفتخر بعلمه ، لأنها فى نشوة بما تعلم ، وكأنها عضو المجمع الذى اكتشف وجود الملك فيريتريوس :

— آه ! نعم ، دوق لوكسمبورج فى مونمورانسى حين اصطحب سيّدا يدعى كوانديه إلى ناحية پاريس . . .

ولكن نظرات چوليان ، ظلت عميقة قاسية ، فأثر فيها فتوره تأثيراً كبيراً ، وزايلتها الحماسة . وعجبت لأنها هى التى اعتادت أن تحدث هذا الأثر نفسه فى نفوس الآخرين .

وهنا أقبل المركيز دى كروازنوا مسرعاً نحو الآنسة دى لامول . وظل

واقفا لا يفصله عنها إلا ثلاث خطوات ، ولـكنه لم يستطع التقدم لشدة الزحام . فنظر إليها وابتسم لأنه لا يستطيع الوصول إليها ، وكانت المركيزة دى روفراى الشابة على مقربة منه ، وهى ابنة عم الآنسة ما تيلد . وقد أمسك زوجها بذراعها ، وقد تزوجها منذ خمسة عشر يوماً . والمركيز دى روفراى شاب صغير السن ، ينبعث من عينيه حب أبله ، بعد أن تزوج زيجة لا يد له فيها ، وإنما هى من صنع الـكتّاب الحاسبين ، زواج المصلحة ، إلا أنه وجد زوجته جميلة جداً فأحبها . وسيصبح هذا الزوج دوقاً بعد أن يموت عمه الذى بلغ من الـكبر عتياً .

كان المركيز كروازينوا يبتسم لماتيلد ولا يستطيع الاقتراب منها من شدة الزحام ، وكانت هى قد سلطت عليه وعلى أصدقائه عينيها الـكبيرتين اللتين تحاكيان زرقة السماء وقالت فى نفسها : ما أكثر بلادة هؤلاء الشبان وما أقل أهليتهم ! هاهو ذا كروازنوا الذى يريد أن يتزوجنى؛ إنه لظريف مؤدب ، كريم الخصال مثل دى روفراى . ولولا أن هؤلاء السادة يبعثون الملل فى النفوس لـكانوا على جانب كبير من الرقة والظرف . لو تزوجنى لتبعنى إلى المرقص بدوره ، يبدو عليه الرضا وتشع من وجهه تلك الدلائل التى تدل على ضيق الأفق . ثم بعد عام من الزواج ، أنعم بعربة وجياد وثياب وقصر على بعد عشرين فرسخاً من باريس ، ولـكن ماقيمة هذا كله بالنسبة إلىّ ؟ هذا الثراء يرضى حاجة امرأة حديثة العهد بالغنى ويشبع نفس سيدة كالـكونتس دى ردافيل .

ودبّ إلى نفسها الملل من كثرة ما أمّلت . واقترب منهـا المركيز

دى كروازنوا ، وأخذ يتحدث إليها ؛ ولكنها كانت عنه فى شغل بأحلامها ، كان صوت كلماته يختلط بضوضاء المرقص دون أن تعى آذانها كلمة واحدة مما يقول . وأخذت تنظر إلى چوليان فى غير وعى ، بعد أن ابتعد عنها فى احترام كبير فيه غضب وكبرياء . ورأت فى ركن بعيد عن الجمهور الكونت ألتاميرا الذى حكم عليه بالإعدام فى بلده ، والذى عرفه القارئ من قبل . وكانت إحدى قريبات الكونت قد تزوجت أيام لويس الرابع عشر من أمير يدعى دى كونتى ، لحمته هذه الرابطة من شر رجال الشرطة .

ولما رأته ماتيلد قالت فى نفسها : لا أكبر إلا رجلا يحكم عليه بالإعدام ، فهذا هو الشىء الوحيد الذى لا يشترى ولا ينفع فيه مال . آه ! هذه كلمة طيبة تلك التى قلتها الآن ! يا للخسارة ، ليتنى قلتها فى مناسبة أخرى على مسمع من الناس لتجلب لى فخاراً ! كانت ماتيلد ذات ذوق حسن فى تنسيق جملة حسنة الوقع — صاغتها من قبل — فى حديثها ، ولكنها كانت من ناحية أخرى شديدة الكبرياء راضية عن نفسها دائماً . وعند ما قالت هذه الكلمة حلّ محل الملل شعاع من السعادة والسرور ، فظنّ المركيز كروازنوا الذى لا يزال يتكلم إليها أنها تتقبل كلامه قبولا حسناً ، فزادت ثرثرته ولم يسكت عن الحديث . على حين كانت هى لا تزال تقول فى نفسها : من هذا اللعين الذى يستطيع أن يعترض على ما قلت ؟ إنى أردّ على نقده بأن أقول : إن لقب بارون أو فيكونت يشترى بالمال ؛ والصليب يوهب ، فقد ناله أخى ، فما الذى

فعله ليستحق الصليب ؟ والرتبة تنال ، إذا قضى الإنسان عشرة أعوام فى ثكنة ، أوكان وزير الحربية أحد أقاربه ، أوكان رئيساً لكتيبة من الكتائب مثل نور بير ، أوكان واسع الثروة ! . .

على أن الشرط الأخير أصعب الشروط . إذاً فهو أقواها . هذا أمر عجيب يناقض تماماً ما نجده فى الكتب . . . إن من يبحث عن الثروة عليه أن يتزوج ابنة السيد روتشلد .

حقاً إن جملتى لها قيمتها ومغزاها . والحكم بالإعدام هو الشىء الوحيد الذى لا تنفع فيه الشفاعة . ثم سألت محدثها المركيز :

— أتعرف الكونت ألتاميرا ؟

كان يبدو عليها أنها تحلق فى آفاق بعيدة ، لأن سؤالها بعيد كل البعد عما كان يتكلم فيه المركيز التعس منذ خمس دقائق . فجرحت كرامته دون أن تقصد . ولكن المركيز كان شاباً ذا فطنة عرف بها بين أقرانه .

قال فى نفسه : إنها غريبة الأطوار ، وهذه نقيصة فيها ، ولكنها تكفل لزوجها مركزاً اجتماعياً فريداً ! لا أدرى ماذا يفعله المركيز دى لامول ؛ إن علاقته وطيدة مع أحسن شخصيات الأحزاب كلها ، وهو بعد رجل لا تفنى شخصيته ولا ينسى . على أن هذه الغرابة التى تظهر فى ماتيلد قد تفسّر بالعبقرية . . والعبقرية ليست سخرية إذا زانها كرم المحتد والغنى العريض ، هى فضيلة كبرى ! وماتيلد ، إذا أرادت ، كانت ذات فطنة وخلق وصلاحية ، وتلك هى الصفات التى تخلق الظرف فى أتم معانيه . . . .

من العسير أن يتقن الإنسان عمل شيئين فى آن واحد ، لقد أجاب المركيز عن سؤال ماتيلد بطريقة تافهة وكأنه يلقى درساً . قال لها :

— ومن ذا الذى لا يعرف هذا البائس التاميرا ؟ ثم أخذ يقص عليها أمر مؤامراته الفاشلة التى ينكرها العقل وتدعو إلى السخرية كما وصفها لها نور بير . فقالت فى صوت منخفض كأنها تحدث نفسها :

— فى منتهى السخف ؟ ثم قالت للمركيز كأنها ترد على كلامه :

— أريد أن أراه ، فأحضره إلىّ . فجرحت هذه الكلمات المركيز جرحاً بليغاً .

كان الكونت ألتاميرا من المعجبين إعجابا شديداً بتعالى الآنسة دى لامول ، ذلك التعالى الذى قد يبلغ مبلغ القمة ، وكان يعدها من أجمل فتيات باريس . من أجل ذلك ، أسرع فى الذهاب مع المركيز وقال له :

— كم تكون رائعة لو تربعت على عرش من العروش !

كثير من الناس يرون أن ليس فى العالم ما هو أشر من التآمر ؛ لأنهم يرون فيه تمرداً . وأى شىء أقبح من العصيان الذى يقضى عليه بالفشل ؟

كانت نظرات ماتيلد تنم عن السخرية لحديث ألتاميرا مع دى كروازنوا ، هذا الحديث الذى دلّ على الحرية وأنصتت إليه فى لذة وسرور .

وكانت تقول فى نفسها : إن وجود متآمر فى مرقص لتناقض جميل .

ثم نظرت إلى ألتاميرا ، فرأت شاربه الأسود ، ووجهه كأنه أسد ربض ليستريح ، ولكنها سرعان ما أدركت أن فطنته تنحصر فى حالة واحدة : المنفعة ، الإعجاب بالمنفعة .

كان هذا الكونت الشاب لا يعنى إلا بشيء واحد هو أن يتيح لبلاده حكومة نيابية ، ثم لا يهمه شيء بعد ذلك . ولم يكد ألتاميرا يرى چنرالا من پيرو ، حتى أسرع فترك ما تيلد أجمل فتاة فى المرقص ، لأن التعس كان قد وصلت به حاله إلى حدّ أن يئس من أوروبا كلها وهداه التفكير إلى أن ولايات أمريكا الجنوبية تستطيع أن تعيد إلى أوربا الحرية التى حققها لها ميرابو حينما تصبح هذه الولايات قوية فتية .

التفّت جماعة من الشبان ذوى الشوارب حول ما تيلد التى أدركت أن سحرها لم يؤثر فى نفس الكونت ألتاميرا ، وغضبت لانصرافه عنها ، وكانت ترى عينيه السوداوين تفيضان بالحماسة وهو يتحدث إلى الچنرال . وكانت تنظر إلى هؤلاء الشبان الفرنسيين نظرات جدّ عميق تتقن فنه الإتقان كله وتعجز عنه غريماتها . وأخذت تسائل نفسها : مَن مِن هؤلاء الشبان يستطيع أن يُقدِم على عمل يؤدى إلى أن يحكم عليه بالإعدام ، مهما يكن مقتنعاً بأن الأمور فى صالحه كلها ؟

وكانت نظراتها الغريبة هذه ترضى شعور أولئك الذين فطروا على ذكاء قليل ، وإن أقلقت الآخرين الذين خافوا خوفاً عظيما أن تصدمهم عبارة قاسية من هذه الغادة أو يعييهم جواب عن سؤال توجهه إليهم .

واستمرت تقول فى نفسها : إن كرم المحتد يتيح للانسان صفات كثيرة تسرّ النفوس لا أجدها مثلا فى چوليان ، ولكن شرف الأصل يقضى على صفات النفس التى تدفع المرء إلى أعمال تؤدى إلى أن يحكم عليه بالموت .

وفى هذه اللحظة ، كان يتحدث على مقربة منها شخص وهو يقول : الكونت ألتاميرا هو الابن الثانى لأمير سان نزار و پيمنتل ، وقد أراد أحد أفراد أسرة پيمنتل أن ينجى كونرادان من الموت حيث شنق عام ١٢٦٨ . وهذه أسرة من أشرف أسر ناپولى .

فقالت ما تيلد فى نفسها : هذا برهان يؤيد نظريتى حين أقول : إن المحتد الكريم ينزع من النفوس قوة الخلق ، التى لولاها ما استطاع الإنسان أن يقدم على ما يؤدى إلى الحكم عليه بالموت ! لقد كتب علىّ الليلة إفلاس فى التفكير ، وما أنا إلا امرأة كغيرى من النساء ، إذاً فلأرقص . وأجابت المركيز إلى طلبه بعد أن ظلّ يلحّ عليها ساعة فى أن تراقصه . وأرادت أن تشغل نفسها عما أصابها من فشل فى الفلسفة ، فعملت على أن تكون فاتنة مغرية تلعب بالقلوب ، ولشد ما سرّ دى كروازينوا سحرها ودلالها !

غير أن الرقص والرغبة فى أن تملك قلب رجل من خير رجال البلاط لم يرفها عنها . لقد نالت نجاحاً منقطع النظير ، فكانت ملكة المرقص ؛ وأدركت هذا كل الإدراك ، لكنها لم تأبه له .

وتحدثت إلى نفسها قائلة حين عاد بها المركيز إلى مكانها بعد أن رقصا ساعة : أى حياة تافهة سأحياها مع شخص مثل كروازينوا !.. واستطردت تقول فى حزن : أين السرور الذى ألقاه ، بعد أن غبت عن باريس ستة شهور ، لم أجده فى هذا المرقص الذى تتشهاه كل امرأة فى باريس ؟ وإن كنت أسمع فيه ثناء كثيراً من طبقة راقية لا يصوّر لى الخيال خيراً منها . . . مرقص ليس فيه من الطبقة البرچوازية إلا بعض أعضاء المجلس الأعلى ، وربما كان فيه واحد أو اثنان مثل چوليان . ثم ازداد حزنها فقالت : ومع ذلك فأى شىء ضنّ به القدر علىّ : أنا أتمتع بالجاه والثراء والشباب ! وا أسفاه ! لقد أعطانى كل شىء ثم حرمنى من السعادة .

وأقوى صفاتى هى تلك التى تحدثوا إلىّ عنها الليلة ، ويخيّل إلىّ أننى على جانب كبير من الذكاء لأنهم يخافوننى جميعاً . وإذا واتتهم الشجاعة فطرقوا موضوعاً جدياً ، فإن حديثهم لا يدوم أكثر من خمس دقائق تضيق بعدها نفوسهم ، وكأنهم قد وصلوا إلى اكتشاف عظيم فى أمر ظللت أتحدث إليهم فيه ساعة كاملة : أنا جميلة ، وهذه ميزة أخرى ودت مدام دى ستايل أن تضحى بكل شىء فى سبيلها ، ومع ذلك كلّه يكاد يقتلنى السأم وهل هناك ما يحملنى على الاعتقاد بأننى حين أغيّر اسمى باسم دى كروازينوا فإنى أشعر بملل أقل مما أشعر به الآن ؟..

وودت لو أنها بكت ثم قالت : ولكن يا إلهى ! ليس هو بالرجل

الكامل ؟ إنه تحفة من تحف تربية قرننا الحاضر ؛ لا يقع بصر المرء عليه إلا رأى فيه شيئاً ينم عن ظرف وعن ذكاء كذلك ، وهو شجاع . . . .

ثم زايلها الحزن واستولى عليها الغضب وقالت : ولكن سورل هذا شاب عجيب . لقد قلت له إني أريد أن أتحدث إليه ، ولكنه لا يسمح بالحضور إلىّ مرة ثانية !

الفصل التاسع

المرقص

[يا لروعة الثياب وبهجتها ولضياء الشموع وشذى العطور ، ولتلك الأذرع الجميلة ، والأكتاف الجذابة وباقات الأزهار ، وموسيقى روسيني وصورسيري !
أنا لا أسيطر على نفسي حين أرى كل هذا ! .]
رحلات أوزيري

قالت المركيزة دى لامول لابنتها : إنى أراك غضبى ، وهذا ما لا يستحسن فى مرقص ، وقد أعذر من أنذر . فأجابتها ماتيلد فى ازدراء :

— إنى لا أشعر إلا بصداع ، لأن الجو هنا شديد الحرارة . وفى هذه اللحظة شعر البارون الشيخ دى تولى بوعكة سقط على إثرها ، وكأنه إنما فعل هذا ليؤيد كلام الآنسة دى لامول ، فاضطر بعض الحاضرين إلى حمله خارج المرقص . وقد قيل إنه أصيب بالسكتة فأحدث هذا فى نفوس الحاضرين أثراً سيئاً .

أما ماتيلد فلم تعبأ بما جرى ، لأنها أخذت على نفسها من قبل ألا تعبأ بالشيوخ ولا بالشخصيات الكبيرة إذا ما نزلت بهم نازلة حتى تعفى نفسها من العطف والرثاء . ثم أخذت ترقص لتفرّ من الحديث عن السكتة القلبية التى لم تكن سكتة ، لأن البارون ظهر بين الناس بعد يومين

وفرغت من الرقص فقالت : ولكنّ السيد سورل لم يأت بعد . فبحثت عنه بعينيها ، حتى عثرت عليه فى صالون آخر . ولشد ما دهشت حين رأت مظهره لم يعد يدلّ على الفتور الذى يوحى بأنه ثابت الجنان لا يؤثر فيه شىء وأن ذلك طبع فيه ، لم تعد تبدو عليه الصبغة الإنجليزية . فقالت : إنه يتحدث مع الكونت ألتاميرا الذى حكم عليه بالموت ! وعيناه يبدو فيهما شعاع غريب ، كأنه أمير متنكر ؛ وفى نظراته كبر أكثر من قبل .

اقترب چوليان من مكان ماتيلد ، وهو لا يزال يتحدث إلى الكونت فأخذت تنظر إليه فى ثبات محاولة أن تتبين فى وجهه تلك الصفات الرفيعة التى تؤهل الرجل لأن يحكم عليه بالإعدام .

ومر چوليان بها وهو يقول للكونت :

— نعم ، لقد كان مانتون رجلا ! فقالت فى نفسها :

— أيصبح مثل دانتون فى يوم من الأيام ! ؟ إن وجهه يدل على النبل ، أما دانتون فقد كان قبيحاً جداً ، . . . وكان وجهه وجه جزار على ما أعتقد . وكان چوليان لا يزال على مقربة منها ، فلم تتردد فى أن تناديه ، وألقت عليه سؤالا تعرف تماماً أنه لا يجدر بفتاة أن تسأله ؛ ولكن كبرها دفعها إلى أن تقول :

— ألم يكن دانتون جزاراً ؟

فقال لها چوليان فى لهجة ازدراء لم يحاول أن يخفى ما فيها ، ونظراته تنم عن قوة وحيوية ، بقيتا من أثر حديثه مع الكونت ، قال لها :

— نعم ، يعدّه بعض الناس كذلك ، ولكنه كان محامياً فى ميرى سيرسين ، وهذا ما لا يرضى أرباب الحسب والنسب مع الأسف الشديد ، ثم استطرد فى لهجة شرسة : ومعنى هذا يا آنستى أنه بدأ حياته كما بدأها كثير من أعضاء المجلس الأعلى الذين أراهم هنا الليلة ، ومن الحق أن أقرر أن دانتون كان منقصة فى نظر الجمال ، لأنه كان دميما إلى أبعد حد .

قال عباراته الأخيرة فى سرعة وبلهجة غير عادية ليس فيها أدب كثير ، وسكت لحظة ، وقد أحنى قليلا من قامته المديدة بما يدل على تواضع ربما لا يخلو من كبر . فكان كأنه يقول لها : إننى أتقاضى منكم مالا لأجيب عن أسئلتك ، وأنا أعيش من مال آخذه منكم . ولم يشأ أن يرفع عينيه لينظر إليها . أما هى فكانت عيناها الجميلتان لا تفتآن تنظران إليه حتى كأنها جارية من جواريه . فلما رأى الصمت قد ساد وطال نظر إليها كما ينظر خادم إلى مولى ينتظر منه الأوامر . والتقت عيناه بعينيها اللتين كانتا لا تزالان تنظران إليه ، فلم يعبأ بها وابتعد عنها فى سرعة لم تخف عليها .

ولما أفاقت من أحلامها أخذت تقول : هو جميل ، ومع ذلك يثنى على القبيح هذا الثناء المستطاب ! إنه لا يخالف ضميره أبداً على عكس كايلوس وكروازينوا . ويشبه والدى بعض الشبه حين يحاكى نابليون فى المرقص محاكاة بديعة . وكانت ما تيلد قد نسيت تماماً حديثها عن دانتون فأخذت تقول : أنا فى الواقع ملول هذه الليلة . وأمسكت ذراع

أخيها واضطرته على كره أن يسير معها فى المرقص قليلا ، مبتغية من وراء ذلك أن تنصت إلى حديث چوليان مع هذا المحكوم عليه بالإعدام .

كان الزحام شديداً ، لكنها استطاعت أن تقترب منهما حين كان ألتاميرا يمد يده ليتناول بعض المثلجات من فوق صينية ، وكان بينها و بينهما خطوتان لا تزيد ، والكونت يتحدث إلى چوليان ملتفتاً إليه التفاتة غير كاملة ، فرأى ذراعاً فى كمّ مزركش تمتد لتنال قطعة من المثلجات إلى جوار القطعة التى أخذها . فأثار التطريز انتباهه ، واستدار ليرى صاحبة هذا الذراع . وفى نفس اللحظة بدت فى عينيه الجميلتين اللتين تنمان عن السذاجة ، علامات الاحتقار ، وقال بصوت خفيض يخاطب چوليان :

— انظر إلى هذا الرجل ، إنه أمير دى أراسيلى ، سفير . . . وقد طلب هذا الصباح من السيد دى نرڤال وزير الخارجية تسليمى إلى حكومتي . إنه هناك يلعب الورق . أما السيد دى نرڤال فلا يمانع فى تسليمى لأنه كان من بيننا اثنان أو ثلاثة من المتآمرين هنا عام ١٨١٦ . و إذا أسلمت إلى مليكى . فسأشنق بعد أربع وعشرين ساعة . وسيكون من يقبض علىّ واحداً من هؤلاء السادة ذوى الشوارب الجميلة . فصاح چوليان صيحة تكاد تكون مسموعة :

— يا لهم من أنذال !

ولم يفت ما تيلد من حديثهما حرف واحد فذهب عنها السأم . وقال الكونت :

— إنهم ليسوا أنذالا كما تتصور . لقد حدثتك عن نفسى لترانى

فى صورة واضحة حيّة . أنظر إلى الأمير دى أراسيلى ، إنه ينظر كل خمس دقائق إلى وسامه الذهبى ؛ وهو شديد الإعجاب بالزخرف التافه الذى يزين صدره . هذا المسكين ليس فى الحقيقة إلا غلطة تاريخية لأن الوسام الذى يفاخر به كان يشرف حامله منذ مائة عام ، لقد قدم عليه العهد وأصبح لا يعتز به أحد إلا أمثال أراسيلى . وهو لم يتردد فى أن يشنق مدينة بأسرها ليحصل على وسامه هذا . فسأله چوليان فى قلق :

— أحصل عليه بهذا الثمن ؟ فأجابه ألتاميرا فى فتور :

— ليس هذا ما فعله بالضبط ، ولكنه ربما ألقى بثلاثين من أثرياء بلده فى النهر بحجة أنهم من الأحرار .

— يا له من شيطان رجيم !

كانت الآنسة دى لامول على مقربة كبيرة منه ، وقد أحنت رأسها لاهتمامها الشديد بما يقول ، حتى أن شعرها الجميل كان يلمس كتفه تقريباً وقال له ألتاميرا :

— أنت حديث السن ! وقد أخبرتك بأن لى أختاً متزوجة فى پروڤانس ؛ لا تزال جميلة رقيقة ظريفة ؛ وقل : هى أم صالحة ، تقوم بواجباتها على خير وجه ، تقية ولكنها غير متعبدة .

عندئذ تساءلت الآنسة دى لامول . ماذا يريد أن يقول ؟ فاستطرد ألتاميرا :

— وهى سعيدة بحياتها ، كانت سعيدة عام ١٨١٥ . وكنت فى ذلك

الوقت أختفى فى أرضها القريبة من أنتيب ؛ ولما بلغها خبر إعدام المرشال نى أخذت ترقص !

فحزن چوليان لما سمع وقال :

— أيمكن أن تفعل هذا ؟

— هذه روح الجماعة ، لم نعد نرى فى القرن التاسع عشر عواطف أكيدة متينة : وهذا هو السرّ فى أن الناس يستولى عليهم الملل فى فرنسا ... الناس يرتكبون الكبائر ولكن فى غير قسوة .

— يا للخسارة ! ولكن إذا ارتكب الإنسان جرائم ، كان عليه أن يرتكبها فى لذة وسرور : وهذا هو الجانب الحسن فى ارتكابها ، أو أنهم لا يستطيعون تقليل جرائمهم إلا بهذا السبب نفسه .

أنسيت الآنسة دى لامول نفسها ومكانتها ، ووقفت بين ألتاميرا وچوليان . وأخوها لا يزال يمد لها ذراعه ، وقد تعود أن يطيعها ، غير أنه كان ينظر فى القاعة ، ولكى يسوغ انصرافه عنها ، تظاهر بأن الزحام الشديد حال بينه و بين أن يتقدم . كان ألتاميرا يقول :

— إنك على حق ... الناس يقدمون على ما يفعلون فيرتكبون الجرائم دون لذة ودون أن يتذكروا ما يعملون . أستطيع أن أريك فى هذا المرقص عشرة رجال ، كان يجب أن يحكم عليهم بالإعلام لأنهم مجرمون سفاكون ، ولكنهم نسوا ما فعلوا ، ونسى الناس كذلك كل ما اقترفوه .

كثير من الناس يتأثر كثيراً حين تكسر رجل كلب من كلابه

وعند ما نرى الزهر ينثر فوق قبورهم فى پيرل شز نعتقد — أو هم يحملوننا على أن نعتقد — أن هؤلاء الموتى كانت لهم كل صفات الفرسان والشجعان ، وأن والد جده كان يأتى أعمالا عجيبة فى أيام هنرى الرابع . وإذا لم أشنق على الرغم من محاولات أراسيلى ، وبقيت لى ثروتى فى باريس ، فإنى سأدعوك إلى تناول الطعام مع ثمانية أو عشرة من هؤلاء المجرمين المبجلين الذين نسوا آثامهم .

ستكون أنت وأنا وحدنا الذين لم يلوثنا بالدماء بين هذه الجماعة ، أما أنا فسأكون محتقراً ومكروهاً ؛ لأنهم يعدوننى شيطاناً سفاكا ويعقوبياً ثائراً ، وأما أنت فستلقى منهم الاحتقار وحده ؛ لأنك من صميم الشعب وقد حشرت فى زمرة الطبقة الراقية . فقالت الآنسة دى لامول :

— أنت تقول الحق الذى لا مرية فيه .

فذهل ألتاميرا ونظر إليها ، ولم يشأ جوليان أن ينظر إليها تعالياً وعظمة .

واستمر الكونت يقول :

— لاحظ أن الثورة التى كنت أقودها لم تنجح لسبب واحد ، هو أنى لم أشأ أن أقتل ثلاثة رجال ولم أرد أن أوزع على أنصارى ثمانية ملايين كانت فى خزانة مفتاحها معى . وإن مليكى الذى يود اليوم من كل نفسه أن يقتلنى — وكان قبل الثورة يخاطبنى كصديق — ما كان يبخل علىّ بأعظم وسام فى مملكته لو أننى قتلت هؤلاء الثلاثة ووزعت المال ، لأنى لو كنت فعلت هذا لأصبت نصف النجاح ، ولأصبح لبلدى دستور مهما يكن من أمره فهو دستور على كل حال . . . العالم ينسج على هذا المنوال .

وهو بمثابة لعبة الشطرنج . فقال چوليان واللهب يشع من عينيه :

— لم تكن تعرف اللعبة من قبل ، أما الآن . . .

— أتريد أن تقول إنى سأقطع بعض الرؤوس ، ولا أكون چيرونديا كما أردت أن تفهمنى من بضعة أيام ؟ . . . ثم استطرد فى لهجة حزينة :

— سأطلعك على رأيى حين تقتل رجلا فى مبارزة ، وقتل الرجل فى المبارزة خير ألف مرة من قتله بيد الجلاد .

— يخيل إلى أن الغاية تبرر الوسيلة ! لو كان بيدى شيء من السلطان ، لقتلت ثلاثة رجال لأنجى أربعة ، ولكنى لست شيئاً مذكوراً .

وكانت عيناه لا تزالان تشعان بما يكنه ضميره من احتقار لهذه الأحكام التافهة التى يصدرها الناس ، والآنسة دى لامول على مقربة كبيرة منه فالتقى بصره ببصرها ، وفى نظراته ازدراء شديد تزايد لما التقت عيونهما فحل محل ما كان ينبغى أن يكون من ظرف وأدب .

فغضبت أشد الغضب ، وانصرفت حزينة تجر أخاها من ورائها ولم يعد فى مقدورها بعد ذلك أن تنسى چوليان .

قالت فى نفسها : يجب أن أشرب كثيراً من البونش ويجب أن أرقص كثيراً . على أن أتسلح بخير الوسائل لأحدث فى النفوس أعظم الآثار بأى ثمن كان ، حسناً ، ها هو ذا الكونت فرفاك المشهور بالقحة ، ودعاها للرقص فقبلت قائلة فى نفسها : سيرى أيهما أكثر قحة من صاحبه ، . . . فأحمله على الكلام لأستطيع أن أسخر منه سخرية شديدة ثم دفعها

الـكلام إلى أن تنسى الرقص ، فهى توجه إلى الـكونت عبارات قاسية اضطرب لها ولم يجد مايجيب به ما تيلدإلا عبارات ظريفة ، وأعيته الأفـكار فاستاء وغضب . وكانت هى قاسية كل القسوة ؛ لأنها غاضبة لخسرت صداقته . و بقيت ترقص حتى الصباح . ثم غادرت المرقص وقد أرهقها التعب وركبت العربة مستعينة بالبقية الباقية لها من القوة وأطلقت العنان للهم والتعاسة ؛ وذلك لأن چوليان احتقرها ولـكنها لم تستطع أن تزدريه .

كان چوليان فى أوج سعادته ، لقد أعجب بالموسيقى والأزهار والنساء الفاتنات ، التى سيطرت على الحفل ؛ على أن مصدر سعادته الحقيقية إنما كان يزينه له خياله من مكانة كبيرة لنفسه ومن حرية للناس جميعاً . قال للـكونت :

— يا له من مرقص بديع ! فأجابه ألتاميرا :

— ولـكن تنقصه الفـكرة .

ونمّ وجه ألتاميرا عن احتقار شديد يفر من الأدب ، على النـــاس ألا يظهروه فقال له چوليان .

— إنك تمثلها يا سيدى الـكونت . ثم أليست الفـكرة تنطوى على شىء من التآمر ؟

— لقد دعيت إلى المرقص ، وكان لاسمى الفضل فى دعوتى . ولـكنّ الناس لا يحبون الأفـكار فى صالوناتـكم . فالفـكرة التى تقال فى صالون يجب ألا تزيد عن الرأى الذى تحمله مقطوعة شعرية فى رواية غنائية : عندئذ يتقبلها الناس أحسن قبول . أما من اعتاد التفـكير ، وحمّل قوله

قوة ورأياً جديداً فإنهم يعدونه سفيهاً لا حياء فيه . ألم يصف أحد قضاتكم كوربيه بهذا الوصف ؟ ولقد حكمتم عليه بالسجن كما حكمتم على بيرانجيه . وإن كل ما يصدر هنا عن فكرة أو فطنة وذكاء أو يعدّ شيئاً مذكوراً فإن الجمعية تدفع صاحبه إلى رجال الشرطة ليتولوا تأديبه ، وتطمئن الطبقة الراقية إلى هذا الإجراء ذلك لأن مجتمعكم دبت الشيخوخة فيه ، فهو يضع الأدب فى المكان الأول ... وأسمى الصفات عندكم هى الشجاعة الحربية ، لذلك تتمتعون بكثير من أمثال مورا وليس فيكم مثل واشنجطن . إننى لا أرى فى فرنسا إلا الزهو والغرور ، فالرجل الذى يتحدث حديث الأذكياء أو يدلى بجديد سرعان ما يعثر لسانه فينطق بما لا يحسن قوله ، وهنا تكون الطامة الكبرى لأن صاحب المنزل يؤمن بأنه قد جرح كرامته. وصل الكونت إلى هذا الحدّ من حديثه عند ما وقفت عربته أمام قصر المركيز دى لامول . ولقد أحبه جوليان حباً شديداً . وأثنى الكونت عليه كذلك الثناء الجميل ، أثنى عليه من كل قلبه حين قال له : لا أرى فيك طيش الفرنسيين! اذكر دائماً مبدأ المنفعة . وكان جوليان قد شهد أمس الأول تمثيل رواية مارينو فاليرو من وضع السيد كازيمير ديلافنى .

ثم أخذ هذا الشاب الشعبى الثائر يقول : أليس إسرائيل برتوكيو أقوى خلقاً من أهل البندقية جميعاً ؟ ومع ذلك فإنهم عريقون فى الأرستقراطية . إذ يرجع عهدهم بها إلى عام ٧٠٠ أى قبل شارلمان بقرن كامل ، على حين أن كل أولئك الذين كانوا فى مرقص دى ريتز هذه

الليلة لا عهد لأسرهم بالأرستقراطية إلا منذ القرن الثالث عشر ، وذلك أيضاً مع التساهل . وأشراف البندقية عريقو المحتد ، لكن إسرائيل برتوكيو خيرهم جميعاً .

إن مؤامرة واحدة كفيلة بالقضاء على هذه الألقاب التى تمليها نزوات المجتمع . إذ أن كل إنسان ينال مرة واحدة اللقب الذى تؤهله له طريقته فى استقبال الموت . وفى هذه الحالة تفقد النفس الكثير من سيطرتها ...

لو كان دانتون يعيش فى هذا العصر ، عصر أمثال ڤالنو ودى رينال ، فماذا كان يصبح أمره ؟ لو كان بيننا ، ما وصل إلى منصب وكيل النائب ..

ماذا أقول ؟ لو أنه لا يزال حياً لباع نفسه للجمعية ولأصبح وزيراً ، لأن دانتون العظيم كان قد سرق من قبل . ولقد باع ميرابو نفسه كذلك وسرق نابليون الملايين من إيطاليا ، ولولا هذا لحال الفقر بينه وبين انتصاراته العظيمة ، ولكان مثله مثل پيكجرو . أما لا فاييت فهو الشخص الوحيد الذى لم يسرق . ولكن هل ينبغى للانسان أن يسرق ؟ أمن حق المرء أن يبيع نفسه ؟ وحمله هذا السؤال على ألا يتمادى فى التفكير ، فقضى بقية ليلته يقرأ تاريخ الثورة الفرنسية .

وجلس يكتب خطابات فى المكتبة فى اليوم التالى ، وهو لا يفكر إلا فى حديث الكونت ألتاميرا .

ثم أفاق من حلم طويل قائلا فى نفسه : الواقع أن هؤلاء الأسبانيين الأحرار لو أنهم ارتكبوا الجرائم وعرضوا الناس للخطر ، ما قضى عليهم

بهذه السهولة . كانوا أطفالا ثرثارين متكبرين . . . ثم صاح بغتة كمن يستيقظ مرتجفاً : وإن مثلى كمثلهم تماماً !

ثم واصل حديثه : ماذا فعلتُه من جليل الأعمال حتى أعرّض لنقد هؤلاء البائسين الذين لم يكادوا يولدون حتى ملكتهم الجرأة وأقدموا على العمل ؟ إننى كمن يقول وهو يغادر مائدة الطعام : لن أتناول عشائى فى الغد ؟ ولن يحول هذا بينى و بين القوة والنشاط الذين أشعر بهما اليوم . ومن ذا الذى يعرف ما يعتور الإنسان من شعور وهو مقدم على عمل جليل إلا أنه لا يزال فى منتصف الطريق ؟ . . .

ودخلت الآنسة دى لامول عليه المكتبة بغتة ، فقطعت سلسلة أفكاره الجليلة . فقد كان تحت نوبة من الإعجاب بدانتون وميرابو وكارنو الذين عرفوا كيف يدفعون عن أنفسهم الهزيمة ، فوقع نظره على ما تيلد ولكنه لم يفكر فيها ، ولم يحيّها ، بل لم يكد يراها . لكن عينيه الواسعتين اللتين كانتا تحملقان ما لبثتا أن رأتها ففترت نظراته . ورأت الآنسة دى لامول هذا التغير فأصابتها حسرة وكمد .

طلبت منه مجلداً من كتاب تاريخ فرنسا من تأليف فيلى ، وهذا الكتاب فى أعلى رف من الرفوف ، فاضطر إلى إحضار أكبر السلمين ، ووضعه وأحضر لها الكتاب وقدّمه دون أن يفكر فيها لأنه لا يزال مشغول البال فاصطدم مرفقه بمرآة من مرايا المكتبة وهو يحمل السلم ليعيده إلى مكانه فسقطت المرآة وأحدث كسرها ضوضاء أيقظته من الأحلام واسترجعته من الأفكار ، فسارع بأن يعتذر لها ؛ أراد أن يكون

مؤدباً فكان معها مؤدباً لا أكثر ولا أقل ، وأدركت ما تبلد فى وضوح أن حضورها سبّب له اضطراباً ؛ وودّت لو عرفت ما كان يفكر فيه قبل أن تجيء ، ثم ودت لو أنه تحدّث إليها . نظرت إليه طويلا ثم غادرت المكتبة فى خطوات ثقيلة . وأخذ هذا ينظر إليها وهى تسير . وأعجب بهذا الاختلاف الشديد بين ثيابها البسيطة التى ترتديها اليوم وبين زينة ليلة أمس وأناقة ثيابها فى المرقص . وكان الفرق بين الوجهين كبيراً كذلك .. هذه الفتاة كانت هناك بالأمس مملوءة كبراً وغروراً ، ولكن نظراتها الآن تنم عن الضراعة . وأخذ يقول : حقاً يظهر هذا الثوب الأسود جمال قوامها ، ويصوره أبدع صورة وإن لها لسمت الملكات ؛ ولكن لم تلبس ثياب الحداد ؟ إنى لو سألت أحداً عن سبب هذا الحداد ، لارتكبت خطأ . وكان فى هذه اللحظة قد زايلته الحماسة فقال ! يجب أن أقرأ الخطابات التى كتبتها هذا الصباح ، لأنه لا يعلم إلا الله وحده عدد الكلمات التى تركتها وما أثبته فيها من بلاهة وحمق . وجعل يقرأ الخطاب الأول ، محاولا حصر انتباهه فسمع على مقربة منه حفيف ثوب من الحرير ؛ التفت إليه فى سرعة كبيرة فألفى الآنسة دى لامول على بعد خطوتين من منضدته وهى ضاحكة السن ، لكنه حنق عليها لهذه المقاطعة الثانية أمّا هى فقد أدركت أنه لا يعبأ بها ، وكانت ترمى من وراء ضحكتها إلى أن تخفى الاضطراب وقد أفلحت ثم قالت له :

— لا ريب أنك تفكر فى أمر مفيد يا سيد سورل . أتفكر فى ألتاميرا ؟ قل لى فيما تفكر فإنى أرغب فى ذلك رغبة شديدة ؛ سأكون

كتوماً للسر ، وأقسم على ذلك ! وذهلت حين سمعت نفسها تنطق بهذه العبارة، تُرى ماذا دهاها ؟ أترجو مرءوساً لها؟ وزاد اضطرابها فقالت في لهجة لا تخلو من الخفة :

ما الذى غيّرك هكذا ، فجعل منك شخصاً ملهماً ، بعد أن كنت فاتر الطبع ؟ .. أصبحت وكأنك ميكيل آنج .

كان فى هذا السؤال حيوية ، وكان داخلا فى صميم حياة چوليان الخاصة، فجرحه جرحاً بليغاً حتى ثارت ثائرته ، وقال لها بغتة بلهجة ازدادت شدتها كلما أمعن فى الحديث :

— هل أصاب دانتون حين سرق الأموال ؟ هل كان على ثوّار بييمونت أو أسبانيا أن يلطخوا الناس بالجرائم ؟ أمن العدل أن يعطى أناس لا أثر لهم فى شىء ، مناصب الجيش كلها وكل الأوسمة ! وهؤلاء الذين حملوا الأوسمة ، ألم يكونوا خائفين من عودة الملكية ؟ أكان يجب أن تسلب كنوز توران ؟ ثم اقترب منها والشر بادٍ على وجهه وقال لها : وأخيراً يا آنستى ، أو تعتقدين أنه يجب على من يريد القضاء على الجهل والإجرام فى الأرض ، أن يكون كالعاصفة تصيب بالأذى كيفما اتفق ؟

فارتاعت ولم تقو على نظراته وتقهقرت خطوتين . ثم نظرت إليه لحظة ، ثم خجلت من خوفها فغادرت المكتبة .

الفصل العاشر

الملكة مرغريت

[أيها الحب ! أية حماقة تتدخل فيها ولا تغمرنا
بالسرور ؟]

خطاب راهبة برتغالية

أعاد چوليان قراءة خطاباته . ودق جرس العشاء ، فقال فى نفسه : لشد ما كنت شيئاً يدعو إلى السخرية فى نظر هذه الدمية الپاريسية ! وكم كنت أحمق حين أفضيت إليها بحقيقة ما كنت أفكر فيه ! لكنه ربما لم يكن هذا جنوناً كبيراً ؛ فالصدق فى هذه الحالة كان واجباً محتوماً . ولكن ما بالها تسألنى عمّا يخصنى أنا وحدى ؟ ! لقد كان سؤالها فضولا وتطفلا وقد خالفت العرف ؛ لأن آرائى فى دانتون ليست داخلة فى خدمتى لأبيها التى آخذ عليها أجراً .

ودخل غرفة الطعام فانصرف عن أفكاره وسكت عنه الغضب حين رآها فى ثياب الحداد ، لكنه زاد عجبه لما تبيّن أن بقية أفراد الأسرة لا يرتدون الملابس السوداء .

وفرغ من الطعام فرأى نفسه قد فرغت من الحماسة التى لازمته طول يومه ، وكان عضو المجمع الذى يعرف اللاتينية يتناول الطعام معهم ، فقال چوليان فى نفسه : هذا هو الرجل الذى لن يسخر منى ، كما أعتقد ، إذا سألته عن أمر حداد الآنسة دى لامول .

وكانت ما تيلد تنظر إليه نظرات عجيبة ، فتحدّث إلى نفسه قائلا :
ذلك هو دلال الپاريسيات الذى حدثتنى عنه مدام دى رينال . لم أكن ظريفاً معها هذا الصباح ، ولم أجبها إلى رغبتها التى سيطرت عليها فى أن تتحدث إلىّ . ومع هذا كله فأنا أزداد فى نظرها إكباراً . هذا من عمل الشيطان ، لأنها ولا شك ستنتقم فيما بعد لكبريائها المجروحة . . . لقد أثرتها وأحرجتها . وما أعظم الفرق بينها و بين من فَقَدْتُ ! كم كانت لطيفة بطبعها ! وكم كانت ساذجة ! كنت أدرك أفكارها قبل أن تفضى بها إلىّ ، وكنت أرى هذه الأفكار ساعة تولد فى رأسها الجميل . ولم يكن لى من عدو فى قلبها إلا خوفها على أطفالها من الموت ؟ وكان هذا شعوراً طبيعياً معقولا ، أستسيغه و إن كان يؤلمنى .. كنت إذ ذاك أحمق ؛ لأن الآراء التى شغلت نفسى وتفكيرى الدائم فى پاريس ، حالت بينى و بين أن أتمتع بهذه السيدة الجميلة .

ما أبعد الفرق بين الحالين ! ماذا أجد هنا ؟ أجد كبرياء وتعالياً وكشفاً عن عزة النفس بكل ضروبها وألوانها ، لا أكثر من ذلك ولا أقل . ولما غادروا مائدة الطعام ، قال فى نفسه : علىّ ألا أترك عضو المجمع يشغل فى الحديث مع الآخرين . واقترب منه وهو فى طريقه إلى الحديقة ، واتخذ له مظهراً يدل على الرقة والخضوع ، وشاطره غضبه لنجاح تمثيلية هرنانى ، وقال له :

— ليتنا كنا نعيش زمن الأوامر الملكية ! . . . فصاح عضو المجمع مشيراً إشارة تمثيلية ثم قال :

— إذاً لما جرؤ على كتابة ما كتب .

ثم رأى چوليان زهرة فتلا بعض عبارات من جيورچيك لڤرچيل ، وقال إن أشعار الكاهن ديليل خير الأشعار كلها . وأقصد أن أقول : إنه توسل بكل الوسائل ليتملقه حتى قال فى لهجة عادية ليس فيها أثر من الاهتمام :

— يخيل إلىّ أن الآنسة دى لامول قد ورثت عمّا من أعمامها تلبس الحداد عليه اليوم . فتوقف عضو المجمع عن المسير فجأة وقال :

— ماذا ؟ أنت لا تعرف إذاً جنونها ! إننى فى الواقع أعجب من سماح أمها لها بمثل هذه الأشياء ؛ ولكنى لا أخفى عنك أن قوة الُخلق ليست الصفة التى تسيطر على هذا القصر . والآنسة دى لامول هى التى تتزين وحدها بهذه الصفة ، لذلك فهى تسيطر عليهم جميعاً . نحن فى الثلاثين من إبريل . . . ثم سكت ونظر إلى چوليان نظرة لها مغزاها ، فاستعان الشاب بكل ماوُهب من ظرف حتى ابتسم له ، لكنه عاد يسائل نفسه : ما العلاقة بين كل هذا ، سيطرتها على الأسرة ، ولبس السواد ، والثلاثين من إبريل ؟ يجب أن أرتكب حماقة أخرى لأعرف السر .

ثم نظر إليه نظرات تنم عما فى نفسه ، وقال :

— إنى أعترف لك . . . ووجد محدثه فرصة جميلة ليقص عليه قصة طريفة ، فقال له :

— هيا بنا نسير فى الحديقة . ماذا ؟ ألا تعرف ما حدث فى الثلاثين من إبريل سنة ١٥٧٤ ؟

— أين ؟

— فى ميدان جريف ؟

فذهل چوليان ذهولا شديداً ، لأن العبارة لم تشبع فضوله . ولمعت عيناه لمعاناً شديداً من حب الاستطلاع وتوقعه أن يسمع خبر مأساة ، وهو يحب المآسى بطبعه ، فسرّ عضو المجمع بما يرى ؛ لأن القاص يحب دائماً أن يرى علامات الانتباه على وجه من يسمعه . ثم قال له : فى الثلاثين من إبريل سنة ١٥٧٤ قتل بونيفاس دى لامول أجمل شاب فى عصره مع صديقه أنيبال دى كوكوناسو ، إذ قطع رأساهما فى ميدان جريف . وكان دى لامول خليل الملكة مرغريت دى ناڤار التى عبدته عبادة .

واستطرد يقول :

وعليك أن تذكر أن الآنسة دى لامول تدعى ما تيلد مرغريت . وكان بونيفاس فى الوقت نفسه صديقاً مقرباً إلى دوق دالنسون ، وصديقاً حميما للملك ناڤار — زوج خليلته — منذ عهد الملك هنرى الرابع . وفى يوم ثلاثاء المرفع من عام ١٥٧٤ كان الملك شارل التاسع و بلاطه فى سان چرمان ، وكان هذا الملك البائس يسلم أنفاسه الأخيرة ، فأراد دى لامول أن يخلّص أصدقاءه الأمراء الذين احتجزتهم مارى دى موسيس فى البلاط كمسجونين . فأحضر مائتى جواد تحت جدران سان چرمان روّعت دوق ألنسون ، وسيق دى لامول إلى المشنقة .

وإن ما أثّر فى نفس الآنسة دى لامول — كما أفضت إلىّ منذ سبعة أعوام أو ثمانية حينما كانت فى الثانية عشرة من عمرها ، لأنها ذات

أخبرته أن زوجة شابة كانت تعيش فى عصر هنرى الثالث رأت أن زوجها يخونها فطعنته طعنة مميتة : قرأت هذا فى مذكرات إتوال ، وكانت مخلصة فى تقديرها لهذه المرأة ، صادقة فى شعورها نحوها .

رضيت أنانية چوليان بهذه العلاقة الجديدة ووجد فيها لذة ، لأن الفتاة التى يحيطها الكثير من التبجيل ، والتى تقود الأسرة كلها كما قال عضو المجمع ، نزلت عن كبريائها وأصبحت تتحدث إليـه حديث ودّ وصداقة .

لكنه قال بعد قليل ! لقد أخطأت التقدير ، فهى لا تأنس بى ؛ إنما تتخذنى نجياً وتتحدث إلىّ لحاجتها إلى من تتحدث إليه . إنّ الأسرة كلها تعدنى عالماً ، فعلىّ إذاً أن أقرأ الآن برانتوم وأو بينى و إتوال ، علىّ أن أستطيع أن أنكر بعض القصص التى ترويها لى الآنسة أو لعلّى أجادلها فيها . إنى أحب أن أخرج من هذا الموقف السلبى وألا أصبح كاتم السر فحسب .

ثم أصبحت أحاديثه مع هذه الفتاة الجامحة اللينة ، أحاديث حلوة طلية .

ونسى چوليان دوره ، دور الشعبى الثائر ، حين وجدها مثقفة معقولة . تغاير آراؤها التى تبديها فى الحديقة أفكارها فى الصالون تمام المغايرة ، وكثيراً ما كان يراها متحمسة صريحة ، وهى التى لا تظهر عادة إلا بمظهر التعالى والكبر وجمود العواطف .

قالت له يوماً : إن عصر الحروب الدينية هو عصر البطولة فى فرنسا ؛ لأن المرء كان يحارب لينال كسباً جديداً لحزبه ولينتصر لمبادئه ، لا يقاتل

من أجل وسام كما كان يحدث فى عهد امبراطورك . أرجو أن تقرنى على أن هذا العصر لم يكن عصر صغار ولا أنانية ، كم أحب هذا العصر ! . قالت هذا وعيناها تضيئان بحماسة وذكاء ، فقال لها :

— وكان بونيفاس دى لامول بطل هذا العصر .

— كان على الأقل محبوباً جداً كما يبغى أن يحب كل إنسان . ثم أية امرأة تعيش فى عصرنا هذا ، لا تشمئز إذا لمست رأس حبيبها بعد أن يقطع ؟

دعت مدام دى لامول ابنتها . وقد رأينا چوليان يفضى إلى ما تيلد ببعض سره عن إعجابه بناپليون وكان عليه أن يدارى نفاقه حتى يحصل على ما يبغى من ورائه .

وظلّ فى الحديقة وحده بعد أن فارقته الآنسة ، فقال فى نفسه : الميزة الوحيدة التى يفضلوننا بها ، هى أن نسبهم يرفعهم عن كل عاطفة وضيعة ، وهم لاينزلون دائماً إلى التفكير فى ضروريات الحياة ! ثم استطرد فى مرارة : يا للشقاء ! لست أهلا للتفكير فى مثل هذه المسائل الهامة . ليست حياتى إلا سلسلة من النفاق ، لأن دخلى لا يبلغ ألف فرنك أشترى بها خبزاً .

وعادت إليه ما تيلد وهى تجرى وسألته :

— فيم تحلم الآن يا سيدى ؟

وكان قد زهد من كثرة ما احتقر نفسه . ودفعته الكبرياء أن يعترف بحقيقة ما يفكر فيه ، ولشد ما خجل وهو يتحدث عن فقره إلى هذه الفتاة الغنية . وحاول أن يفهمها أنه لا يطلب شيئا منها ، فعمد إلى لهجة نمّت عن الكبر . كان جميلا فى نظرها فى تلك الساعة ؛ لما بدا عليه

مظهره من حساسية وصراحة ، لم ترهما فيه من قبل .

ومضى أقل من شهر ، وطاف چوليان يتنزه فى حديقة القصر ، وعلامات التفكير بادية على محيّاه ؛ ولكن وجهه لم يعد يحمل الصلابة ، ولا هذا الادعاء الفلسفى الذى كان يرضى دائماً مركب النقص الذى فطر عليه . ثم قاد الآنسة دى لامول حتى باب الصالون ، وكانت قد زعمت له أن قدمها تؤلمها على أثر جريها مع أخيها . واتكأت على ذراعه بطريقة عجيبة ! فأخذ چوليان يحدث نفسه : أأنا غرّ ، أم أنها حقيقة تميل إلىّ ؟ أراها تصغى إلىّ فى ظرف شديد ، ولو كنت أحدثها عن آلام نفسى ! وكم يذهل المترددون على الصالون إن رأوا يوماً هذا الوجه وقد شعت منه هذه التعبيرات اللطيفة ، إنها متكبرة على كل الناس ! ولا شك أن هذه الطيبة وهذا الظرف لا تظهرهما لسواى من الناس .

وحاول ألا يبالغ فى هذه الصداقة لأنه يؤمن بأنها خطيرة . وكانا حين يلتقيان وقبل أن تسود بينهما المودة التى سرت فى حديثهما بالأمس ، يسائل كل منهما نفسه : هل سنكون اليوم أصدقاء أو أعداء ؟ وأدرك أنه إن ترك تلك الفتاة المتعجرفة تجرح كبرياءه مره واحدة دون أن يقتص منها ، لأضاع كل شىء . إذا كان لابدّ لى من أن أقطع صلتى بها ، أفليس من المستحسن أن يكون ذلك منذ البداية بدفاعى عن كرامتى ؟ هذا خير وأبقى من أن أقف منها موقف من يعمل على أن يدفع عن نفسه أذى احتقارها ، إذا ما تهاونت فى الاحتفاظ بالكرامة والعزة .

وحاولت ما تملد مرات عديدة أن تتخذ معه لهجة السيدة الأرستقراطية

فى تلك الأيام التى كانا يختلفان فيها ، مستعملة كثيراً من اللباقة فى هذه المحاولات ، ولكن چوليان كان يدفع أساليبها فى خشونة وغضب . وقاطعها بغتة فى يوم من الأيام قائلا لها : هل لدى الآنسة دى لامول بعض الأوامر فتكلف بها سكرتير أبيها ؟ وأخذ ينصت إلى أوامرها و ينفذها فى احترام شديد ، ولكنه لم يقل لها كلمة واحدة ، لأن الأجر الذى يتقاضاه لايدخل فيه الإفضاء بالآراء .

وقضت هذه الطريقة الجديدة فى حياة چوليان هى وشكوكه العجيبة على الملل الذى كان يملكه حين يجلس فى الصالون الفخم الرائع ، ولكن التقاليد قضت عليه ألا يتهكم من شىء أبداً .

أخذ يحدث نفسه يوماً فقال : قد يكون عجيباً أن تحبنى ! وسواء أحبتنى أم لم تفعل فإنى أجد فيها فتاة ذكية أفضى إليها بما فى النفس ، فتتقبله قبولا حسناً ، وهى التى يرتاع منها كل من فى القصر ويخافها المركيز دى كرازنوا خوفاً شديداً . وهو شاب فطر على الأدب الجم وعلى الظرف الكثير والشجاعة الفذة ، وفيه كل الصفات الحميدة التى يؤهله لها كرم محتده وعظم ثروته ، والتى لو كان لى إحداها ما كنت معذب النفس وهو يحبها حباً شديداً ، و يريد أن يتزوج منها . وكم من الخطابات يكلفنى المركيز دى لامول أن أكتبها إلى مسجلىْ الأسرتين ليعدّا عقد الزواج أما أنا ، ذلك المرءوس الوضيع الذى يمسك القلم ليكتب ما يؤمر به ، فإنى أنتصر على ذلك الشاب الظريف بعد أن أفرغ من عملى بساعتين ، نعم أنتصر عليه هنا فى الحديقة ، لأنى ألقى منها رعاية وتفضيلا لا يلقاها

غيرى . ربما كانت تكرهه لأنه زوجها المنتظر . وهى شديدة الكبر بسبب ذلك . أما ظرفها وطيبتها معى فمصدرها أنى نجى ومرءوس أقل منها شأناً ! ولكن لم هذه الظنون ؟ إما أننى مجنون . . . وإما أنها تغازلنى ، لأنى كلما أظهرتُ لها فتوراً واحتراماً اقتفت أثرى وازدادت تقرباً منى، ربما تعمدت ذلك أو ربما كانت متصنعة ، ولكننى ألحظ دائماً أن عينيها تلمعان حين ألقاها بغتة . هل تستطيع نساء باريس المغالطة إلى هذا الجد ؟ وماذا يضيرنى من هذا كله ؟ ! الظواهر كلها فى صالحى ، فلأستمتع بالظواهر . كم هى جميلة يا إلهى ! وكم تعجبنى عيونها الزرقاء الواسعة ، حين أراها عن قرب ، تنظر إلىّ نظراتها الساحرة ! ما أكبر الفرق بين هذا الربيع والربيع الماضى ، حين كنت أعيش فى بؤس وشقاء ، وأستعين بقوة خلقى على دفع أذى ثلثمائة من المنافقين الأشرار القذرين ! لقد كدت أصبح مثلهم شريراً .

أما فى الأيام التى كان يعاوده فيها الحذر فكان يقول : هذه الفتاة تسخر منى . لقد اتفقت هى وأخوها على الهزء بى . ولكن كم تظهر لأخيها من احتقار شديد على فتوره ! لقد قالت لى : إنه شجاع فحسب . وليس له أى رأى يدفعه إلى الخروج على النطاق الذى رسم أمامه ؛ لأنه لا يجد فى نفسه القوة على ذلك . وأنا الذى أتولى الدفاع عن هذا الشاب . يا لها من فتاة فى التاسعة عشرة من عمرها ! أفى هذه السن تستطيع فتاة أن تحاسب نفسها على كل ساعة من ساعات النهار فتنفذ ما رسمته لنفسها من نفاق ؟ ومن جهة أخرى فإن الآنسة دى لامول حين تنظر إلىّ بعينيها

الـكبيرتين نظرات لها مغزاها فإن الـكونت نور بير يبتعد عنا دائماً .
وهذا المسلك يدخل الشك فى نفسى ، كان ينبغى أن يغضب و يثور حين يرى أخته تعامل خادماً من خدم منزلهم هذه المعاملة الـكريمة . لقد سمعت الدوق دى شون يتحدث عنى فيصفنى بأنى خادم . وتذكر چوليان ذلك فغضب واختفت من نفسه الآراء الأخرى . هل يعدّ استعمال هذه الـكلمة إخلاصاً من هذا الدوق الأحمق للغة القديمة ؟

ثم أخذ ينظر نظرات النمر ، واستطرد يقول : إنها جميلة ! لا بدّ أن أنالها ثم أترك القصر من بعد ذلك ، والويل لمن يتعقبنى وأنا أولى الأدبار !

وشغلت هذه الفـكرة عليه نفسه ، حتى لم يعد يفـكر فى شىء آخر . وأصبحت أيامه تمر وكأنها ساعات .

كان يحاول فى كل ساعة من ساعات النهار أن يشغل نفسه بأمور جدّية فلم يطاوعه فـكره ، وكان يستيقظ من أحلامه وقلبه يدق دقات سريعة ، ورأسه يضطرب اضطراباً شديداً ، لا يعرف من أمره إلا هذه الفـكرة : أهى تحبنى ؟

الفصل الحادى عشر

مملكة فتاة

[أرانى أعجب بجمالها ولكنى أخاف ذكاءها]

مريمى

كان چوليان يشغل وقته فى المبالغة بجمال ماتيلد ، أو فى التحمس والحنق على مركز هذه الأسرة الخطير الذى لم تعبأ به ماتيلد من أجله ، ولو أنه لاحظ ما كان يجرى فى الصالون ، لأدرك السّر فى مكانة ماتيلد وسيطرتها على كل من حولها . كانت إذا كرهت من شخص شيئاً عرفت كيف تعاقبه عليه فتوجه إليه نكتة لاذعة ، تحسن اختيارها بحيث لاتنافى الأدب وترسلها فى أوانها ، و بذلك تجرح من كرهته جرحا بليغا ، لأنه كلما فكّر فى النكتة ازداد ألمه . وصارت شديدة الوطأة قاسية كل القسوة على من يجرح كرامتها. كانت لاتعنى بكثير مما تعدّه الأسرة على جانب كبير من الأهمية ، فتظهر لهم دائما أنها ثابتة الجنان رابطة الجأش . وصالونات الطبقة الأرستقراطية لاتفيد فى شىء إلا أن يذكرها الذاكرون ساعة مغادرتها . هذه كل حسناتها ؛ أما الأدب وحده فلا وجود له إلاّ فى الأيام الأولى فحسب ، وهو ماوصل إليه چوليان بعد أن انقضت فترة انبهاره بما يرى ، وولّى ما أصابه من دهشة فى حياته الجديدة . قال يحدث نفسه : كل الأدب الذى نراه فى هذا الصالون هو أن يبتعد الإنسان عن الغضب الذى تخلقه العادات السيئة . وكثير

ما كان يستولى الملل على نفس ماتيلد أو كثيرا ما كانت تجر على نفسها السآمة أينما حلّت ؛ لذلك كانت كبرى لذاتها وأكثر ما يشغلها أن تؤلف قصيدة فى الهجاء . وربما كانت تعمل على تشجيع المركيز دى كروازنوا والكونت كايلوس واثنين أو ثلاثة من الشبان أصحاب المركز الممتاز وتقربهم إليها لتتخذ منهم نماذج لشعرها الهجائى ، وهذا خير لها من أن تهجو أبويها أو مرءوسيها أمثال عضو المجمع وخمسة أو ستة ممن يعملون فى القصر ويتملقون أسرتها . ونعترف فى كثير من الأسى — لأننا نحب ماتيلد — أنها تسلمت خطابات كثيرة من بعض هؤلاء الشبان ، وردت على بعضها . ولكننا نسارع فنقول : إنها لاتتقيد بأخلاق عصرها . على أننا لانستطيع أن نقول إن تلميذات ذلك الدير الجليل ، دير القلب المقدس لم يجبلن على الحذر .

وحدث أن ردّ لها المركيز دى كروازنوا خطابا يحطّ من شرفها ويثير حولها الشكوك ، كانت قد كتبته بالأمس ، وكان يرجو من وراء هذه اللفتة التى تنطوى على الحذر والبصيرة أن تزداد مكانته فى قلبها ؛ ولكن ماتيلد كانت ترمى فى خطاباتها إلى ألاّ تكون حذرة لأن لها لذة فى أن تقامر بمصيرها . وكان جزاء دى كروازنوا على فعلته هذه أنها خاصمته ستة أسابيع .

كانت تلهو وتعبث بخطابات هؤلاء الشبان ، وإن كانت تعترف بأنها متشابهة كلها ، لأنها تفيض جميعا بحب عميق حزين . تحدثت إلى ابنة عمها قائلة :

إنهم جميعا مثل للرجل الكامل الذى يظهر أتم استعداد للرحيل إلى فلسطين . فهل تعرفين ماهو أتفه من هذا ؛ هذه هى الخطابات التى لن تنقطع

عنى طول حياتى ! وهى لاتتغير إلاّ كل عشرين سنة حين تتغير نظرات الناس إلى الحياة ، ويطرأ عليهم مثل أخرى تشغل بالهم . ولا شك أن الخطابات أيام الأمبراطورية كانت أقل خرقا مما هى عليه الآن ؛ لأن هؤلاء الشبان الكرام الأصل شاهدوا أو أتوا بأعمال تعد حقيقة مجيدة . إن عمى الكونت ... كان فى وجرام .

فقالت لها : دى سانت هيريديتى ابنة عمها وهى تحاورها .

أتعتقدين أن طعنة بالسيف تتطلب فطنة ؟ ومع ذلك هم يملئون الدنيا حديثا عنها حين يقدمون عليها !

ولكن هذه القصص تدخل على نفسى السرور ! إن الإشتراك فى معركة حقيقية كاحدى معارك نابليون ، حيث كان يقتل عشرة آلاف من الجنود ، ليعدّ ضربا من ضروب الشجاعة . والتعرض للخطر يسمو بالنفس ويشفى من الملل الذى يطغى على هؤلاء الشبان المعجبين بى . والسأم مُعْدٍ سرعان مايتسرب من نفس إلى نفس . أى أولئك الشبان يفكر فى الإقدام على عمل خارق للعادة ؟ كل همهم أن يحصلوا على يدى ، فياله من عمل مجيد ! إنى غنية ، وسيدفع والدى زوج ابنته إلى مدارج الرقى . آه ! ليتنى ألقى شابا خيرا من هؤلاء ! .

وطريقة ماتيلد فى حكمها على الأشياء شديدة واضحة بهيجة ، لكنها تفسد لغتها كما نرى . وكثيرا ماتؤذى كلة منها شعور أصدقائها الذين جبلوا على الأدب الكثير . ولولا أنهم يعرفون مكانتها فى الأوساط الباريسية لظنوا أن لغتها لاتتلاءم تماما مع ما فى النساء من رقة .

وأما هي فلم تكن عادلة مع أولئك الفرسان الوسماء الذين ينتشرون في كل أرجاء غابة بولونيا . كانت نظرتها إلى المستقبل لاخوف فيها لأن الخوف شعور قوى ، و إنما كانت نظرة اشمئزار ؛ وهذه عاطفة غريبة ممن كان في سنها .

ثم ماذا كانت ترجو ؟ إن يد القدر قد وهبتها الثروة والأصالة والذكاء والجمال الذى يشهد لها به الناس وتؤمن به هي كذلك .

هذه هي الآراء التي كانت تدور في رأس الوريثة التي تعيش في ربض سان جرمان ، تلك الوريثة المحسودة على ما تنعم به ، هذه هي أفكارها حين وجدت لذة في التحدث إلى جوليان . لقد أذهلتها كبرياؤه ، وأعجبت بمهارة هذا البرجوازى الضئيل . وأخذت تقول : سيعرف كيف يصل إلى منصب رئيس أساقفة كما فعل الكاهن مورى من قبل .

وسرعان ما شغلت ماتيلد بصلابته الشديدة التي لاتكلف فيها ، و بتحفظه حين يستمع إلى الكثير من آرائها ، وأصبحت تفكر في هذا كله وقصت على صديقتها كل ما دار بينهما من أحاديث ، ذاكرة كل حادثة و إن لم تستطع أن تصورها لها تصويرا دقيقا . وذات يوم تحدثت إلى نفسها والسرور يملأ قلبها قائلة : أرانى رزقت اليوم سعادة الحب ، إنى أحب ، نعم أحب ، ما في ذلك من ريب ! وفتاة في مثل سنى وجمالى وذكائى ، كيف تستطيع التنفيس عن مشاعرها إذا لم تحب ؟ وقد حاولت عبثا أن أحب كروازنوا أو كايلوس أو غيرهما من باقى هذه الجماعة . إنهم كاملو الخلق ، وربما كانوا أكمل خلقا أكثر مما يجب ، لكنهم يبعثون في نفسى السآمة .

وأخذت تستعيد إلى ذهنها كل أوصاف الحب ، التى قرأتها فى مانون ليسكو ، وهلويز الجديدة ، وخطابات راهبة برتغالية وغيرها . كانت تتوقع حبا عاصفا عنيفا ، أما الحبّ الطارىء التافه فما كان يلائم فتاة فى سنها ولا فى شرف محتدها . الحب عندها هو تلك العاطفة المجيدة التى تنطوى على البطولة ، والتى كانت تسود فرنسا فى زمن هنرى الثالث و بسّو مبيير ، وهو الحب الذى كان لايخضع فى سهولة و يسر للعواقب ، بل كان دافعا إلى أعمال عظيمة . ثم أخذت تقول فى نفسها : يؤلمنى حقا أنه لم يعد فى فرنسا بلاط حقيقى على نحو بلاط كاترين دى مدسيس أو لويس الثالث عشر ! إنى أشعر فى نفسى بما يتطلبه مثل هذا البلاط من جرأة وعظمة . كم كان فى استطاعتى أن أكون معبودة ، وكم كان فى مقدورى أن أحمل لويس الثالث على الركوع عند قدمىّ ! كان فى استطاعتى أن أقوده إلى فندية ، ومن هناك يقوم بغزو مملكته من جديد، كما يقول غالبا البارون دى تولى ، و إذا تمّ له ذلك ألغى الدستور... وكان فى استطاعة چوليان أن يعاوننى على ذلك . وماذا ينقصه ؟ اسم وثروة . أما الاسم ، فأعماله كفيلة بتحقيقه له وأما الثروة فسيجمعها فى يوم من الأيام .

أما كروازنوا فلا ينقصه شىء ، وسيظل طول حياته دوقا فيه مغالاة وفيه ميل للحرية ، لكنه سيظل مترددا أبدا ، بعيدا عن التطرف ، وعلى هذا فسيظل دائما فى المكان الثانى . أى عمل مجيد لا يعدّ متطرفا عندما يقدم عليه المرء؟ ولكنه حين يتم يراه العاديون من الناس سهلا يسيرا .

نعم ، إن الحب سيطرَ على قلبي بكل معجزاته ، وأحسّ هذا من النار التي تتأجج بين ضلوعي .

لقد وهبتني السماء هذه الميزة ، فهي لم تمنح عبثا كل هذه الميزات لإنسان . وستكون سعادتي مثلي عظيمة رائعة . لن تكون أيام حياتي مملة متشابهة الحلقات ، وإنّ مسلكي الآن لينطوي على العظمة والجرأة لأنني أحببت رجلا بيني و بينه فارق اجتماعي كبير . ولكن هل سيظل دائما جديرا بحبي ؟ سأهجره ولا شك حين يبدوّ منه ضعف . لأن الفتاة الكريمة الأصل ذات المروءة ، كما يقولون لي (وهذه من كلمات أبي) ، لا يصح أبداً أن تكون حمقاء .

أليس هذا هو الدور الذي كنت أمثله ، لو أنني أحببت المركيز دي كروازنوا ؟ لو أني فعلت لكانت سعادتي كسعادة بنات أعمامي ، وأنا أحتقر هذا اللون من السعادة احتقاراً شديدا . وأعرف مقدّما ما كل ما كان يقوله لي هذا المركيز التعس ، كما أعرف ما كنت أجيبه به .

ماقيمة الحب الذي يدعو إلى السأم ويبعث على التثاؤب ؟ لخير من هذا الحب عندي أن أكون من الفاتنات العابدات . إني سأنال عقدا كالذي نالته صغرى بنات عمي التي بالرغم من شفقة والديها ، فإنهما لم يتمالكا نفسيهما وأظهرا الغضب حين أضاف مسجل الزوج إلى العقد شرطا جديدا .

الفصل الثاني عشر

أيكون مثل دانتون

[الميل إلى القلق طابع خلق عمتى الجميلة مرغريت دى فالوا، التى تزوجت ملك نافار، والذى تراه اليوم يحكم فرنسا تحت اسم هنرى الرابع .

أما الميل إلى اللعب فهو السر الذى ينطوى عليه خلق هذه الأميرة الظريفة ؛ ومن هنا نشأت خلافاتها مع إخوتها، ومصالحتها لهم منذ كانت فى السادسة عشرة من عمرها . ولكن بم تستطيع فتاة أن تلعب ؟ إنها تخاطر بأعز شىء عندها : تخاطر بعرضها الذى يعد علامة التبجيل لها طول حياتها] .

مذكرات الدوق أنجولم ، الابن الطبيعى لشارلى التاسع

لن يكون بينى و بين چوليان توقيع على عقد ، ولن يتدخل بيننا مسجّل ؛ كل شىء سينطوى على البطولة، و يكون وليد المصادفة . و إنّ لى من حب مرغريت دى ڤالوا للشاب دى لامول ، الذى كان يعدّ خيرة شباب عصره ، مثلا يغنينى عن ضعة محتد چوليان . أعلىّ يقع الخطأ إذا كان شباب البلاط شديدى التعصب « لما يليق » ، وتصفرّ وجوههم إذا سمعوا عن مخاطرة فيها شىء من الغرابة ؟ إنّ رحلة إلى اليونان أو إلى إفريقيا تعدّ فى نظرهم غاية فى الجرأة ، وهم فضلا عن هذا لا يعرفون السّير إلا جماعات . و إذا رأوا أنفسهم بمعزل عن الناس ، دبّ الخوف

فى قلوبهم لا من رمح البدوى ، ولكن من السخرية وارتكاب مالايليق ، وهذا الخوف يفقدهم عقولهم .

لكن عزيزى جوليان على نقيض هؤلاء تماما ، لايحب أن يعمل إلا وحده . والموهوب لايفكر أبدا أن يطلب العون من الناس أو يركن إليهم ليأخذوا بناصره إلا أنه يحتقر الناس ، وهذا هو السر فى أننى لا أحتقره ..

ولو كان شريفا على الرغم من فقره ، لكان حبى له ضربا من الحماقة البلهاء ، ولكان زواجى منه لاتكافؤ فيه ، زواجا وضيعا لاأريده ولا أرغبه ؛ لأنه سيكون مقفرا مما يميز الحب القوى العاصف من صعاب شديدة يجب التغلب عليها ، ومن شك قاتم يظلله .

ملكت هذه الأفكار الجميلة على الآنسه دى لامول نفسها ، حتى أنها فى اليوم التالى أخذت ،على غير وعى ، تمدح جوليان أمام المركيز دى كروازنوا وأخيها . وكان حديثها طلقا فصيحا جرحت به كبرياءهما دون أن تحسّ . قال لها أخوها :

— احذرى هذا الشاب يا أختاه تمام الحذر ؛ لأنه موفور النشاط ، و إذا نشبت الثورة مرة أخرى فإنه سيسوقنا جميعا إلى المشنقة .

فلم تكلف نفسها مشقة الرد عليه ، ولكنها سارعت فتهكمت عليهما لما يبديانه من خوف ، هو فى الواقع خوف من يخشى مواجهة شىء لا يتوقع حدوثه ، وأنىّ لهما أن يواجها ما ينطوى على المفاجأة ؟ ! ...

ثم قالت :

— إنكم تخشون دائما أيها السادة ما يعرضكم للسخرية ، ولكن هذا الشبح المخيف الذى يبعث الرعب فى قلوبكم قد مات — مع الأسف — فى سنة ١٨١٦ .

قال المركيز دى لامول يوما : إن البلد الذى فيه حزبان ليس فيه ما يدعو إلى السخرية . وقد أدركت ابنته هذه الفكرة فقالت لأعداء چوليان :

— ولهذا أيها السادة ، ستقضون حياتكم فى خوف مقيم ، وبعد فوات الوقت يقال لكم : لم يكن هذا ذئبا ، ولكنه كان ظل ذئب .

ثم سارعت فانصرفت ، وقد بعثت عبارة أخيها فى نفسها اشمئزازا كبيرا ، وأقلقتها كثيرا ، لكنها فى اليوم التالى أدركت أنها خير ثناء يثنى به على چوليان .

فى هذا الزمن الذى مات فيه كل نشاط ، أصبح نشاطه يخيفهما . سأحدثه بما قاله أخى لأرى ما يجيبنى به . وسأختار لحظة من تلك التى تلمع فيها عيناه ، لأنه لن يكذبنى الحديث فيها . ثم قالت :

— أيكون مثل دانتون فى يوم من الأيام ! وإذا فرضنا أن ثورة جديدة نشبت ، فأى دور يقوم به كروازنوا وأى دور يقوم به أخى ؟ أعرف هذا مقدما : هو الاستسلام البديع . سيكونان فى شجاعة الخراف ، يذبحان من غير أن ينطقا بكلمة واحدة . وأخوف ما يخافانه وهما يلقيان حتفهما ألا يكونا مؤدبين لطيفين فى ساعة الموت . أما عزيزى چوليان فسيقتل ذلك الثائر الذى يأتى للقبض عليه ، مهما يكن سبيل النجاة غير

مأمون ، وهو لايعبأ بأن يكون خشن المسلك غير ظريف فى الطرق التى يتّبعها .

وجعلتها هذه العبارة الأخيرة تفكر طويلا ، وأيقظت فى نفسها ذكريات أليمة ، وانتزعت منها كل شجاعة وإقدام . ذكرتها سخرية كايلوس وكروازنوا ولوز وأخيها من چوليان ، حين كانوا يصفونه بأنه قس : فيه وضاعة وفيه نفاق . ولكنها سرعان ما أخذت تقول وعيناها تلمعان من شدة الفرح :

— إنّ البغضاء، والسخرية ليقطعان ، على الرغم منهم ، بأنه خير رجل لقيناه هذا الشتاء . وماذا تضرنى نقائصه وتّرهاته ؟ إنه لعظيم ، وهذا ما يغيظهم منه ، على الرغم من أنهم فطروا على الطيبة والتسامح . لاشك أنه فقير ، وأنه كان يدرس ليصبح قسّا ، أما هم فرؤساء كتائب ، ولم يكونوا فى حاجة إلى الدراسة ؛ وهذا أمرهيّن يسير .

وعلى الرغم من عيوب حلته السوداء التى يرتديها دائما ، ومن هيئة القسس التى يضطر إليها اضطرارا وإلا مات البائس جوعا ، على الرغم من هذا كله ، فمزاياه تبعث الخوف فى نفوسهم ، وذلك لايخفى على ذى بصيرة . على أن هيئة القسس لاتبدو عليه حين نكون معاً على انفراد فى تلك اللحظات القصيرة التى يسمح بها الزمن . وحين يقول هؤلاء السادة شيئا ظنوا فيه الذكاء والتجديد ، أليست نظراتهم توجه إلى چوليان أول ما توجه ؟ لقد رأيت هذه الظاهرة فى وضوح وجلاء ، ومع ذلك هم يعلمون حق العلم أنه لايوجه إليهم حديثا إلا إذا سئل.

لايوجه الكلام إلا إلىّ ، لأنه يؤمن بسموّ نفسى . ولا يجيب عن اعتراضاتهم إلا بالقدر الذى يظهر فيه أدبه فى معاملتهم ، ثم يظهر لهم بعد ذلك كل احترام . أما معى فهو يظل يناقش ساعات طويلة ، و إذا أبديت أقل اعتراض تشكك فى آرائه . لم يستعمل القوة طوال هذا الشتاء ، و إنما أراد أن يجذب إليه الأنظار بالكلام وحده . وأبى رجل ممتاز خلقا ، يعمل على رفع مستوى أسرتنا إلى حد بعيد ، و يجل چوليان و يحترمه . أما الباقون فهم يكرهونه فى غير احتقار ، اللهم إلا صديقات أمس التقيات ..

كان الكونت دى كايلوس مغرما بالجياد أو كان متظاهرا بأنه مغرم بها على الأقل ؛ يقضى حياته فى حظيرة الخيل ، وكثيرا ما كان يتناول طعامه فيها . و إذا أضيف هذا الولع الشديد إلى أنه لايضحك أبدا ، خلع عليه هذان المعنيان كثيرا من الاحترام بين أصدقائه فأهله ذلك لأن يكون نسر هذه الجماعة .

اجتمع هؤلاء الشبان فى اليوم التالى خلف وثيرة المركيزة دى لامول ، ولم يكن چوليان حاضرا ، فبدأ كايلوس حين رأى الآنسة دى لامول يهاجم چوليان و يعرّض برأيها فيه ، بدون ماسبب يدعو إلى ذلك ، وعضّده فى هجماته كروازنوا ونوربير ففطنت ماتيلد إلى مايرمى إليه ، وسرّت لهذه الحملة سرورا كبيرا . ثم أخذت تقول فى نفسها : هاهم أولاء جميعا قد تحالفوا ضد رجل له عبقرية ونبوغ ، وإن كان لايملك دخلا يقدر بعشرة لويسات ، ولا يستطيع أن يتحدث إليهم إلا إذا طلب منه

الكلام . إنهم يخشونه وهو بملابسه السوداء فكيف بهم إن لبس ذى العسكريين ؟

وقد كانت ماتيلد فى هذه الليلة بارعة كل البراعة ؛ لم تكد ترى الهجمات الأولى حتى انهالت على كايلوس وحلفائه تهكما وسخرية ، حتى إذا ما كسرت تماما شوكة هؤلاء الضباط الأذكياء قالت لكايلوس :

— ماذا تقول لو أن ثريا من سكان جبال فرانش كونتيه ، أعلن أن چوليان ابن طبيعى له ، ومنحه اسمه و بضعة آلاف من الفرنكات ؟ إنه بعد ستة أسابيع سيكون ذا شارب مثلكم أيها السادة ، و بعد ستة أشهر يكون ضابطا فى الفرسان مثلكم أيها السادة . وعندئذ لا ترون فى قوة خلقه لونا من ألوان السخرية . أراك تتراجع أيها الدوق المنتظر ، لتفضى إلىّ بهذا الاعتراض القديم السخيف ، وهو أن أشراف البلاط أعظم قيمة وأعز مكانة من أشراف الريف . ولكن ماذا تقول لو أننى جاريتك فى اعتراضك ، واستعملت معك الدهاء ، وأخبرتك أن والد چوليان دوق أسبانى أسير حرب فى بيزانسون منذ زمن نابليون ، ولما حانت وفاته ، أراد أن يخلص زمته فاعترف ببنوة چوليان .

و بعثت الاشمئزاز فى نفسى كروازنوا وكايلوس هذه الفروض غير الشرعية حول نشأة چوليان ، وهذا كل ما استطاعا أن يردّا به على ما ذهبت إليه ماتيلد . ومهما يكن تحكم ما تيلد فى أخيها ، فإن حديثها عن چوليان كان واضح المرمى ، لذلك اتخذ أخوها مظهر الجدّ الذى لم يكن يتلاءم مع وجهه الضاحك وتقاطيعه الطيبة البريئة — وجرؤ على

أن يوجه إليها بعض العبارات . فأجابته متصنعة الوقار بدورها :

— ماذا دهاك يا صديقى ؟ أنت مريض ما فى ذلك شك ، مادمت تتحدث إلىّ فى الأخلاق وأنا لاأقول إلا هزلا . وهل تتحدث أنت عن الأخلاق ؟ أتريد منصبا من مناصب حكام المقاطعات ؟

وسرعان ما نسيت ما على كايلوس من غيظ ، ونسيت غضب أخيها وهذا القنوط الصامت الذى يبدو على وجه كروازنوا ، شغلت عنهم جميعا بفكرة استولت على نفسها .

وأخذت تقول : إنّ چوليان مخلص معى ؛ ومن كان فى سنه وبؤسه وطموحه الشديد كان فى حاجة إلى صديقة ، وربما كنت الصديقة التى ينشدها ؛ ولكنى لاأرى فى وجهه دلائل الحب . لو كان يحبنى ، لدفعه مافطر عليه من إقدام إلى أن يفضى إلى بعاطفته .

وهذا الشك وهذه النجوى ، قد شغلا ما تيلد فى كل لحظة من لحظات أيامهما ؟ وكلما تحدث إليها چوليان رأت برهانا جديدا على صدق ما فكرت فيه ، لقد شغلتها هذه الفكرة ،فلم يعد السأم يجد إلى حياتها سبيلا .

كانت ما تيلد وهى فى دير القلب المقدس موضع رعاية شديدة ، وتملق لاحد له ، لأنها ابنة رجل ذى فطنة قد يصبح وزيرا ، فيمنح الكهنوت ما يملك من غابات . وهذا فساد لاسبيل إلى إصلاحه . بعثوا فى نفسها الغرور، وأفهموها أنها أسعد حظا من غيرها ؛ لثروتها ونشأتها

الكريمة . . . وهذا هو مصدر السأم الذى يستولى على الأمراء ، كما أنه مصدر الحماقات التى يرتكبونها .

ولم تسلم من الأثر السىء الذى تتركه هذه الفكرة المشئومة . ومهما يكن ذكاؤها فهى لاتستطيع وهى فى العاشرة من عمرها أن تحذر تملق دير بأسره ولا أن تتأثر به ، وقد دلّت الظواهر كلها على أنه من خير الأديرة .

ومنذ عزمت على أن تحب جوليان ، لم يجد السأم إلى نفسها سبيلا . وكانت كل يوم تهنىء نفسها بما اعتزمته من إقدام على هذا الحب القوى الجارف . ولكنها كانت تقول : هذه اللذة لها أخطارها . ليكن ذلك ! نعم ليكن ذلك ألف مرة !

لقد كنت فريسة للملل الشديد فى أزهى أيام حياتى من السادسة عشرة إلى العشرين قبل أن أعرف الحب . ضاعت سدّى زهرة شبابى ، حين كنت أضطر إلى الإنصات إلى صديقات أمى وهن يثرثرن بكلام ، اعتقدن عكسه فى كوبلنز عام ١٧٩٢ كما يقال ، وأنهنّ فى هذه الآونة كنّ أقلّ صرامة وحزما من كلامهن اليوم . كان هذا هو كل السرور الذى أناله وأنا فى هذه السن الفتية .

وبينما كانت هذه الشكوك الكثيرة تملكها ، كان جوليان لايدرك سرّ نظراتها الطويلة التى تلقيها عليه . وقد رأى أن الكونت نوربير ازداد فتورا فى معاملته ، وأصبح كايلوس ولوز وكرازنوا يظهرون تعاليا عليه ويشمخون بأنوفهم ، أكثر من ذى قبل : على أنه اعتاد منهم هذا . وكان

هذا الأذى يلحقه بعد انتهاء سهرة يظهر فيها من المواهب والذكاء أكثر من القدر الذى يسمح به مركزه . ولولا عناية ما تيلد به عناية خاصة ، وحب الاستطلاع الذى يدفعه إلى معرفة مايدور فى مجتمع هؤلاء الشبان الوسماء ذوى الشوارب ، ما تبعهم إلى الحديقة حيث كانوا يذهبون بعد العشاء ومعهم الآنسة دى لامول .

تحدث إلى نفسه قائلا : نعم ، من العسير أن أخدع نفسى ، إن الآنسة دى لامول تنظر إلىّ بطريقة عجيبة . على أنى أرى فى عينيها الجميلتين الزرقاوين ، وهى تنظر إلىّ نظراتها الساحرة لونامن ألوان الاختبار لى ، وهدوءا وقسوة . أيمكن أن يكون هذا هو الحب ؟ وما أبعد الفرق بين نظراتها ونظرات مدام دى رينال !

وحدث ذات مساء أن ذهب جوليان مع المركيز دى لامول إلى مكتبه ثم عاد سريعا إلى الحديقة . وبينما كان يقترب فى حذر من أصدقاء ما تيلد ، سمع بعض كلمات تقال فى صوت مرتفع ، وتوجه إلى أخيها لوما شديدا وسمع اسمه يذكر مرتين فى وضوح . ولما وصل إليهم ساد بينهم بغتة صمت عميق ، وكان من العسير عليهم أن يتحدثوا ، لأن الآنسة دى لامول وأخاها كانا فى هياج شديد ، فلم يتح لهما أن يجدا موضوعا آخر للحديث . أما كايلوس وكروازنوا ولوز وصديق آخر فقد قابلوا جوليان بفتور شديد ، فانصرف عنهم .

الفصل الثالث عشر

مؤامرة

إن في الآراء التي لا ارتباط بينها ، والمقابلات التي تسوقها المصادفة ، دليلا قاطعا لمن كان واسع الخيال من الرجال على ما إذا كان القلب ينطوي على الحب

شيلر

وفي اليوم التالي فاجأ نور بير وأخته وهما يتحدثان عنه مرة أخرى ، ولما وصل إليهما ساد بينهما صمت عميق كالذي ساد بينهما أمس . فازدادت شكوكه وجعل يقول : هل اتفق هؤلاء الشبان الظرفاء فيما بينهم على أن يسخروا مني ؟ يجب أن أعترف بأن هذا أكثر احتمالا وأقرب إلى العقل من أن أعتقد أن الآنسة دي لامول تشعر بحبها سكرتيرا بائسا مثلي . ولكن أيعرف الحب هؤلاء الشبان ؟ . السخرية هي حصنهم ؛ وهم يغارون مني لتفوقي عليهم في الكلام ، وهو تفوّق تافه . والغيرة نقيصة من نقائصهم . كل شيء يفسر على هذا النحو : وهو أن الآنسة دي لامول تريد أن تقنعني بأنها تفضلني عليهم ، وما ذلك إلا لأنها تريد أن تسخر مني أمام خطيبها .

وغيّر هذا الشك القاتل نفسيته، وصادف هذا الرأي في قلبه بداية حب لماتيلد ، لم يكن من العسير أن يقضي عليه . حبّ يستند إلى روعة جمالها أو إلى طرقها التي تشبه ما تفعل الملكات ، وإلى زيّها البديع كذلك. وقد كان في هذا اللون من التفكير حديث عهد بالنعمة حقا ، لأن المرأة الجميلة التي

تنتسب إلى الطبقة الراقية ، هى كما يقولون : تلك التى تبعث الذهول فى نفس ريفى ذكى الفؤاد حين يصل إلى مدارج تلك الطبقة . ولم يكن هذا فى خلق ماتيلد ولا فى طبعها ، وهى التى جعلت چوليان يحلم بها دائما فى الأيام السابقة . ولكنه فطر على سلامة الحكم على الأشياء ، وهذا خلق جديد لم يعرفه من قبل . وكل ما كان يشهده من جديد عندها ربما كان مرجعه إلى ظواهر الأمور فحسب .

فمثلا كانت لا تتخلف أبدا عن الصلاة يوم الأحد ، وكثيرا ما صحبت أمها إلى الكنيسة فى الأيام الأخرى ، وإذا ما نسى أحد المترددين على صالون دى لامول جلال المكان الذى هو فيه ، وسمح لنفسه بأن يشير إشارة بعيدة إلى العرش أو إلى الكنيسة فى شىء قليل من السخرية ، وعرّض بمصالحها الحقة أو المفترضة ، إذا حدث هذا ، فإن ماتيلد تظهر فى الحال بمظهر الجدّ الشديد الذى يحدث ارتباكا شديدا للساخر ، وتنقلب نظرتها العميقة إلى نظرة تنم عن الكبرياء البالغة ، وهى نظرات تتجلى بوضوح فى صورة قديمة من صور الأسرة .

كان چوليان يعلم حق العلم أن فى غرفتها دائما مجلدا أو مجلدين من أكثر كتب ڤولتير فلسفة . وكان هو بدوره كثيرا ما يسرق بعض مجلدات هذه الطبعة الفاخرة التجليد ، ثم يباعد بين الكتب لئلا يظهر للعين أن أحدها ليس فى مكانه ؛ لكنه سرعان ما اكتشف أن شخصا آخر يقرأ ڤولتير فعمد إلى حيلة من حيل المدرسة ، ووضع خصلات صغيرة من شعر الخيل على

الكتب التى يظن أنها تعجب الآنسة دى لامول ، فاختفت هذه الكتب أسابيع كاملة

وضاق المركيز دى لامول ذرعا ببائع الكتب الذى يمد مكتبة القصر ، لأنه يرسل دائما — على حدّ تعبير المركيز — المذكرات المكذوبة ، فكلّف چوليان شراء الكتب الجديدة الجذابة . وأمره بوضعها فى مكتبة صغيرة فى غرفة المركيز ؛ لئلا تنتشر سمومها بين أفراد أسرته . وكان چوليان على ثقة تامة من أن هذه الكتب سرعان ماستختفى ، مادامت تشهر عداء هينا لمصالح العرش والكنيسة . ولا شك فى أن الذى يقرؤها ليس الكونت نوربير .

بالغ چوليان فى أثر هذه التجربة ، إذ اعتقد أن الآنسة دى لامول فى دهاء مكيافلى . وكان يرى فى أعمالها هذه فجورا محبّبا إلى نفسه ، بل ربما كان هذا هو العمل المعنوى الوحيد الذى يقع عليه بصره وترضى عنه نفسه ؛ وذلك لأنه كان يلقى سأما شديدا من النفاق ، والآراء التى تنطوى على الفضيلة ، فوقع فى هذا الشطط .

وكان سلطان خياله عليه أكثر من سلطان حبه .

وظل يحلم وقتا طويلا بجمال قامة الآنسة دى لامول ، وأناقة ثيابها ، وبياض يدها وجمال ذراعها ، ورشاقة حركاتها ، حتى أحبّها أخيرا . ثم أراد أن يضفى عليها البقية الباقية من الروعة ، فشبهها بكاترين دى مدسيس . فحمل تشبيهه هذا كثيرا من العمق والفجور . وهذا هوا المثل الأعلى لنظائر مالون وفريلير وكاستاند الذين أعجب بهم چوليان فى شبابه .

وعلى الجملة فقد كان يعد هذا المثل الأعلى فى باريس .

ولكن ، أهناك ماهو أدعى إلى الضحك من أن يعتقد الإنسان أن الخلق الباريسى ينطوى على العمق أو الفجور ؟

أخذ جوليان يقول فى نفسه : يحتمل أنّ هذا الثالوث يسخر منى .. وأخذت نظراته إليها — حين تلقى نظراتها — يبدو فيها الفتور الشديد وتكاد تنطق بالجفاء ، وهذا لون من ألوان خلقه . فتذرعت بالجرأة وأظهرت له الودّ مرتين أو ثلاثا ، فقابل هذا بتهكم ساخر . فأحنقتها هذه الغرابة المفاجئة ، لكن قلبها ازداد تعلقا به ، وكان قلبها مجبولا على الملل والفتور ، لايغريه شيء إلا الذكاء ، لكنه عاد إلى طبيعته الأولى فأصبح قلب أنثى يشغلها الحب . وزهدت فى السهرات والحفلات وفى اللذات من كل لون ، وقد كانت من قبل راغبة فيها أشد الرغبة .

وكان أبغض شيء إلى نفسها أن تسمع الموسيقى التى يتخللها غناء فرنسى ، لكن جوليان رآها مرات عديدة فى الأوبرا تلبى غالبا دعوة من يدعوها ؛ وكان يراها وهو واقف فى مكانه بجانب باب الخروج تنفيذا لأوامر المركيز . وخيّل إليه أنها فقدت بعض الأشياء ، فقدت تلك الميزة من الكمال التى تبدو سيماها فى كل ماتعمل . وكانت تجيب أصدقاءها أحيانا فى سخرية شديدة ، وذلك لحيويتها اللاذعة . وكان جوليان يرى أنها تعد المركيز دى كروازنوا شؤما عليها ؛ وكثيرا ماحدث نفسه قائلا : يخيلّ إلىّ أن هذا الشاب يحب المال حبا شديدا ، مادام لايقوى على دفع هذه الفتاة عنه ، مهما تكن غنية ! أما بطلنا فقد ازداد نحوها فتورا لأنه يريد أن ينتقم

منها لما توجه إلى كرامة الرجال من إهانات، وكثيرا ما كان يجيبها إجابات لاتنطوى على الأدب .

كان عازما على ألاّ يخدع بما تظهره له من عناية شديدة ، لكن توددها إليه كان واضحا جليا فى بعض الأيام ، فزالت الغشاوة عن عينيه حتى رآها رائعة الجمال ، وحتى بهره حسنها فى بعض الأحيان .

فقال فى نفسه : إن مهارة شباب الطبقة الراقية وأناتهم سيمكنانهم من الانتصار علىّ لأننى قليل الخبرة . ثم عهد إليه المركيز فى إدارة أراض قليلة و بعض منازل يملكها فى ناحية لنجدول السفلى ، وكان لابد من رحلة يقوم بها فى تلك الأراضى ، فوافق المركيز دى لامول على كره منه . وقد أصبح جوليان شخصا آخر فلم تبق له من صفاته الأصلية إلا طموحه الشديد .

قال فى نفسه وهو يعد العدة للرحيل : ومهما يكن من أمر فانهم لم يظفروا بى . وسواء أكانت نكات الآنسة دى لامول مع هؤلاء الشبان حقيقية أم كانت ترمى من ورائها إلى أن تبعث الثقة فى نفسى فأنا مسرور بها .

و إذا لم تكن هناك مؤامرة على ابن النجار ، فان مسلك الآنسة، حقيقة، غير مفهوم ؛ ولكنها تعامل المركيز دى كروازنوا مثل المعاملة التى تعاملنى بها : فمثلا كان غضبها بالأمس واضحا جدا ، وقد رأيت فى سرور كبير أنها انتصرت لى ، وما أنا إلا من العامة ، ضئيل الشأن ، انتصرت لى على هذا الشاب الكثير المال الكريم المحتد بحق . وهذا أكبر انتصار حصلت عليه ، وسيبعث فى نفسى السرور وأنا فى رحلتى، جالسا فى مقعد من مقاعد عربات البريد التى ستقطع بى سهولة لنجدوك .

لم يذع أمر رحيله ، ولكنّ ما تيلد كانت تعلم خيرا منه أنه سيغادر باريس فى اليوم التالى ، وستطول غيبته . فزعمت أنها مصابة بصداع شديد ، فازداد الصالون انقباضا على انقباضه . تنزهت فى الحديقة وقتا طويلا وأخذت توجه إلى نور بير وكروازنوا وكايلوس ولوز ، وغيرهم من الشبان الذين كانوا قد تناولوا الطعام على مائدة أبيها المركيز ، أخذت توجه إليهم نكات شديدة لاذعة حتى اضطرتهم إلى الخروج ، ثم أخذت تنظر إلى جوليان بطريقة عجيبة . فقال فى نفسه : ربما كانت نظراتها هذه نظرات تمثيل لاعاطفة فيها ، ولكن ما بالها سريعة التنفس مضطربة ؟ ! ومن أنا حتى أحكم على هذه الأشياء حكما صحيحا ؟ إنها حقيقة أروع الباريسيات وأكثرهن فطنة ودهاء . وماهذا التنفس السريع الذى يكاد يلفح وجهى إلا ما تعلمته من ليونتين فاى[1] التى تحبها ماتيلد حبا شديدا . وظلاّ وحدهما فى الحديقة ، وقد دبّ فى حديثهما فتور وملل فأصابها حزن شديد وقالت : لا ! إنه لايحمل عاطفة نحوى .

ولما استأذنها منصرفا ، ضغطت على ذراعه ضغطا قويا وقالت فى صوت متهدج لاتبين نبراته :

— ستتسلم الليلة خطابا منى . فتأثر سريعا من هذه العبارة ، على حين استطردت تقول :

— إن والدى يقدر خدماتك حق قدرها ، يجب ألا تسافر فى الغد ، وعليك أن تنتحل أى عذر . ثم ابتعدت عنه وهى تعدو .

(١) اسم ممثلة فى مسرح « الجمناز » كانت تمثل مسرحيات سكريب ونالت نجاحا كبيرا . « المعرب »

كانت قامتها بديعة ، وقدمها رائعة الجمال ، وكم كانت جميلة وهى تجرى ! وفرح چوليان بما رأى ، ولكن فيم كان يفكر بعد أن توارت عن بصره ؟ لقد غضب من لهجتها التى تنم عن الأمر حين قالت : يجب عليك . وقد غضب لويس الخامس عشر من قبله وهو يموت حين قال له طبيبه : يجب عليك ، وكان الطبيب غير موفق فى تعبيره . ولويس الخامس عشر لم يكن محدث نعمة .

وبعد ساعة أتى إليه خادم وأعطاه خطابا فيه اعتراف بالحب . فأخذ چوليان يطبق على خطابها ملاحظاته الأدبية ، ليقدر على تحمل الفرح الذى ملأ نفسه وقلص خدوده واضطره إلى أن يضحك على الرغم منه وقال : إن أسلوبها لا تصنع فيه .

ثم صاح فجأة واستطرد يقول : كان الحب أقوى من أن يكتم ، وقد ملك مشاعرها فأفضت به إلىّ ، أنا ذلك الفلاح الوضيع ، لقد حصلت إذاً على اعتراف بالحب من سيده كبيرة !

ثم حاول أن يخفى سروره ما استطاع . واستطرد يقول : لا بأس بما حدث ، عرفت كيف أحتفظ بما فى طبعى من كرامة . إنى لم أقل لها : إنى أحبك . ثم أخذ يتأمل خطها الإنجليزى الصغير الجميل . وكان فى حاجة إلى أن يشغل نفسه بشىء مادى ليخفف من حدة السرور الذى كاد يكون جنونا .

« إنّ رحيلك يضطرنى إلى أن أتكلم ... لأنه لم يعد فى استطاعتى أن أحرم رؤياك » .

ثم طرأت عليه فكرة كانت كاكتشاف جديد ، صرفته عن دراسة

خطابها ، وزادت من سروره فصاح : لقد انتصرت على المركيز دى كروازنوا ، مع أنى لا أقول إلا كلاماً ينطوى على الجدّ ! وكم هو جميل! له شارب وحلة بديعة ؛ وهو يجد دائما مايقول ، و يوفق إلى عبارات لطيفة يسوقها فى موضعها وتنطوى على الفطنة .

كانت هذه اللحظة من أسعد لحظات حياة چوليان ، غمرته السعادة وأخذ يسير فى الحديقة على غير هدى .

و بعد ساعة صعد إلى مكتبه ، ثم ذهب ليرى المركيز دى لامول الذى لم يكن قد غادر القصر لحسن الحظ . وأطلعه على بعض أوراق وصلت من نورمانديا،وأقنعه فى سهولة أن من مصالح القضايا النورماندية أن يؤجل سفره إلى لنجدوك . ولما فرغا من استعراض بعض الأعمال ، قال له المركيز:

— يسرّنى أنك قد أجّلت الرحيل ، لأنى أحب أن أراك . وانصرف متضايقاً من هذه العبارة الأخيرة .

وحدث نفسه قائلا : أما أنا فسأغرى ابنته ! ور بما أفسدت مشروع زواجها بالمركيز كروازنوا ، ذلك الزواج الذى يبنى المركيز عليه آمالا عظاما : و إذا لم يصبح دوقاً ، فإن ابنته ستكون على الأقل من أولئك اللائى يترددن على البلاط . وفكر فى الرحيل إلى لنجدوك على الرغم من خطابه ما تيلد إليه ، ومن الأعذار التى قدمها إلى المركيز ؛ غير أن هذا التفكير الذى دفعته إليه الفضيلة ، سرعان ما اختفى .

وأخذ يقول فى نفسه : ما أكثر طيبتى ! أنا هذا الشعبىّ الذى تأخذه الرحمة بهذه الأسرة الراقية ؟ أنا الذى يصفنى الدوق دى شون بأنى خادم !

كيف يعمل المركيز على زيادة ثروته ؟ إنه يبيع إيراده حين يعلم من القصر أنّ الدلائل تدل على قيام ثورة فى اليوم التالى . لقد زجّ بى القدر القاسى فى أحط الدرجات ، لقد أنعم علىّ القدر بقلب رقيق ، وحرمنى دخلا يبلغ ألف فرنك ، أى أنه حرمنى كسرة الخبز ، إذا لم نشأ أن نعرض لذكر الخبز ، فكيف أعرض عن لذة تسعى إلىّ ؟ ! إنه ينبوع صاف يروى ظمئى وأنا فى هذه الصحراء المحرقة ، صحراء الوضاعة التى أقطع عرضها فى جهد جهيد ! فعلىّ ألا أكون غبياً إلى هذا الحدّ ؛ فكلٌّ يعمل لنفسه فى فيافى الأنانية التى يسمونها الحياة .

ثم تذكر تلك النظرات التى كانت تنم عن الاحتقار التى كانت توجهها إليه مدام دى لامول ، وصاحباتها على الأخص .

واستولى عليه سرور شديد لما انتصر على المركيز دى كروازنوا ، فغاضت فى نفسه كل فكرة توحى بها الفضيلة .

وأخذ يقول : كم أودّ لو غضب ! لأنى أعرف الآن كيف أطعنه بسيفى وأنا آمن مطمئن ، وألزمه بأن يقوم بدوز الجنيب فى المبارزة ! كنت من قبل وغداً ، أعتمد فى حقارة على شىء وهبتهُ من الشجاعة . أما بعد هذا الخطاب فقد أصبحت ندّا له .

ثم تحدث إلى نفسه فى لذة شديدة و بطء وهوادة : نعم ، لقد فوضل بين صفاتى وصفات المركيز ، ووضعت مزايا كل منا تحت الحكم ، فرجحت كفة نجار چورا التعس .

وصاح : حسناً ! لقد وجدت ما أجيبها به : يا آنسة دى لامول أننى

لا أنسى حالتى . سأفهمك وأشعرك بأنك قد تخليت عن واحد من سلالة هذا الرجل العظيم دى كروازنوا الذى اشترك مع سان لويس فى الحروب الصليبية . نعم، تخليت عنه من أجل ابن نجار .

كان فرحه عظيما ، وسعادته تغمر نواحى قلبه ، حتى خيل إليه أن غرفته التى أغلق بابها بالمفتاح ، صغيرة لاتسع سروره العظيم ، ولا يستطيع أن يتنفس فيها فنزل إلى الحديقة . وأخذ يردد ماقاله من قبل : ما أنا إلا فلاح تعس من چورا ، حكم علىّ أن أرتدى دائما هذه الملابس السوداء الحزينة! وأسفاه ! لو أننى وجدت قبل ذلك بعشرين عاما إذاً للبست الحلل العسكرية كما يلبسون ! لقد كان من على شا كلتى من قبل يقتل فى الحرب أو يصبح جنرالا ، وهو فى السادسة والثلاثين من عمره . وكان ذلك الخطاب الذى ظل ممسكا به فى يده قد خلع عليه هيئة الأبطال وصفاتهم . فاستطرد يقول : أصبح هذا الثوب الأسود فى الواقع يدرّ على لابسه الذى يبلغ الأربعين أجرا قدره مائة ألف فرنك والوسام الأزرق مثل نولك رئيس أساقفة بوفييه .

ثم ضحك ضحكة مفيستو فليس، وقال : حسنا ! إننى أذكى منهم جميعا، وقد عرفت كيف أختار ملبسا يلائم عصرى . وأحس طموحه يزداد وتعلقه بالثياب السوداء الكنسية يشتد وقال : كم من كردينال كان أكثر ضعة منى ، ومع ذلك كانت فى أيديهم مقاليد الأمور ! وأنا أعرف مثلا لذلك . . . هو مواطنى جرانفل .[1]

---

(١) ولد الكردينال جرانفيل فى بيزانسون عام ١٥١٧ وكان وزيرا زمن شارلكان وفى عهد فيليب الثانى . « المعرب »

وهدأ اضطرابه قليلا قليلا ، وعاد إليه حذره الفطرى وأخذ يتمثل بقول أستاذه ترتوف ، الذى كان يحفظ دوره عن ظهر قلب :

أستطيع أن أصدق هذا القول ، فهو دهاء يقبله العقل .

. . . .

لن أشك بعد هذا فى هذه الآراء اللطيفة الطلية .

فبعض مظاهرها الطيبة تجعلنى أطمئن إلى تصديقها جميعا ، بعد أن كانت نفسى مسرحا للتنهدات .

ترتوف : الفصل الرابع ، المنظر الخامس

لقد أضاعت ترتوف امرأة ، وكان مثله مثل أى إنسان آخر . . . !

واستطرد جوليان يقول فى بطء وقسوة شديدة : قد يطلع المركيز على إجابتى . . . على أنى استعمل لذلك هذا العلاج ، سنبدأ بعبارات قوية نشير فيها إلى خطاب ماتيلد الرائعة .

نعم ، ولكن ربما هاجمنى أربعة من خدم كروازنوا وانتزعوا منى خطابها . لا ، لن يتمكنوا من هذا ، لأنى مسلّح تسليحا كاملا ، وهم يعلمون أنى اعتدت اطلاق النار على الخدم .

ولكن ، قد يكون فيهم خادم شجاع ، فيهجم علىّ ، لأنهم وعدوه مكافأة قدرها مائة نابليون . سأقتله أو سأجرحه ، وهذا ما يريدونه من كل قلبهم . وسيزجّ بى فى السجن تطبيقا للقانون ؛ وأحاكم على فعلتى هذه ، ويرسلوننى إلى بواسى لأشترك فى السجن مع السيدين فونتان[1] وماجالون ، ويكون هذا جزاء عادلا ، وحكما تقضى به عدالة القضاة . على أنى سأنام

(١) كانا مديرين لمجلة صغيرة هجائية تسمى «الألبوم» وقد سجنا عام ١٨٢٠ بسبب نشرة هجائية . «المعرب»

فى پواسى مع أربعمائة من الرعاع لافارق بيننا جميعا . . .

ثم نهض وصاح فى حدة : وسيعطف علىّ هؤلاء الناس بعض العطف ! ولـكن هل يعطفون على أبناء طبقة العامة حين يقعون تحت رحمتهم ؟ !

وكانت هذه العبارة بمثابة انتزاع عطف المركيز دى لامول عليه من نفسه ، الذى كان على الرغم منه يقسو عليه .

مهلا ، أيها السادة الأشراف ، إننى أدرك هذه الخديعة التافهة ؛ وليس فى استطاعة الـكاهن مالون أو السيد كاستاند اللذين غادرتهما فى المدرسة ، أن يفعلا أحسن مما فعلتم . إنـكم ستأخذون منى خطاب الإغراء هذا ، وسيكون مثلى كمثل الـكولونل كارون [١] دى كولمار .

أمهلونى قليلا أيها السادة ، فسأرسل الخطاب الذى ساقه إلى القدر إلى الـكاهن پيرار ، وأضعه فى حزمة تـكون وديعة عنده ، بعد أن أحسن ختمها . إنه رجل أمين ، لن يجد المال سبيلا إلى إغرائه : نعم ، إنه لـكذلك ، ولـكنه يفتح الخطابات . . . سأرسله إلى فوكيه .

ويجب أن نعترف بأن نظرات چوليان كانت قاسية ، وأن وجهه كان كريها ، تظهر فيه الجريمة واضحة جلية . لقد كان هذا الرجل البائس الذى يشتبك فى حرب مع المجتمع كله . وصاح بطلنا وهو يقول : إلى السلاح! ثم قفز درجات السلم الخارجى للقصر قفزة واحدة . وذهب إلى كوخ الـكاتب فى زاوية الشارع ، فأدخل الرعب فى قلب الرجل ، وأعطاه چوليان

---

(١) كان الـكولونيل كارون دى كولمار قد أعدم عام ١٨٢٢ بسبب التآمر . وكثيرا ما تحدث ستندال فى مؤلفاته عن إعدامه . « المعرب »

كتاب الآنسة دى لاموال ، وقال له :

— اكتب هذا .

كان الرجل مكبا على نسخ الخطاب ، وچوليان يكتب إلى فوكيه : ورجاه أن يحتفظ له بوديعة لها قيمتها عنده . ولكنه انقطع فجأة عن الكتابة وقال : إن المكتب الأسود فى مصلحة البريد سيفتح خطابى ويسلمكم الكتاب الذى تحاولون الحصول عليه . . . ، لا أيها السادة ، لن أمكنكم من ذلك . ثم ذهب واشترى إنجيلا ضخما من صاحب مكتبة بروتستانتى ، وأخفى خطاب ماتيلد فى غلاف الإنجيل بمهارة فائقة ، وأرسله إلى عامل من عمال فوكيه ، لا يعرف أحد فى باريس اسمه .

ثم عاد إلى قصر دى لامول بعد ماعمل ، والسرور يملأ جنبيه، وقال بعد أن أغلق باب غرفته وخلع ثيابه السوداء : لقد جاء دورنا ! ثم كتب إلى ماتيلد :

« ماذا ! أهى الآنسه دى لامول التى أرسلت مع أرسين خادم أبيها ، خطابا مغريا إلى نجار بائس من چورا ، إنها ولا ريب تريد العبث به ... »

ثم كتب العبارات الجليلة التى جاءت فى الخطاب الذى تسلمه .

وكان خطابه ينطوى على حذر سياسى شديد يرجع الفضل فيه إلى الفارس دى بوفوازى . كانت الساعة لا تزال العاشرة ؛ وقد أحس چوليان أن السعادة تغمره ، وملكه شعور بقوته ، لا يزال جديدا بالنسبة لهذا البائس ، فذهب إلى الأوبرا الإيطالية . وسمع صديقه چيرونيمو وهو يغنى ، ولم يتأثر من قبل بالموسيقى كما تأثر بها هذه الليلة لأن نغماتها كانت إلهية .

الفصل الرابع عشر

أفكار فتاة

[كم ألاقى من قلق وحيرة ! وكم أقضى ليالى لا أنام فيها ! ياإلهى ! هل سأكتب على نفسى أن تحتقر ؟ إنه سيحتقرنى هو نفسه . ولكنه سيرحل ، ويبتعد عنى] .

ألفرد دى موسيه

وجدت ماتيلد عناء شديدا فى الكتابة إلى جوليان . ومهما يكن من أمر بداية تعلقها به ، فانها سيطرت على كبريائها التى شغلت قلبها منذ عرفت الحياة . وشُغلت هذه النفس المتعالية الفاترة لأول مرة بعاطفة قوية عاصفة ، كبحت جماح الغرور وإن لم تقض عليه تماما . وظلت ماتيلد شهرين كاملين فريسة لمشاعر جديدة غيرت كيانها تغييرا شاملا .

ظنت أن السعادة أضحت فى متناول يدها . وهذا الشعور الكبير إذا سيطر على نفس قوية شديدة الذكاء ، كان عليه أن يكافح طويلا ضد الكرامة ، وضد كل المشاعر التى تتعلق بالواجبات التافهة . وحدث أن دخلت ماتيلد على أمها صباح يوم فى الساعة السابعة ، ورجتها أن تسمح لها بالالتجاء إلى فيلكييه ، فلم تشأ المركيزة أن تجيبها وطلبت منها أن تأوى إلى الفراش فكانت هذه المحاولة آخر مجهود بذلته ، مدفوعة بالحكمة العامية واحترام الآراء التى شبت عليها .

أما خشيتها من أن ترتكب شططا أو أن تخرج على الآراء التى يعدها مقدسة أمثال كايلوس ولوز وكروازنوا ، فكانت لاتقيم لهذا وزنا ؛ لأن أمثال هؤلاء لايستطيعون أن يفهموها كما تزعم ؛ إنها لاتتردد فى أن تستشيرهم لو كانت عازمة على شراء عربة أو أرض . وكان أخوف ماتخافه ألا يرضى عنها چوليان .

ولكن أليس من الجائز ألا يكون مخبره كمظهره ، وألا يكون الرجل الممتاز الذى تنشده ! وهى تكره ضعف الخلق كراهة شديدة ، وكان هذا هو اعتراضها الوحيد على الوسماء من الشبان الذى يحيطون بها . وكلما سخروا فى ظرف مما لايتفق مع ذوق العصر أو مما ينحرف عنه ، قلّ تقدير ماتيلد لأفكارهم ، لأنهم قوم يؤمنون باتباع ما فرضه عصرهم .

قالت ماتيلد فى نفسها : أهم صفاتهم الشجاعة . ولكن ماسبيل هذه الشجاعة ؟ أهى المبارزة ، لكن المبارزة ليست إلا حفلا ، يعرف مقدما كل شىء فيه ، حتى مايقال وقت أن يقع الإنسان على الأرض . فهو حين يتمدد على العشب ، ويده فوق قلبه ، يجب على خصمه أن يصفح عنه صفحا كريما ، ويقول كلمة لفتاته الجميلة التى قد لاتكون إلا فى خياله ، أو تذهب إلى المرقص يوم موته خوفا من أن تثير حولها الشكوك .

إن المرء ليواجه الأخطار وهو يقود كوكبة تلمع بالفولاذ ، ولكن الخطر العجيب غير المتوقع الذى يهدد المرء فى عزلته ، أيعد حقا خطرا قبيحا ؟

ثم استطردت ! وا أسفاه ! كان بلاط هنرى الثالث مملوءا برجال

عظماء الخلق والنشأة معا! آه! لو أن جوليان خدم فى چار ناك أو فى مونكوتور، إذا لتبددت كل شبهاتى، ولزالت مخاوفى جميعا. لم يكن الفرنسيون فى ذلك الزمان كالدمى؛ لأنه كان عصر بأس وقوة. فاليوم الذى كانت تقوم فيه معركة، يعتبر أقل الأيام قلقا وحيرة.

لم تكن حياتهم حبيسة كالأجسام التى حنطوها لقدماء المصريين، ولم تكن ذات لون واحد، لاتتغير ولا تتبدل. ثم استطردت: نعم، كانت الشجاعة فى ذلك العصر أقوى منها فى عصرنا هذا، وكان الخروج من قصر سواسون حيث تقيم كاترين دى مدسيس فى الساعة الحادية عشرة مساء، عملا ينطوى على الشجاعة أكثر من المغامرة فى الجزائر. وكانت حياة كل رجل سلسلة من المصادفات. ولكن الحضارة قضت اليوم على المصادفات، واختفى من حياتنا عنصر المفاجأة. وإذا ظهر فى آرائنا جديد قوبل بالهجاء والقدح الشديد، وإذا تناول بعض الحوادث ذعرنا منه. ومهما ارتكبنا فى سبيل الخوف من حماقات، فإن ذلك لايضيرنا. فياله من قرن انحطت فيه القيم وأصبح مجلبة للسأم! ماذا كان يقول بونيفاس دى لامول لو رفع رأسه المقطوع من قبره ورأى فى عام ١٧٩٣ سبعة عشر شخصا من سلالته يقبض عليهم كما تمسك الخراف، ويشنقون بعد ذلك بيومين؟ لقد كان الموت محققا، ولكن الدفاع عن النفس وقتل واحد أو اثنين من الثوار كان فى نظرهم خطيئة. آه! لو أننا كنا نعيش فى ذلك العصر المجيد، عصر بونيفاس دى لامول، لكان جوليان رئيسا لكتيبة

من الفرسان ، ولكان أخى قساً شاباً له أخلاق عالية ، تنطوى نظراته على الحكمة ، ويغترف لسانه من عقل مكين.

وكانت ماتيلد من قبل ذلك ببضعة شهور تألم؛ لأنها رأت رجلا يخالف ما تواضع عليه الناس ، ويحيد عن سبيل عصرها . وكانت تجد فى سماحها لنفسها أن تكتب لبعض شبان الطبقة الراقية لونا من السعادة . وهذه جرأة لاتتفق أبدا مع الاخلاق ، ولا مع الحذر الذى ينبغى للفتاة ، وقد تثلم شرفها فى نظر المركيز دى كروازنوا ووالده الدوق دى شون، وفى نظر جميع من يترددون على قصر الدوق دى شون ، الذين يرون أن الزواج المنتظر لم يتم ، ويحبون أن يعرفوا سبب ذلك . وفى تلك الأيام التى كانت ماتيلد تكتب فيها الخطابات ، كانت تظل ساهرة لاتعرف إلى النوم من سبيل. لكن كتبها لم تكن إلا ردودا على خطابات هؤلاء الشبان .

وفى هذه المرة جرؤت على أن تقول : إنها تحب ، فكتبت أول خطاب — ويالها من عبارة قاسية — إلى رجل من أدنى طبقات المجتمع . ولو كشف هذا الأمر لجرّ عليها عارا أبديا . وأية امرأة من النساء اللائى يترددون على أمها تجرؤ على أن تنتصر لها ؛ ثم أى عبارة يمكن أن تردّد لتجفف من المهانة التى تلحق بهم من هذه الزلة فى الصالونات كلها ؟ .

كان الكلام وحده فى هذا يجر العار ، فما بالك بالكتابة ! « إنّ هناك من الأشياء مالا يكتب . وهذه عبارة قالها نابليون عندما علم بتسليم بايلن ، وأخبرها چوليان بها ! وكأنه كان يعطيها درسا مقدما .

على أن هذا كله لم يكن شيئا ، فقد كان خوف ماتيلد يرجع إلى

أسباب أخرى . لقد تغاضت عن كل ما تحدثها فعلتها من أثر سىء فى المجتمع، فهى تجرّ عليها العار والامتهان ، نسيت هذا كله ، لأنها كانت تسبّ طبقتها دائما ، وكتبت إلى شخص يخالف كروازنوا ولوز وكايلوس وأمثالهم مخالفة تامة .

وكان عمق چوليان فى خلقه ، وما يخفى عليها منه يرعبها حين تقوم بينها و بينه علاقه عادية ، فـكيف يكون خوفها وقد أرادت أن تجعل منه خليلا وتتخذه سيّدا !

أىّ كبر لا يظهره إذا ما أصبح مسيطرا علىّ ؟ ولو صحّ هذا لتمثلت بقول ميدى ! أنا وسط هذه الأخطار الـكثيرة ، أحتفظ بكلمة أنا .

ظنت أن چوليان لا يحترم بتاتا طبقة الأشراف بالدماء . وخيّل إليها أن نفسه لا تحمل لها لونا من ألوان الحب !

وفى اللحظات الأخيرة لشكها القاتل ، شغلتها الآراء التى تسيطر على الغرور النسوى . وفرغ صبرها ، فصاحت تقول : كل شىء يجب أن يكون غريبا فى مصير فتاة مثلى . وأضحى كبرها الذى تعلمته وهى فى المهد فى نزاع مع الفضيلة . وعزم چوليان على الرحيل فى هذه الفترة ، فـكان ذلك سببا فى تعجل الأمور .

ومثل هذا الخلق نادر جدا لحسن الحظ .

وفى ساعة متأخرة من الليل ، طرأت على چوليان فـكرة خبيثة ، فقد أنزل عند البواب حقيبة ثقيلة ، ودعى الخادم الذى يغازل وصيفة الآنسة دى لامول ليحملها . وأخذ يقول فى نفسه : قد لا تترتب على هذا العمل

نتيجة ، ولـكنه إن نجح ظنت أننى سافرت . ونام فرحا مسرورا من هذه الدعابة . أمّا ماتيلد فلم تذق للنوم طول ليلتها طعما .

وأصبح الصباح فغادر چوليان القصر فى ساعة مبكرة حتى لايتنبه لخروجه أحد ، لـكنه رجع ثانيا قبل الساعة الثامنة .

ولم يكد يدخل المـكتبة حتى كانت الآنسة دى لامول ببابها ؛ فأعطاها رده على خطابها . واعتقد أن الواجب يفرض عليه أن يتحدث إليها ، ولم يكن هذا أمرا عسيرا عليه ، ولـكن ما تيلد لم تشأ أن تسمع إليه فتركته منصرفة بسرعة،وسرّه هذا لأنه لم يكن يعلم مايقوله لها .

ثم أخذ يقول : لو لم يكن كل هذا أمراً دبّره الـكونت نور بير ، فلا شك أن نظراتى التى يشع منها الفتور ، هى التى أوقدت نار حب نزق تشعر به هذه الفتاة الـكريمة المحتد . لو أننى تركت نفسى تنقاد لهذه الدمية الشقراء، لـكنت على جانب كبير من الحمق . وشغلته هذه الفـكرة فزاد فتورا وحذرا .

واستطرد : والمعركة التى ستدور بيننا ، وسيكون فيها أصلها النبيل كأنه تلّ عال يكون بينى و بينها موقعا حر بيا . إننى أحب أن أهاجمها من هذه الناحية . لقد أخطأت كثيرا إذ أقمت فى باريس ؛ وتأجيل سفرى سيحط من شأنى كثيرا ، ويقلل من قيمتى إن صح أن كل هذا الأمر حيلة أريد بها السخرية منى . وأىّ خطر لو أننى رحلت ؟ لو فعلت هذا اسخرت أنا منهم على حين أنهم يريدون أن يعبثوا بى . ولو أنها تهتم بى حقا ، لزاد إهتمامها مائة مرة لو أننى لم أؤجل سفرى .

لقد سبب له خطابها فرحا شديدا واستمتاعا ينطوى على الـكبر ، وأخذ يضحك مما حدث ، حتى أنساه ضحكه أن يفكر فى السفر تفكيرا جدّيا .

كان يحس ما يرتكب من الأخطاء إحساسا بعيدا ، وهذا لون من ألوان طبعه لامفرّ له منه . وكان غاضبا على نفسه من جراء ذلك ، ولم يعد يفكر فى هذا النصر الكبير الذى سبق هذا الفشل اليسير ؛ غير أن الآنسة دى لامول ظهرت بباب المكتبة فى الساعة التاسعة وألقت إليه خطابا ثم ولت الأدبار . فجعل يحدث نفسه وهو يتناول الخطاب : يخيّل إلىّ أنها قصة فى رسائل . لقد زلت قدم العدو ، أما أنا فسأظهر الفتور والفضيلة . وسألته فى خطابها أن يرد عليها ردا شافيا ، لكن لهجتها كانت متكبرة ، فزاد هذا من فرحه الداخلىّ . ووجد لذة كبيرة فى أن يكتب إليها صفحتين ، تناول فيها بالقدح كل أولئك الذين يحاولون أن يسخروا منه ، ثم أخذ يعبث بها فى آخر الخطاب فأخبرها بأنه راحل فى صباح اليوم التالى .

ولما انتهى من كتابه ، قال : ستتيح لى الحديقة فرصة أسلمها فيها كتابى لأنها ولا شك ذاهبة إليها . وأخذ يطالع نافذة غرفتها التى تقع فى الطابق الأول بجوار مسكن أمها ، غير أن هناك طابقا مرتفعا بين أسفل المنزل وأعلاه .

وكان هذا الطابق مرتفعا جدا حتى أن جوليان وهو فى الحديقة يتنزه ماشيا فى طرقات أشجار الزيزفون والخطاب فى يده ، كان لا يُرى من

نافذة الآنسة دى لامول ، لأن الأشجار — وإن كانت مشذبة — إلا أنها تكون قبة تستر السائر فى الحديقة فلا يراه من كان فى النافذة .

وسرعان ما استولى عليه الغضب ، وأخذ يقول : ماذا أنا فاعل ؟ ! إننى لأرتكب حماقة جديدة ! لو فرضنا أنهم يعملون على السخرية منى ، فليس لى أن أظهر و بيدى خطاب ، لأن هذا يخدم أعدائى .

وكانت غرفة نور بير فوق غرفة أخته تماماً ، بحيث لو غادر جوليان القبة التى تضربها الأغصان المشذبة ، لرآه الكونت وأصدقاؤه، ولاستطاعوا أن يتتبعوا حركاته كلها فى سهولة و يسر .

ثم ظهرت ماتيلد خلف زجاج نافذتها ، فأشار جوليان إليها إشارة خفيفة، وأظهر لها جزءا من الخطاب ، فلما غضت من بصرها أسرع يجرى إلى غرفته ، وهناك على السلم الكبير قابلته مصادفة ، ماتيلد الجميلة الفاتنة ، وأخذت منه الخطاب فى غير مشقة وعيناها تضحكان .

عندئذ قال فى نفسه : كم كانت نظرات مدام دى رينال التعسة، تنطوى على حب قوى وسعادة ، حين جرؤت على أن تأخذ من يدى الخطاب بعد أن عاشرتها ستة شهور ! و يخيل إلى أنها لم تنظر إلى مرة واحدة فى حياتها بعينين باسمتين .

ولكنه اقتضب فكرته ولم يبينها بوضوح ... هل كان يرى أن مايسوقه من الأدلة لا قيمة له ؟ ولكن خاطره سرعان ماأدرك البون الشاسع بين ماتيلد ومدام دى رينال، عندما رأى أناقتها فى ثوب الصباح؛ و يالروعة قدها وجماله ! و إذا ما أبصرها الناظر السليم الذوق على بعد ثلاثين خطوة

أدرك مكانتها الاجتماعية . وهذا هو مايسمونه الميزة الظاهرة .

كان چوليان يعبث لكنه لم يكشف تماما عن فكرته ؛ فمدام دى رينال لم يكن بجانبها شخص مثل المركيز دى كروازنوا تضحى به من أجله . وما كان له من غريم فيها إلا هذا التافه الحقير السيد شاركو، نائب حاكم المقاطعة ، الذى أطلق على نفسه اسم دى موچيرون ، حين علم أن سلالة موچيرون فنيت كلها .

وفى الساعة الخامسة وصل إليه خطاب ثالث ، ألقت به إليه من باب المكتبة ، ثم ولت الأدبار كما فعلت من قبل . فضحك چوليان قائلا : ما أعجب هذا الجنون ! فى مقدورنا أن نتحدث معا فى سهولة و يسر ! . من المحقق أنّ العدو يريد أن يحصل منى على كتب كثيرة ! ولم يتعجل فتح الخطاب الجديد . ثم قال فى نفسه : لعلها جمل طريفة فى هذه المرة كذلك . لكن الشحوب علا وجهه وهو يقرأ ، ولم تكن ماتيلد قد كتبت إلا ثمانية سطور لاتزيد ، وكانت تقول : أريد أن أتحدث إليك ، يجب أن أتحدث إليك الليلة عندما تدق الساعة الأولى صباحا .... فاذهب إلى الحديقة ، ثم خذ السلم الكبير الذى يستعمله البستانى — وهو على مقربة من البئر — وضعه على نافذتى وادخل إلىّ .... إن القمر مكتمل الضياء ولكن ذلك لايضير .

الفصل الخامس عشر

أهذه مؤامرة ؟

[آه ! ما أقسى الزمن الذى نقضيه بعد الشروع فى عمل عظيم وقبل تنفيذ هذا العمل ! ويا لتلك المخاوف التى لا مسوغ لها ! ويا للحيرة والتردد ! إنها هى الحياة بل إنها أعز من الحياة : إنه الشرف !]

شيلر

أخذ جوليان يعمل فكره ويتحدث قائلا : أصبح الأمر جدا .... وصار واضحا جليّا . ماذا ! هذه الآنسة الجميلة تستطيع أن تتحدث إلىّ فى المكتبة فى حرية واسعة . والحمد لله على أن المركيز يخشى أن أطلعه على الحسابات ، فهو لذلك لا يدخل علىّ المكتبة أبدا . ثم ماذا ! إن المركيز دى لامول والكونت نوربير هما اللذان يترددان على المكتبة ، وهما غائبان طول النهار ، ويمكن بكل سهولة أن تعلم ساعة عودتهما إلى القصر. على الرغم من هذا كله أرى الغادة الجميلة ؛ التى إن طلب يدها أمير من الأسرة المالكة كان الرابح ، أراها تريد منى أنا أن أرتكب هذه الحماقة البالغة ! .

من الواضح أنهم يريدون القضاء علىّ ، أوهم على الأقل يحاولون السخرية منى . لقد حاولوا أول الأمر أن يقضوا علىّ بخطاباتى ، فألفوْها رزينة لاتطرف فيها ، فعمدوا الآن إلى عمل أكثر وضوحا من بياض النهار ! ويعتقد هؤلاء السادة الشبان الوسماء، أننى على جانب عظيم من الغباء أو الحماقة . ياللشيطان ! أأصعد بسلم إلى الطبقة الأولى فى ليلة يضىء فيها

القمر وأكون على ارتفاع خمس وعشرين قدما ! سيتاح لهم وقت لرؤيتى ، وسيرانى أصحاب المساكن المجاورة كذلك . كم أكون جميلا فوق سلمى !

وصعد إلى غرفته وأخذ يعد حقيبته وهو لا ينقطع عن الصفير . وذلك لأنه عزم على الرحيل دون أن يردّ على خطابها . ولم يبعث هذا القرار الحكيم الطمأنينة فى قلبه ، فسرعان ما أخذ يقول فى نفسه بعد أن فرغ من إعداد الحقيبة : إذا صحّ أنها صادقة العاطفة فسيصبح دورى فى رأيها دور جبن وحقارة ! إننى لا أنتسب إلى أسرة كريمة ، ولهذا يجب أن أنال ميزات جديدة لها قيمتها ، لابدّ لى من المال الحقيقى الذى يتمثل فى أسهم عظيمة القيمة .

وفكر ربع ساعة ، ثم قال فى نفسه : لم أنكر هذه الحقيقة ؟ سأصبح جبانا فى نظرها . ولن أفقد أجمل وأذكى فتاة فى الطبقة الراقية كما وصفوها فى مرقص الدوق دى ريتز فحسب ، بل أفقد أيضا لذة كبيرة حين أراها وهى تضحى من أجلى بالمركيز دى كروازنوا ، وهو ابن دوق وسيصبح دوقا كذلك . وهو شاب وسيم له كل ماينقصنى من صفات : فهو سريع البديهة ، كريم الأصل ، كثير المال .

إننى لو فعلت هذا لحالفنى الندم طول حياتى ، لامن أجلها ، فان فى العالم كثيرا من الخليلات ! .

... ولكن ليس لأحد من الناس إلا شرف واحد ! كما يقول الشيخ دون دييج ، وإننى لأتراجع الآن أمام أول خطر حقيقى يعترضنى ما فى ذلك شك ؛ لأن مبارزتى مع السيد دى بوفوازى لم تكن إلا شيئا تافها . أما

الآن فهذه مسألة أخرى فيها كثير من الجد . قد يطلق على النار أحد الخدم ، وهذا أهون الأخطار ، وقد يتعرض شرفي للاهانة و يلحقني العار .

ثم استطرد في فرح شديد وفي لهجة فيها كبرياء : الأمر جد أيها الشاب فالشرف هو الذي يتعرض للأذى . إن شخصا آخر يائسا مثلي ، لم تعرض له في حياته هذه المصادفة السعيدة ، ولم تتح له هذه الفرصة التي لا تعوض ، سأحصل على مال كثير ، ولكن عن طريق غيري .

وأخذ يفكر طويلا ، وهو يسير بسرعة و يتوقف عن المسير بين آونة وأخرى . كان في غرفته تمثال جميل من الرخام للكردينال ريشيليو ، فكان ينظر إليه بين لحظة وأخرى على الرغم منه . وكأن هذا التمثال كان يؤنبه أشد تأنيب على خور عزيمته ، وعلى أنه لا يتمسك بالشجاعة التي تعد فضيلة من فضائل الفرنسيين . فأخذ يقول : لو كنت في زمنك أيها الرجل العظيم فهل كنت أقع تحت طائلة التردد ؟

واستطرد : إن فرضنا أسوأ الفروض ، وكان هذا فخا ينصب لي ، فمن المؤكد أنه يلوث سمعتها و يقضي على شرفها . فهم يعلمون أنني لا أركن إلى الصمت . وعلى هذا يجب عليهم أن يقتلوني . على أن قتلي كان ممكنا عام ١٥٧٤ أيام بونيفاس دي لامول ، أما اليوم فلن يجرؤ أحد عليه ؛ لقد تغيرت طباع هؤلاء الشبان . وكم يحسد الناس الآنسة دي لامول ! إن أربعمائة صالون ستردد في الغد فضيحتها في لذة وسرور !

والخدم يثرثرون فيما بينهم بما يكنونه لي من الاحترام ، أعرف هذا تماما ؛ فاني سمعتهم يتحدثون به .

وخطاباتها من ناحية أخرى ! .. ربما اعتقدوا أنني أحملها معي : وإذا

ما باغتونى فى غرفتها ، فسيحاولون أخذها منى . وهل ستقع معركة بينى و بين رجلين أو ثلاثة أو أربعة ؟ الله أعلم بعددهم . ولـكن أنى لهم بالرجال ؟ أفى باريس مرءوسون يكتمون الأسرار ؟ إن العدالة تخفيهم . . . يا لله من أمثال كايلوس وكروازنوا ولوز !

فى اللحظة التى أباغت فيها ، ستعلو وجهى ، وأنا بينهم، علامات الحماقة التى أعجبتهم من قبل . فحذار من مصير أبيلارد ، أيها السكرتير !

ولـكن حذار أيها السادة ! إننى سأترك فى وجوهكم آثار صفعاتى ، كما فعل جنود القيصر فى فرسال ... أما الخطابات ففى استطاعتى أن أضعها فى مكان أمين .

ونسخ جوليان صوراً من الخطابين الأخيرين ، وأخفاها فى مجلد جميل من كتب ڤولتير ، أما الخطابان فقد ذهب بهما بنفسه إلى البريد .

ولما عاد أخذ يسائل نفسه فى دهشة وذعر : أية حماقة سأرتكبها ؟ ثم ظل ربع ساعة لا يستطيع التفكير جديا فى مشروع الليلة القادمة .

سأحتقر نفسى فيما بعد إذا أنا تراجعت ! وسينتابنى الشك طول حياتى، والشك عندى شر البلايا جميعاً . ألم أندم من قبل يوم تركت خليل أماندا ؟ ! ويخيل إلىّ أننى أصفح صفحاً كريماً عن جريمة واضحة المعالم ، فإنى لا أعود أفكر فيها حين أعترف بها .

ماذا يعترينى ! أتتاح لى فرصة فى، أن أكون منافساً لرجل يحمل اسماً من أشرف الأسماء الفرنسية وأشهرها ، ثم أنزل عن ذلك فأكون أقل

منه قيمة وقدراً ؟! هذا فى الواقع منتهى الجبن . وقطعت هذه العبارة سبيل كل شك . فنهض وصاح : إنها لرائعة الجمال . . . .

لو لم تكن هذه خيانة منها ، فأى جنون ترتكبه من أجلى ! . . . وإذا كان الأمر سخرية واستهزاء ، فأقسم لكم أيها السادة على أننى سأبدل الهزل جداً ، وإنى على ذلك لقدير !

ولكن ، ما العمل إذا ما ربطوا ذراعىّ عند ما أدخل الغرفة ؟ إنهم يرتكبون بذلك عملا ينطوى على المهارة حتماً ! وربما استعملوا حيلة ماهرة للايقاع بى .

ثم ضحك وقال : إنها ستكون أشبه بمبارزة ، وفى المبارزة يمكن تجنب كل طعنة، كما قال لى معلمى فى السلاح، أما إذا أراد الله أن يقضى على حياة أحد المتبارزين فإنه ينسيه أن يدافع عن نفسه . وعلى كل حال ، فستكون هذه إجابتى: وأطلق من مسدساته التى فى جيبه عدة طلقات، ثم غيّر طلقاتها وإن كانت تدوّى .

ثم رأى أنّ فى الوقت متسعاً ، فأراد أن يقوم بعمل، فجلس يكتب إلى فوكييه : لا تفتح يا صديقى الخطاب الذى تجده داخل كتابى هذا إلا إذا حدث لى حادث، أو سمعت أن شيئاً غريباً وقع لى . وإذا علمت بشىء من ذلك ، فامح أسماء الأعلام الواردة فى الخطاب الذى أرسله إليك ، وانسخ منه ثمانى نسخ ترسلها إلى صحف مرسيليا وبوردو وليون وبروكسل وما إليها ؛ وبعد ذلك بعشرة أيام ، أطبع هذا المخطوط وأرسل أول نسخة منه إلى

المركيز دى لامول ؛ ثم ألق بباقى النسخ ليلا فى شوارع فريير ، بعد ذلك بخمسة عشر يوماً .

كانت هذه المذكرة الصغيرة التى تبرر موقفه ، والتى أمر فوكييه بألا يفتحها إلا إذا حدثت لجوليان حادثة ، قد جُعلت على شكل قصة ، وقد حاول جوليان قدر استطاعته ألا يتهم فيها الآنسة دى لامول ، ولكنه رسم فيها بوضوح موقف هذه الفتاة .

ولما انتهى من كتابه ، دقّ جرس العشاء ، فدقّ له قلبه ، لأن خياله كان فى شغل بالقصة التى كتبها ، و يغلب على شعوره الشؤم والفجيعة .
كان يرى نفسه وقد أحاط به الخدم، وقيدوه ووضعوه فى قبو مكتّم الفم ثم أقاموا على حراسته خادماً ، و إذا اقتضى شرف هذه الأسرة الكريمة أن تختم هذه المغامرة بخاتمة محزنة ، فمن اليسير أن يقضوا عليه بالسموم التى لا تترك وراءها أثراً ؛ وعندئذ يزعمون أنه مات على أثر مرض ثم ينقل إلى غرفته ميتاً .

وكان متأثراً حقاً بالقصة التى ألفها ، كأنه مؤلف دراما تأثر لما ألّف ، وقد شعر بخوف حقيقى وهو يدخل غرفة الطعام . وأخذ ينظر إلى هؤلاء الخدم فى ملابسهم البديعة و يتأمل وجوههم ، و يسائل نفسه : أى هؤلاء قد اختير اليوم للحملة الليلية ؟ هذه الأسرة لا تزال تحتفظ بذكريات بلاط هنرى الثالث ، وترددها كثيراً ، فإذا ما أحست إهانة، كانت أكثر إقداماً من كل الأسر التى على شاكلتها . ثم أخذ ينظر إلى الآنسة دى لامول ليقرأ فى وجهها ما دبرته له أسرتها ، فألفاها شاحبة، وجهها كوجه آل المصور

الوسطى . ولم يرها من قبل أجمل مما هى عليه الآن ، فقد كانت حقيقة رائعة عظيمة . فأصبح مغرماً بها ، وأخذ يقول فى نفسه : إنّ شحوبها لينبىء بما اعتزمته من جليل الأعمال .

وحاول عبثاً أن يتنزه فى الحديقة بعد العشاء ، لأن الآنسة دى لامول لم تذهب إليها . ولو أنه تمكّن من أن يحدثها لأزال عن قلبه هما كثيراً . ولم لا نعترف بالحقيقة ؟ لقد كان چوليان خائفاً مذعوراً . وبما أنه عزم على أن يعمل ، فإنه صمم على ألا يخجل أو يستحى ، وأخذ . يقول : كل ما أطلبه أن تواتينى الشجاعة وقت العمل ، وما قيمة ما أشعر به الآن ؟ ثم ذهب ليرى مكان السلم ويعرف مقدار ثقله .

وضحك قائلا فى نفسه : لقد عزمت على استعمال هذه الأداة ! وإننى هنا كما كنت فى ڤريير . ولكن ما أعظم الفرق ! ثم تنهد واستطرد : كنت هناك لا أشك فى إخلاص المرأة التى أعرض حياتى من أجلها للخطر . ثم ما أعظم الفرق بين الخطرين !

كان من اليسير أن أقتل فى حدائق السيد دى رينال ، ولكن شرفى ما كان يجرح ، لأنه من السهل عليهم أن يخفوا سبب موتى . أما هنا ، فأى قصص كريهة مؤلمة ستقص فى صالونات شان وكايلوس ورتز وغيرها ! وأى تصوير مريع يضفى علىّ فى كل مكان ؟ سأكون شيطاناً فى نظر الأجيال القادمة .

ثم ضحك ساخراً من نفسه واستطرد يقول : سأظل شيطاناً يتحدثون

عنى عامين أو ثلاثة أعوام . ولـكن من ذا الذى يستطيع التماس المعاذير لى ؟ وإذا فرضنا أن فوكييه طبع المنشور فيما بعد ، فلن يكون ذلك إلا حقارة جديدة . ماذا ! أأعيش فى منزل ألقى فيه الحفاوة والإكرام البالغين ، ثم تحدثنى نفسى أن أطبع منشوراً يعرض لما حدث ! وأهاجم فيه أعراض النساء ! آه ! إنى أفضل ألف مرة أن أكون غراً جاهلا ! وكانت السهرة كريهة ممقوتة .

الفصل السادس عشر

الساعة الأولى صباحا

[كانت هذه الحديقة شاسعة ، خططت منذ سنوات
قليلة فى كثير من الروعة . ولكن الأشجار كان قد مضى
عليها أكثر من قرن ، وهى مصطبغة بالصبغة القروية.]
ماسنجر

كان يكتب إلى فوكييه خطابا آخر ، يطلب منه ألا ينفذ ما كلفه به فى خطابه السابق ، حين دقت الساعة الحادية عشرة . وأخذ يعبث بقفل الباب محدثا جلبة؛ ليوهم السامع بأنه أغلق على نفسه باب غرفته . ثم ذهب بعد ذلك فى خفة وحذر ليرى ما يحدث فى البيت؛ وخاصة فى الطبقة الرابعة التى يقيم فيها الخدم ، فلم يجد شيئا خارجا عن المألوف . وكانت وصيفة من وصيفات المركيزة تحيي سهرة والخدم يشربون البنش فى فرح وسرور ؛ فأخذ چوليان يقول فى نفسه : إن الذين يضحكون هكذا لن يشتركوا فى الحملة الليلية ، بل سيكون المشتركون أكثر جدا ووقارا من هؤلاء .

وذهب أخيرا إلى الحديقة واتخذ مقعده فى جانب مظلم ، وتحدث قائلا : إن كانوا عازمين على أن يخفوا الأمر على الخدم فلا بد أنهم سيحضرون من كلفوهم القيام بهذه المهمة من فوق جدران الحديقة ليباغتونى فى غرفتها .

وإذا كان السيد دى كروازنورا يحتفظ بشىء من الهدوء فى كل

هذه المغامرة ، فعليه أن يباغتنى قبل أن أدخل غرفة الفتاة التى يريد أن يتزوجها حتى يصون عليها عرضها .

ثم جعل يستكشف المكان استكشافا حربيا على جانب كبير من الدقة، وقال : شرفى هو الذى يتعرض للضياع ، فلو اننى ارتكبت خطأ أو عثرت فى عثرة ماجاز لى أن أقول : لم أفكر فى هذا ؛وليس هذا يعد عذراً.

كانت ظلمة الليل حالكة سوداء ، شقها بزوغ القمر فى الحادية عشرة حتى أضاء واجهة القصر التى تطل على الحديقة فى منتصف الساعة الأولى.

ودقت الساعة الأولى صباحا ، ونوافذ الكونت نوربيرلا يزال الضوء يرى من خلالها ، ولم يستول على چوليان رعب طول حياته كما استولى عليه الرعب فى هذه الليلة ، فقد رأى أن العمل محفوف بالمخاطر ، وفقد كل حماسة فى أن يقدم عليه وأخذ يقول : إنها لمجنونة !

ولكنه ذهب وأحضر السلم ، وانتظر خمس دقائق ، علها تشير عليه بأن يرجع ومضت خمس دقائق بعد الساعة الأولى فوضع السلم على نافذة ماتيلد ، وصعد فى خفة ، و يده تقبض على مسدسه ، والذهول يملكه لأنهم لم يهجموا عليه . ولما اقترب من النافذة ، فتحت فى سكون شديد ، وسمع ماتيلد تقول فى تأثر شديد :

— هأنتذا قد جئت ... إننى متتبعة حركاتك منذ ساعة .

وكان شديد الاضطراب لا يعرف ما يفعل، لأن قلبه لم يكن يحمل لها شيئا من الحب ، وحسب وهو حيران أنه لا بد له من الجرأة ، فحاول أن يقبلها ، لكنها دفعته قائلة :

— تبالك !

وسره كثيرا أنه أعفى مما كان مقدما عليه ، وأسرع فألقى نظرة على ماحوله : كان ضوء القمر ساطعاً وضاء ؛ حتى أن الظلال التى ألقاها فى غرفة ماتيلد كانت شديدة الظلمة ، فأخذ چوليان يقول : قد يكون هنا رجال كامنون بحيث لا أراهم ، فسرها أنها وجدت موضوعاً تتحدث إليه فيه ، لأنها كانت فريسة لعذاب أليم ، من مشاعر الخجل والتحفظ التى سيطرت عليها من جديد ، وهى مشاعر تتصف بها كل فتاة تنشأ نشأة كريمة ، سألته قائلة :

— ماهذا الذى أراه فى جيبك الجانبى؟وسره هو كذلك أنه وجد مايقوله:

— هى أسلحة مختلفة ومسدسات كثيرة .

— يجب أن ترفع السلم من موضعه .

— إنه ضخم وأخشى أن يكسر زجاج نوافذ الصالون أو زجاج الطبقة الأرضية .

— يجب ألا يكسر الزجاج . وحاولت وهى تقول هذه العبارة أن تتخذ لهجة الحديث العادى ، ولكنها لم تستطع ، ثم استطردت : يمكنك أن تخفض السلم بواسطة حبل تربطه فى الدرجة العليا . وإنى أحتفظ دائما بشىء من الحبال فى غرفتى .

فعجب لأمرها وأخذ يقول : أهذه فتاة عاشقة ؟ ! إنها لتجرؤ على أن تقول إنها تحب ! وهذا الهدوء الشديد ، والحكمة البالغة فيما تتخذه من احتياط ، يدلاننى على أننى لن أنتصر على كروازنوا كما كنت أعتقد

جهلا وغفلة ، نعم لن أنتصر عليه وإن كنت أخلفه فقط . ولكن ماذا يضيرني من وراء ذلك ؟! هل أحبها ؟ إني أنتصر على المركيز في أن سيكون له من يخلفه وهذا يغضبه ، ويزداد غضبه حين يعلم أنني أنا الذي أخلفه ! كم كانت نظراته إلىّ بالأمس في مقهى تورتوني تنطوي على الكبر ! لقد زعم أنه لا يعرفني . ولما لم يجد مفرا من أن يحييني ، كانت تحيته تنم عن الكراهية والشر !

ربط الحبل في الدرجة العليا وأخذ يخفض السلم قليلا قليلاً ، وانحنى من الشرفة انحناءة شديدة حتى لا يكسر زجاج النوافذ ، وبينما هو يفعل ، قال في نفسه : إنها للحظة طيبة لقتلي ، ، إذا كان هناك من اختفى في غرفة ما تيلد ليفتك بي . ولكن السكون كان شاملا في كل مكان .

وصل السلم إلى الأرض ، واستطاع جوليان أن يضعه في ممشى الحديقة بجوار الحائط في مكان زرعت فيه نباتات غريبة تعنى بها المركيزة . فقالت ماتيلد :

— ماذا ستقول أمي حين ترى نباتاتها الجميلة وقد تلفت ! ثم استطردت تقول في هدوء تام : يجب أن نلقي بالحبل بعيدا ، لأنه لو شوهد معلقا بالشرفة ، لكان من العسير علىّ أن أسوّغ وجوده . فسألها جوليان في لهجة مرحة ، متخذا لغة سكان المستعمرات (وكانت إحدى وصيفات القصر من سكان سان دومنج) :

— وكيف أنصرف أنا إذن ؟ فقالت والسرور يغمرها :

— ستخرج من الباب . ثم قالت في نفسها : آه ! هذا الرجل جدير بحبي حقا !

ترك چوليان الحبل يسقط فى الحديقة ، وضغطت ماتيلد على ذراعه ، فظن أن عدوا من أعدائه قد أمسك به ، فاستدار مسرعا وأمسك بخنجر . وخيل إلى ماتيلد أنها تسمع فتح إحدى النوافذ ، فظلا واقفين وهما جامدان لايتحركان . وكان ضوء القمر يغمرهما . ولم يلبث الصوت الذى سمعته ماتيلد أن انقطع ، فزايلها القلق .

لكن ارتباكهما بدأ مرة أخرى ، وكان شديدا . وذهب چوليان إلى الباب ليرى أهو مقفل بكل المزاليج ؛ وود لو أنه فتش تحت السرير كذلك لكنه لم يجرؤ ، وخيّل إليه أنه ربما يكون قد كمن تحته خادم أو خادمان . ثم خشى أن يلوم نفسه فى المستقبل على ذلك فتشجع ونظر . أما هى فكانت تحت سطوة حياء شديد ، واشمأزت من مسلكها كثيرا ، ثم سألته :

— ماذا فعلت بخطاباتى ؟

فقال فى نفسه : هذه فرصة طيبة أبعث بها القلق فى نفوس هؤلاء السادة الذين ربما كانوا يسترقون السمع ، ولأتجنب معركة تنشب بينى وبينهم ! ثم أجابها :

— أما الخطاب الأول فقد أخفى فى إنجيل بروتستنتى ضخم وحملته عربة سفر الأمس إلى مكان بعيد .

كان يتكلم فى وضوح شديد محاولا ذكر كل التفاصيل ليسمع أولئك الذين عساهم أن يكونوا كامنين فى صوانين كبيرين من خشب الكابلى ، لم يجرؤ على تفتيشهما . ثم استطرد :

— أما الخطابان الآخران فهما فى طريقهما بالبريد إلى المكان الذى أرسل إليه الأول .

فذهلت وقالت :

— يا إلهى ! ولكن لم كل هذه الاحتياطات ؟

فسأل نفسه : لم أكذب عليها ؟ ثم قصّ عليها كل ما خالجه من خوف فصاحت فى لهجة تحمل الجنون أكثر مما تحمل الحب :

— ذلك إذن هو سبب الفتور فى خطاباتك !

ولم يفطن إلى ما فى حديثها من رقة ، لأن مخاطبته بصيغة المفرد أذهلته ، أو بددت وساوسه على الأقل . وجرؤ على احتضان هذا الجمال الرائع الذى طالما بعثت صاحبته فى نفسه كثيرا من التجلة والاحترام . فدفعته عنها فى رفق هذه المرة .

واستعان بذاكرته كما فعل فى بيزانسون من قبل مع أماندا بينيه ، وأخذ يصبّ فى أذنيها بعض عبارات جميلة من هلويز الجديدة . فقالت وهى لا تصغى كثيرا إلى مايقول :

— إن قلبك قلب رجل ، وأعترف لك أنى أردت أن أتبين مقدار شجاعتك . إن شكوكك وعزمك على القيام بما طلبت منك لتدل على أنك أكثر إقداما وشجاعة مما ظننت .

وبذلت مجهودا كبيرا فى مخاطبته بصيغة المفرد ، حتى شغلتها طريقة التحدث معه أكثر مما شغلها ما تقوله له ، لأنها لم تعتد ذلك من قبل . إلا أن طريقة حديثها معه كانت لا تنم عن الحب ، فلم يسرّ جوليان

وذهل من أنها لا تشعر بشىء من السعادة . وقد أراد هو أن يرجع إلى عقله ليستوحيه سعادة يشعر بها . فرأى أن هذه الفتاة المتكبرة تقدره تقديرا شديدا ، وقد فطرت على ألا تسوق المدح جزافا ؛ وساعده هذا التفكير على أن يرضى كبرياءه ويشعر بشىء من السعادة .

لكن هذه السعادة لم تكن تضارع لذة روحية لقيها فى بعض الأحيان عندمدام دى رينال؛ لأن عواطف ماتيلد لم يكن فيها شىء من الحنان فى تلك اللحظات الأولى. لقد أرضى طموحه إرضاء كاملا — وهو طموح بطبعه — وشرع يتحدث إليها مرة أخرى عن الذين تدور حولهم شبهاته ، وعن الاحتياطات التى اتخذها ودفعه خياله إليها ؛ ثم حاول وهو يتحدث أن يستغل الانتصار الذى ظفر به .

كانت لاتزال كبيرة الاضطراب شاعرة بالأسف على ما فعلت ، ولكن سرها أن تجد موضوعا للحديث . وتناول حديثهما طريقة اللقاء ، فسر چوليان مرة أخرى من الفطنة والشجاعة اللتين أبداهما . كانا يعلمان أن لا بد لهما أن يحذرا أناسا فطروا على الذكاء والحرص ، فتانبو الصغير جاسوس ما فى ذلك ريب ، ولكن چوليان وماتيلد لم يكونا أقل منهم حرصا ومهارة .

ثم هل هناك طريقة أجدى عليهما من أن يلتقيا فى المكتبة ليتفقا على كل شىء ؟ قال لها چوليان :

— فى استطاعتى أن أذهب إلى أى مكان فى القصر دون أن تحوم حولى الشبهات ، وفى مقدورى أن أدخل مخدع المركيزة ، دون أن تظن

بى شيئاً . وكان على السائر أن يمر بغرفة المركيزة كى يصل إلى مخدع ابنتها ، ولكن إذا فضلت ماتيلد أن يلقاها عن طريق السلم ، فانه يتعرض لهذا الخطر الضئيل وقلبه يرقص من الفرح .

وغاظ ماتيلد منه وهى تنصت إلى حديثه ، أن تسمعه يتكلم بلهجة المنتصر . فعجبت قائلة فى نفسها : لقد أصبح إذاً السيد المسيطر علىّ ! فصارت فريسة لتأنيب شديد ، وأوحى إليها عقلها أنها ارتكبت جنونا وحماقة لا حد لها . وخيل إليها أنها لو استطاعت أن تقضى على نفسها وعليه لفعلت . وفى اللحظات التى كانت قوة إرادتها لا تصور لها قبح ما فعلت ، كان ينتابها شعور بالخجل الشديد والخفر المهدر فتحس ألما قاسيا . إنها لم تفكر إطلاقا فى الحالة التى تنتابها الآن !

وأخيرا أخذت تقول فى نفسها : على أنه يجب علىّ أن أتحدث إليه ، فالتقاليد تقضى بأن تتحدث الفتاة إلى عشيقها . ثم بدأت تكلمه ،مدفوعة بالواجب لا أكثر ولا أقل ، ففاض كلامها بحب وحنان ، وإن خلت منهما لهجة الحديث ؛ وأفضت إليه بكل ما اعتزمته فى سبيله فى هذه الأيام .

كانت مصممة على أن تهبه نفسها إن استطاع الوصول إليها بسلم البستانى كما قضت مشيئتها . ولكنها قالت ذلك فى هدوء كامل وأدب كثير . ولكن مثل هذه العواطف تلقى إلى الأحباب فى غير هذه الصورة : إذ لا يزال لقاؤهما حتى الآن فاترا إلى أبعد الحدود ، جديرا بأن يقلب الحب

كراهية ؛ فيـاله من درس فى الأخلاق تتلقاه فتاة طائشة ! أتساوى هذه اللحظة أن تضيع مستقبلها ؟

وسادت بينهما شكوك كثيرة يظنها من يراهما بنظرة عابرة أنهـا نتيجة كراهية شديدة ، ما دامت المرأة متحكمة فى عواطفها بقوة إرادتها ، سامعة نداء العقل معرضة عند نداء المشاعر . لـكنها أخيرا أسلمته جوهرة عرضها وأصبحت له خليلة ظريفة .

وأبدت من النشوة واللذة قدرا كانت تريد أن تظهره ، ولم يكن هو ما تحسه فى الواقع لأن الحب الجارف إنما كان مثلا يحتذى أكثر ممـا كان حقيقة واقعة .

وقد اعتقدت الآنسة أنها تقوم بواجب نحو نفسها وعشيقها إذ حدثت نفسها قائلة : هذا الشاب التعس أبدى شجاعة كبيرة ، فمن حقه أن يكون سعيدا ، وإلا كنت تافهة المسلك . على أنها ودت لو تخلصت من حالتها الراهنة ، ولو تحملت فى سبيل ذلك شقاء مقيما .

وعلى الرغم من اضطرابها الشديد كانت مسيطرة تماما على ماتقول .

لم يفسد ليلتهما ندم ولا عتاب ، تلك الليلة التى اعتبرها چوليان غريبة أكثر مما اعتبرها سعيدة . وأى بون شاسع يا إلهى بين ليلته تلك وبين ما استمتع به فى أربع وعشرين ساعة قضاها فى ڤرييز ! هذه الطرق الباريسية الجميلة قد وجدت سبيلا إلى إفساد كل شىء ، حتى الحب .

كان هذا حديث چوليان مع نفسه وكان مدفوعا فيه بظلم شديد . وهذه هى الآراء التى شغلت تفـكيره وهو قائم فى أحد الصوانين الـكبيرين المصنوعين من

خشب الكابلى ، دخله حين أحسا الحركة تدب فى المسكن المجاور لمخدع ماتيلد ، وهو مسكن المركيزة . وذهبت الفتاة مع أمها إلى الكنيسة ، ثم شعر چوليان أن الوصيفات غادرن الغرفة ، ففر من مخبئه فى سهولة ويسر قبل أن يعدن ليتممن أعمالهن . وركب جوادا ليبحث عن العزلة فى مكان بإحدى الغابات التى تجاور باريس ، لأنه كان ذاهلا أكثر مما كان سعيدا ، بحيث كانت سعادته التى يشعر بها بين الفينة والفينة مثل السعادة التى تهبط على قلب ملازم أتى بعمل مجيد، فرقاه رئيسه دفعة واحدة إلى رتبة «الكولونل». شعر بأن مركزه قد سما سموا كبيرا، فأصبح ما كان بعيد المنال بالأمس بين يديه الآن أو أقل من ذلك شأنا . ثم أخذت سعادة چوليان تزداد قليلا قليلا كلما ابتعد عن القصر وعن باريس .

أما عدم شعوره بالحب والحنان وما يشابه الحب والحنان ، فذلك راجع إلى أن ماتيلد كانت مدفوعة فى سلوكها معه بواجب تقوم به ، وإن بدا ذلك غريبا . لم تجد جديدا فى ليلتها هذه ، إذ حدث كل ما رسمته وتوقعته من قبل ؛ فلم تشعر إلا بالخزى والألم بدل أن تحس السعادة التى تحدثت عنها القصص .

وأخذت تسائل نفسها : أترانى أخطأت التقدير ، فإننى لا أحس فى قلبى أى لون من ألوان الحب له ؟ !

الفصل السابع عشر

سيف قديم

[أريد الآن أن أكون وقوراً فقد حان وقت الجد ، وأصبح الضحك فى أيامنا هذه يعد تفريطاً فى جانب الجد ، وسخرية الفضيلة من الرذيلة تدعى جريمة .]

دون جوان

لم تظهر ما تيلد فى غرفة الطعام وقت الغداء ، وذهبت فى المساء إلى الصالون و بقيت فيه لحظة لـكنها لم تنظر إلى جوليان ، حتى عجب من مسلـكها الغريب ، لـكنه قال فى نفسه : أنا أجهل عاداتهم ، وستفسر هى هذا تفسيراً واضحاً . على أنه كان مدفوعاً بحب استطلاع شديد ، فأخذ يدرس تقاطيع وجهها حتى رأى فى وضوح وجلاء أن فيه جفوة وشراً . كانت ولا شك امرأة غير امرأة الليلة الماضية التى أظهرت من النشوة والسعادة ما لا يمكن أن يصدّق ، وما لا يمكن أن يكون حقاً لأنه كان أكثر مما ينبغى .

وأظهرت له فى اليومين التاليين نفس الفتور ، كانت لا تنظر إليه ، وكأنها لا تشعر بوجوده . فاستولى عليه قلق واضطراب لا حد لهما ولم يعد يفـكر إطلاقاً فى شعور الانتصار الذى ملك عليه نفسه فى اليوم الأول . وأخذ يسائل نفسه : هل يعد مسلـكها هذا رجوعاً إلى الفضيلة ؟ ولـكن

هذه العبارة كانت مما يليق بالبرچوازيين ، لا بماتيلد الجبارة .

واستطرد : إنها لا تؤمن بالدين فى الحوادث العادية الأخرى التى تصادفنا فى الحياة ، بل تحب الدين لأنه يفيد مصالح طبقاتها فائدة كبيرة .

ولكن ألا تدفعها رقتها إلى أن تؤنب نفسها تأنيباً شديداً على الجرم الذى ارتكبته ؟ وقد اعتقد چوليان أنه أول عشيق عرفته ما تيلد .

ولكنه فى لحظات أخرى كان يقول : علىّ أن أعترف بأن ليس فى مسلكها ما ينطوى على البساطة أو السذاجة أو الرقة ؛ لم أرها من قبل أشد جبروتاً منها الآن . فهل تحتقرنى ؟ إنها جديرة بأن تؤنب نفسها على ما فعلت من أجلى لأننى سيىء النشأة حقير الأصل .

كانت الأوهام مسيطرة عليه ، تلك التى تعلمها من الكتب ومن ذكريات ڤريير ، وجعل يتتبع أباطيل خليلة رقيقة لم تعد تفكر فى نفسها منذ أسعدت عشيقها ، كان هو كذلك وكبرياء ماتيلد ثائرة عليه أشد ثورة .

ولم يجد السأم إلى نفسها سبيلا منذ شهرين فأصبحت لا تخافه كما كانت تخافه من قبل ، ولهذا فقد چوليان فى نظرها أكبر ميزة له دون أن يتسرب إليه أدنى شك من ذلك .

واستولى عليها حزن قاتل كانت فريسة له فى كل آن ، وأخذت تقول : لقد فرضت على نفسى سيداً ! إنه يتمسك بالشرف من حسن حظى ، ولكننى إذا جرحت كبرياءه انتقم منى بأن يذيع سرّنا بين الناس . لم يكن لماتيلد عاشق من قبل ، وجرت العادة بأن نرى ، فى مثل هذا الظرف موجة من السعادة والحنان والرقة تغمز أكثر النفوس قسوة وجفوة ، ولم

تكن هى كذلك بل كانت فريسة لأشد الآراء مرارة وهولا .

كانت تقول : إنّ له علىّ سلطاناً كبيراً ، ما دام يتحكم فىّ بما يوجيه من تخويف ، وفى استطاعته أن يعاقبنى عقاباً صارماً ، إذا أغضبته . وكان هذا الرأى وحده كفيلا بأن يدفعها إلى إهانة جوليان ، لأن الشجاعة من أقوى صفاتها ، فهى تخاطر بحياتها دائماً ، تضطرب تارة ويزول السأم الذى يستولى عليها فى كثير من الحالات ، وتملك نفسها فكرة ، هى أن حياتها كلها رهينة المصادفة .

وكانت فى اليوم الثالث مصرة على ألاّ تنظر إليه ، فتبعها بعد الطعام إلى حجرة البلياردو وإن كانت لا تريد ، فغضبت غضباً شديداً ، وقالت له :

— إنك تعتقد يا سيدى أنه قد صارت لك حقوق علىّ ، ما دمت تريد أن تتحدث إلىّ وأنا لا أريد ، أليس كذلك ؟ ... أتعرف أن ليس فى العالم كله من جرؤ على أن يفعل ما تفعل ؟

وكان حديث العاشقين ينطوى على السخرية ؛ فقد كان كل منهما مدفوعاً بكراهية صاحبه دون أن يحس . فلا يحتمل ما يقوله الآخر ، ولو أنهما متخلقان بأخلاق الطبقة الراقية ، وسرعان ما وصل الأمر بينهما إلى أن يعلنا القطيعة فى صراحة . قال لها جوليان :

— أقسم ألا أبوح بالسر أبداً ، وأستطيع أن أقول : إننى لن أتحدث إليك ، إذا كان كلامى يؤذى سمعتك ، أو إذا كنت تشعرين بالندم على ما حدث . ثم حياها فى احترام وانصرف .

عمل هذا فى سهولة كأنه يقوم بواجب مفروض ، لأنه كان واثقاً من أنه ليس مولعاً بها ولا محباً لها . ولا شك فى أنه ما كان يحبها قبل ذلك بثلاثة أيام ، ليلة أخفته فى الصالون الكبير فى مخدعها . ولكن سرعان ما تغير فى نفسه كل شىء حين رأى أن أمرهما قد صار إلى القطيعة . وأخذت ذاكرته الجبارة ترسم من جديد كل ظروف الليلة التى قضاها معها . وتذكره بأدق التفاصيل ، وإن لم يشعر بلذة فى تلك الليلة . وفى الليلة التى أعلن فيها قرار القطيعة ، كاد يجن حين ألفى نفسه مضطراً إلى أن يعترف بأنه يحب الآنسة دى لامول .

وصارت نفسه ساحة لنزاع شديد حين اكتشف هذا ، وتبدلت عواطفه تماماً . وبعد ذلك بيومين كاد يقبل المركيز دى كروازنوا ويبكى بين يديه ، بعد أن كان يظهر له العزة والكبرياء .

ثم أكسبه ما اعتاده من الألم نوراً أضاء بصيرته ، فعزم على الرحيل إلى « لنجدوك » ، وأعد حقيبته ، وذهب إلى حيث عربات السفر .

وقد كاد يغشى عليه حين وصل إلى مكتب السفر فأخبر بأن المصادفات العجيبة قضت بأن يكون له مكان فى اليوم التالى فى العربة الذاهبة إلى تولوز . فحجز هذا المكان وعاد إلى القصر ليعلن المركيز بعزمه على السفر .

كان المركيز قد خرج ، فذهب جوليان إلى المكتبة منهوك القوى لينتظر عودته . ولكن ماذا أصابه حين وجد فيها الآنسة دى لامول ؟

وقع بصرها عليه فتصنعت القسوة وبدت غاضبة الملامح ، فظن أن الأمر جد خالص ، وكان متضعضعاً من الألم مذهولا من المفاجأة ،

فقال لها بلهجة رقيقة خرجت من أعماق نفسه : ألم تعودى تحبيننى إذن ؟
فترقرقت فى عينيها دموع الأسف على نفسها وقالت :

— شدّ ما أحتقر نفسى لأننى فرطت فى عرضى لأول قادم .

فصاح چوليان .

— لأول قادم ! ثم أسرع فأمسك بسيف قديم من سيوف العصور الوسطى كان فى المكتبة كأثر من الآثار .

وكان جوليان معتقداً ساعة تحدث إليها أنه شديد الألم ، ولكن ألمه زاد مائة مرة حين رآها تسكب دموع الندم . واعتقد أنه سيكون أسعد الناس لو أنه استطاع أن يقتلها . وجعل يخرج السيف الأثرى من غمده القديم ملاقياً فى ذلك بعض الصعوبة فهبطت على ماتيلد فى هذه اللحظة راحة وسعادة بهذا الإحساس الجديد، الذى لا عهد لها به من قبل ، فتقدمت نحوه فى كبرياء وقد جفّت دموعها المسفوحة .

وتذكر چوليان المركيز دى لامول فجأة ، تذكر الرجل الذى يحسن إليه ، فقال فى نفسه ، أأقتل ابنته ! يا للعار ! ثم استدار ليلقى السيف من يده . واستطرد يقول : لا شك أنها ستغرق فى الضحك حين ترى هذه الحركة التمثيلية ، وأعادت إليه هذه الفكرة هدوء نفسه . فأخذ ينظر إلى حد السيف القديم فى عناية وإعجاب ، كما لو كان يفتش عن بقعة من الصدأ ، ثم وضعه فى غمده ، وعلقه من جديد فى مسماره البرنزى المذهب وهو هادىء ساكن ؛ وكانت حركاته جدّ بطيئة آخر الأمر فاستغرقت

دقيقة ؛ فأخذت الآنسة تنظر إليه فى ذهول ، وقالت فى نفسها : لقد كنت على وشك أن أقتل بيد عشيقى !

وذكرتها هذه الفكرة بأحسن الأيام زمن شارل التاسع وهنرى الثالث . كانت واقفة تجاه جوليان لا تبدى حراكا ، وكان قد أعاد السيف إلى مكانه ، وأخذت تنظر إليه بعينين لا ترى فيهما الكراهة . ويجب أن نعترف بأنها كانت مغرية فى هذه اللحظة إلى أبعد حدود الإغراء ، لأنها ولا ريب دمية باريسية (وكان هذا هو الاعتراض الشديد الذى يبديه جوليان على نساء باريس) .

وأخذت تقول فى نفسها : إنى أشعر نحوه بشىء من الضعف ، إنه يحس حقاً أنه أصبح سيدى ومولاى ، وإلا ما استطاع أن يسدد إلى هذه الضربة فى اللحظة التى كنت أتحدث إليه فيها بجد وصرامة . ثم ولّت الأدبار .

ورآها جوليان تجرى فقال فى نفسه : يا إلهى ! كم هى جميلة ! إنها بعينيها تلك التى كانت تعانقنى بقوة منذ ثمانية أيام . . . وهذه اللحظات لن تعود أبداً ! وما ذلك إلاّ من خطئى ! لأننى لم أقدر عملها فى حينه حق قدره ، لم أقدر عملها الخارق الذى غمرنى بلذة لا حد لها ! فيجب إذن أن أقرر أننى فطرت على خلق فيه غفلة وسفاهة .

ثم عاد المركيز ، فأسرع جوليان يخبره برحيله . فسأله :

— إلى أين ؟

— إلى لنجدوك .

— لا أوافق إذا سمحت ، لأنى أريد أن أكلفك القيام بعمل خير من ذلك وأكرم ، وإذا قدر لك السفر فسيكون نحو الشمال ... وإن شئت أن أستعمل المصطلحات الحربية نبهت عليك بعدم مغادرة القصر . إنك تضطرنى ألاّ أتغيب عن القصر ساعتين أو ثلاث ساعات ، وربما احتجت إليك بين لحظة وأخرى .

فحياه چوليان ، وانصرف دون أن يتكلم ، وترك المركيز فى ذهول شديد ، لأن بطلنا كان فى حالة لا تسمح له بالكلام . ثم ذهب إلى غرفته وأغلق عليه الباب ، حيث يستطيع أن يبكى ، فى حرية واسعة ، قسوة مصيره .

قال فى نفسه : لم أعد قادراً إذاً على الابتعاد عن هذا المكان ! ويعلم الله كم يوماً يستبقينى فيها المركيز بباريس . يا إلهى ! ماذا سيكون أمرى ؟ وليس لى صديق أستطيع مشاورته : فالكاهن پيرار لا يتيح لى فرصة أتم فيها أول جملة أقولها له ، والكونت ألتاميرا يقترح علىّ أن أشترك فى مؤامرة من المؤامرات .

ومع ذلك فأنا مجنون ، نعم ، أشعر بأننى مجنون !

فمن ذا الذى يرشدنى ؟ وماذا سيكون أمرى ؟

الفصل الثامن عشر

لحظات قاسية

[وإنها لتعترف لى بذلك ! وتذكر فى إسهاب أدق
الظروف وأتفهها ! إن عينها الجميلة تنظر الى عينى ،
ويرتسم فيها الحب الذى تشعر به نحو غيرى !]

شيلر

سرّت الآنسة دى لامول ، ولم تعد تفكر إلا فى السعادة التى ملكت نفسها حين كانت على وشك أن تقتل . وأخذت تقول فى نفسها : إنه جدير بأن يكون سيدى ؛ لأنه جرؤ فهمّ بقتلى . فكم شابا من الذين نلقاهم فى المجتمع، نستطيع أن نصهرهم جميعا ليقدروا على الإتيان بمثل حركته هذه، الصادرة عن شعور صادق ؟ يجب أن أعترف بأنه كان رائع الجمال فى اللحظة التى وقف فيها على المقعد؛ ليضع السيف فى مكانه الأنيق الذى اختاره له النجار ! لم يكن حظى من الجنون كبيرا حين أحببته . ولو عرضت عليها فى هذه اللحظة طريقة مشرفة تعود بها سيرتها الأولى مع چوليان ، لأقبلت عليه فى لذة وسرور . أما چوليان فقد أغلق باب غرفته عليه ، وكان فريسة لأشد الآلام : تعتريه آراء جنونية فيود لو ارتمى عند قدميها . ولو أنه انتقل بين الحديقة والقصر بطريقة تمكنه من انتهاز الفرص، بدل أن يعتزل كل من فى المنزل، لأمكن أن يتبدّل حزنه الأليم سعادة تامة فى لحظة واحدة .

غير أنه لو كان ماهرا لحالت مهارته بينه و بين الاتيان بهذه الحركة البديعة حين أخذ السيف ، تلك الحركة التى خلعت عليه جمالا كثيرا

فى نظر الآنسة دى لامول . ولـكنه ليس ماهرا ، فقد ظلّ فى غرفته نهارا كاملا . أما ماتيلد فقد أخذت تصور لنفسها تلك اللحظات القصيرة التى أحبته فيها ، وندمت على فوات هذه اللحظات .

وتحدثت إلى نفسها قائلة : هذا الشاب التعس يرى أنى لم أحببه إلا ابتداء من الساعة الأولى بعد منتصف الليل ، حين صعد إلى غرفتى بالسلم ، وقد حمل سلاحه فى جيبه الجانبى ، حتى الساعة الثامنة صباحا . على أنى لم أبدأ فى التفكير فى أنه سيصبح ذا سلطان مطلق علىّ إلا بعد ذلك بربع ساعة ، وأنا أستمع إلى الصلاة فى سانت ڤالير ، وخيّل إلىّ أنه سيخضعنى لطاعته بما يبثه فى نفسى من رعب وتخويف .

وبعد العشاء ، لم تفر ماتيلد من چوليان بل تحدثت إليه وحملته على أن يتبعها إلى الحديقة . فامتثل دون أن ينتبه إلى هذا الدليل المادى ، ذلك أنها — على غير علم منها — استجابت لداعى الحبّ وأحست لذة كبيرة وهى تسير إلى جواره ، وأخذت تنظر إلى يديه فى شغف عظيم ، وهما اليدان اللتان قبضتا على السيف فى الصباح تريدان أن تقتلاها .

لقد قضى هذا العمل وكل ماحدث بينهما على حديثهما القديم . وأخذت ماتيلد تـكشف له عن قلبها شيئا فشيئا . وكانت تجد لذة كبيرة فى هذا الضرب من الحديث ، وأخبرته بما أحسته من قبل ، للسيدين دى كروازنوا وكايلوس ؛ وإن كان هواها لهما هوى عابرا … فصاح چوليان والغيرة الشديدة تفيض من عبرات هذا العاشق الموله :

ماذا ! والسيد دى كايلوس أيضا ! غير أنها أدركت أن الغيرة هى

التى دفعته إلى ماقال ، فلم تغضب .

وظلت تعذبه عذابا شديدا، فقصت عليه أدق تفاصيل مشاعرها الماضية فى صورة جذابة وفى لهجة صدق ومودة . ورآها تصور له ما كان يقع تحت بصرها ، وتألم كثيرا وهى تحدثه حين وجدها تكتشف بعض دخائل نفسه .

وتسلطت عليه نار الغيرة،وأخذت تعذّبه عذابا شديدا؛ لأن مجرد الشك فى أن غريمه ينال بعض حبها أو يحظى ببعض عطفها ، يؤلمه ألما بالغا ، فما بالك به وهو يراها الآن تعترف له فى إطناب، بما أوحته من هوى ، وتحدثت إليه عن مشاعرها نحو الآخرين . لقد بلغ به الألم أقصى الغايات، لأنه أصبح يعبدها . وكم لقى جزاءه فى هذه اللحظة على تلك الحركات التى تنطوى على الكبر، والتى كانت تصدر منه حين يتيه على كروازنوا وكايلوس ! وكم أخذ يبالغ الآن على الرغم منه فى صفاتهما الضئيلة ! ثم كم كان مخلصا فى احتقاره لنفسه !

كان يراها جديرة بالعبادة ، وقد أعجب بها إعجابا لا سبيل إلى وصفه . وبينما كان يسير إلى جانبها كان يسترق النظر إلى يديها وذراعيها وقوامها المياس . ودّ أن يركع عند قدميها وقد سحقه الحب والألم و يصيح بها : رحمة بى ! على أن هذه الغادة الرائعة الفذّة فى كل شىء، إذا كانت تحبنى الآن فستحب بعدى وعما قريب السيد دى كايلوس !

كان لا يشك فى إخلاصها وصدقها فى كل ما قالت له، وأرادت أن تزيد فى ألمه ، فقصت عليه حقيقة مشاعرها نحو كايلوس أيام أن كانت تحبه ،

قصتها فى صورة أوحت إليه أنها مازالت تسكن له الحب ، حتى رأى فى وضوح وجلاء أن لهجتها تنم حقيقة عن الحب.

ولو أن رصاصا صُهر وصبّ فى صدر چوليان ، لكان عذابه أقل مما يلقاه الساعة وكيف السبيل إلى أن يعرف هذا الشاب التعس ، وهو يلقى ما يلقاه ، أنّ الآنسة دى لامول أخذت تستعيد فى ذاكرتها هذا الحب الذى أحسته لكايلوس ولوز ، ووجدت لذة فى ذلك ، لأنها تتحدث إليه هو وحده ؟

وأحسّ بضيق شديد ، وهو ينصت إلى اعترافها المطول عن حبها لأناس، وهما فى نفس المكان الذى كان يجلس فيه منذ أيام تحت أشجار الزيزفون ، ينتظر دقات الساعة الأولى صباحا ليصعد إلى غرفتها . لا يستطيع الإنسان أن يتحمل من الألم أكثر من هذا المقدار.

وظل هذا الود القاسى ثمانية أيام كوامل . وكانت ماتيلد تبحث عنه تارة ولا تفر من لقائه تارة أخرى وتتحدث إليه . على أن موضوع الحديث ما كان يتغير ، فكانا كأنهما يجدان لذة قاسية ممضة فى أن تتحدث إليه عن عواطفها نحو الآخرين ، وحبها لهم : وذكرت له الخطابات التى كتبتها إليهم ، وقصت عليه بعض مافيها وقرأت بعض جملها . وفى الأيام الأخيرة بدت كأنها تنظر إليه فى فرح ينطوى على الخبث . وكانت آلامه مصدر لذة كبيرة لها .

ويظهر لنا واضحا أن چوليان ليس خبيرا بالحياة ، وأنه لم يقرأ شيئا حتى القصص ؛ ولو أنه كان أقل غفلة مما هو عليه؛ لقال لهذه التى يعبدها فى هدوء

تام حين أفضت إليه بما أفضت : عليك أن تعترفى بأنى أنفرد بحبك من دونهم جميعا ، وإن كنت أقل شأنا من هؤلاء السادة .

لو أنه قال لها هذا لكان من المحتمل أن تشعر بالسعادة من أنه أدرك ماترمى إليه ، أو كان نجاحه — على الأقل — متوقفا على ما يبديه من ظرف ساعة يقول لها هذا ، وعلى حسن اختياره المناسبة التى يختارها . لكنه قد خرج من هذ المأزق منتصرا على كل حال، بعد أن كادت ماتيلد تسأم من هذا الموقف ، فقد حدث يوما أن قال لها وهو فريسة للحب والألم :

إنك لم تعودى تحبيننى وأنا الذى أعبدك ! فكان هذا التصريح أشد حماقة ارتكبها ، لأنه قضى فى طرفة عين على اللذة التى كانت تلقاها الآنسة دى لامول فى الإفضاء إليه بما فى نفسها . وبدأت تعجب من أن لم تجرحه كل هذه القصص التى قصتها على مسامعه ، حتى أضحت على وشك الاعتقاد بأنه ما كان يحبها، قبل أن يفضى إليها بهذا التصريح المنطوى على الحمق والبلاهة ، وكانت تقول فى نفسها : لا ريب أن كبره قد قضى على حبه إياى . إنه ليس بالرجل الذى يرى نفسه خيرا من كايلوس ولوز وكروازنوا ، فهو يعترف بأنهم جميعا أفضل منه ، لا، لن أراه بعد الآن راكعا عند قدمىّ !

كان چوليان فى الأيام الماضية يتحدث إليها فى سذاجة، مثنيا فى إخلاص على صفات هؤلاء السادة وفضائلهم ، كان يبالغ كثيرا فيما يقول . ولم يخف هذا على الآنسة دى لامول، وقد عجبت منه ، لكنها لم تدرك السر فى ذلك.

أن چوليان كان ينشد السعادة وهو يثنى على غريم يعتقد أن قلب ...ه لا يزال يضمر له حبا .

على أن هذه العبارة الصريحة إلى أبعد الحدود ، والتى تنطوى على الغفلة ، غيّرت الموقف كله فى الحال ، فقد أصبحت ماتيلد واثقة من أنها محبوبة ، فاحتقرته تماما .

كانت تتنزه معه ساعة أفضى لها بهذا التصريح السفيه ، فغادرته فى الحال ، وفى نظراتها الأخيرة التى ألقتها عليه أحتقار شديد ، وعادت إلى الصالون ، ولم تنظر إليه نظرة واحدة طول السهرة . وجاء اليوم التالى والاحتقار يملأ قلبها ، ولم تعد تفكر فى هذه الحركة التى أتاها ، والتى رفعته فى عينها ثمانية أيام كاملة ، وجعلته صديقها المقرب . لقد أصبحت الآن لاتطيق أن تنظر إليه ، واستولى عليها شعور بالاشمئزاز منه ، وكرهت كراهية شديدة أن تملأ منه بصرها إذا وقعت عيناها عليه .

لم يستطع چوليان أن يدرك شيئا مما يدور فى نفسها منذ ثمانية أيام ، لـكنه أدرك ما تنطوى عليه نفسها من التحقير . فرأى ألا يظهر أمامها إلا قليلا ، وألا ينظر إليها إذا ما التقيا .

ثم عزّ عليه ألا يلقاها ، وشعر بألم مرير من حرمانه منها ، وأحسّ أن شقاءه قد زاد كثيرا عن ذى قبل ، فقال : إن شجاعة الرجل لاتزيد على ذلك .

وأخذ يقضى أيامه فى نافذة الطبقة العليا فى القصر ؛ مغلقا مصراع النافذة فى عناية شديدة ، وناظرا إلى الآنسة دى لامول حين تسير فى الحديقة .

وماذا كان أمرها حين تتنزه بعد الطعام هناك مع كايلوس ولوز وغيرهما من الشبان الذين اعترفت له بأنها كانت تحبهم من قبل ؟ ؟ وكان چوليان يشعر حين يراها بألم شديد ، فكم من مرة كاد يصيح ، وأصبحت هذه النفس القوية الجريئة مضعضعة خائرة .

وكانت كل فكرة لا تمت بصلة إلى الآنسة دى لامول ، تعد بغيضة إلى نفسه ، ولم يعد قادرا على أن يكتب أسهل الخطابات ، حتى قال له المركيز يوما :

إنك لمجنون .

فاضطرب چوليان لأن المركيز قد كشف أمره ، وادعى أنه مريض فصدقه دى لامول فى كل ماقاله .وأخذ من حسن حظه يداعبه وقت العشاء متحدثا عن رحلته المستقبلة ؛ فادركت ماتليد أنها ربما كانت طويلة الأمد . وكان چوليان منذ أيام حريصا على أن يفر منها ، وحاول الشبان الذين كان لهم من الصفات والمزايا ما حرمه ذلك الشاب الشاحب العبوس أن ينتزعوا ماتيلد من أحلامها ؛ فلم يستطيعوا إلى ذلك سبيلا .

كانت تقول فى نفسها : إن الفتاة العادية تبحث عن بغيتها بين هؤلاء الشبان الذين ترمقهم الأبصار فى كل الصالونات ، لكن الفتاة الممتازة فى الخلق والعبقرية ، لا تنزل إلى هذا المستوى العادى .

ستتجه إلى الأنظار دائما حينما أكون رفيقة رجل كچوليان، لاينقصه إلا المال ، الذى أملك منه الكثير ، ولن أصبح فى الحياة شيئا مهملا . لن

أخشى دائما قيام الثورات ، كما تخشى ذلك بنات عمومتى اللائى يخفن العامة كثيرا فلا يجرؤن على تأنيب سائق عربة يسىء معاملتهن ، أما أنا فواثقة من أننى سألعب دورا خطيرا هاما ، لأن الرجل الذى اخترته شريكا فى حياتى ، يتصف بالخلق الطيب و بالطموح الشديد . ثم ماذا ينقصه ؟ الأصدقاء والمال ؟ سأتيح له الأصدقاء وسأمنحه المال . ولكن عقلها كان يجعل من جوليان شخصا وضيعا ، تضطره إلى أن يحبها متى شاءت .

الفصل التاسع عشر

أوپرا بوف

[كم يشبه ربيع الحب هذا
تلك البهجة الخادعة ليوم من أيام أبريل ؛ تشرق
فيها الشمس بكل جمالها
ثم لا تلبث سحابة أن تخفى معالم اليوم]
شكسبير

كانت ماتيلد مشغولة بالتفكير فى المستقبل ، و بالدور العجيب الذى تطمع فى أن تقوم به ، وأخذت تندم على ما فرط منها من مناقشات جافة مع جوليان، وأحاديث تتناول ما وراء الطبيعة كثيرا ما كانت تعرض لها إذا تحدثت إليه . لقد سئمت الأفكار السامية ، وكانت تأسف أحيانا على فوات لحظات السعادة التى لقيتها بجواره ، على أن هذه الذكريات الأخيرة شابها بعض الندم ، وكثيرا ما كانت تلقى العذاب الأليم من هـــذه الذكريات .

كانت تقول فى نفسها : إذا صحّ أن لكل إنسان ناحية ضعيفة ، فمن واجب فتاة مثلى ألا تنسى ما كتب عليها إلا من أجل رجل ممتاز ؛ لن يقال : إن شاربه الجميل هو الذى سحرنى ، ولا رشاقته وهو يركب جواده هى التى فتنتنى ، ولكن سحرنى منه آراؤه العميقة عن مستقبل فرنسا، وأفكاره عن مشابهة الأحداث السيئة التى ستقع لنا، للثورة التى قامت فى إنجلترا عام ١٦٨٨ . وكثيرا ما كانت تواجه الندم الذى يلاحقها

فتقول : لقد أغريت ، فيالى من امرأة ضعيفة ! ولكنى على الأقل لم أضل ، ولم تخدعنى المظاهر الخارجية التى تؤثر فى قلوب الدمى .

وإذا شبت ثورة فلم لا يلعب جوليان سورل فيها دور رولان ، وأقوم أنا بدور مدام رولان ؟ إنى أفضل هذا الدور على دور مدام دى ستايل : إن الانحلال الخلقى سيكون عقبة فى عصرنا هذا . لاشك أننى لن ألام إذا سقطت مرة ثانية ، ولكننى إن فعلت مت من الخجل .

لم تكن أحلامها كلها خطيرة كالقدر الذى نقلناه من أفكارها . كانت تنظر إلى جوليان ، فتجد أعماله جميعاً تنطوى على ظرف كبير .

وكانت تحدث نفسها : لاشك أننى توصلت إلى القضاء على كل فكرة فى نفسه ، ترمى إلى أن تكون له أدنى حقوق علىّ . لقد كانت هيئته وهو يدلى إلىّ بهذا التصريح الغرامى منذ ثمانية أيام ، تدل على الألم والحب الشديد ، وتؤيد قولى فى أن ليس له علىّ حق من الحقوق ؛ وينبغى أن أعترف بأن مسلكى كان خطلا لأننى غضبت من عبارة فيها احترام شديد وفيها حب عنيف .

ولم أغضب ؟ ألست زوجته ! لقد كانت عبارته طبيعية ، ولا بد لى من الاعتراف بأنه كان ظريفا . إنه لا يزال يحبنى على الرغم من المناقشات الكثيرة التى دارت بينى وبينه ، وكنت قاسية عليه حين اعترفت له بأننى أحببت بعض هؤلاء الشبان الذين يغار منهم ، على أن هذا الحب إنما دفعنى إليه سأم الحياة التى كنت أحياها . آه ! ليته يعلم أنه لا خطر

عليه منهم ! وليته يعلم أنى أفضله عليهم ، وأنهم جميعا صور متطابقة ، يشبه بعضهم بعضا !

كانت مستغرقة فى أفكارها ، فأخذت تخطط بالقلم كيفما اتفق على ورقة من مجموعة صورها . ثم نظرت فرأت أنها أتمت صورة جانبية ذهلت من رؤيتها ، وأعجبت بها إعجابا كبيرا ، فقد كانت الصورة تشبه چوليان شبها تاما . ففرحت كثيرا وصاحت قائلة : إنه صوت السماء ! وإنه من معجزات الحب ، وقد رسمت صورته من حيث لا أدرى .

ثم فرت إلى حجرتها وأغلقت عليها الباب ، وحاولت أن ترسم صورة له بصفة جدية وبمهارة ، ولكنها لم تفلح ؛ لأن الصورة الجانبية التى رسمتها المصادفة كانت تشبهه أكثر من الأخرى ، وسرت بها ماتيلد ورأت فيها برهانا قاطعا على الحب العميق .

ولم تترك مجموعة الصور إلا فى ساعة متأخرة حين استدعتها المركيزة لتذهب إلى الأوبرا الإيطالية . ولم تطرأ عليها فى هذه اللحظة إلا فكرة واحدة ملكت نفسها ، وهى أن يقع نظرها على چوليان ، فتطلب من أمها أن يرافقهما ، لكنها لم تصادفه ، ولم يكن معهما فى المقصورة إلا أشخاص عاديون . وظلت ماتيلد طوال الفصل الأول تحلم بالرجل الذى أحبته حبا ملك عليها قلبها ؛ أما فى الفصل الثانى فقد سمعت مقطوعة غنائية عن الحب ، تصحبها موسيقى بديعة جديرة بسنيما روزا . فأثرت فى نفسها أثرا بليغا ، وكانت البطلة تغنى قائلة : يجب أن أعاقب على شدة حبى إياه ، إنى لأهيم به وأعبده !

سمعت ماتيلد هذه الأغنية الرائعة ، فلم تعد تفكر فى أى شىء فى العالم .

كانوا يتحدثون إليها ، ولكنها لا تجيب ؛ ولامتها أمها ، فلم تستطع أكثر من أن تنظر إليها . كانت روحها تحلق بعيدا عمن ترى فى حمية شديدة وحب قوى ، وانتابتها نفس المشاعر التى ملكت چوليان منذ بضعة أيام من أجلها هى . كانت الأغنية تنطوى على ظرف غير محدود وخيل إليها أن الحكمة التى تنطق بها الأغنية تنطبق على حالتها تماما ، فشغلت بها فى اللحظات التى كانت لا تفكر فيها فى چوليان بطريقة مباشرة . ودفعها حبها للموسيقى أن تكون فى تلك الليلة كما كانت مدام دى رينال، دائما، وهى تفكر فى جوليان . إن الحب الذى مصدره العقل أكثر فطنة من الحب الحقيقى ما فى ذلك ريب ، ولكنه لا يكون قويا إلا فى بعض اللحظات ؛ إنه يعرف نفسه حق المعرفة ، ويحكم دائما على نفسه ، ولا يضل الفكر لأن الفكر هو الذى خلقه .

ولما عادت إلى المنزل ، لم تستمع إلى قول أمها ، وادعت أنها محمومة ، وقضت شطرا من الليل تردد على معزفها الأغنية التى سمعتها . أخذت تغنى عبارات هذا اللحن الجميل الذى ملك عليها نواحى نفسها :

Devo Punirmi, devo Punirmi
Se troppo amai. etc,

« يجب أن أعاقب على فرط عبادتى له ، »
« إنى أهيم به وأحبه حبا عميقا ... »

ثم كانت نتيجة هذه اللية الجنونية أن ظنت ماتيلد أنها انتصرت على حبها .

(ستسيء هذه الصفحة إلى المؤلف التعس ، إساءة بالغة لأن النفوس البليدة ستتهمه بعدم التحفظ والاحتشام . وافتراض وجود فتاة واحدة تتأثر بحركات جنونية تفسد خلق ماتيلد ، لا يضير الباريسيات اللائى يزدهرن فى الصالونات . على أن هذه الشخصية من خلق الخيال ، وقد روعى فيها إخراجها من العادات الاجتماعية التى تطبع حضارة القرن التاسع عشر بطابع رفيع .

واللائى اشتركن فى مراقص هذا العام من الفتيات ، لا ينقصهن العقل ولا تعوزهن الفطنة . وأنا لا أعتقد أنهن قد يتهمن بإظهار الاحتقار الشديد للثراء العريض أو الخيل أو الأراضى الجميلة أو لكل ما يكفل مركزا ممتازا لصاحبه فى الحياة . ونحن لا نؤمن بأن هذه المزايا تنطوى على السأم فحسب ، فهى عادة بيت القصيد لرغبات يسعى إليها دائما ، ولو وجد فى القلوب حب لكان لها .

وليس الحب هو الوسيلة لجلب المال لشبان يمتازون ببعض العبقرية مثل چوليان ، إنهم يرتبطون بعصبة سياسية ارتباطا قويا ، وحينما يثرى هذا الحزب ، تتساقط عليهم خيرات المجتمع . وويل للمتعلم الذى لا ينتمى إلى جماعة من هذه الجماعات ، فهو يلام حتى على ما يصيبه من نجاح تافه ضئيل ، وينتهى به الأمر إلى أن تنتصر عليه الفضيلة العامة فتسلبه ماله . ومع ذلك فالقصة ياسيدى مرآة ينعكس فيها كل ما فى الطريق العام ، فهى تارة

تعكس زرقة السماء ، وتارة تعكس الوحل الذى يجلل الطريق . أما الرجل الذى يحمل المرآة فأنت لا تتردد فى اتهامه بأنه لا يرعى الأخلاق ! لأن مرآته تريك الوحل ، وأنت تتهم المرآة ! أولى بك أن تتهم الطريق العام الذى جللته الأوحال ، بل أولى من ذلك وأصح أن تتهم مفتش الطرق الذى ترك الماء يأسن ، فتراكمت بسببه الأوحال .

وعلى هذا فمن المتفق عليه أن خلق ماتيلد لا يوجد فى عصرنا الذى يرعى الحذر والفضيلة . ولا أحب أن أستمر فى سرد حماقات هذه الفتاة) .

وظلت ماتيلد طول اليوم التالى ترقب المناسبات؛ لتتأكد من أنها انتصرت على حبها الجنونى . وكان أهم ما يشغلها أن تأتى من الأعمال ما يغضب چوليان ؛ ولكنها لم تفتها أى حركة من حركاته .

أما چوليان فكان بائساً كل البؤس مضطرباً أشد الاضطراب ، فلم يدرك شيئاً من مناورات هذا الحب المعقد ، ولم يفطن إلى ما يدور فى نفسها من إكبار لشخصه : لقد كان فريسة ، ولم يبلغ به الألم من قبل ما بلغه الآن من عذاب أليم . ولم تكن أعماله تخضع لفطنته إلا قليلا ، ولو أن فيلسوفاً محزوناً قال له : « فكر فى أن تنتهز هذه الميول التى فى صالحك بسرعة : لأن هذا اللون من الحب العقلى الذى نراه فى باريس قلب ، لا يدوم على حال واحدة أكثر من يومين . » لو أن هذا الفيلسوف قال له ذلك ، ما فهم چوليان ما يرمى إليه . وعلى الرغم من أنه ذو حمية وحماسة، فهو يحافظ على الشرف ويتمسك به . وكان الكتمان أول واجب عليه ؛ وقد قدره حق قدره . ولو أنه طلب المشورة ، فأفضى بآلامه لإنسان

لشعر بسعادة تعادل سعادة التعس الذى يخترق الصحراء فى شدة القيظ فتمطره السماء ماء عذباً كثيراً . لكنه أدرك الخطر الذى يتهدده إن كشف عن دخيلة نفسه ، وخشى أن يذرف الدموع بين يدى سائله الذى يحب أن يعرف كل شىء ، فآثر أن يبقى فى غرفته بمعزل عن الناس .

رآها تتنزه فى الحديقة وقتاً طويلا ، فمكث إلى أن غادرتها ثم نزل هو إليها ؛ واقترب من شجرة ورد كانت قد اقتطفت منها وردة .

وكان الليل شديد الظلام ، وفى استطاعته أن يطلق لآلامه العنان ولا يخشى أن يراه أحد . وكان يؤمن بأن الآنسة دى لامول تحب أحد الضباط الذين كانت تتحدث إليهم فى مرح شديد . لقد أحبته هو كذلك ولكنها كانت تشعر بوضاعته .

وأخذ يقول فى نفسه ودلائل الاقتناع بادية عليه : إن مؤهلاتى ضئيلة فى الواقع إلى أبعد حد ! لست إلا رجلا لئيما ، دنيئا ، مملاً فى نظر الآخرين ، ولا أحتمل فى نظر نفسى . لقد زهد زهدا شديدا فى مزاياه وفى كل شىء أحبه من قبل كثيرا ، وكان خياله وهو فى تلك الحالة ، خيالا معكوسا وقد أخذ يحكم على الحياة بهذا الخيال . وهذا خطأ يقع فيه الرجل الممتاز .

فكر مرات عديدة فى الانتحار ، وظهر له هذا الرأى فى صورة جذابة ، لأن فيه راحة لذيذة ، فكان مثل كوبة من الماء المثلج تقدم للمسافر التعس الذى يحرقه الظمأ فى مجاهل الصحراء . ولكنه سرعان ما صاح قائلا : سيزيد موتى من احتقارها لى : فأى ذكريات هذه التى أتركها بعد مماتى !

وحينما يصل المرء إلى مثل هذه الحالة من الألم والشقاء ، فإنه لا يجد

مأوى له إلا شجاعته ! ولـكن چوليان لم تسعفه المواهب فى أن يقول : يجب أن أتذرع بالجرأة والإقدام ؛ ثم رآها تطفىء النور وهو ينظر إلى نافذتها ، فاستعاد ذكريات هذه الغرفة البديعة التى لم يرها — مع الأسف الشديد — إلا مرة واحدة فى حياته ! ولم يستطع أن يستخلص خياله مما يدور فيها حتى دقت الساعة الأولى ؛ وسمع دقاتها فقال : سأصعد إلى الغرفة بالسلم ولو لحظة قصيرة .

وتتابعت عليه آراء سديدة وأسباب معقولة كقبس النور ، فأخذ يقول : هل فى المقدور أن أكون أشد تعاسة منى الآن ! ؟ ثم جرى إلى السلم فوجد البستانى قد ربطه بسلسلة ، فاستعان على قطعها بأحد مسدساته الصغيرة ، وكان يشعر فى ذلك الوقت بقوة خارقة ، فلوى حلقة السلسلة التى تربط السلم فى بضع دقائق ، ثم حمله ووضعه إلى نافذة ماتيلد .

هل ستغضب منى ، أو تزدرينى ؟ هذا كله لا يضيرنى . سأقبلها القبلة الأخيرة ثم أصعد إلى غرفتى وأقتل نفسى ... ستلمس شفتاى وجهها قبل أن أموت ؟

ثم صعد إليها فى سرعة كبيرة ، وطرق مصراع النافذة ؛ وبعد لحظات سمعت ماتيلد الطرقات ، فأرادت أن تفتح النافذة ، ولـكن السلم حال دون ذلك : فتعلق چوليان بالمزلاج الحديدى الذى تفتح به النافذة ، مخاطرا بحياته ، ثم هزّ السلم هزة عنيفة فنقله قليلا من مكانه . ثم قفز داخل الغرفة أقرب إلى الموت منه إلى الحياة . ورأته ماتيلد فارتمت بين ذراعيه قائلة :

أهو أنت إذاً !

. . . .

كيف السبيل إلى وصف سعادة جوليان ؟ أما ماتيلد فكانت سعادتها تعدل سعادته . قالت وهى تضمه بين ذراعيها ضما قويا يكاد يخمد أنفاسه :

عاقبنى على كبريائى الشديدة ؛ إنك سيدى ، وأنا عبدة لك ، يجب أن أركع أمامك ؛ لأنى أردت أن أثور عليك . ثم تركت ذراعيه لتجثو عند قدميه . وغمرتها السعادة والحب فاستطردت تقول . نعم ، أنت مولاى وسيدى ، تحكم فىّ كيفما شئت ، وعاقب أمتك عقابا صارما حين تحدثها نفسها بأن تثور عليك أو تعصى لك أمرا .

ثم انتزعت نفسها من بين ذراعيه ، وأوقدت شمعة ، ثم أرادت أن تقص كل شعرها الذى يغطى جانبا من رأسها ، فحال بينها و بين ذلك ، ووجد مشقة كبيرة فيما فعل ، فقالت له :

أريد أن أتذكر دائما أنى خادمتك : و إذا أضلتنى هذه الكبرياء الكريهة مرة أخرى ، فلوّح لى بهذا الشعر وقل لى : لم تعد المسألة بيننا الآن حبا ، ولست أبالى بما يدور فى نفسك فى هذه اللحظة ، لقد أقسمت على طاعتى ، فتمسكى بالشرف ، وأطيعينى والحكمة تفرض علينا ألا نعرض لوصف هذا الضلال البعيد ، وتلك السعادة البالغة .

وكانت شجاعة جوليان تعادل سعادته ، وحين رأى نور الفجر يبزغ على أعلى المداخن فى الناحية الشرقية من الحديقة ، قال لها : يجب أن أغادر الغرفة بالسلّم كذلك ، و إن التضحية التى أقدم عليها لهى جديرة بك ،

إنى لأحرم نفسى من سعادة بضع ساعات ، وهى ألذّ سعادة تتذوقها روح بشرية ، إنها لتضحية من أجل سمعتك ؛ لو أنك عرفت ما يدور فى قلبى ، لأدركت جسامة ما أقدم عليه . هل ستظلين لى دائما كما أراك فى هذه اللحظة ؟ ولكن الشرف استولى عليه ، فقال لها : يجب أن تعلمى أن الشكوك لم تتجه إلى اللصوص بعد لقائنا الأول . فقد أقام المركيز حرسا فى الحديقة ، وأصبح السيد دى كروازنوا محاطا بجواسيس ، يعلمون ما يفعله فى كل ليلة .

فضحكت ضحكة عالية ، فاستيقظت أمها و إحدى وصيفاتها على إثر ضحكتها ؛ ثم حدثتاها من خلف الباب . فنظر جوليان ورآها وقد اصفر لونها وهى تؤنب الخادمة ، ولم تشأ أن تجيب على حديث أمها ، فقال لها :

لو أنهما فتحتا النافذة لرأيتا السلم !

واحتضنها مرة أخرى ، وأسرع إلى السلم فانزلق فوقه بأسرع مما لو كان ينزل درجاته ، وفى لحظة واحدة كانت قدماه على أرض الحديقة .

و بعد ثلاث ثوان ، كان السلم فى موضعه فى ممر أشجار الزيزفون ، فسلم شرف ماتيلد . ثم انتبه جوليان إلى نفسه فوجد الدماء تنزف منه ، لأنه كان شبه متجرد من ثيابه . لقد جرح وهو ينزلق نازلا على السلم فى غير حذر .

وردت عليه السعادة التى غمرته ، صلابة خلقه وقوته ؛ حتى لو أن عشرين رجلا هاجموه فى هذه الساعة ، لوجد لذة كبيرة فى دفعهم عنه . لكنه لحسن الحظ لم تتعرض لشىء من ذلك شجاعته الحربية ، ولم توضع فى موضع التجربة .

ووضع السلم فى موضعه الأصلى ثم أعاد السلسلة التى تربطه ؛ ولم ينس أن يزيل الآثار التى تركها السلم فى ممر النباتات الغريبة من تحت نافذة ماتيلد .

وجعل يتحسس الأرض الطرية فى الظلام ليتأكد من أن جميع الآثار قد زالت تماما ، فشعر بشىء يسقط فوق يده ، فلما أمسكه وجده خصلة كبيرة من شعر ماتيلد ، قصتها ورمتها إليه ، وكانت لاتزال فى النافذة ، ثم قالت له فى صوت عال :

— هذا ما ترسله إليك خادمتك دليلا على الطاعة الأبدية . ولن أعمد بعد ذلك إلى الاعتماد على عقلى ، فكن سيدا لى .

فأحس چوليان أنه قد غلب على أمره ، وكاد يذهب ليعيد السلم ويصعد إليها مرة أخرى ؛ ولكن عقله تغلب عليه .

ولم يكن الدخول من الحديقة إلى القصر أمرا سهلا يسيرا . وقد تمكن من أن يكسر بابا من أبواب القبو ، فلما أصبح داخل المنزل ، كسر باب غرفته دون أن يحدث جلبة أو ضوضاء . وقد دفعه الاضطراب والعجلة إلى أن ينسى فى غرفة ماتيلد كل شىء حتى مفتاح بابه الذى كان فى جيب ثوبه . فأخذ يقول : لعلها لاتنسى أن تخفى الآثار التى تركتها ! وكان سعيدا كل السعادة ، ولكن التعب غلبه ، والشمس تبزغ من خدرها وقت الصباح ، فاستسلم لنوم عميق حتى دق ناقوس الغداء ، فاستيقظ متثاقلا وذهب إلى غرفة الطعام على كره . ثم أتت ماتيلد بعد قليل فرأى الحب يشع من عينى هذه الفتاة الرائعة الجمال ، المحاطة بالإجلال والإكبار ، فشعر بسعادة أرضت غروره ، ولكن الحذر عاوده فدب فى نفسه الخوف .

وزعمت ماتيلد أن لم يكن لديها من الوقت ما يكفى لتصفيف شعرها ، وقد نظمته بطريقة تسمح لجوليان أن يرى من أول نظرة جسامة التضحية التى ضحتها من أجله ، حين قصت شعرها فى الليله الماضية ... لقد قصت جانبا كبيرا من شعرها الأشقر الجميل ، بحيث لم تترك منه إلا ما يقرب من نصف بوصة . ولو أن وجهها الوسيم كان يفسده شيء ، ما أحجمت ماتيلد عن عمله من أجل الحبيب .

وكانت كل حركاتها أثناء الطعام تنم عما يدور فى نفسها من حماقات شديدة ، بحيث يخيل إلى الناظر أنها أخذت على نفسها أن تكشف للناس جميعا عن حبها الجنونى لجوليان . لكن لحسن الحظ كان المركيز دى لامول والمركيزة مشغولين بالحديث عن إنعامات جديدة بالأوسمة الزرقاء ، ولم يكن اسم السيد دى شون من الذين أنعم عليهم . وفى نهاية الوجبة تحدثت ماتيلد إلى جوليان فنادته بقولها : يا مولاى . فالتهب وجهه بحمرة الخجل .

لم تبق وحدها لحظة واحدة فى ذلك اليوم ، ولسنا ندرى ما إذا كان ذلك قد وقع مصادفة ، أو كان من تدبير المركيزة دى لامول . وفى المساء بينما كانت فى طريقها إلى الصالون وجدت لحظة وهى تغادر غرفة الطعام فقالت لجوليان :

— لقد قررت والدتى أن تقضى إحدى الوصيفات الليل كله معى فى مخدعى ، فأرجو أن تصدقنى ولا تعتقد أننى أتعلل .

ثم انقضى اليوم كأنه كان لحظة ، وشعر چوليان بسعادة كبيرة تغمره ، وفى الساعة السابعة من صباح اليوم التالى ، ذهب إلى المكتبة على أمل أن تتفضل الآنسة فتذهب لتلقاه ، وكان قد كتب لها خطابا طويلا .

ولكنه لم يرها إلا بعد ذلك بساعات طويلة . رآها وقت الغداء ، وقد صففت شعرها فى عناية شديدة ، مخفية ما جُزَّ منه فى مهارة وفن . ونظرت إليه مرة أو مرتين نظرات مهذبة هادئة، لم يقرأ چوليان فيها مانادته به من قبل ، حين دعته بقولها : يا سيدى .

فذهل ذهولا شديداً حتى لم يقدر على التنفس . . . لأنها ندمت على ما فعلته من أجله أشد الندم .

لقد فكرت فى الأمر تفكيراً هادئاً ناضجاً، فهداها التفكير إلى أنه إذا لم يكن عادياً جداً ، فهو على الأقل ليس ذا أصل كريم فيستحق هذه الأعمال الجنونية التى أقدمت عليها من أجله . وعلى الجملة فقد كانت لا تفكر فى الحب فى يومها هذا ، لأنها كانت متعبة من الحب . .

أما چوليان فقد كان ما يضطرم فى قلبه أشبه شىء بما يضطرم فى قلب طفل فى السادسة عشرة من عمره ، فاستولى عليه شك قاتل، وذهول وقنوط أثناء هذه الوجبة التى خيل إليه أنها دامت دهراً طويلا .

ولم يكد يغادر المائدة فى وقار وتؤدة ، حتى أسرع إلى حظيرة الخيل ووضع السرج بنفسه على جواده ، وركبه ثم استحثه على العدو ، وكان

أخوف ما يخافه أن يظهر الضعف فيلحقه الذل والهوان . كان الجواد يركض به فى غابة ميدون ، وهو يقول :

يجب أن أقتل قلبى ، بما أجرئه على جسمى من التعب والنصب . ماذا فعلت ؟ وماذا قلت حتى تعرض عنى وتقابلنى بهذا الصدود ؟

ثم أخذ يقول وهو يعود إلى القصر : يجب ألا أقول اليوم شيئا ، فليمت جسمى كما ماتت نفسى . وقد أصبح چوليان جسدا يتحرك لا أكثر ولا أقل .

الفصل العشرون

الزهرية اليابانية

[لم يدرك قلبه أول الأمر مقدار شقائه ؛ لقد كان يغلب عليه الاضطراب أكثر من التأثر . ولكن كلما ثاب إليه رشده ، زاد إحساسه بهوة الآلام التي يتردى فيها . وأصبحت لذات الحياة كلها لهوا وعبثا بالنسبة إليه فأعرض عنها ، ولم يعد يشعر إلا بالقنوط الشديد الذى يملكه . ولكن ما قيمة الحديث عن الألم الجسمانى ؟ وأى قيمة للألم الذى يحسه الجسم اذا ووزن بما يلقاه من ألم ؟]
جان پول

ودق جرس العشاء ، فأسرع فى ارتداء ملابسه ، ودخل الصالون ، فألفى ماتيلد ترجو أخاها والمركيز دى كروازنوا ألا يذهبا إلى سورن ليقضيا السهرة عند المرشالة مدام دى فرڤاك .

وكان من العسير أن تكون أكثر فتنة وظرفا معهما مما كانت عليه تلك الليلة . و بعد العشاء آتى السادة دى لوز ، ودى كايلوس وكثيرون من أصدقائهما . وكان يخيل إلى من يرى الآنسة دى لامول أنها عادت سيرتها الأولى فأصبحت الصداقة الأخوية قريبة إلى قلبها ، كما رجعت إلى التقاليد الحقة . وعلى الرغم من أن الجو كان بديعا فى ذلك المساء ، فقد أصرت على ألا تذهب إلى الحديقة ؛ وأرادت ألا تبتعد هى ومن معها عن الوثيرة التى جلست عليها المركيزة دى لامول . وأصبحت الوثيرة الزرقاء محوراً التف حوله الشبان كما كانوا يفعلون أيام الشتاء .

كانت ماتيلد مغيظة من الحديقة، أو كانت تبعث فى نفسها مللا شديدا، لأنها مرتبطة بذكريات چوليان .

وإن الألم ليضعف الفطنة ، من أجل ذلك ارتكب بطلنا حماقة حين ذهب ووقف بجوار ذلك المقعد الصغير المصنوع من القش ، الذى كثيرا ما شهد من قبل ، ما أصابه چوليان من نجاح كبير . لم يلتفت إليه أحد ، ولم يخاطبه إنسان ، وكأنهم لم يشعروا بوجوده ، وحتى أصدقاء الآنسة دى لامول الذين كانوا على مقربة منه ، عمدوا إلى أن يديروا ظهورهم إليه ، أو أنه ظن ذلك على الأقل .

فأخذ يقول فى نفسه : إنه كسخط عام من البلاط . ثم أراد أن يتفرس فى أولئك الذين يحاولون أن يحتقروه .

كان عم السيد دى لوز يشغل فى بلاط الملك مركزا خطيرا ، لذلك كان يقول لمن يتحدث إليه أول ما يقول : إن عمه ذهب إلى سان كلو فى الساعة السابعة صباحا ، وهو يعتزم أن يقضى الليلة هناك . وكانت هذه الخاصة اللاذعة ترد فى كلام دى لوز كأنها فكاهة ، ولكنه كان لا ينساها إذا ما تحدث .

وكان چوليان يرقب دى كروازنوا بالعين القاسية عين الشقاء ، فلاحظ أن هذا الشاب الظريف الطيب يعلق أهمية كبيرة على الأسباب الخفية المستترة ، إلى حد أنه كان يحزن ويغضب إذا رأى حادثا تافها يرجع لسبب بسيط وطبيعى .

فقال چوليان فى نفسه : إن مسلكه هذا ينطوى على قليل من الجنون

وهذا الخلق يشبه شبها كبيرا خلق الإمبراطور اسكندر كما وصفه لى الأمير كورازوف .

كان جوليان فى السنة الأولى من إقامته فى باريس يعجب بهؤلاء الشبان الظرفاء ؛ لأن كل شىء كان يبهره بجدته عليه ، ولأنه جاء إلى باريس بعد أن ترك المدرسة الاكليريكية ، لكن خلقهم الحقيقى بدأ يتكشف له شيئا فشيئا .

ثم قال فى نفسه بغتة : إن مقامى هنا ليس مرغوبا فيه . وكان عليه أن يغادر مقعده الصغير بطريقة فيها بعض المهارة . فأراد أن يخترع شيئا جديدا فكان هذا عسيرا عليه ؛ لأن خياله سابح فى آفاق بعيدة . وعمد إلى ذاكرته ، ولنعترف بأن ذاكرته لم تكن غنية فى مثل هذه الظروف فلم تسعفه . وكان هذا الشاب التعس يجهل فى الواقع كثيرا من العادات التى يألفها غيره ، فأدركه الفشل وأحاط به الارتباك وهو ينهض ليغادر الصالون .

وفطن الحاضرون كلهم إلى ما أصابه ، وكان الألم الشديد يظهر واضحا فى كل حركاته ، لأنه ظل ثلاثة أرباع الساعة يمثل دور شخص غير مرغوب فيه ...شخص هو أدنى الموجودين جميعا ، فلم يخف عليه أنهم لا يتحملون مئونة التفكير فيه .

وكانت ملاحظاته فى نقد منافسيه تحول بينه وبين أن يعد ألمه كارثة حقيقية نزلت به ؛ وكانت ذكريات ليلة أمس الأول تقوى من

كبريائه ، إذ أخذ يقول وهو يدخل الحديقة : إن ماتيلد لم تهب واحداً منهم ما تفضلت به عليّ مرتين في حياتي .

وقضت عليه الحكمة ألا يقول أكثر من هذا . على أنه لم يستطع أن يدرك أبداً خلق هذه الفتاة الغريبة ، التي ساقتها له المصادفات لتتحكم في سعادته تحكماً مطلقاً .

وعزم في اليوم التالي على أن يقتل نفسه وحصانه تعباً وإعياء ، وقد فعل ، وفي المساء ، لم يحاول أن يقترب من الوثيرة الزرقاء التي جلست عليها ماتيلد والتف من حولها جماعة الشبان . ولحظ جوليان أن الكونت نوربير لا يكلف نفسه مشقة النظر اليه إذا لقيه في المنزل . فقال : إنه يبذل في ذلك جهداً كبيراً ، لأنه فطر على الأدب الكثير .

كان النوم له رحمة كبيرة . وعلى الرغم من النصب الجسمي الذي كان يلقاه ، فقد كانت ذكريات جميلة قد بدأت تملأ خياله . ولم تهده العبقرية إلى أن يدرك أن هذه المسافات الطويلة التي يقطعها على ظهر جواده في غابات ضواحي باريس لا تؤثر إلا فيه وحده ، وليس لها صلة بما يدور في قلب ماتيلد أو في نفسها ، وقد ترك للأقدار أن تبت في مصيره .

وخيل إليه أن لألمه هذا نهاية ، وأن الشيء الوحيد الذي يخفف ما يلقاه هو أن يتحدث إليها . ولكن هل يجرؤ على أن يقول لها شيئاً ؟

وفي الساعة السابعة من صباح أحد الأيام ، كان چوليان غارقاً في أحلامه ، فرآها تدخل المكتبة عليه بغتة وتقول له :

— أنا أعرف ياسيدي أنك تريد أن تتحدث إليّ :

— يا إلـهى ! ومن أنبأك هذا ؟

— أعرف ذلك ، فما شأنك أنت إذاً ؟ سأتخلى عنك حتى لو فقدت الشرف ، أو أنا أحاول ذاك على الأقل ، ولـكن هذا الخطر الذى أعتقد أنه ليس خطراً حقيقياً لايحول بينى و بين أن أكون مخلصة لك فيما أقول . إننى لم أعد أحبك يا سيدى ، لقد خدعنى خيالى . . .

كان قولها هذا شديد الوقع عليه ، فحاول أن يدافع عن نفسه مدفوعاً بما يضمره لها من حب و بما فى نفسه من ألم وشقاء . ولـكن يا للسخرية ! كيف يدافع إنسان عن أنه ليس بمحبوب ؟ لـكن العقل لم يعد يتحكم فى أعماله . ودفعته غريزة عمياء إلى أن يؤجل قرار الحـكم فى مصيره . وقد ظنّ أن ما بينهما لم ينته ما دام يتـكلم إليها ، ولـكنها لم تـكن تصغى إليه ، وكان صوته يثيرها ويغضبها ، ولم تـكن تتصور أنه قد وهب من الجرأة ما يدفعه إلى مقاطعتها .

استولت عليها فى هذا الصباح فضيلة وكبرياء حتى ملـكها الندم وأشقاها ، وكانت فريسة لفـكرة ملـكت عليها زمام نفسها وهى أنها أعطت قساً وضيعاً حقوقاً عليها ، وهو قسّ ابن فلاح حقير . وكانت تقول فى اللحظات التى يشتد فيها ألمها : إنّ هذا يعدّ جرماً كبيراً كما لو أننى ارتـكبت إثماً مع خادم . وإن الطباع التى فطرت على الجرأة والـكبر لا تفرق كثيراً بين غضب الإنسان على نفسه ، وغضبه على الآخرين ، وثورات الغضب فى هذه الحالة تعدّ سروراً كبيراً .

وقد استطاعت الآنسة دى لامول فى لحظة واحدة أن تصب على جوليان

كل ألوان الازدراء الشديد . لقد كانت ذات فطنة عظيمة ، يسعفها ذكاؤها في أن تعذب الناس ، وتجرح كبرياءهم جروحاً بليغية قاسية .

ولأول مرة في حياة جوليان ، وجد نفسه أمام ذكاء خارق يسلطه عليه الكره الشديد . ولم يدر في نفسه أن يدفع الأذى في هذه اللحظة ، بل زاده ما يسمعه احتقاراً لنفسه ، وخيل إليه أنها على حق فيما تقول ، بل أنها لم تقل فيه ما يكفي ، مع أنها كانت تعمد إلى أن تقضي على حسن ظنه بنفسه بما ساقته من عبارات تحقير محكمة ظهر فيها جانب كبير من ذكائها وفطنتها .

أما هي فكانت تلقى لذة كبيرة ، وترضى كبرياءها حين تعاقب نفسها وتعاقبه على ما شعرت به نحوه من إجلال شديد قبل ذلك ببضعة أيام .

ولم تكن في حاجة إلى أن تخترع هذه الأقوال الجارحة التي تلقيها في ملاطفة شديدة ، ولم تكن تفكر فيها لأول مرة ، إنما كانت تعيد ما دار في قلبها منذ ثمانية أيام ، من قول كان يردده ذلك المحامي عدو الحب .

وزادت كل كلمة من كلماتها شقاء جوليان مائة مرة ، حتى أراد أن يفر منها لكنها أبقته بأن أمسكت ذراعه في قوة وسلطان . فقال لها :

— أرجو أن تلحظي أنك تتحدثين بصوت عال ، وإن من في الغرفة المجاورة ليسمع ما تقولين . فأجابته في كبرياء .

— لست أقيم وزناً لذلك ! ومن ذا الذي يجرؤ على أن يقول إنه

سممنى ؟ أريد أن أشفى كبرياءك شفاء تاماً من تلك الآراء التي كونتها لنفسك على حسابى .

ولما غادر جوليان المكتبة ، كان مذهولا إلى أبعد حدود الذهول ، فشفاه هذا من قسوة ألم كان يلقاه . وأخذ يتحدث إلى نفسه بصوت مرتفع كأنه يريد أن يعرّف نفسه حقيقة مركزه : حسناً ! إنها لم تعد تحبنى . يخيل إلىّ أنها أحبتنى ثمانية أيام أو عشرة ، أما أنا فسأحبها طول حياتي .

هل لى أن أصدق الآن أنها لم تكن شيئا مذكورا ! نعم لم تكن لقلبى شيئا مذكورا منذ أيام قلائل !

ونعمت ماتيلد بالكبرياء التى أظهرتها وارتاح قلبها ؛ فقد استطاعت أن تقطع صلتها بجوليان إلى الأبد ! وشعرت بسعادة كبيرة لأنها شفت نفسها من ميل قوى سرى فى فؤادها . وعلى هذا فقد فهم السيد الصغير أن لم يكن له علىّ من سلطان ماحييت ، ولن يكون . وشعرت بالسعادة تملك عليها نفسها حتى أنها لم تعد تحس الحب فى هذه اللحظة .

لو أن هذا التوبيخ القاسى المقذع الهادم للكرامة ، وجّه إلى من هو أقل كرامة من جوليان لقضى على حبه القضاء الشامل . والآنسة دى لامول لم تحد لحظة واحدة عما يجب عليها نحو نفسها ، فوجهت إلى جوليان هذا الكلام القاسى الذى أعدته فى مهارة فائقة ، فكان كأنه حقيقة حتى عند من يتذكره فى هدوء .

وقد فهم جوليان منذ اللحظة الأولى بعد هذا التأنيب الشديد، أن ماتيلد عظيمة الكبرياء . وكان يؤمن إيمانا ثابتا بأن كل شىء بينهما قد انتهى

إلى الأبد ، ومع ذلك كان فى اليوم التالى وقت الغداء حييا مرتبكا أمامها . وذلك ضعف منه لم يؤنبّ عليه بعد . على أنه كان يعرف تماما مايريد أن يعمله، ويقوم به على أكمل وجه، سواء أكان مايعرض له من الأمور تافها أم جدّيا .

وبعد الغداء من اليوم نفسه طلبت منه مدام دى لامول أن يعطيها منشورا ثوريا نادرا ، كان كاهنها قد قدّمه إليها سرّاً وقت الصباح . فقام جوليان ليأخذ المنشورمن فوق قطعة أثاث ،فأسقط زهرية قديمة من الصينى الأزرق تعتبر قبيحة إلى أبعد حدّ .

فنهضت المركيزة من مكانها صارخة بشدة ، وأتت لتنظر إلى حطام الإناء عن قرب ، ثم قالت : لقد كانت زهرية يابانيه ورثتها عن أخت جدتى الكاهنة شلّ ؛ وهى هدية قدمها الهولنديون إلى الدوق أورليان الوصى على العرش ، وقد أهداها بدوره إلى ابنته .

وكانت ماتيلد تتبع حركات أمها فى انتباه ، فرحة بكسر هذه الزهرية التى تراها قبيحة إلى أبعد حد . على حين لزم جوليان الصمت ، ولم يبد عليه شىء من الاضطراب ، ورأى الآنسه دى لامول على مقربة شديدة منه ، فقال لها :

لقد كسرت هذا الإناء كسرا لايجبر ، كما قضى تمام القضاء على عاطفة تسلطت على قلبى من قبل ، فأرجو أن تتكرمى فتغفرى لى كل الحماقات التى دفعتنى إليها هذه العاطفة ، ثم تركها وانصرف. فقالت مدام دى لامول :

يخيل إلىّ أن السيد سورل قد سرّه مافعل ، أو هو على الأقل يُظهر ذلك وهو منصرف .

فوقعت هذه العبارة على قلب ماتيلد وقعا شديدا ، وقالت فى نفسها : حقا إن أمى على صواب ، فهذه هى العاطفة التى يكنّها قلبه . ثم زال من نفسها فى هذه اللحظة وحدها ، أثر السرور الذى داخلها من عراكها مع جوليان بالأمس . وأخذت تحدث نفسها فى هدوء ظاهر . حسنا ، لقد انتهى كل شىء ، و بقى لى مما فعلت مثل رادع ، فيا لشناعة ما ارتكبت ويا لقبح جريمتى ! ولـكن هذا كله سيكون عظه لى طول الحياة .

أما جوليان فـكان يقول فى نفسه . ألم أقل الحق ؟ فلماذا لا يزال الحب الذى كنت أضمره لهذه المجنونة معذّبا قلبى ؟

كان حبه لماتيلد بعيدا كل البعد عن أن يخبو أو يموت ، بل لقد زاد زيادة شديدة ، وأخذ يقول : حقا إنها مجنونة ، ولـكن هذا لا يمنع من أن تعبد ! أمن الممكن أن توجد فتاة فى مثل روعتها وجمالها ؟ ثم ألم تخلع عليها المدنية المترفة كل مظاهر اللذات ، حتى فاقت بنات جنسها جميعا ؟ وتغلغلت هذه الذكريات فى نفسه ، فقضت فى الحال على ما كان يرشده إليه العقل والتفـكير .

واحتدم صراع عنيف بين العقل والذكريات ، غلبّ فيه العقل على أمره ، وزادت الذكريات فى نفسه حلاوة .

و بعد أن كسر الإناء اليابانى بأربع وعشرين ساعة ، كان جوليان من أتعس الناس .

الفصل الحادي والعشرون

المذكرة السرية

[كل ما أقصه عليك قد شاهدته بنفسي ، وإذا كنت قد خدعت وأنا أراه ، فلاشك أنني لا أخدعك وأنا أقوله لك .]

خطاب إلى المؤلف

استدعى المركيز جوليان ؛ وكان كأنه قد عاد فتيا ، وظهر البريق في عينيه ، ثم قال لكاتب سره :

لنتحدث قليلا عن ذاكرتك ، فقد قيل إنها ذاكرة جبارة ! أفي استطاعتك أن تحفظ جيدًا أربع صفحات ثم تذهب إلى لندن لتتلوها هناك ؟ بشرط ألا تغير فيها كلمة واحدة ! .

وتناول المركيز صحيفة أخبار اليوم ، وهو يحاول عبثا أن يظهر بمظهر الجد والوقار ، والذي لم يره جوليان إطلاقا على محيا المركيز من قبل حتى وهو يتناول أمر قضايا فريلير .

وكان جوليان قد تعلم أن يظهر بمظهر الغفلة ، إذا ما تحدث إليه في لهجة تنطوي على الاستخفاف ، فقال للمركيز :

وربما كان عدد هذه الجريدة غير مسلّ ؛ ولكن إذا سمح سيدي المركيز تلوته عليه غدا .

ماذا ! حتى الإعلانات ؟

حتى الإعلانات كذلك ، ودون أن أنسى كلمة واحدة . فاصطبغ وجه المركيز بغتة بجدّ ووقار ، وسأله :

— هل تعدنى بشرفك أن تفعل هذا ؟

— نعم يا سيدى ، وإن الخوف من النسيان ربما كان هو الذى يريك ذا كرتى .

— نسيت أن ألقى عليك هذا السؤال بالأمس : لا أريد أن أستحلفك على ألا تذيع ما تسمع ؛ لأنى أعرفك حق المعرفة فلا أحب أن أجرحك حين أستحلفك على ذلك . لقد أعطيت أنا كلمة عنك بالأمس ، وسأذهب بك إلى أحد الصالونات حيث يجتمع اثنا عشر شخصا ؛ وستكتب مايقوله كل منهم .

وأحب ألا تقلق ، لأن حديثهم لن يكون مضطربا ، فسيتكلم كل شخص بدوره ، ولا أريد أن أقول إن كلا منهم سيتكلم بنظام . قال له المركيز هذا بلهجته الرقيقة التى تبدو طبيعية . واستطرد : وحين نأخذ نحن فى الحديث ، تكون أنت مكبا على الكتابة ، وستكتب عشرين صفحة ، ثم تعود معى إلى هنا ، فنختصر ما كتبت فى أربع صفحات ، وهذه الصفحات الأربع هى نفس التى ستتلوها على غداصباحا بدلا من عدد الجريدة ، ثم تسافر بعد ذلك توّا ويجب أن تظهر وأنت مسافر بمظهر الشاب الذى يطلب اللذات فى الأسفار . واعمدْ إلى ألا يفطن إليك إنسان ؛ وستذهب لتلقى شخصية خطيرة ، فاصطنع المهارة الشديدة ؛ ويجب أن تخدع كل من

حوله ، لأن بين كاتبي سره وخدمه أشخاصا يعملون لمصلحة أعدائنا ، ويتجسسون على رجالنا حين يفدون عليه ، وأينما حلوا .

وستزود بخطاب توصية لاقيمة له ، وإذا ما نظر إليك صاحب السعادة ، فاعمد إلى أن تخرج ساعتي هذه من جيبك وسأعيرك إياها إلى أن تعود من هذه الرحلة . خذها معك ، لأن هذا يفيدك . خذها وهات ساعتك .

وسيتفضل الدوق فيكتب بنفسه الصفحات الأربع التي ستمليها عليه ، والتي حفظتها عن ظهر قلب .

وإذا ما أتممت المهمة وسألك صاحب السعادة عما دار في الإجتماع الذي ستشهده الليلة فقص عليه ماسترى وتسمع ، ولكن حذار أن تقول شيئا في غير موعده أو متطوعا به . والذي سيباعد السأم عنك طوال هذه الرحلة من باريس إلى مقر الوزير ، أن هناك أناسا على طول الطريق لايطمعون في أكثر من أن يقتلوا الكاهن سورل برصاصة ، فيقضون على المهمة التي أوفد فيها ، وهي مهمة لاتحتمل التأجيل ، فكيف نعلم ياعزيزي بقتلك إذا ماقتلت ؟ إن حميتك ونشاطك لن يصلا إلى حد أن يخبراني بمقتلك .

ثم قال له المركيز في لهجة جادة : اذهب حالا واشتر لنفسك حلة كاملة . ثم اتخذ النمط الذي كان سائدا منذ عامين . أما الليلة فلا أحب أن تكون أنيقا . وأما في الرحله فأحب أن تكون على نقيض ذلك .

هل تعجب من هذا ؟ هل وصل حذرك إلى معرفة ماأرمي إليه ؟ نعم ، ياصديقي ، إن بين الأشخاص الوقورين الذين ستسمعهم الليلة ، من يقدر

على أن يرسل بمعلومات عنك تؤدى على الأقل إلى دس شيء من الأفيون لك في أى نزل نقصده لتتناول عشاءك . فقال جوليان :

خير لى أن أسير ثلاثين فرسخا من أن آخذ الطريق العادى المباشر الأقل طولا . ويخيل إلى أن الحذر من روما . . . .

فعلت وجه المركيز علامات الكبر والاستياء ، وهى شيء لم يره جوليان عليه منذ أن رآه فى براى العليا ، وقال لجوليان :

ستعرف ياسيدى حين مايبدولى أن أقول لك: أنا لا أحب الأسئلة .

فاضطرب جوليان وقال :

أقسم لك ياسيدى أننى لم أقصد سؤالك ، وقد كنت حسن القصد ، أفكر فى خير الطرق وآمنها .

نعم ، يخيل إلى أنك كنت محلقا فى آفاق بعيدة . ثم لا تنس أن رسولا فى سنك ، لا ينبغى له أبداً أن يظهر بمظهر الراغب فى معرفة كل شيء .

فتألم جوليان ألماً شديداً ، لأنه كان مخطئاً . وحاولت كبرياؤه أن تجد عذراً لكنه لم يوفق ،وقال له المركيز :

— أحب أن تعرف أن المرء إذا أخطأ ندم على ما فعل بقلبه .

وبعد ذلك بساعة ، كان جوليان فى غرفة المركيزة وقد لبس ثياباً قديمة ، ورباط رقبة فيه شبه بياض ، وعلى ملامحه طاعة المرءوس ، بحيث تدل هيئته كلها على هيئة وغد لئيم .

ورآه المركيز فقهقه ضاحكا ، وصفح عنه صفحاً جميلا . ثم أخذ يقول

فى نفسه : لو خاننى هذا الشاب ، فعلى من أعتمد إذاً ؟ على أنه لا بد لمن يعمل من أن يعتمد على إنسان . وابنى وأصدقاؤه الميامين الذى هم على شاكلته يتصفون بالشجاعة والإخلاص الشديد ، و إذا دخلوا فى حرب ماتوا جميعاً على درجات العرش مدافعين عنه ، إنهم يعرفون كل شىء ... إلا ما يريده الإنسان الآن . ليس من بينهم من يستطيع أن يحفظ أربع صفحات عن ظهر قلب ، ويقوم برحلة تبلغ مائة فرسخ دون أن يلفت إليه الأنظار . إن نوربير ليعرف كيف يقتل مثل أسلافه ، وهذه ميزة الشخص الذى يُقْتَرع حديثاً . . .

ثم أخذ يفكر مستغرقاً فى أحلام عميقة ، ثم قال وهو يتنهد : ويقتل أيضاً ، وربما كان سورل هذا أعرف منه بذلك ... ثم قال لجوليان كمن يطرد فكرة استولت على ذهنه :

— لنصعد إلى العربة . فقال له جوليان :

— لقد حفظت الصفحة الأولى من جريدة أخبار اليوم يا سيدى فى الوقت الذى شغلوا فيه بإعداد هذه الحلة .

فأخذ المركيز الصحيفة وابتدأ جوليان يتلو ولا يخطىء فى كلمة واحدة . فقال المركيز فى نفسه ، وكان فى تلك الليلة على جانب كبير من المهارة السياسية : حسناً ، هذا سيشغله عن ملاحظة الشوارع التى نسير فيها .

ثم دخلا صالوناً قاتم المظهر ، يغطى الخشب جزءاً منه ويغطى المخمل الأخضر منه جزءاً آخر ، وفى وسطه خادم عابس الوجه قد أعد مائدة طعام ،

صارت فيما بعد منضدة للعمل ، بأن وضع عليها بساطاً أخضر كبيراً لطّخه المداد ، وقد سرق من إدارة حكومية .

وكان ربّ الدار رجلا بديناً ، لم يذكر اسمه أبداً ، تدلّ هيئته وفصاحته على أنه رجل أكول . وأشار المركيز إلى جوليان إشارة ، فاتخذ له مكاناً فى الطرف الأقصى من المائدة . وأراد أن يشغل وقته بشىء ، فأخذ يبرى ريشا يكتب بها . وأحصى جوليان بطرف عينه سبعة أشخاص لم ير إلا ظهورهم . كان اثنان منهم يتحدثان مع السيد دى لامول حديث الأنداد ، أما الآخرون فكانت لهجتهم لهجة احترام .

ثم دخل آخر دون أن يعلن الخادم مقدمه ولا اسمه . فعجب جوليان وقال فى نفسه : إنهم لا يعلنون القادمين فى هذا الصالون ، فهل هذا احتياط اتخذوه من أجلى ؟ ونهض الحاضرون جميعاً ليستقبلوا الزائر الجديد ، وكان يتزين بنفس الأوسمة الرفيعة التى كانت تزين صدور ثلاثة من الحاضرين .

كان الحديث يدور بصوت منخفض . وأراد أن يعرف شيئاً عن هذا القادم فاكتفى بالنظر إلى تقاطيع وجهه وهيئته ، فألفاه قصير القامة ، ضخم الجسم ، وردى اللون ، برّاق النظرات ، تنم عينه عن الشر كأنه خنزير برى .

ثم أتى بعد ذلك رجل يخالف الحاضرين كل المخالفة ، فأعرض جوليان عن الآخرين وأخذ ينظر إليه . كان مديد القامة ، نحيلا ، يلبس ثلاث صدر أو أربعة ، تنم نظراته عن اللطف ، وتنبىء حركاته عن الأدب .

فقال جوليان فى نفسه : إن هيئته كهيئة الشيخ الوقور رئيس أساقفة بيزانسون . هو من رجال الكنيسة ما فى ذلك شك ، ولم يبلغ بعد الخمسين أو الخامسة والخمسين من عمره ، ومن العسير أن تجد نظرات أشد حنانا من نظرات هذا الرجل .

ثم أتى بعد ذلك رئيس أساقفة آجد ، فذهل حينما رأى جوليان ، وهو ينتقل ببصره بين الحاضرين . ولم يكن بطلنا قد خاطبه منذ حفلة براى العليا ، فاضطرب وغضب من هذه النظرات التى تدل على دهشة هذا الرئيس الشاب ، وأخذ يتحدث إلى نفسه قائلا :

ما معنى هذا ! أإذا ما عرفت رجلا كانت معرفته شؤما علىّ ؟ إنّ كل هؤلاء السادة الذين لم أرهم من قبل لا تعنينى نظراتهم إطلاقا ، أما نظرات هذا الرئيس الشاب فهى تبعث فى نفسى فتورا ! يجب أن أعترف بأننى رجل عجيب حقا ، وعلى درجة كبيرة من البؤس والشقاء .

ثم قدم بعد ذلك رجل قصير القامة ، شديد السواد ، دخل فى جلبة شديدة وأخذ يتحدث منذ وطأت الباب قدماه ؛ كان شاحب الوجه ، تدل هيئته على نزق وطيش . ومنذ وصل هذا الثرثار ، تكونت جماعات من الحاضرين ، ليجتنبوا فيما يظهر ما يستولى عليهم من ملل لسماع حديثه .

كانوا يبتعدون عن المدفئة ، فكانوا يقتربون من طرف المائدة الآخر الذى يشغله جوليان . فأخذ يتخاذل قليلا قليلا ، لأن كلماتهم كانت تصل إلى أذنيه على الرغم مما كان يبذله من الجهد ، لكيلا يسمع مايقولون ، ومع قلة خبرته رأى أنهم يتحدثون عن أشياء خطيرة دون مواربة أومداراة ،

وإن كان هؤلاء السادة يحرصون حرصا شديدا على أن يظل مايقولونه سرا مكتوما ! ..

أخذ چوليان يبرى ريشا يكتب به فى بطء شديد ، فبرى عشرين ريشة ، ثم بطلت هذه الحيلة التى عمد إليها . وحاول عبثا أن يتبين فى عينى المركيز أمرا يقوم بتنفيذه ، لكن السيد دى لامول كان قد نسى وجوده .

كان چوليان يبرى ريشة فأخذ يقول فى نفسه : إن ما أفعله الآن يدعو إلى السخرية ، على أن هؤلاء السادة ذوى الوجه العادية الذين يقومون بهذا العمل من تلقاء أنفسهم أو مدفوعين إليه من غيرهم ، على درجة كبيرة من النزق .

إن نظراتى التعسة التى تنم عن التساؤل ولا تنطوى على الاحترام ، تغيظ هؤلاء السادة . ولو أننى أغضيت بصرى ، لكنت كمن يسترق السمع ليعرف ماذا يقولون . وكان شديد الاضطراب ، لأنه يسمع أشياء غريبة .

الفصل الثاني والعشرون

المناقشة

[الجمهورية — إذا كان هناك فرد يضحى بكل ما يملك في سبيل المصلحة العامة ، فهناك آلاف بل ملايين من الناس لا يعرفون إلا لذاتهم ، وما يرضى كبرياءهم . ففى باريس يحترم المرء من أجل عربته لا من أجل فضائله] .

نابليون : المذكرات

دخل الخادم على عجل وهو يقول : سيدى دوق ... فقال له الدوق وهو يدخل :

— صه ، فما أنت إلا أحمق . قال هذه العبارة فى كثير من العظمة ، حتى أن چوليان اعتقد —على الرغم منه— أن مواهب هذا الرجل العظيم محصورة فى أنه يعرف كيف يغضب من خادم . ورفع چوليان بصره ثم غضه فى الحال ، لأنه أدرك من هو هذا القادم الجديد ، فخشى أن تكون نظرته إليه لا تتفق مع المحافظة على الأسرار .

كان الدوق فى الخمسين من عمره ، أنيق الملبس ، مختالا فى مشيته ، ضيق الرأس ، ذا أنف كبير ، ووجه مقوس بارز ، ومن العسير أن تجد مظهرا يدل على الأرستقراطية والتفاهة معا كمظهر هذا الدوق . وبحضور هذا الرجل افتتح الاجتماع .

وكان چوليان مشغولا بملاحظاته فى تفرس وجوه الحاضرين ، فانتزعه صوت المركيز دى لامول من تأملاته العميقة حين قال :

— أقدم لكم الشماس سورل ، وهو ذو ذاكرة عجيبة ؛ لقد تحدثت إليه منذ ساعة عن المهمة التى سيتشرف بالقيام بها ، ولكى يقيم الدليل على قوة ذاكرته ، حفظ الصفحة الأولى من جريدة أخبار اليوم . فقال صاحب المنزل :

— آه ! إنها أخبار غريبة بالنسبة إلى هذا التعس . . . ثم تناول الصحيفة على عجل ، ونظر إلى جوليان فى لطف ، وكان يحاول أن يظهر بمظهر الجد والوقار ثم قال له : تكلم يا سيدى . وساد صمت عميق ، واتجهت الأنظار كلها إلى جوليان ، الذى كان يتلو تلاوة حسنة ، حتى أن الدوق قال له ، بعد أن تلا عشرين سطرا : يكفى هذا القدر .

وكان الرجل القصير ذو النظرات الوحشية قد جلس ، وكان هو رئيس الاجتماع ؛ إذ لم يكد يتخذ مكانه من المنضدة حتى أشار إلى جوليان أن يحضر منضدة صغيرة بجواره ، وكانت تستعمل للعب .

وجلس جوليان إلى هذه المنضدة الصغيرة ومعه كل أدوات الكتابة ، وقد أحصى وهو فى مكانه اثنى عشر شخصا جالسين حول البساط الأخضر ثم قال الدوق :

— اذهب إلى الغرفة المجاورة ياسيد سورل حتى نستدعيك .

فقلق صاحب المنزل قلقا شديدا ، وقال لجاره بصوت يكاد يكون مسموعا :

— إن مصاريع النوافذ ليست مقفلة . ثم قال لجوليان فى غفلة : يحسن ألا تطل من النوافذ . وقد أخذ بطلنا يتحدث إلى نفسه : ها أنذا قد

زجّ بي في مؤامرة ، غير أنها لحسن الحظ ليست من المؤامرات التي تقود إلى ميدان جريف . على أنه إذا كان هناك خطر فأنا أستهين به من أجل المركيز .

كم أكون سعيدا لو أتيحت لي فرصة أخفف بها الآلام التي سببتها له بالأعمال الجنونية ، التي ارتكبتها والتي سيعلمها يوما من الأيام !

كان يفكر في حماقاته وشقائه ، وهو ينظر إلى المكان بطريقة لاتتيح له أن ينساه . ثم تذكر أن المركيز لم يذكر للسائق اسم الشارع ، وأنه استأجر عربة على خلاف عادته :

أخذ جوليان يفكر كثيرا ، لأنه أتيح له وقت طويل يفكر فيه ، وكان جالسا في صالون فرش بالمخمل الأحمر وبه أشرطة مذهبة . وكان على قطعة من الأثاث تمثال من العاج للمسيح وهو مصلوب ، وفوق المدفأة كتاب « البابا » من تأليف السيد دي ميتر ، مذهب الجوانب وعليه جلد فاخر . ففتحه حتى لايظن أنه يسترق السمع لأن المجتمعين في الغرفة المجاورة كانوا يتحدثون بصوت عال بين لحظة وأخرى . وأخيرا فتح الباب ، واستدعى ليشهد الجلسة قال الرئيس للحاضرين :

— تذكروا أيها السادة أننا منـــــذ الآن نتحدث أمام الدوق دي ... ثم أشار إلى جوليان ، واستطرد يقول : وإن هذا السيد الشاب المنتمي إلى قضيتنا المقدسة ، سينقل إليه كل ما نقوله ، مستعينا بذاكرته العجيبة ، ولن يفلت منه أتفه التفاصيل . ثم أشار الرئيس إلى الرجل ذي النظرات الرقيقة الذي يلبس ثلاث صدر أو أربعا ، وقال : الـكلمة

الآن لك ياسيدى . وخيل إلى جوليان أنه كان من الأفضل أن يدعى هذا السيد باسمه . ثم تناول ورقا وكتب كلاما كثيرا .

وهنا أراد المؤلف أن يضع نقطا على صفحة كاملة ، فقال له الناشر : إن هذا ليس محمودا ، خصوصا وأن ماتكتبه ضرب من اللغو ، فاذا لم يتوفر الظرف فيما تكتب حكمت عليه بالموت . فقال له المؤلف :

« إن السياسة كحجر يشدّ إلى عنق الأدب ، فلا يلبث أن يغرقه فى زمن لايزيد على ستة شهور . السياسة بين الانتاج العقلى كطلقة نارية فى وسط حفل موسيقى . هى ضجة مفزعة ، لكنها ليست قاضية ، فهى لا تلائم أى صوت من أصوات آلات الموسيقا . وهذه السياسة ستضايق نصف القراء ضيقا شديدا ، وتوقعهم فى الحرج ثم تجلب السأم إلى نفوس النصف الآخر حين يقرؤها فى جريدة الصباح بصورة أخرى .

« إذا لم ترد السياسة على ألسنة شخصيات قصتك ، فهم ليسوا إذن فرنسيين يعيشون فى سنة ١٨٣٠ ، ولن يكون كتابك مرآة للحوادث كما تزعم .

كان محضر الجلسة الذى كتبه جوليان يتكون من ست وعشرين صفحة ، وهاك ملخصا موجزا شديد الايجاز ؛ لأنه ينبغى دائما أن تحذف الأقوال التى تدعو إلى السخرية والتى تدل كذلك على السفه ومخالفة الواقع (انظر جريدة المحاكم) .

« كان الرجل ذو الصدر الأربع يبتسم كثيرا (ربما كان رئيس أساقفة) وحين كان يبتسم تلمع عيناه المسبلتان ببريق عجيب وحزم تراه فى تزايد .

وقد طلب منه أن يبدأ الكلام أمام الدوق « ولكن أى دوق ؟ كما كان چوليان يسائل نفسه » يبدأ الكلام ليشرح الآراء على ما يظهر وليقوم بمهمة النائب العام ، ثم رأى چوليان أن الرجل وصل إلى نتائج غامضة غير التي قررت ، وتسرب الشك إلى نفسه كما يحدث عادة لرجال القضاء . وفى أثناء النقاش وصل الأمر بالدوق إلى أن يلومه على ذلك .

و بعد أن ذكر هذا الرجل ، ذو النظرات العطوف والصدر الأربع ، عبارات تنطوى على الأخلاق والفلسفة التى ترمى إلى الصفح ، قال :

إن انجلترا النبيلة التى كان يقودها رجل خالد عظيم هو پت ، قد انفقت أربعين مليارا من الفرنكات للقضاء على الثورة . و إذا سمحت لى هذه الجمعية أن أطرق فى شىء من الصراحة فكرة مؤلمة ، قلت : إن انجلترا لم تدرك تماما أن رجلا مثل بونابرت الذى لم يؤخذ عليه إلا كثير من المقاصد الحميدة ، والذى لم تنفع معه إلا الطرق الشخصية . . . فقاطعه رب الدار والقلق بادٍ على وجهه ، وقال :

آه ! إنك تمدح القاتل من جديد ! وصاح به الرئيس فى غضب وعينه التى تشبه عين الخنزير البرى تلمع فيها وحشية غريبة ، قائلا :

أرجو أن تعفينا من مواعظك العاطفية . ثم احمرت جبهته ، والتهب خداه وقال للمتكلم : استمر . فاستطرد الرجل يقول :

إن انجلترا العظيمة قد تهدمت اليوم ، فكل إنجليزى يضطر اضطرارا إلى أن يدفع فوائد الأربعين مليارا التى أنفقت فى سبيل القضاء على اليعاقبة ، قبل أن يدفع ثمن الخبز الذى يأكله . ولم يعد يوجد بين ساسة الانجليز رجل مثل پت . . . فقاطعه أحد العسكريين بعد أن تظاهر بالخطورة قائلا :

إن انجلترا لايزال فيها دوق ولنجتون . فصاح الرئيس :

أرجو أن تلتزموا الصمت أيها السادة ، وإن كنتم لاتزالون مختلفين فيما بينكم ، فقد كان من العبث أن نستدعى السيد سورل . ثم قال الدوق فى غضب وهو ينظر إلى المقاطع ، وقد كان جنرالا فى جيش نابليون :

نحن نعرف أن السيد رجل غنى بأفـكاره . وقد رأى چوليان أن هذه العبارة تنطوى على شيء شخصى يؤلم أشد الألم ؛ لأن الحاضرين تبسموا جميعا ، فغضب هذا الجنرال المتخلى عن نابليون غضبا شديدا . ثم استطرد المتحدث ، وقد ظهرت عليه علامات القنوط التى تبدو على من لايستطيع إقناع سامعيه بما يقول :

لم يعد فى انجلترا رجل مثل پت ، وإذا كان فيها پت جديد ، فلن يتلاعب بأمة مرتين بنفس الوسائل ... فقاطعه العسكرى مرة أخرى :

ولهذا السبب نفسه ، لن يوجد فى فرنسا قائد عسكرى غاز فاتح مثل بوناپرت

وفى هذه المرة لم يجرؤ الرئيس أو الدوق على إظهار الغضب ؛ وإن كان چوليان قد قرأ فى وجهيهما الرغبة فيه ، وغضا من ابصارهما واكتفى الدوق بأن تنهد تنهداً سمعه كل الحاضرين .

غير أن المتحدث ساءه أن يقاطع مرة أخرى ، وأخذ يتكلم بحماسة ، حتى نسى الأدب اللطيف واللغة المتزنة ، وكان چوليان يحسبهما طبعا فيه لا تطبعا يتكلف ، قال :

إنكم تتعجلوننى وتريدون أن أنتهى حالا مما أقوله . مع أنكم لاتلحظون أبداً مقدار ما أبذله من جهد حتى لا أسيء إلى أحد منكم ،

فلا أجرح أسماعكم ، مهما يبلغ طول آذانكم . حسنا أيها السادة ، سأوجز القول . وإنى أستطيع أن أقول لكم فى عبارات عامية : إن انجلترا لم تعد تملك شيئا أبدا تنفقه فى تلك القضية العادلة . ولو أن پت نفسه عاد مرة أخرى ، ما استطاع على الرغم من عبقريته ونبوغه أن يعبث بصغار الملاك الأنجليز ، لأنهم يعلمون أن معركة واترلو القصيرة الأجل ، كلفتهم وحدها مليارا من الفرنكات . ثم استطرد وحميته تزداد شيئا فشيئا :

أقول لكم مادمتم حريصين على سماع الواضح المفهوم : « اعتمدوا على أنفسكم » ، لأن انجلترا لا تملك جنيها واحدا تقدمه لكم ؛ وإذا توقفت انجلترا عن الدفع فإن النمسا والروسيا وبورسيا ، تلك الدول التى تملك الشجاعة دون المال ، لا تستطيع أن تحارب فرنسا إلا فى معركة أو معركتين فقط .

إن الإنسان ليأمل أن ينهزم الجنود الشبان الذين يعدهم الثوريون فى معركة أو معركتين ، أما فى الثالثة فسيكون لكم جنود عام ١٧٩٤ ، الذين لم يكونوا على شاكلة الفلاحين ممن أدخلوا العسكرية عام ١٧٩٢ ، أقول هذا على الرغم من أنكم تروننى . نوريا بعيونكم الحذرة .

وهنا قوطع من ثلاث جهات أو أربع دفعة واحدة ، فقال الرئيس لجوليان .

أذهب أيها السيد إلى الغرفة المجاورة ، وابدأ فى تبييض مقدمة محضر الجلسة التى كتبتها . فخرج آسفا ؛ لأن المتحدث كان قد بدأ يعرض لاحتمالات كانت دائما موضع تفكير جوليان وتأملاته .

وأخذ يقول فى نفسه : إنهم يخشون أن أسخر منهم . ولما استدعى ليشهد الجلسة ، كان السيد دى لامول يقول بلهجة وقار يعده جوليان مدعاة إلى السخرية لكثرة ماعرف المركيز :

نعم أيها السادة ، هذا الشعب التعس هو الذى يقال فيه : هل سيكون إلها ، مائدة أو إبريقا ؟

إن مؤلف الأمثال يصيح فى قوة : إنه سيكون إلها ! وهـذه العبارة القوية العميقة النبيلة إلى أبعد الحدود ، يتوقف تحقيقها عليكم أنتم أيها السادة . اعملوا بأنفسكم ، وستعود فرنسا سيرتها الأولى التى تركها عليها أسلافنا ، أو إلى حالة قريبة منها ، كما كنا نراها قبل موت لويس السادس عشر .

إن إنجلترا أو لورداتها النبلاء على الأقل ، يكرهون اليعقوبية المرذولة ، كما نكرهها نحن تماما : وبدون الذهب الإنجليزى ، لاتستطيع النمسا ولا الروسيا ولا بروسيا القيام بمعركتين أو ثلاث معارك . فهل هذا يكفى فى القيام باحتلال ثابت ، كذلك الاحتلال الذى اتفق عليه السيد ريشيليو فى سنة عام ١٨١٧ ؟ أنا لا أعتقد ذلك .

فقوطع المركيز لكنه قضى على المقاطعة من كل جانب . وكان مصدرها فى هذه المرة أيضا ذلك الجنرال الامبراطورى السابق ، الذى كان يود الحصول على الوسام الأزرق ، ويريد أن يكون بين الذين يحررون المذكرة السرية .

ثم استطرد المركيز دى لامول يقول بعد أن انتهت الضجة : أنا

لا أعتقد ذلك . وضغط على كلمة أنا فى قحة أعجب بها جوليان الذى أخذ يقول فى نفسه وهو يكتب فى سرعة كبيرة تعادل سرعة المركيز فى كلامه : هذه غمزة لطيفة ، فقد قضى المركيز بعبارة لطيفة على المعارك العشرين التى اشترك فيها الجنرال .

ثم قال المركيز فى لهجة متزنة : إننا لا نستطيع أن نعتمد على الأجانب وحدهم فى احتلال عسكرى جديد . فهؤلاء الشبان الذين يكتبون مقالات مثيرة فى « الجلوب » سيعطوننا ثلاثة آلاف أو أربعة آلاف قائد ، قد نجد بينهم قوادا مهرة مثل كليبر وهوش وجوردان وبيشجرد ، ولكنهم ليسوا أسلم طوية من القواد السابقين . فقال الرئيس :

— إننا لم نستطع تمجيده التمجيد الحق ، فكان يجب أن يكون من الخالدين .

واستطرد المركيز دى لامول : ثم يجب أن يكون فى فرنسا حزبان ولا أريدهما حزبين اسميين ، وإنما أرمى إلى أن يكونا حزبين متميزين مختلفين تمام الاختلاف . لنعرف من ينبغى لنا أن نحطمه . فمن جهة سنواجه الصحفيين ، والقراء أو الرأى العام بإيجاز ، ثم الشبيبة وكل ما تمجده . وبينما تكون مكبة على إثارة هذه الآراء التافهة التى لا يقام لها وزن ، نكون نحن مكبين على استنفاد الميزانية .

وهنا قوطع مرة أخرى . فقال المركيز لمقاطعه فى كبرياء شديدة ويسر عجيب :

— أنت يا سيدى لا تستنفد إذا كان التعبير لا يرضيك ، وإنما

تبتلع من ميزانية الدولة أربعين ألفا من الفرنكات وثمانين ألفا تتسلمها من القائمة المدنية . وما دمت ياسيدى تستثيرنى فسأضرب بك المثل فى جرأة . كان يجدر بك ياسيدى وأنت تحصل على مائة وعشرين ألفا من الفرنكات أن تربنا — كأجدادك البواسل الذين ذهبوا مع لويس المقدس واشتركوا فى الحروب الصليبية — كتيبة من الجند ، أو فرقة أو نصف فرقة مكونة من خمسين رجلا مستعدين للقتال ، مخلصين لقضيتنا العادلة إخلاصا أكيدا ! ولكن ليس لديك إلا خدم ، إذا قامت ثورة ، كانوا مصدر رعب لك .

إن العرش والكنيسة وطبقة الأشراف قد يقضى عليها فى الغد أيها السادة ، مادمتم لم تخلقوا فى كل مقاطعة قوة مكونة من خمسمائة رجل مخلصين ؛ وإنى أقول مخلصين ، لأن الشجاعة الفرنسية وحدها لاتكفى وإنما أبغى أيضا أن يكونوا متصفين بالجلد الأسبانى كذلك .

يجب أن يكون نصف الجند من أبنائنا وأبناء أبنائنا وأحفادنا ومن أبناء الأشراف الحقيقيين . وسيكون بجانب كل ابن من أبنائنا فلاح ساذج فطر على الصراحة مثل كاتلينو ، لا برجوازى ثرثار ؛ مستعد لأن يرفع العلامة الثلاثية الألوان إن جدت حوادث عام ١٨١٥ مرة أخرى؛ فيستطيع أبناؤنا تلقين هؤلاء الفلاحين المبادىء التى يسيرون عليها ، ويا حبذا لو كانوا إخوتهم فى الرضاعة ، ليضح كل منا بخمس دخله حتى نكون هذه الفرق الصغيرة المخلصة ، فى كل مقاطعة خمسمائة جندى .
وفى هذه الحالة تستطيعون أن تثقوا أن الجنود الأجانب سيعجزون عن

التوغل فى بلادنا ، لأن الجندى الأجنبى لن يقدر على الوصول إلى أكثر من ديجون إذا لم يكن على ثقة من أن فى كل مقاطعة جنـدا منا يشدون أزره .

ولن يصغى لنا الملوك الأجانب إلا إذا أعلنا أن لدينا عشرين ألفا من السادة الأشراف على أتم استعداد لأن يفتحوا لهم أبواب فرنسا بقوة السلاح . إنها مهمة شاقة كما تقولون ، ولكن سلامتنا أيها السادة تتطلب ذلك . ثم إن حرية الصحافة تتعارض أشد المعارضة مع حياتنا و بقائنا كأشراف ، فعليكم أن تختاروا . إمّا أن تصبحوا صناعا أو فلاحين و إمّا أن تقاتلوا فى سبيل وجودكم . كونوا متواضعين إذا شئتم ولكن لا تكونوا أغبياء ، وافتحوا أعينكم جيدا .

إنى أهيب بكم أن تكوّنوا فرقكم كما تقول الأغنية اليعقوبية ، وفى هذه الحالة سيوجد شخص نبيل مثل جوستاف أدولف يحزنه ما يهدد الملكية من خطر ، فيندفع ثلثمائة فرسخ خارج بلاده ، ويعمل لكم ما عمله جوستاف أدولف للأمراء البروتستانت ؛ هل تريدون أن تظلوا تقولون ولا تعملون ؟ إنكم لو اتبعتم هذه الطريقة فلن يكون فى أوربا بعد خمسين عاما ملك واحد ، وسيصبح الحكم فى أيدى رؤساء جمهوريات . وهذه الحروف الثلاثة R.O.I كفيلة بالقضاء على القسس والأشراف . إننى لم أعد أرى إلا طلاب منافع يتملقون هذه الأغلبيات الملوثة .

من العبث أن تقولوا : إن فرنسا ليس لها فى الوقت الحاضر قائد فذ معروف محبوب من الجميع ، وإن الجيش الفرنسى أصبح الآن منظما

بطريقة تهدف إلى خدمة العرش والكنيسة ، وقد انتزع منه المحاربون القدماء ، على حين يوجد فى كل فرقة من الفرق البروسية والنمساوية خمسون من صف الضباط الذين اشتركوا فى المعارك .

إن مائتى ألف شاب من الطبقة البرجوازية يحبون الحرب حبا شديدا ، ويودون لو اشتركوا فى قتال ...

فقال رجل عظيم ، يشغل فيما يظهر مركزا خطيراً فى الكنيسة ، بلهجة متكبرة لم يغضب لها المركيز دى لامول ، بل ابتسم منها ابتسامة رقيقة ، فكان هذا دليلا لجوليان على أن الرجل من الشخصيات الكبيرة :

— دع تعداد هذه الحقائق المرة ، ولنوجز أيها الساده : إن الرجل الذى كتبت عليه أن تقطع ساقه لأنها تعفنت ، لايجدر بنا أن نقول لجرّاحه : هذه الساق المريضة سليمة جدا ، فأرجو أن تسمحوا لى بأن استعمل نفس العبارة ، وأردّد هذا القول . أيها السادة إن جرحناهو ذلك الرجل الكريم الدوق ...

عندئذ قال جوليان فى نفسه · وأخيرا عرفت الجهة التى سأذهب إليها الليلة ، إننى سأركض الليلة نحو ...

الفصل الثالث والعشرون

الكهنوت، الغابات، الحرية

[القانون الأول الذى يتمسك به كل إنسان هو المحافظة على نفسه ، ومعنى ذلك أن يعيش . إنك لاتجنى من الشوك العنب]

مكيافيلى

واستطرد هذا الرجل العظيم يتحدث ، ومما لا شك فيه أنه كان يعرف مايقول ، فأخذ يعرض آراءه فى بلاغة حلوة معتدلة أعجب بها چوليان ، وذكر الحقائق التالية :

أولا : إن انجلترا لاتضيع فى سبيل خدمتنا جنيها واحدا ؛ لأن الاقتصاد وهيوم هما أهم مايشغل الأنجليز فى الوقت الحاضر ، والقديسون أنفسهم لن يعطونا شيئا من المال ، وسيسخر منا السيد بروجهام .

ثانيا : لن يتسنى لنا أكثر من حملتين إذا لم يتح لنا الحصول على الذهب الإنجليزى ، وهاتان الحملتان لاتكفيان إطلاقا للقضاء على البرجوازية الصغيرة .

ثالثا : ضرورة تكوين حزب مسلح فى فرنسا ، وإلا ما أتيح لمبدأ الملكية فى أوربا مطمعه فى هاتين الحملتين .

أما النقطة الرابعة التى أقدم على عرضها عليكم كمسألة بديهية هى أنه لايمكن تكوين حزب مسلح فى فرنسا بدون الرجوع إلى الكهنوت .

أقول لكم هذا فى جرأة ؛ لأنى سأبرهن لكم أيها السادة على ما أقول يجب أن تعطوا كل شيء للكهنوت لأنه :

يعنى بالأمور ليلا ونهارا ، وعلى رأسه رجال أكفاء وممتازون بعيدون عن هذه العواطف ، فهم على مسافة ثلثمائة فرسخ من حدودكم ... فصاح رب الدار قائلا :

آه ! روما ، روما ! فقال الكردينال فى فخار :

نعم ياسيدى ، روما ! ومهما تكن النكات التى كنت تسمعها ، وأنت شاب ، لاذعة ومنتشرة فى ذلك الوقت ، فإنى أستطيع أن أقرر فى قوة ونحن فى عام ١٨٣٠ أن الكهنوت وعلى رأسه روما هو الذى يستطيع أن يتحدث إلى الشعب .

خمسون ألفا من القسس على أتم استعداد لأن يرددوا ما أقوله فى اليوم الذى يعلنه زعماؤهم . والشعب الذى نستمد منه الجنود سيصغى إلى صوت هؤلاء القسس أكثر مما يصغى إلى أى شيء آخر فى العالم كله ... (كانت هذه الشخصية تثير همسات من الحاضرين) واستطرد الكردينال فى صوت مرتفع : رجال الدين لهم عبقرية أسمى من عبقريتكم ؛ فالخطوات التى قمتم بها فى هذه النقطة الجوهرية وهى أن يكون فى فرنسا حزب مسلح ، قد قمنا نحن بها . فمن ذا الذى أرسل ثمانين ألف بندقية إلى ڤندى ؟ ...

وما دام الكهنوت لم يحصل بعد على غاياته ، فلن يقوم بأى عمل . ففى الحرب الأولى كتب وزير المالية إلى عماله أنه لم يعد فى الخزانة مال إلا للكهنة . والواقع أن فرنسا لاتؤمن بهذا ، وهى تحب الحرب . ومهما

يكن الباعث على هذه الحرب ، فانها ستصبح عامة يقبل عليها الناس جميعا ؛ لأن نشوب الحرب يجيع اليسوعيين إذا استعملنا التعبير العامى ؛ الحرب تشفى من الكبرياء هؤلاء المردة وهم الفرنسيون ، وتدفع عنهم التهديد الذى يصيبهم من التدخل الأجنبى .

كان الحاضرون يصغون إلى الكردينال فى انتباه كبير ... ثم قال : يجب أن يتخلى السيد دى نرفل عن الحكم ، لأن اسمه يغضب الناس فى غير جدوى .

ولما سمع الحاضرون هذه العبارة وقفوا جميعا ، وتحدثوا جميعا دفعة واحدة . وأخذ چوليان يقول فى نفسه : سيطلبون منى مرة أخرى أن أغادر قاعة الاجتماع . ولكن الرئيس الحكيم كان قد نسى وجود هذا الشاب بينهم فأغفله تماما . واتجهت الأبصار كلها نحو رجل عرفه چوليان عند مارآه ، لأنه قد رأى من قبل السيد دى نرفل رئيس الحكومة فى مرقص الدوق دى ريتز .

وساد اضطراب ، وعمت الفوضى كما تقول الصحف حين تتحدث عن مجلس النواب . وبعد ربع ساعة ، ساد النظام الاجتماع بعض الشىء . فنهض السيد دى نرفال واتخذ لهجة الرسل ، وقال فى صوت غريب :

لا أريد أن أقول لكم : إنى زاهد فى الحكم .

لقد ثبت لى أيها السادة أن اسمى يضاعف من قوة اليعاقبة؛ لأنه يغرى ضدنا كثيرا من المعتدلين . كان من الممكن أن أتخلى عن الحكم فى سرور ، لولا أن الله عهد إلىّ برسالة ، وإرادة الله لا يدركها إلا القليلون . ثم نظر إلىّ الكردينال واستطرد : لقد عهدت إلىّ السماء برسالة تقول : إما أن تحمل

رأسك إلى المقصلة و إما توطد الملكية فى فرنسا ، وتقلل من سلطة مجلس النواب والشيوخ، بحيث تعود سلطتها كما كانت زمن لويس الخامس عشر ، وهذه المهمة أيها السادة سأقوم أنا بها .

ثم سكت وجلس، فساد صمت طويل . وأخذ چوليان يقول فى نفسه : إنه لممثل ماهر . لقد أخطأ هذه المرة ، كما يخطىء دائما حين يفترض أن الناس مفطورون على فطنة كثيرة . لقد كان دى نرڤال متأثرا بما حدث الليلة من مناقشات ، ومن الإخلاص الذى كان يطبع هذه المناقشات . فكان يؤمن فى هذه اللحظة بالرسالة التى تحدث عنها . وهذا الرجل خِلْوٌ من كل فطنة و إن كان كبير الشجاعة .

دقت ساعة الحائط معلنة منتصف الليل حين خيم السكون بعد هذه العبارة الجميلة التى نطق بها دى نرڤال : إنى سأقوم بهذه المهمة . ولحظ چوليان أن دقات الساعة كانت تحمل شيئا من الحزن والجلال فتأثرت بها نفسه .

وسرعان ما احتدمت المناقشة من جديد فى كثير من الحمية، و إن لم تخل من سذاجة كبيرة . فكان چوليان يقول فى نفسه: فى بعض اللحظات: سيدس هؤلاء القوم السم لى؛ إذ كيف يتحدثون بمثل هذه الأشياء أمام شخص من الشعب؟

ثم دقت الساعة الثانية ، وهم لا يزالون يتحدثون ، أما صاحب المنزل فكان قد أوى إلى فراشه منذ وقت طويل . واضطر المركيز دى لامول إلى أن يدق الجرس ليغير الخدم الشموع . وغادر السيد دى نرڤال الاجتماع فى الساعة الثانية إلا ربعا ، بعد أن أخذ ينظر طويلا إلى چوليان فى مرآة بجواره . وقد شعر جميع الحاضرين بالارتياح لرحيله .

قال الرجل ذو الصدر الأربع لجاره فى صوت منخفض — والخدم يغيرون الشموع — يعلم الله ماسيقصه هذا الرجل على الملك ! إن فى استطاعته أن يصورنا فى صورة تدعو إلى السخرية وتقضى على مستقبلنا .

ومما لاشك فيه أن وجوده بيننا الليلة، ينطوى على عجرفة لا نظير لها قد تصل إلى حد السفه والقحة . لقد كان يأتى إلينا قبل أن يصل الحكم ، ولكن منصب الوزارة يغير كل شيء ، ويقضى على اللفتات الطيبة كلها ، وقد طغى هذا الشعور على صاحبنا الطغيان الكامل .

ولم يكد يخرج الوزير حتى أسبل جنرال بونابرت عينيه ، وأخذ يتحدث عن صحته وجروحه ، ثم نظر فى ساعته وانصرف . فقال الرجل ذو الصدر :

أراهن على أن الجنرال يعدو خلف الوزير الآن ، ليقدم المعاذير عن وجوده الليلة بيننا ، ومع ذلك هو يدّعى أنه يريد أن يقودنا .

وحينما انتهى الخدم من تجديد الشموع وهم بين اليقظة والنوم ، قال الرئيس :

لنتداول إذن أيها السادة ، ولنترك النزاع جانبا ، ولنفكر الآن فى نص المذكرة التى ستكون بعد ثمان وأربعين ساعة فى أيدى أصدقائنا فى الخارج . لقد تحدثوا عن الوزراء ، ونستطيع أن نقول الآن: إن السيد دى نرڤال قد تخلى عنا ، وماذا يضيرنا من الوزراء ؟

فوافق الكردينال على ماقيل بابتسامة فيها دهاء . وتحدث رئيس أساقفة آجد الشاب فى حمية شديدة ونفس عن نفسه ما كان يعتلج بين ضلوعه من تعصب شديد فقال :

— يخيل إلىّ أن الأمر يسير حين نريد أن نوجز موقفنا . وكان هذا الشاب قد التزم الصمت طوال الوقت . وقد لحظ چوليان أن عينيه الرقيقتين الوديعتين كانتا ترميان بالشرر بعد الساعة الأولى من النقاش . أما الآن فقد أخذت روحه تثور وتضطرم كما تثور حمم بركان فيزوف ، واستطرد يقول :

— خطأ انجلترا فى المدة مابين ١٨٠٦ و ١٨١٤ يرجع إلى أنهـا لم تعمل ضد ناپليون بصفة مباشرة وشخصية . فهذا الرجل منذ اتخذ أدواقا وحجابا ، ومنذ أحيا العرش من جديد زالت عنـه الرسالة التى كلفه الله أداءها . ولم يعد يصلح لشىء إلا لأن يقضى عليه . والكتب السماوية تعلمنا فى أكثر من موضع كيف نقضى على الطغاة . (وهنا أخذ يتلو نصوصا لاتينية كثيرة) .

واليوم أيها السادة ، لسنا بصدد القضاء على رجل ، وإنما نحن بصدد القضاء على باريس . إن فرنسا كلها تحاكى باريس . فما الفائدة من تعبئة خمسمائة رجل فى كل مقاطعة ؟ هذا مشروع ليس النجاح محققا فيه ، وهو بعد هذا لاينتهى . فلماذا ندخل فرنسا فى أشياء تعتبر باريسية محضة ؟ وباريس وحدها بصحفها وصالوناتها هى التى توحى بالشر ، فلتسقط إذن بابيلون الجديدة .

يجب أن نقضى على مابين باريس والكنيسة . وإن فى هذه الكارثة فائدة كبرى لمصالح العرش : ثم لم تستطع باريس أن تعترض أو تثور أيام بونابرت ؟ سلوا عن هذا مدافع سان روش ......

لم يغادر چوليان والمركيز قاعة الاجتماع إلا فى الساعة الثالثة صباحا. وكان المركيز خجلا متعبا، تنم لهجته عن الضراعة للمرة الأولى وهو يتحدث إلى چوليان. وقد استحلفه بشرفه ألا يبوح بما سمعه من طفرات النشاط على حد تعبير المركيز، عما ساقته المصادفات إلى سماعه. ثم قال له: لا تتحدث بهذا إلى صديقنا فى الخارج إلا إذا أصر على معرفة ما يدور فى نفوس شبابنا المجانين. وماذا يضيرهم لو انقلب نظام الحكم؟ إنهم سيصبحون كرادلة ويفرون إلى روما أما نحن فسيمزقنا الفلاحون فى قصورنا شر ممزق.

ولم ينته المركيز من كتابة المذكرة السرية إلا فى الساعة الرابعة إلا ربعا، كتبها على ضوء المحضر الذى سطره چوليان عما دار فى الاجتماع وكان يقع فى ست وعشرين صفحة؛ ثم قال لجوليان:

أكاد أموت من فرط التعب، ويظهر هذا جليا فى المذكرة التى ينقصها كثير من الوضوح فى الجزء الأخير منها، وذلك يحز فى نفسى أكثر من أى شىء آخر اقترفته فى حياتى. ثم استطرد يقول. هيا يا صديقى واذهب لتستريح بضع ساعات، وسأغلق عليك باب غرفتك بنفسى خشية أن يختطفوك.

وحل اليوم التالى فقاد المركيز جوليان بنفسه إلى قصر منعزل بعيد عن باريس. وهناك رأى بطلنا نزلاء عجيبين ظنهم قسسا، أعطوه جواز سفر باسم مستعار، لكنه يشير إلى غرض الرحلة الحقيقى الذى كان يدعى دائما أنه يجهله. ثم استقل عربة وحده.

وكان المركيز مطمئنا تمام الاطمئنان إلى ذاكرة چوليان ، فقد تلى عليه المذكرة السرية عدة مرات ، لكنه كان يخشى أن يحال بينه و بين أن يستمر فى الرحلة ؛ فأخذ يقول له فى ود وعطف وهو يغادر الصالون :

— لا تنس أن تتظاهر بأنك أحمق يقتل الوقت بالأسفار . لأنه ربما كان فى اجتماع الأمس أكثر من زميل زائف .

كانت الرحلة سريعة حزينة إلى أبعد الحدود . ولم يكد چوليان يبتعد عن المركيز حتى نسى المذكرة السرية ونسى المهمة التى أوفد فيها ، ولم يعد يذكر شيئا إلا أن ماتيلد تحتقره .

وفى قرية تبتعد عن متز ببضعة فراسخ ، أخبره رئيس مركز البريد بأن ليس لديه خيل . كانت الساعة العاشرة مساء ، وقد أصبح جوليان كاسف البال ، فطلب طعاما يتناوله . وأخذ يسير أمام الباب ، بحركات غير إرادية فمر بحظيرة الخيل دون أن يفطن إليه أحد ، فلم يجد بها جيادا .

غير أنه أخذ يقول فى نفسه : ومع ذلك فنظرات هذا الرجل تنطوى على كثير من الغرابة . لقد ظل يتفرسنى فى قحة .

وأخذ يتشكك كما ترى فى صدق مايقال له . وفكر فى أن يتسلل بعد العشاء ، فغادر غرفته وذهب إلى المطبخ يطلب الدفء . وما ذلك إلا ليعرف شيئا عن المكان الذى هو فيه . وكم كان سروره كبيرا حين التقى بالسنيور جيرونيمو ، ذلك المغنى الشهير !

كان يجلس على مقعد وضع له على مقربة من النار ، وكان الرجل كثير الشكوى يتكلم بصوت مرتفع ، لكنه كان يتحدث إلى نفسه أكثر

مما يتحدث إلى غيره من الألمانيين العشرين الذين جلسوا حوله وعلى وجوههم علامات الذهول . وما كاد المغنى يرى جوليان حتى قال :

— إن هؤلاء الناس سيقضون علىّ ، لقد وعدت أن أغنى غداً فى ماينس ، وقد هرول إلى البلدة سبعة من الأمراء العظام ليستمعوا إلى غنائى . ثم استطرد يقول فى لهجة لها مغزاها : هيا بنا نستنشق الهواء .

وحينما سارا ما يقرب من مائة خطوة على الطريق وأمن جيرونيمو أن لم يعد هناك من يسمعه ، قال لجوليان :

— هل تعرف ما يجرى ؟ إن رئيس مركز البريد وغد لئيم ، وقد كنت أتنزه فأعطيت رجلا من المشردين فرنكا فأخبرنى بكل شىء . إن هناك اثنى عشر جوادا فى حظيرة فى الطرف الآخر من القرية . وهم يعمدون الى تأخير بعض المسافرين . فقال له جوليان فى لهجة تنم عن البراءة :

— أحقا ما تقول ؟

ولم يكن اكتشاف هذه المكيده هو كل شىء ، إذ كان عليهما أن يرحلا ، لكنهما لم يتمكنا بعد ما أعملا فكرهما فى سبيل الفرار ، فقال جيرونيمو : علينا أن ننتظر حتى الصباح ؛ لأنهم يخشوننا ويخدروننا وربما كانوا يريدوننى أو يبحثون عنك . فى صباح غد نطلب طعام الإفطار وندعهم يعدونه ثم نخرج لنتنزه ، وهناك نستأجر جوادين إلى مركز البريد التالى .

وظن جوليان أن جيرونيمور ربما أرسل إلى القرية ليحول بينه و بين مواصلة السفر . فسأله قائلا :

— وماذا تفعل بأمتعتك ؟ ثم تناولا الطعام وذهبا ليناما .

كان جوليان تحت سيطرة النعاس الأول حين استيقظ فزعا على صوت رجلين يتحدثان فى غرفته دون مبالاه .

ونظر فرأى رئيس مركز البريد و بيده مصباح يرى به من يحمله ولكن لا يُرى حامله . وكان الضوء مسلطا على صندوق العربة الذى طلب جوليان أن يحمل إلى غرفته . و بجانب رئيس البريد وقف رجل يفتش الصندوق المفتوح فى هدوء وسكينة ، ولم ير جوليان منه إلا أكمامه فألفاها سوداء وضيقة جدا .

فقال فى نفسه : إنه لباس الكهنوت ، وأمسك بهدوء مسدساته الصغيرة التي وضعها تحت وسادته . ثم سمع رئيس البريد يقول :

— لا تخش أن يستيقظ يا سيدى الكاهن ، لأن النبيذ الذى قدّم إليهما من الصنف الذى تحضره بنفسك . فقال الكاهن :

— إننى لا أجد أوراقا أبدا ، ولكنى أرى كثيرا من الملابس والروائح والأدهان وأشياء تافهة أخرى ؟ إنه شاب من شبان العصر ، ملكت ملذاته عليه نفسه . أما الرسول فهو الشخص الآخر الذى يلوى لسانه بلهجة إيطالية .

واقتربا من جوليان ليفتشا جيوب ثيابه . وكم كان يود أن يقتلهما متعللا بأنهما يسرقانه ، وليس فى هذا خطر عليه فيما بعد ، وتملكته رغبة

قوية فى أن يودى بحياتهما ... لكنه قال فى نفسه : لو فعلت لكنت حقا أحمق ، ولمنيت المهمة التى كلفتها بالفشل . ثم انتهى الكاهن من تفتيش ثيابه فقال : ليس هذا الشخص ممن يقومون بمهمة سياسية . ثم ابتعد وحسنا فعل .

كان چوليان يقول فى نفسه فى هذه اللحظة : إذا لمسنى فى فراشى ، فالويل له كل الويل ، إن فى استطاعته أن يطعننى بخنجر ، وهذا مالا أطيقه

وأدار الكاهن رأسه ، وچوليان يفتح عينيه قليلا ، ولشد ماذهل ! لقد كان الكاهن كاستانيد ! ولو أنه بدا للرجلين أن يتحدثا بصوت منخفض ، فقد بدا لجوليان من أول الأمر أنه يعرف صوت الكاهن . واستولت عليه رغبة قوية فى أن يسقى الأرض من دم هذا الوغد الذى كان يمقته مقتا شديدا . .

غير أنه كان يعود فيقول فى نفسه : ولكن ... المهمة التى بعثت من أجلها !

وخرج الكاهن وحامل الضوء . وبعد ربع ساعة ، تظاهر چوليان بأنه استيقظ ، وأخذ ينادى فأيقظ كل من فى المنزل . ثم صاح قائلا :

— لقد تسممت ، كم أقاسى من آلام شديدة ! وقد فعل هذا فى الواقع ليسعف جيرونيمو ! ثم ذهب إليه فوجده يكاد يختنق من أثر خلاصة الأفيون التى دست له فى النبيذ .

وكان چوليان يخشى أن يصيبه ما أصاب صاحبه ، فلم يطعم إلا الشوكلاته التى أحضرها من باريس . ولقد لاقى عناء كبيرا حتى

أيقظ چيرونيمو ، لكنه لم يتمكن من إقناعه بالرحيل ، إذ قال له المغنى :

— لو أنهم أعطونى مملكة نابولى ، ماقبلت فى سبيل أن أنام الآن .

— ولكن مابال الأمراء العظام الذين ينتظرونك !

— فلينتظروا .

سافر چوليان وحده ، ووصل إلى العظيم الذى أرسل ليلقاه ، دون أن يحدث له فى الطريق حدث آخر . وظل صباحا كاملا يحاول عبثا أن يحظى بلقاء هذا العظيم ؛ ولحسن الحظ أراد الدوق أن يستنشق الهواء فى الساعة الرابعة ، ورآه چوليان يسير على قدميه ، فلم يتردد فى أن يقترب منه ويسأله صدقه . ولما أصبح على بعد خطوتين منه ، أخرج چوليان ساعة المركيز دى لامول من جيبه بتصنع ، فلم يلتفت إليه الدوق وقال له : اتبعنى من بعيد .

وعلى بعد ربع فرسخ من مكان لقائهما ، دخل فجأة مقهى صغيرا وفى حجرة منسقة أبدع التنسيق فى هذا المنزل ، تشرف چوليان بتلاوة الصفحات الأربع على الدوق . وحينما انتهى قال له : أعدها ثانية ولكن على مهل .

وأخذ الأمير يدوّن مذكرات ، ثم قال له : اذهب إلى مركز البريد المجاور سعيا على الأقدام واترك هنا متاعك وعربتك . سافر إلى استراسبورج كما اتفق لك ، وفى اليوم الثانى والعشرين (وكان اللقاء فى اليوم العاشر) تعال إلى هذا المقهى بالذات فى منتصف الساعة الواحدة . لا تخرج قبل نصف ساعة . والزم الصمت .

هذه هي العبارات التي سمعها جوليان . وكانت وحدها كافية لأن تملأ قلبه إعجابا بهذا الدوق ؛ فأخذ يقول في نفسه : هكذا تقضى الأعمال ؛ ماذا كان يقول هذا الرجل العظيم لو أنه أنصت إلى ما كان يدور من ثرثرة شديدة منذ ثلاثة أيام ؟

ثم قطع المرحلة إلى استراسبورج في يومين ، لأنه ظن أن ليس له هناك عمل ، فسلك طريقا طويلا ؛ وأخذ يقول : لو أن هـذا الشيطان الكاهن كاستاند عرفني ، ما تخلف عن اقتفاء أثرى لحظة ... وكم يسره أن يسخر مني وأن أمنى بالفشل في مهمتي !

والأب كاستاند ، رئيس كل الشرطة التي وكل إليها مراقبة الحدود في الشمال ، لم يعرف جوليان من حسن حظه . أما اليسوعيون في استراسبورج فلم يفكروا أبدا في مراقبة هذا الشاب وإن كانوا متحمسين إلى أبعد حد . وأما بطلنا فقد شغل بوسامه وحلته الزرقاء ، وكان يبدو — كأنه من شباب الجيش — معنيا بنفسه وشخصه .

الفصل الرابع والعشرون

ستراسبورج

[يا له من سحر ! إن لك من الحب قوته وبأسه لتشعر بحرارته وقسوته . إن ملذاته الحلوة ومتعه الجميلة ليست فى متناول يدك . وحينما أراها نائمة لا أستطيع أن أقول : إنها لى بجمالها السماوى وضعفها الرقيق ! ها هى ذى مستكينة لقوتى ، كما خلقتها السماء برحمتها لتسر قلوب الرجال .]

مقطوعة من شعر شيلر

اضطر جوليان إلى البقاء فى ستراسبورج ثمانية أيام ، فأخذ يتسلى بآراء ... بالآراء الحربية الجيدة والإخلاص للوطن . فهل هو محب إذن ؟ إنه لا يعرف شيئا ، غير أنه رأى ماتيلد مسيطرة على سعادته سيطرة مطلقة وتملك عليه دائما خياله . وكان لابد له من أن يستعين بكل ما فى خلقه من قوة كى لا يتسرب إلى نفسه اليأس . ولم يكن فى مقدوره أن يفكر فى شىء لا تربطه بالآنسة دى لامول أية رابطة .

كان طموحه وما يصيبه من توفيق ضئيل يشغله من قبل عن أن يُعنَى بالعواطف التى كانت مدام دى رينال تبثها فى قلبه ، وكان غروره يحول بينه وبين تعهد هذه المشاعر . أما الآن فقد سيطرت ماتيلد على كل شىء فى نفسه ؛ بحيث يجدها ماثلة أمامه كلما نظر إلى المستقبل .

وكان جوليان يرى الفشل فى كل ناحية من نواحى مستقبله . وهذا الشخص الذى رأيناه فى فرييرمعتدا بنفسه الاعتداد كله ، متكبرا إلى أبعد حدود الكبر ، أصبح الآن متواضعا إلى درجة مزرية .

فمنذ ثلاثة أيام ملكته رغبة قوية فى أن يقتل الكاهن كاستاند ، أما اليوم فلو أن طفلا من أطفال استراسبورج تحامل عليه من غير حق وتشاجر معه ، لأظهر بطلنا أن الطفل على صواب ، وأنه هو المخطىء . وحينما يأخذ فى استعراض غرمائه وأعدائه الذين لاقاهم فى حياته ، يجد نفسه أنه قد كان على خطأ وأنهم كانوا هم المحقين .

أصبح خياله الآن عدوه الحقّ القوى ، وهو الذى كان يرسم له من قبل نجاحا باهرا و يمنيه بالتوفيق فى الحياة .

وقد زادته الوحدة التى لقيها فى هذه المدينة ألما على ألم ، وقوّت من الصور السوّد التى كان يرسمها له الخيال . كم ودّ أن يعثر على صديق له ! فالصديق فى مثل هذه الحالة كنز ، ولكنه كان يسائل نفسه : وهل فى العالم قلب يخفق من أجلى ؟ و إذا كان لى صديق ، أفلا يفرض علىّ الشرف أن ألتزم معه الصمت المطلق ؟

كان يتنزه على ظهر جواده والحزن يملأ قلبه فى ضواحى كيهل ، الواقعة على ضفة نهر الرين والتى خلدها ديزيه وجوفيون سان سير ، وكان فلاح ألمانى يريه الجداول الصغيرة والطرقات وجزر الرين التى خلعت عليها شجاعة هؤلاء القواد اسما خالدا . وكان جوليان ممسكا عنان جواده بيده اليسرى ، أمّا اليد اليمنى فقد أمسك بها مصوّرا رائعا زينت به مذكرات المارشال سان سير . كان ينظر إلى المصوّر حين حملته صيحة فرح على أن يلتفت إلى مصدرها .

إنه الأمير كورازوف صديقه فى لندن ، الذى كشف له القناع منذ بضعة شهور عن قواعد الادعاء الشديد . وكورازوف على عادته مخلص لهذا الفن ، فأخذ يشرح لجوليان كل ما تقع عليه عينه ، مع أنه لم يصل إلى استراسبورج إلا أمس فقط ، وذهب إلى كهل منذ ساعة ، ولم يقرأ من قبل شيئا عن حصار سنة ١٧٩٦ . فأخذ الفلاح الألمانى ينظر إليه ذاهلا ، لأنه يعرف الفرنسية بالقدر الذى يمكنه من تمييز الأخطاء الفاحشة التى يخطئها الأمير . وما كان جوليان يعنى إطلاقا بآراء الفلاح ، بل كان ينظر فى ذهول إلى هذا الشاب الجميل ، معجبا بظرفه وهو يركب جواده .

وأخذ جوليان يقول فى نفسه : ياله من خلق ينطوى على السعادة ! إن سراويله متقنة الصنع ، وشعره مقصوص بشكل بديع ! وا أسفاه ! لو أننى كنت كذلك ، ما وقع لى أنها أحبتنى ثلاثة أيام فقط ، ثم أبغضتنى بعدها بغضا شديدا .

ولما انتهى الأمير من الحديث عن حصار كهل قال لجوليان : إن وجهك وجه رجل من رجال الدين ، لقد تجاوزت مبدأ الوقار الذى حدثتك عنه فى لندن . إن الوجه الحزين لا يدل على الظرف ، وإنما هو الوجه الذى ينم على السأم . وإذا كنت حزينا ، كان ذلك دليلا على أن شيئا ينقصك أو أن هناك شيئا لم يكتب لك النجاح فيه .

ومعنى ذلك أنك تظهر بمظهر النقص . أما إذا بدا عليك السأم ، فمعناه أن الشخص الذى يحاول عبثا أن يرضيك هو الذى يشعر بهذا النقص . فعليك أن تدرك إذن يا عزيزى أن الاحتقار وقعه خطير .

وألقى جوليان قطعة من النقود للفلاح الذى كان يصغى إلى ما يقال فاغرا فاه ، ثم قال الأمير .

— حسنا ، إن هـــــذا شىء ظريف ، عليك بالاحتقار الرفيع ! حسنا جدا ! .

ثم ركض بجواده ، وجوليان يتبعه ، وهو مبد إعجابا ينطوى على الغباء وتحدث إلى نفسه قائلا : آه ! لو أننى كنت كذلك ، إذن ما فضلت على كروازينوا ! وكلما حدثة عقله بتفاهة ما يقوله الأمير ، احتقر نفسه لأنه لا يعجب بما يقال له ، واعتقد أنه بائس حقا ؛ لأنه خلو من هذه الصفات . وإن احتقار المرء لنفسه لا يمكن أن يذهب إلى أبعد من هذا .

ورآه الأمير حزينا حقا فقال له وهما يدخلان استراسبورج : ماذا بك يا عزيزى ؟ هل فقدت كل مالك أم تراك تحب ممثلة صغيرة ؟ إن الروس يحاكون الفرنسيين ، فى أخلاقهم ، ولكنهم يحاكونهم فيما مضى عليه نصف قرن . فهم الآن إذن قد وصلوا إلى عصر لويس الخامس عشر

وجعل حديث الأمير العابث عن الحب ، الدموع تترقرق فى عينى جوليان ، فسأل نفسه بغتة : لم لا أستشير هذا الرجل الظريف ثم قال للأمير :

نعم ياعزيزى ، إنك ترانى فى استراسبورج محبا لأبعد حد ، وإن كانت حبيبتى قد هجرتنى . إن امرأة ظريفة تسكن بلدة مجاورة ، قد تخلت عنى بعد أن أحبتنى ثلاثة أيام ، وهذا التغير يكاد يقتلنى قتلا .

وصور للأمير أعمال ماتيلد وخلقها وإن كان قد خلع عليها اسما مستعارا ، فقال له :

حسبي ماذكرت ، وسأقص عليك أنا باقى قصتها ، لتثق بطبيبك .
إن زوج هذه المرأة الشابة يتمتع بثراء عريض أو أنها هى تنتسب إلى أعرق الأسر فى المقاطعة . ولا بد أنها معتدة بشىء ما .

فأومأ إليه چوليان برأسه ، لأن الشجاعة ما كانت تواتيه ليتحدث إليه .
سأصف لك ثلاثة أدوية كلها مرة ، وعليك أن تتناولها فى الحال :
١ — يجب أن ترى كل يوم السيدة ... ما اسمها ؟
مدام دى بوا . فقال الأمير ضاحكا :

ياله من اسم عجيب ! ولكن معذرة فهو اسم بديع فى نظرك ، ينبغى أن ترى مدام دى بوا كل يوم ، على ألا تظهر أمامها بمظهر الفاتر الغاضب ، وعليك أن تذكر دائما أهم مبدأ لعصرك : كن دائما على عكس ما ينتظر منك . واظهر أبدا بالمظهر الذى كنت عليه قبل أن تظهر لك الود والعطف بثمانية أيام .

فصاح جوليان فى يأس شديد :
آه ! لقد كنت أتمتع بهدوء كبير ، وقد ظننت أول الأمر أن شفقتى عليها هى التى تدفعنى نحوها .

إن الفراشة لتحترق حين تقترب من الشمعة ، وهذا تشبيه قديم قدم العالم .

١ — يجب أن تراها كل يوم .
٢ — عليك بمغازلة امرأة من طبقتها ، ولكن دون أن تبدو عليك علامات الحب ، فهل تفهم هذا ؟ لا أخفى عليك أن الدور الذى تقوم به

سيكون شاقا ، فأنت تمثل دورا ، و إذا أدركت مى ذلك فقدتها إلى الأبد.

فأجابه جوليان فى حزن شديد .

إنها عظيمة الفطنة ، وأنا على جانب قليل من الذكاء ، فيا لضيعتى !

— لا ، لست قليل الذكاء ولكنك كثير الحب ، إنك تحبها أكثر مما كنت أظن . إن مدام دى بوا مشغولة بنفسها إلى أبعد حد ، مثلها فى هذا مثل جميع النساء اللائى وهبتهن السماء : إما أصلا عريقا و إمّا مالا كثيرا . إنها تعجب بنفسها أكثر مما تعجب بك ، فهى إذن لا تعرفك . أما الحب الذى أظهرته لك مرتين أو ثلاثا فيرجع إلى عمل الخيال وقدرته ، فقد ظنت أنك بطل أحلامها ، ولم تدرك على حقيقتك .

ولكن يا للشيطان ! هذه مبادىء أولية ياعزيزى سورل ، فهل لا تزال تلميذا غريرا ؟ .

ياإلـهى ! هيا بنا ندخل هذا الحانوت ، فإنى أرى ياقة سوداء بديعة ، يظنها الرائى من صنع چون أندرسون فى شارع برلنجتون ، فاسمح لى أن آخذها وأن أطوّح بعيدا بهذا الحبل الذى يتدلى من عنقك .

ثم استطرد الأمير يقول ، وهو يغادر أشهر محل للحياكة و بيع الشرائط فى استرا سبورج : من هنّ صديقات مدام دى بوا ؟ ياله من اسم ! ياإلـهى ! لاتغضب ياعزيزى سورل ، أنا لا أستطيع إلا أن أعجب من هذا الاسم .. من ستغازل ؟

— سأغازل فتاة تتظاهر بالوقار الشديد ، إنها ابنة تاجر جوارب غنى جدا . عيونها فاتنة حقا ، هى أجمل عيون فى الدنيا ، تسبينى إلى أبعد حد

حين أنظر إليها ؛ وهى ولا شك تحتل المكانة الأولى فى المقاطعة كلها ؛ ولكنها على الرغم من عظمتها هذه ، تخجل خجلا شديدا يبلغ الاضطراب حين يتحدث إليها عن التجارة والحوانيت . وكان أبوها لسوء الحظ من أشهر تجار استراسبورج . فضحك الأمير وقال :

إنك إذا تحدثت إليها عن الصناعة ، فأنت واثق من أن فتاتك الجميلة ستفكر فى نفسها لا فيك . إنها أسحرية بديعة ومفيدة ، فهى لن تبيح لك أن تظهر أية حماقة لهذه العيون الجميلة . إن النجاح مؤكد .

كان جوليان يفكر فى أرملة المرشال فرفاك التى كانت تتردد كثيرا على قصر دى لامول . وهى أجنبية جميلة تزوجت المارشال قبل أن يموت بعام واحد . وقد وقفت حياتها كلها على أن تنسى أنها كانت ابنة رجل من رجال الصناعة ، ولكى تخلق لها مكانة فى باريس، ظهرت دائما بمظهر الفضيلة .

أعجب جوليان بالأمير كثيرا حتى ود لو قدم أى شىء فى سبيل الحصول على تفاهاته ! وطال الحديث بين الصديقين ؛ وكورازوف مسرور كل السرور ، لأن جوليان أول فرنسى استمع إلى حديثه كل هذه المدة الطويلة .

وأخذ يحدث نفسه فى سرور بالغ : لقد أصبحت إذن قادرا على أن ألقى دروسا على أساتذتى، وهم مع ذلك يصغون لى تمام الإصغاء ! ثم أعاد على جوليان ما قاله من قبل :

نحن إذن متفقان ، على ألا يظهر فى حديثك مع الفتاة الجميلة ، ابنة تاجر الجوارب، لون من ألوان الحب وأنت تتحدث إليها أمام مدام دى بوا .

ولكن إذا كتبت إليها فاجعل كتبك تنم عن حب عنيف ؛ فقراءة خطاب حب كتب بأسلوب جيد يعد أكبر متعة تلقاها الفتاة ؛ إنها لحظة لا تشغل فيها إلا بما تقرأ . وهى لا تمثل مهزلة من المهازل ، بل تجرؤ على الاستماع إلى مايقوله قلبها ؛ وعلى هذا فاكتب إليها خطابين كل يوم . فأجابه جوليان فى قنوط :

— أبدا ، أبدا ! لخير لى أن تستحق عظامى فى هاون من أن أكتب ثلاث جمل ؛ لقد أصبحت جثة هامدة ياعزيزى ، فلا ترج خيرا من ورائى ودعنى أمت على حافة الطريق .

— ومن ذا الذى طلب منك أن تنمق الخطابات بنفسك ؟ عندى ستة مجلدات من خطابات الحب ، كلها مخطوطة . وهى تمثل ألوان النساء على اختلاف طباعهن وأخلاقهن . عندى منها مايلائم أكثر النساء تمسكا بالفضيلة . ثم ألا تعرف أن كاليسكى غازل أجمل زاهدة فى انجلترا كلها ، تلك التى كانت تقيم فى ريشمند لا ترّاس على بعد ثلاثة فراسخ من لندن ؟

كان جوليان أقل ألما وتعاسة حين غادر صديقه فى الساعة الثانية صباحا . وفى اليوم التالى استدعى الأمير نساخا ، ومضى يومان كان بعدهما عند جوليان ثلاثة وخمسون خطابا من خطابات الحب ، رقمت كلها ، وتنطوى على الفضيلة فى أرفع درجاتها ، وفى أشد حالتها حزنا وكآبة . وقد قال له الأمير :

أما الخطاب الرابع والخمسون فلم يكتب ، لأن الراهبة الجميلة تخلصت من كاليسكى ، ولكن ماذا يضيرك إذا عاملتك ابنة تاجر الجوارب معاملة

سيئة ، ما دمت لا ترمى إلا لـكسب قلب مدام دى بوا ؟

كانا يركبان الجياد كل يوم ، وقد أصبح الأمير متعلقا بجوليان تعلقا شديدا . ولم يعرف كورازوف كيف يعبر له عن صداقته المفاجئة ، وعرض عليه أن يزوجه باحدى قريباته ، وهى بنت من بنات أعمامه ورثت ثروة طائلة فى موسكو ؛ واستطرد يقول : وحينما يتم هذا الزواج سأستعمل نفوذي فأجعلك أمير آلاى بعد عامين ، وسيساعدنى فى ذلك هذا الوسام الذى نلته .

— ولـكن عليك أن تذكر أن هذا الصليب لم يمنحه لى نابليون .

— وماذا يعنينا ، أليس هو مخترع هذا الوسام ؟ إنه لا يزال خير الأوسمة فى أوربا كلها .

وكاد جوليان يقبل ماعرض عليه ، لـكن واجبه استدعاه فذهب للقاء هذا الشخص العظيم ، ووعد كورازوف أن يكتب إليه . تسلم رد المذكرة السرية ثم أسرع عائدا إلى باريس . ولم يكد يقيم بها وحده يومين متواليين ، حتى رأى أن فى مغادرة فرنسا وتركه ماتيلد عذابا أليما ، أشق على نفسه من الموت . وقال في نفسه : لن أتزوج الملايين التى عرضها على كورازوف ، ولـكنى سأتبع مانصحنى به . .

إن فن الإغراء — على كل حال — مهنة هذا الأمير ... هو شغله الشاغل منذ أكثر من خمسة عشر عاما ، لأن عمره الآن ثلاثون سنة . ولا يستطيع المرء أن يصفه بأنه قليل الفطنة ، فهو ذكى مراوغ ؛ لا يعرف الحماسة ولا الشعر ، وهو نائب ، وقد علمه منصبه ألا يقع فى خطأ .

يجب أن أغازل مدام دى فرثاك . ربما جرّت علىّ بعض السآمة ، ولكنى سأنظر دائما إلى عينيها الجميلتين اللتين تشبهان تماما عينين لست أبغى عنهما بديلا فى العالم بأسره .

إنها أجنبية ، وسيتيح لى هذا فرصة دراسة خلق جديد .

إنى لمجنون ، إنى أجر على نفسى المهالك ؛ لأنى أتبع نصائح صديق وأنا لا أومن بها .

الفصل الخامس والعشرون

وزارة الفضيلة

[لو أنني أقبلت على هذه اللذة في حذر شديد وتحفظ كبير ، ما عدت أشعر بأنها لذة] .

لوب دى فيجا

لم يكد جوليان يعود إلى باريس، ويغادر مكتب المركيز دى لامول الذى كان مضطربا جدا من الرسائل التى قدمت إليه ، حتى أسرع ليلقى الكونت ألتاميرا . فهذا الأجنبى الجميل تنطوى نفسه على وقار ، ويشعر بسعادة العبادة ، فضلا عن أنه حكم عليه بالإعدام ؛ وهاتان الصفتان إذا أضيف إليهما كرم محتد الكونت ، كان مفضلا عن مدام دى فرفاك التى تراه كثيرا .

واعترف له جوليان فى وقار ، بأنه مغرم بها محب لها إلى أبعد الحدود .

فقال له الكونت :

إنها تمثل الفضيلة فى أنصع معانيها وأرفع مراتبها ، لكنها منافقة قليلا ، محبة للعظمة . ففى بعض الأيام أفهم كل كلمة تقولها ، ولكنى لا أفهم الجملة كلها بصفة عامة . وكثيرا ما أفكر فى أنى لا أعرف الفرنسية كما تعرفها هى حين تتحدث إلىّ . على أن معرفتك بها ستذيع اسمك ، وتثقل موازينك فى المجتمع . هيا بنا نذهب إلى بوستوس فقد غازل المرشالة وتودد إليها من قبل .

أخذ دون دييجو بوستوس، ينصت طويلا إلى مايعرض عليه ، دون أن يقول شيئا ، مثله مثل المحامى فى مكتبه . وهو ذو وجه ضخم كوجوه الرهبان وشارب أسود ، ووقار ما له من نظير ، وهو على الجملة ماسونى صالح . وبعد فترة طويلة ، قال لچوليان :

إنى أفهم ماتريد . ولكن المرشالة دى فرفاك !... هل اتخذت لها عشاقا ، أم لم تعرف تلك العلاقات ؟ ثم هل لك أمل فى أن تكسب قلبها ؟ هذا هو الإشكال . أما أنا فاعترف لك بأننى أخفقت . ولم أعد الآن ناقما عليها ، وقد كونت لنفسى عنها هذا الرأى . إن الغضب يتسلط عليها فى بعض الأحيان كما سأخبرك ، وهى لهذا محبة للانتقام .

ولا أراها تتصف بالمزاج الصفراوى الذى يميز العبقرية ويخلع على الأعمال كلها لونا من ألوان الشغف . بل هى على عكس ذلك تميل إلى الخمول والهدوء ، وهما طابعا الهولنديين ، وإليهما يرجع جمالها النادر ولونها الرائع .

فرغ صبر چوليان من بطء هذا الإسبانى ومن هدوئه الشديد ؛ وعلى الرغم منه كانت تفلت من بين شفتيه بعض كلمات من آن إلى آخر ، فكان دون دييجو بوستوس يقول له فى وقاره المعهود :

— أتريد أن تصغى إلىّ ؟

— أرجو أن تغفر لى هذه الحدة الفرنسية؛ أنا مصغ إليك كل الإصغاء .

— إن مدام دى فرفاك تملأ الكراهية نفسها ويستولى عليها الحقد ، فهى تقاضى أناسا لم ترهم فى حياتها ، وتضطهد محامين بائسين وأدباء ألفوا

أغانى مثل « كوليه » ، فهل تعرفها :

إنى مولع بحب ماروت ولعا شديدا ...

واضطر جوليان إلى سماع الأغنية كلها ؛ لأن هذا الإسبانى كان يشعر بارتياح شديد وهو يغنى بالفرنسية .

ولم يكتب لهذه الأغنية الجميلة أن تسمع فى ضيق وفروغ صبر،على النحو الذى سمعها به جوليان . ثم انتهت فقال له دون دييجو بوستوس : لقد طردت المرشالة مؤلف هذه الأغنية .

الحب ذات يوم فى الحانة ...

وقد ارتاع جوليان وخشى من أن يضطر إلى سماع هذه الأغنية كذلك، لكن الإسبانى اكتفى بتحليلها . وقد كانت تنطوى فى الواقع على الفجور والإلحاد .

ثم استطرد دون دييجو يقول : لما استولى الغضب على المرشالة بسبب هذه الأغنية ، أخبرتها بأنه لايجمل بسيدة فى مكانتها أن تقرأ كل الحماقات التى تنشر . ومهما انتشر التقى والوقار فى فرنسا ، فسيظل بها دائما أدب الحانة . وعندما طرد المؤلف البائس من منصبه الذى كان يدرّ عليه ألفا وثمانمائة من الفرنكات،قلت لها : حذار من من هذا الرجل ، فقد استعنت بأسلحتك الخاصة على عزله من منصبه ، ولكنه كشاعر يستطيع أن يبادلك شرا بشره مستخدما قوافيه : سيؤلف أغنية فى الفضيلة . ستكون الصالونات المذهبة إلى جانبك وتقرك على ماتفعلين ، ولكن الذين يؤثرون الضحك سيرددون أهاجيه . فهل تعرف ياسيدى ماذا كان جوابها ؟ ... قالت :

إننى لا أعبأ فى سبيل الله بأن تحشرنى باريس فى زمرة الشهداء ، وسيكون هذا منظرا جديدا لم تشهده من قبل فرنسا . وسيتعلم الناس كيف يحترمون الجوهر . وإن هذا سيكون أجمل يوم فى حياتى . وكم كانت عيناها جميلتين وهى تقول ماقالت . فصاح چوليان :

— إن لها عينين ساحرتين .

— أرى أنك عاشق حقا ... واستطرددون دييجو بوستوس فى وقار : إنها لم تفطر على الشر الذى يؤدى إلى الانتقام . أما رغبتها فى الإيذاء فترجع إلى أنها هى نفسها بائسة . وأعتقد أن بؤسها فى قرارة نفسها . أليست امرأة جميلة زهدت فى مهنتها نفسها ؟

ثم أخذ الأسبانى ينظر إلى چوليان فى صمت لحظة طويلة . ثم قال له فى وقار :

هذه هى المسألة بحذافيرها قد عرضتها عليك ، ويخيل إلىّ أنك إن أصبت نجاحا فإنما تصيبه من هذه الناحية . لقد فكرت فيها كثيرا أثناء العامين اللذين كنت فيهما خادمها المطيع . وإن مستقبلك أيها السيد العاشق متوقف على هذه المعضلة الكبيرة : أهى سيدة زهدت فى مهنتها ، وتقدم على الشر لأنها بائسة ؟ وهنا بدأ الكونت ألتاميرا يتكلم بعد أن لزم صمتا طويلا فقال :

أو أنها كما قلت لك عشرين مرة تتصف بالكبرياء الفرنسية ؟ وذكرى أبيها الذى كان تاجرا مشهورا للأصواف ، هى التى خلعت عليها هذا الخلق الجاف الحزين . إن سعادتها الحقة هى أن تقيم فى تولد ، وهناك تلقى كل

يوم قسيسا تعترف أمامه ، فيعذبها عذابا شديدا، ويريها جهنم فاغرة لها فاها .

وبينما كان جوليان يهم بالانصراف ، قال له دون دييجو فى وقاره الدائم : لقد أخبرنى ألتاميرا أنك منا . إنك ستساعدنا يوما فى أن نستعيد حريتنا ، وإذن يسرنى أن أعاونك فى هذه المهمة الصغيرة . يحسن أن تعرف أسلوب المرشالة ، فاليك أربعة خطابات بخطها . فقال له جوليان :

— سأنسخها وأردها إليك .

— على ألا يعلم إنسان بكلمة واحدة مما دار بيننا ، أتفعل ذلك ؟

— نعم ، وأقسم لك بشرفى !

— أسأل الله لك المعونة ! ثم التزم الصمت، وشيّع جوليان وألتاميرا إلى سلم المنزل . سرّ جوليان بهذا المنظر حتى كاد يبتسم ، وأخذ يقول فى نفسه : ها هو ذا ألتاميرا الورع يعاوننى فى مشروع ينطوى على الفجور .

وكان جوليان أثناء هذا الحديث الذى يسوده الجدّ والوقار منتبها إلى دقات ساعة قصر اليجر .

إن جرس العشاء سيدق بعد قليل ، وسيرى ماتيلد إذن ! عاد إلى القصر ، وارتدى ملابسه فى كثير من العناية . وأخذ يقول وهو يهبط السلم : ها هى ذى أولى الحماقات التى أرتكبها ، ولكن علىّ أن أتبع إرشادات الأمير وأطبقها حرفيا .

ثم عاد إلى غرفته ولبس حلة من ثياب الرحلة فظهر بمظهر البساطة .

ثم أخذ يقول : والآن وقد انتهيت من ملبسى ، فقد جاء دور النظرات .
كانت الساعة السادسة قد انتصفت ، والعشاء فى تمام السادسة ، فخطر له

أن ينزل إلى الصالون فألفاه خاليا . ثم وقع بصره على الأريكة الزرقاء ، فتأثر كثيرا حتى كادت تدمع عيناه ؛ واحمر خداه احمرارا شديدا . فغضب وقال فى نفسه : يجب أن أشغل هذه الحساسية بشىء لأنها تخوننى . ثم تناول صحيفة ليقطع الوقت فى قراءتها ، وتردد بين الصالون والحديقة ثلاث مرات أو أربعا .

اختفى خلف شجرة من أشجار السنديان ؛ فعراه اضطراب شديد، ثم أقدم على النظر إلى نافذة غرفة الآنسة دى لامول . كانت النوافذ مقفلة كلها تماما ؛ وكاد يقع على الأرض لولا أن ظلّ يستند إلى الشجرة وقتا طويلا . ثم ذهب فى خطوات مضطربة ليرى سلم البستانى . فوجد الحلقة التى كسرها من قبل فى ظروف تغاير — ويا للأسف — ظروفه الحاضرة ، لاتزال كما هى ، لم يصلحها أحد ، فقربها من شفتيه فى حركة جنونية .

وبعد أن ظل وقتا طويلا ينتقل بين الصالون والحديقة ، أحس أنه متعب إلى أبعد حدّ فشعر شعورا قويا بأن هذا أول نجاح يصيبه ، قال : لن تكون نظراتى براقة . ولن تفضح أمرى ! ثم أخذ المدعوون يفدون على الصالون قليلا قليلا ، ولم يفتح الباب مرة من المرات إلا ودبّ الفزع فى قلب جوليان .

إختلف المدعون جميعا إلى المائد ، وظهرت أخيرا الآنسة دى لامول التى تتمسك بعادة فطرت عليها ، وهى أن تتأخر عن الحضور . ووقع بصرها على جوليان ، فاحمر وجهها جدا ؛ لأنها لم تكن تعلم من قبل أنه قد حضر . واتبع جوليان إرشادات الأمير كورازوف ، فأخذ ينظر إلى يديها

فوجدها ترتجف . وكان هو كذلك مضطربا كثيرا حين اكتشف الرجفة التي أصابتها ، ثم كان سعيدا لأن وجه لاينم إلا عن التعب .

أثنى المركيز دى لامول على جوليان ، ووجهت إليه المركيزة الحديث بعد لحظة واحدة ، وامتدحت الإعياء الذى يبدو عليه . وكان جوليان يقول فى نفسه دائما : يجب ألا أنظر طويلا إلى الآنسة دى لامول ، ولكن ينبغى ألا تفوت عينىّ أى حركة من حركاتها . ثم علىّ أن أظهر بما كنت عليه قبل أن يصيبنى الشقاء بثمانية أيام .

وفرح بما أصابه من نجاح ، و بقى فى الصالون ، ولأول مرة كان شديد الانتباه إلى ربة الدار ، فبذل مجهودا كبير فى أن يحمل من معها من الرجال على الحديث ، لتظل المناقشة قوية .

وقد كوفىء على أدبه ، إذ حضرت المارشالة دى فرفاك فى الساعة الثامنة . فاختفى من الصالون ثم عاد سريعا وقد تزيا بأحسن زى . فقدرت مدام دى لامول عمله حق قدره لأنه ينطوى على الاحترام والتبجيل ، وأرادت أن تبرهن له عن رضاها عنه ، فأخذت تحدّث مدام فرفاك عن رحلته .

وجلس جوليان على مقربة من المرشالة فى وضع لايسمح لماتيلد بأن ترى عينيه . جلس هذه الجلسة متبعا كل قواعد الفن ، وأخذ يبدى إعجابه بمدام دى فرفاك قويا شديدا . واستعار قطعة نثرية تعالج هذه العاطفة الناشئة ، جاءت فى الخطاب الغرامى الأول من تلك المجموعة التى أهداها إليه الأمير كورازوف .

ثم أعلنت المرشالة أنها ذاهبة إلى أوپرا بوفا . فأسرع چوليان بالذهاب إلى الأوپرا ، وهناك وجد الفارس دى بوفوازى الذى قاده إلى مقصورة السادة أعضاء مجلس النواب ، الواقعة بجوار مقصورة المرشالة . وأخذ چوليان ينظر إليها دائما ، ويقول فى نفسه : يجب أن أدوّن حين أعود إلى القصر مذاكرات الحصار وإلا نسيت خطوات الهجوم . وتحامل على نفسه فكتب صفحتين أو ثلاث صفحات عن هذا الموضوع الممل ، ولشد ما دهش حين وفق فى كتابتها ! ولم يكد يفكر فى الآنسة دى لامول وهو يكتبها .

أما ماتيلد فقد نسيته أثناء رحلته . وأخذت تقول فى نفسها : إنه إنسان عادىّ على الرغم من كل شىء ، وإن اسمه سيذكرنى دائما بما وقعت فيه من أكبر خطأ ارتكبته فى حياتى . يجب أن أومن بالآراء العامية التى تنطوى على الحكمة والشرف ؛ وإن المرأة لتفقد كل شىء حين تنساها . وقد أظهرت استعدادا فى أن يتم زواجها بالمركيز كروازنوا الذى أعدت له العدة منذ زمن طويل . وفرح المركيز الشاب بهذا فرحا شديدا ؛ ولشد ما يذهل لو قيل له : إن ماتيلد تشعر بالاستسلام فى قرارة نفسها ، لقد كان الكبر يملك عليه نفسه .

ولكن الآنسة دى لامول ما كادت ترى چوليان حتى غيرت رأيها تماما ، وأخذت تقول فى نفسها : هذا — فى الواقع — هو زوجى ، ولو أننى أخذت بالحكمة ، لتزوجته هو دون سواه .

كانت تتوقع لحاجة من چوليان ، وألوانا من الشقاء يظهرها لها ، وكانت

قد أعدت العدة لذلك ، وعرفت ماذا تجيبه به ؛ إذ خيل إليها أنه سيحاول أن يقول لها بعض كلمات حين ينتهى العشاء . ولكنه لم يفعل شيئا من هذا أبدا ، وظلّ جالسا فى الصالون فى عزيمة قوية ، ولم يلتفت إلى الحديقة مرة واحدة ، ويعلم الله مقدار ما بذل من جهد فى سبيل ذلك ! فقالت فى نفسها : يحسن أن أعرف سبب ذلك فى الحال . وذهبت وحدها إلى الحديقة ، لكن جوليان ظل جالسا فى الصالون . ثم عمدت إلى أن تسير على مقربة من أبواب الصالون المطلة على الحديقة ، فرأته مشغولا بوصف آثار القصور القديمة،التى تتوج التلال التى على ضفاف الرين وتخلع عليها روعة وجمالا . وكان حديثه متجها إلى مدام دى فرفاك . وقد أفلح فى أن يطرق موضوعا عاطفيا جميلا يسمى اللقّانة فى بعض الصالونات .

لو كان الأمير كورازوف فى باريس لكان فخورا بما أولاه من نصح وإرشاد ، فقد انقضت هذه السهرة على النحو الذى أراده تماما . لو كان فى باريس لأقر جوليان على مسلكه نحو ماتيلد فى الأيام التالية .

وقامت مؤامرة خفيّة بين أعضاء الحكومة ، ترمى إلى الاستئثار ببعض الأوسمة الزرقاء ، إذ صممت المرشالة فرفاك على أن يمنح أخو جدها وساما من طبقة فارس . وطلب المركيز دى لامول الطلب نفسه لصهره ؛ وتضافرت جهود المركيز والمرشالة ، فكانت تأتى كل يوم إلى قصر دى لامول . وقد علم منها جوليان أن المركيز سيعين وزيرا ، وأنه قدّم لرجال البلاط مشروعا دقيقا يرمى إلى تعطيل الدستور ثلاثة أعوام دون أن يحدث شغب مّا

وكان جوليان يطمع فى أسقفية إذا ما أصبح المركيز وزيرا ؛ إلا أن هذه المصالح الكبيرة كلها كانت قد أسدل عليها ستار ، فعيناه لا تراها ، وخياله لا يدركها إلا فى غموض شديد ، لبعدها عنه، ولأنها فى آفاق سحيقة وقد كتب عليه شقاؤه أن يصبح مضعضع الحواس ، وصوّر له مقدار السعادة التى ينالها لو عاش مع ماتيلد . و بدأ يعتقد أنه لو بذل مجهودا وعنى بها لأحبته مرة أخرى بعد خمسة أعوام أو ستة .

فنحن نرى إذن أن هذا العقل الذى كان يتناول الأمور فى هدوء وفتور قد أصيب بالغباء والركود . وذهبت عنه كل صفاته الحميدة ولم يبق إلا قليل من العزم . لقد طبقّ مبدأ الأمير كورازوف ماديا ، وسار على النهج الذى رسمه له ، فكان يجلس كل ليلة على مقربة من مقعد مدام دى فرفاك ، ولكنه كان يجد مشقة كبيرة فى أن يقول لها شيئاً .

كان المجهود الذى يبذله حتى يظهر أمام ماتيلد بأنه قد شفى من حبها تماما ، قد استنفد جميع القوى المسيطرة على نفسه ، فكان يجلس بجوار المارشالة وكأنه شخص زايلته الحياة ، وفقدت عيناه كل بريق ، كأنه فريسة لآلام بدنية حادّة .

و بما أن آراء مدام دى لامول تعدّ صدى لآراء زوجها الذى يستطيع أن يجعلها دوقة ، فقد أخذت تطرى مزايا جوليان إطراء كثيرا .

الفصل السادس والعشرون

الحب الخلق

[وكان فى أدلين بالطبع نعومة هادئة فى الحديث شأنها فى ذلك شأن النبلاء الرومانيين ؛ فهى لاتتجاوز إطلاقا خط الاستواء من كل ماتتجلى عنه الطبيعة ، كالموظف الصينى الذى لايسره شىء ، وأقل ماهنالك أن مسلكه لاينم على أن شيئا مما يقع عليه بصره يمكن أن يثير الأعجاب] .

دون جوان : الفصل ١٣ — المقطوعة ٨٤

كانت مدام دى فرڤاك تقول فى نفسها : فى هذه الأسرة مس من الجنون ، إنهم جميعا مولعون بقسهم الشاب الذى لايعرف إلا أن يصغى إلى الحديث بعينين جميلتين مافى ذلك شك .

أما جوليان فقد وجد بدوره أن فى طرق المرشالة هدوءا تاما ، فهى مثل للهدوء البطريقى الذى يوحى بالأدب الحق ، ولا يصدر عنه انفعال قوى . والحركات غير المتوقعة وعدم سيطرة الإنسان على نفسه يؤذيانها أشد إيذاء ، كما يؤذيها عدم الظهور بالعظمة أمام من هم أقل منها شأنا . وأقل علامة تدل على الحساسية تعتبرها مدام دى فرڤاك لونا من ألوان النشوة النفسية التى تخجل منها ، وتؤذى صاحب المكانة العالية وتحط من قدره . وأكبر سعادة لها هى أن تتحدث عن آخر رحلات الملك فى الصيد ، وكتابها المفضل هو مذكرات الدوق سان سيمون ، وعلى الأخص الجزء الذى يتناول الأنساب .

كان جوليان يعرف المكان الذى يتلاءم مع نوع جمال مدام دى فرفاك ، تبعا لموقع الأنوار . فكان يجلس على مقربة منه إلى أن تأتى ، لكنه كان حريصا على أن يدير مقعده حتى لا تراه ماتيلد ، التى أعجبت من مثابرته على إخفاء وجهه منها . فغادرت الأريكة الزرقاء ذات يوم وأتت تعمل بجانب منضدة صغيرة قريبة من مقعد المرشالة . ورآها جوليان قريبة منه ، وكانت نظراته تمتد إليها من تحت قبعة المرشالة ، فأزعجته عيناها أول الأمر ؛ لأنهما تملكان البت فى مصيره ، ثم انتزعتاه بعد ذلك من البلادة التى رافقته أخيرا ، فأخذ يتحدث ، وكان موفقا فى الحديث .

كان يخاطب المرشالة على حين يرمى إلى أن يؤثر فى نفس ماتيلد . واستولت عليه حمية شديدة حتى أن مدام دى فرفاك لم تعد تفهم مايقول .

وكانت هذه الطريقة أولى الميزات ، ولو أن جوليان أضاف إلى طريقته هذه عبارات من العبادة الألمانية ، فيها تقى شديد وتنطوى على اليسوعية ، لعدته المرشالة طفرة واحدة من أولئك الممتازين الذين يصلحون الحكم .

عندئذ قالت الآنسة دى لامول فى نفسها : لن أصغى إلى حديثه ما دام غير سليم الذوق ، فيتحدث هذا الحديث الطويل إلى مدام دى فرفاك فى حمية شديدة . ونفذت ما قالته طوال السهرة وإن لاقت فى سبيل ذلك عنتا شديدا .

وفى منتصف الليل كانت تحمل الشمعدان لتوصل أمها إلى غرفة نومها ، فوقفت مدام دى لامول على السلم وأخذت تثنى على جوليان ثناء

مستطابا »، فزاد ذلك فى غيظ ماتيلد حتى لم يطرق النوم جفونها طوال ليلتها . على أن فكرة طرأت عليها فبعثت فى نفسها الهدوء : إنّ من أحتقره ، يستطيع أن يكون فى نظر المرشالة رجلا ذا مواهب كثيرة .

أما چوليان فقد قل شقاؤه ، لأنه عمد إلى العمل ؛ وقع بصره مصادفة على الحقيبة التى اتخذت من الجلد الروسى والتى وضع فيها الأمير كورازوف الثلاثة والخمسين خطاباً حين أهداها إلى چوليان . ورأى چوليان فى أسفل الخطاب الأول هذه الملحوظة : يرسل هذا بعد اللقاء الأول بثمانية أيام .

فصاح قائلا : لقد تأخرت كثيراً ! لأنى أرى مدام دى فرڤاك منذ زمن طويل . وسرعان ما أخذ ينسخ الخطاب الغرامى ؛ لقد كان موعظة حافلة بعبارات فى الفضيلة ، وموعظة مملة إلى أبعد حد ؛ حتى إنه شعر بسعادة كبيرة حين نام وهو ينسخ الصفحة الثانية .

و بعد ذلك ببضع ساعات ، طلعت عليه الشمس وهو نائم على المنضدة . وكان يعدّ طلوع النهار شؤماً عليه حين يستيقظ من النوم ، لأن كل صباح يذكره بشقائه : أما فى ذلك الصباح فقد أتمّ الخطاب وهو يضحك ، وأخذ يقول : أمن الممكن أن يكون هناك شاب يكتب بهذه الطريقة ! وأخذ يحصى عدة جمل ، تشغل كل منها تسعة سطور . ورأى فى أسفل الخطاب ملحوظة أخرى كتبت بالرصاص ، جاء فيها :

على الرجل أن يحمل بنفسه هذه الخطابات إلى محبوبته : راكباً جواداً ، لابساً رباط رقبة أسود وردنجوتاً أزرق . و يسلم الخطاب إلى البواب

بطريقة حزينة : وأن تنمّ النظرات عن همّ كثير . وعليه إذا رأى وصيفة أن يمسح عينيه خفية ، وأن يتحدث إلى الوصيفة .

ونفّذ جوليان هذا كله فى دقة كبيرة .

وعند ما كان يغادر قصر دى فرفاك أخذ يقول : هذا عمل ينطوى على الجرأة ، ولكن هذه هى تعليمات كورازوف . أأجرؤ على الكتابة إلى من اشتهرت بالفضيلة والطهر ؟ ! سأنال الكثير من احتقارها ، على أنّ هذا سيسرّى عن نفسى كثيراً . وهذا الأمر هو المهزلة الوحيدة التى أستطيع تمثيلها .

نعم ، إنى لأمرّ حين تسخر سخرية لاذعة من هذا البغيض الذى هو أنا ، وأن الأمر ليصل بى فى بعض الأحيان إلى التفكير فى ارتكاب جريمة لأسرّى عن نفسى :

كانت أسعد لحظة فى حياة جوليان منذ شهر هى اللحظة التى كان يدخل الحصان فيها إلى الحظيرة . وقد حرّم عليه كورازوف تحريماً باتاً أن ينظر إلى الخليلة التى هجرته مهما يكن الباعث إلى هذه النظرة . ولكن خطوات الحصان التى تعرفها ماتيلد معرفة تامة ، وطريقة جوليان فى قرع باب الحظيرة بعصاه ليستدعى سائساً ، كل ذلك كان يجذب ماتيلد إلى النافذة فتختفى من وراء ستار . ولكن النسيج كان رقيقاً مكّن جوليان من أن يرى ما وراءه . وكان ينظر بطريقة خاصة من تحت حافة قبعته ، فيرى قوام ماتيلد دون أن يرى عينيها . وكان

يقول فى نفسه : وعلى هذا فهى لا تستطيع أن ترى عينى ، إذن فكأننى لا أراها .

وفى المساء ، كانت معاملة مدام دى فرفاك له لا تخالف إطلاقاً معاملتها له فى الليالى السالفة ، كأنها لم تتسلم هذا البحث الفلسفى المتصوف المتدين ، الذى أعطاه جوليان لبواب قصرها فى حزن وكمد .

لقد ساقت إليه المصادفة بالأمس الطريقة التى يكون بها فصيح اللسان ، فجلس جلسة يرى فيها عينى ماتيلد التى غادرت بدوزها الأريكة الزرقاء بعد وصول المرشالة بلحظة قصيرة ، ومعنى هذا أنها قد هجرت من مجلس عادة معهم . وبدا الحزن على وجه المركيز دى كروازنوا لهذه النزوة الجديدة ، فانتزع هذا الألم الظاهر من نفس جوليان ما كان يلقاه من شقاء مرير .

كانت هذه المباغت الجديدة كبيرة الوقع على نفسه ، فأخذ يتكلم فى روعة وطلاوة ؛ وبما أن حبّ الذات قد يصل إلى القلوب التى تعد معابد للفضيلة ، فقد أخذت مدام دى فرفاك تقول فى نفسها وهى تصعد إلى عربتها : إن مدام دى لامول لعلى حق ، فهذا القسّ الشاب ممتاز حقاً . يظهر أنه كان يخجل منى فى الأيام الأولى . والواقع أن كل ما نلقاه فى هذا المنزل ينطوى على الخفة ؛ إنى لا أرى غير فضائل مصدرها الكهولة ، كانت فى حاجة شديدة إلى مرآة الشيخوخة لتنعكس عليها .

وقد أدرك هذا الشاب الفرق بين الحالتين ، إنه يكتب كتابة حسنة ،

لكنى أخشى أن يكون طلبه فى أن أهديه سواء السبيل كما جاء فى كتابه ، ليس إلا عاطفة لا يزال يجهلها .

ومع ذلك فكم بُدئت تغيرات على هذا النحو ! ومما يجعلنى أتفاءل بهذا الخطاب أن أسلوبه يغاير أساليب الشبان الذين قرأت خطاباتهم . ومن العسير ألا يعرف المرء الطلاء الظاهرىّ ، ونثر هذا الشاب الدينى فيه جدّ عميق ، وأنا واثقة من أنه يعتقد ما يقول اعتقاداً راسخاً ، إنه سيتحلّى بهذه الفضيلة الحلوة ، فضيلة ماسيّون .

الفصل السابع والعشرون

خير مناصب الكنيسة

[الخدمات ! المواهب ! النبوغ ! كل ذلك لاقيمة له ! فانتم إلى حزب من الأحزاب] .

تلـيماك

أصبحت فكرة الأسقفية مرتبطة فى رأس جوليان للمرة الأولى بفكرة امرأة ستوزع عاجلا أو آجلا خير مناصب الكنيسة فى فرنسا . لكن هذه الميزة لم تكن موضع تفكير عند جوليان ؛ لأن فكره أصبح مشغولا بما يلقاه من شقاء فحسب ، وقد كان كل شىء يزيد فى ألمه و بؤسه ، فكان — مثلا — حين يرى غرفته لايطيق النظر إليها . و إذا ما صعد إليها فى المساء والشمعة فى يده ، كانت كل قطعة من الأثاث، وكل حلية من الحلى كأنها تذكره بشقائه ، وتوحى إليه فى صوت بغيض لونا جديدا من ألوان العذاب .

كان يتحدث إلى نفسه ، وهو عائد إلى غرفته فى ذلك اليوم ، فى حمية لم يعهدها فى نفسه منذ زمن طويل . كان يقول : إنى مكلف اليوم عملا شاقا ، وأرجو أن يكون الخطاب الثانى كثير الإملال كالخطاب الذى سبقه .

لكن الخطاب كان أكثر من سابقه إملالا ، بحيث رأى أن ماينسخه ينم عن سخف شديد ؛ حتى إنه أخذ ينسخ سطرا بعد سطر دون أن يفكر فى معنى ماينسخ . وقد أخذ يقول فى نفسه : إن أسلوبه أكثر جزالة من

الوثائق الرسمية لمعاهدة مونستر التى كلفنى كتابتها أستاذى فى علم السياسة بلندن.

وتذكر فى هذه اللحظة ، خطابات مدام دى فرفاك التى نسى أن يرد أصولها إلى الإسبانى الوقور دون دييجو بوستوس . فبحث عنها وقرأها فإذا بها تنطوى على مثل هذا الهذر الذى جاء فى خطابات السيد الروسى الشاب . كانت شديدة الغموض ، قد يفهم الإنسان منها كل شىء وقد لايفهم شيئا أبدا . هذا الأسلوب عجيب حقا ، فبينما أجد فيه آراء سامية عن الفناء والموت واللانهاية وما إليها ، إذ بى ألمح خوفا شديدا حقيقيا من السخرية.

كانت مناجاة جوليان نفسه ، هذه التى عمدنا إلى اختصارها ، تشغل عليه حياته خمسة عشر يوما متتالية . كان النوم يغلبه وهو مكب على نسخ خطابات هى كشروح لأبوكاليبس ، ويذهب فى اليوم التالى حاملا الخطاب فى وجوم شديد ، ثم يعيد الحصان إلى الحظيرة علّه يرى ثوب ماتيلد ، ثم يؤدى عمله ، وفى المساء يذهب إلى الأوبرا إذا لم تأت مدام دى فرفاك إلى قصر دى لامول ؛ هذه هى الأحداث المملة التى شغلت حياة جوليان .

أما إذا أتت مدام دى فرفاك إلى قصر دى لامول ، فان حياته تتغير بعض الشىء ، لأنه كان يرى عينى ماتيلد من تحت قبعة المرشالة فينطلق لسانه . وتنحو عباراته الجميلة العاطفية نحوا مؤثرا أنيقا .

كان جوليان يؤمن بأن مايقوله لاتعده ماتيلد إلا هراء ولغوا ، ولكنه كان يرمى إلى أن يؤثر فى نفسها ببراعة إلقائه . وكان يقول فى نفسه : كلما أمعنت فى تناول ماليس صحيحا من الآراء ، تعجب بى ؛ ثم دفعته جرأة مرذولة إلى أن يغالى فى بعض مظاهر الطبيعة . وسرعان ما فطن إلى

أن المرشالة لاتحب الآراء المنطقية البسيطة ، فكان يجتنب هذه الآراء حتى لاتسقط عندها مكانته . فظل على هذا يطنب مرة ويوجز أخرى ، حسبما يراه من نجاح أو فشل فى عيون هاتين السيدتين اللتين يحرص على إرضائهما.

وتبدو حياته أقل شقاء وبؤسا حين يشغل بما بين يديه من أعمال ، ولكن الويل إذا ما هبطت عليه البطالة .

أخذ يحدث نفسه ذات مساء ويقول : هأنذا أكتب الآن الخطاب الخامس عشر من هذه البحوث الكريهة ، وقد سلمت بنفسى أربعة عشر خطابا من قبل إلى حاجب المرشالة . ويخيل إلىّ أننى سأتشرف بملء أدراج مكتبها . ومع ذلك هى تعاملنى كما تعامل من لايكتب إليها ! ثم ما نهاية كل ذلك ؟ هل تبعث هذه المثابرة فى نفسها السأم كما تبعثه فى نفسى؟ يجب أن أعترف بأن هذا الروسى صديق الأمير كورازوف ، والذى كان يحب راهبة ريشموند الجميلة ، كان رجلا مزعجا فى زمانه ، إذ لايمكن أن يصل إنسان إلى ما وصل إليه من إقلاق وإملال .

لم يفطن جوليان إلى الطريقة التى اتبعها الشاب الروسى للتأثير فى قلب الانجليزية الحسناء ، فكان مثل بطلنا كمثل الأشخاص العاديين الذين تسوقهم المصادفة إلى رؤية خطط قائد كبير . كان الأربعون خطابا الأولى ترمى إلى طلب الصفح عنه منها لأنه جرؤ على الكتابة إليها . وقد أراد أن تألف هذه الفتاة الرقيقة عادة تسلم خطابات منه كل يوم ، وربما كانت حياتها تنطوى على السأم ، بل ربما كانت هذه الكتب أقل مرارة من حياتها اليومية .

وتسلم جوليان ذات صباح خطابا عرف منه علامات دى فرفاك ، فأسرع فى فضه ، وكان يرى ذلك مستحيلا منذ بضعة أيام : لكن الكتاب لم يكن إلا دعوة لتناول العشاء .

جرى ليستشير تعليمات الأمير كورازوف ، ولكنه — لسوء حظه — رأى أن الشاب الروسى فى هذه الحالة كان نزقا إذ مثل دورا كان ينبغى أن يكون بسيطا ومفهوما ؛ وعلى هذا لم يستطع جوليان أن يعرف مكانته المعنوية عند المرشالة أثناء العشاء .

كان الصالون فى أبهى زينة ، وهو مذهب مثل قسم ديانا بقصر التويلرى ، وفيه لوحات زيتية تزين الجدران ، ولكن بها بقعا ظاهرة . وقد علم جوليان فيما بعد أن موضوعات هذه اللوحات لم تكن عفيفة طاهرة فى نظر ربة الدار ، فعدلت ما فيها من رسوم ؛ فأخذ جوليان يقول : ياله من عصر خلقى !

رأى فى هذا الصالون ثلاثة أشخاص ممن حضروا كتابة المذكرة السرية . أحدهم هو مونسنيور رئيس أساقفة ... عم المارشالة ، وكان معه قائمة الرواتب الدينية ، وهو كما يقولون لا يرفض لابنة أخيه طلبا . فابتسم جوليان فى حزن وقال : ما أعظم الخطوة التى خطوتها ، ولكن ما أقل شأنها عندى ! ها أنذا أتناول الطعام مع هذا الرجل المعروف رئيس أساقفه...

كان العشاء متوسطا ، والحديث يدعو إلى الجزع ، فلم يرض جوليان عن مائدة المرشالة . وكان المدعوون يتناولون الموضوعات العويصة فى التفكير الإنسانى فى زهو كثير ؛ لكنه لا يكاد المرء يستمع إليهم

ثلاث دقائق حتى يتساءل : ما الذى يعنيه من سماع هذه الجزالة التى يعمد إليها المتكلم فى أسلوبه ، ثم يرى فى وضوح ، مقدار الجهل الذى ينم عنه كلامه .

لعل القارىء قد نسى هذا الشاب الأديب الذى يدعى تانبو حفيد عضو المجمع والذى سيصبح مدرساً ، ذلك الذى يخيل إلى المرء أنه كان تسميم جو قصر دى لامول بأحقاده الوضيعة .

كان هذا الشاب أول من أخبر جوليان بأن مدام دى فرفاك — وإن كانت لا ترد على خطاباته — راضية عن هذه العاطفة التى توحى بكتابة ما يكتب . كان الحقد يتأجج فى نفس السيد تانبو التى فطرت على الشر حين يرى ما يناله جوليان من نجاح وما يصيبه من توفيق . وكان يحدث نفسه قائلا : إن مثل صاحب المواهب كمثل الأحمق تماماً لا يستطيع أن يوجد فى مكانين فى وقت واحد ، فلو أن جوليان أفلح فى أن يصبح خليل المرشالة ، لأسندت إليه منصباً رفيعاً فى الكنيسة ، وبذلك يخلو لى الجو فى قصر دى لامول .

ووجه الكاهن پيرار إلى جوليان مواعظ طويلة لنجاحه فى قصر دى فرفاك . وكانت تنطوى على الغيرة المذهبية بين هذا الرجل المتعصب لمذهب ينسينوس وبين هذا الصالون اليسوعى الذى أحيته المرشالة دى فرفاك وبثت فيه المبادىء الملكية .

الفصل الثامن والعشرون

مانون ليسكو

حينما اقتنع تماما بحماقة رئيس الدير وبلادته ، نجح بعض النجاح فى تسمية الأسود أبيض والأبيض أسود .

ليشتنبرج

كانت التعليمات الروسية تقضى بصفة قاطعة ألا يعارض الإنسان بصوت مرتفع آراء من يكتب إليها . وعليه ألا يحيد مهما تكن الظروف عن أن يظهر بهـا إعجابا شديدا : وكانت الخطابات كلها ترتكز على هذه المبادىء .

وفى إحدى الأمسيات أخذ چوليان يثنى كثيرا على المقطوعةالموسيقية مانون ليسكو وهو فى مقصورة مدام دى فرفاك فى الأوپرا . ولم يكن الباعث على هذا القول إلا أنه ألفى الرواية تافهة . وقالت المارشالة : إن هذه الرواية الموسيقية أقل شأنا من قصة الأب پريفو . فأخذ چوليان يسائل نفسه فى ذهول وعبث : كيف هـذا ! سيدة تتمسك بالفضيلة إلى هذا الحد تسمح لنفسها بأن تثنى على قصة ! وكانت مدام دى فرفاك تظهر احتقارها الشديد للكتاب مرتين أو ثلاث مرات فى الأسبوع وتنحى عليهم باللائمة ؛ لأن كتبهم الفاسدة تتلف الشبيبة التى تتقبل هذه الآراء بكل أسف ، قبولا حسنا !

ثم أخذت المارشالة تقول : هـــذا اللون الخطر من الأدب الذى لاينطوى على الخلق القويم يشغل مكانة كبيرة فى مانون ليسكو ،إذيقال

أن الضعف والهلع الشديد يظهران بوضوح وجلاء ، فى ذلك القلب الذى فطر على الإجرام والذى تصوره هذه القصة تصويرا حقيقيا عميقا ، حتى أن بونابرت الذى تعجب به أنت إعجابا شديدا ، قال عنها وهو فى سانت هيلانه إنها قصة كتبت للخدم .

أثارت هذه العبارة كل مافى نفس جوليان من حمية وقوة . وحدث نفسه قائلا : لقد أريد أن أفقد مكانتى عند المرشالة ، فحدثوها عن إعجابى بناپليون وتحمسى له . وقد ساءها ذلك ولم تستطع أن تمنع نفسها من الإفضاء به إلىّ . وسرّه هذا الاكتشاف طول السهرة ، وخلع عليه ظرفا تجلى فى حديثه . و بينما كان يستأذن المارشاله فى أن ينصرف ، وهما فى ردهة الأوپرا قالت له : تذكر ياسيدى أنه لاينبغى لك أن تحب بوناپرت مادمت تحبنى . وكل ما يطيقه الإنسان هو أن يقبله كضرورة فرضها علينا القدر . أما فيما عدا هذا فإن نفس هذا الرجل لم تكن من المرونة بحيث تحسّ مافى الفنون من روعة وجمال .

فأخذ جوليان يردد فى نفسه قولها : مادمت تحبنى ! ويقول : هذه الجملة تفيد كل شىء أو لا تفيد شيئا . فهذه أسرار اللغة التى لا يعرفها المساكين من أهل الريف . وظلّ يفكر طويلا فى مدام دى رينال وهو ينسخ خطابا طويلا ليبعث به إلى المرشالة . وفى اليوم التالى سألته المرشالة فى لهجة عمدت فيها إلى عدم المبالاة ، فقالت :

— كيف تحدثت إلىّ فى الخطاب الذى كتبته مساء أمس ، بعد أن غادرت دار الأوپرا على ما أعتقد ، عن لندن وريشموند ؟

فارتبك أشد ارتباك ، لأنه كان ينسخ الخطاب سطرا سطرا دون أن يفكر فيما كتب ، وقد نسى أن يبدل بلندن و ريشموند، باريس وسان كلو وحاول أن يقول لها جملة أو جملتين ، لكنه كان يبدأ الحديث ولا يعرف كيف يتم الجملة ؛ وأحس بأن رغبة قوية تدفعه إلى أن يغرق في الضحك . وبينما كان يبحث عما يقوله ، طرأت عليه هذه الفكرة : لقد كانت نفسي تحلق وأنا أكتب إليك في آفاق بعيدة ، فشغلت بأسمى ما يشغل النفس الإنسانية ، من أجل هذا أنسيت،فخطت يدي هذين الاسمين دون أن أحس .

ثم أخذ يقول في نفسه : أراني قد استطعت أن أؤثر في نفسها ، وعلى هذا أحب أن أوفر على نفسي الليلة ما ألقاه من ملل . ثم غادر قصر مدام دى فرقاك وهو يعدو . ولما رجع إلى أصل الخطاب الذى نسخه لها بالأمس ، فانه سرعان ما وجد المكان الذى تحدث فيه الشاب الروسى عن لندن وريشموند . ولشد ما ذهل جوليان حين ألفى هذا الخطاب ينم عن عاطفة رقيقة .

كانت آراء جوليان تنطوى على شىء من النزق وتتعارض مع خطاباته التى تنم عن عمق وسمو وامتياز . وكان طول الجمل أهم ما يعجب المارشالة فيها ، فكانت تقول : لست أرى أسلوبه راقصا كأسلوب فولتير هذا الرجل الكافر ، الذى نشر هذا اللون من الكتابة بين الناس ! ومع ما بذله جوليان من مجهود كبير فى أن يخلو حديثه من سلامة المنطق ، فقد نم حديثه عن شىء من الإلحاد ومعاداة الملكية ، لم يخفيا على مدام

دى فرقاك . وكانت محاطة بقوم تمسكوا بالأخلاق والدين ، إن كنت لا تكاد تسمع منهم رأيا واحدا طوال السهرة ؛ لكن هذه السيدة كانت تتأثر بما يبدو عليه أنه جديد، وإن احتفظت لنفسها بالحق فى أن تغضب منه . وكانت تسمى هذه النقيصة : الاحتفاظ بطابع النزق الذى يسود العصر ....

مثل هذه الصالونات لم يكن يغشاها المرء إلا إذا رغب فى أن يغشاها، وإن القارىء ليشعر بالسأم الذى ملأ حياة جوليان التى أصبحت تافهة عديمة الجدوى ، وتلك هى الأرض القاحلة التى نلقاها فى رحلتنا .

كانت الآنسة دى لامول فى أشد حاجة إلى أن تتحامل على نفسها حتى لا تفكر فى جوليان،وهو منصرف عنها متقربا من مدام دى فرفاك وكانت نفسها فريسة لأشد الأهواء وأكثرها تباينا : فكانت تثنى على نفسها حين تحتقر هذا الشاب الكاسف البال ، ولكنها على الرغم منها كانت عذوبة حديثه تشجيها . وكان أكثر ما يذهلها هو الطابع الكاذب الذى ينم حديثه عنه ؛ إنه لم يقل للمارشالة كلمة واحدة تنطوى على الصدق ، فحديثه معها كذب كله،أو يخفى بطريقة مرذولة حقيقة آرائه التى عرفتها ماتيلد من قبل،فى كل موضوع من الموضوعات معرفة كاملة .

لقد أذهلتها هذه المراوغة إذهالا شديدا ، فأخذت تقول فى نفسها : ما أعمق تفكيره ! وما أوسع البون بينه و بين أولئك الحمقى المتحذلقين، أو اللصوص العاديين أمثال السيد تانبو من أولئك الذين يتكلمون نفس اللغة !

ومع ذلك كله فقد كان جوليان يلقى فى بعض الأيام آلاما شديدة . فكان عليه أن يتردد كل يوم على صالون المارشالة أداء لهذا الواجب الثقيل على نفسه . واستنفد قواه هذا المجهود الذى يبذله فى تمثيل دوره . وكثيرا ما كان يتغلب على القنوط الذى كان يملكه ، وهو يغادر قصر المارشالة أثناء الليل ، بما فيه من بقية من قوة الخلق وآثار من فطنة .

وكان يقول فى نفسه : لقد تغلبت على اليأس وأنا فى المدرسة الأكليريكية ، مع أننى كنت أحيا هناك حياة مرة ! لقد كنت فى طريق بناء مستقبلى أو إضاعته ، على أننى فى الحالتين كنت أرانى مضطرا إلى أن أقضى حياتى مع قوم هم أحقر بنى الإنسان وأشدهم وضاعة . وفى الربيع التالى أى بعد مضى أحد عشر شهرا فحسب، كنت أسعد أندادى من الشبان جميعا .

لكن هذه الحجج القيمة كانت لا تقلل من وطأة الحقيقة المرة . كان يرى ماتيلد مرتين كل يوم أثناء الغداء والعشاء . وكان قد عرف من الخطابات التى أملاها عليه المركيزدى لامول بالأمس ، أنها ستتزوج السيد دى كروازنوا . وكان هذا الشاب الظريف يغشى قصر دى لامول مرتين فى كل يوم ؛ وكانت عين الغيرة لهذا العاشق المهجور ترى كل حركة من حركات هذا الشاب السعيد .

ولما ظن جوليان أن ماتيلد تعامل خطيبها معاملة حسنة ، لم يستطع أن يحول بين نفسه و بين النظر إلى أسلحته فى كثير من الحب والولع .

وأخذ يحدث نفسه قائلا : آه ! لو أننى كنت عاقلا لحددت موقفى ،

ولذهبت إلى غابة منعزلة تبعد عن باريس عشرين فرسخا ، ولوضعت حدا لهذه الحياة الكريهة ! وبما أننى غير معروف بين أهالى المنطقة التى أنتحر فيها ، فلن يعرف موتى قبل خمسة عشر يوما ، ومن ذا الذى يفكر فى خمسة عشر يوما من مماتى .

كان هذا الرأى سديدا ، لكنه رأى ذراع ماتيلد فى اليوم التالى تبدو فى كم ثوبها وقفازها ، فكان ذلك كافيا لأن يعيد إلى رأس فيلسوفنا الشاب ، ذكريات شديدة الوقع على قلبه ، ولأن يحمله على التمسك بالحياة . وأخذ يقول فى نفسه : حسنا ! سأطبق السياسة الروسية حتى النهاية . ولكن ما مصير كل هذا ؟

إننى حين أنتهى من نسخ الثلاثة والخمسين خطاباً للمرشالة ، فلن أكتب لها أكثر من ذلك . وأما ماتيلد فإن هذه الأسابيع الستة التى أمثل فيها مهزلة شاقة على نفسى ، ربما جعلتها تتمسك بغضبها علىّ ، وربما أتاحت لى لحظة أصالحها فيها . يا إلـهى ! لو تمّ هذا لكنت أسعد الناس ! ولم يستطع أن يتمم رأيه .

وبعد أن ظلّ غارقاً فى أحلامه وقتاً طويلا أخذ يعاود التفكير ويقول فى نفسه : سيتاح لى يوم سعيد ، ثم تظهر لى القسوة مرة أخرى . وا أسفاه علىّ ! إنّ السلطان القليل الذى كان لى فى نفسها قد انقضى وولّى ، لقد ضعت إلى الأبد وانتهى أمرى عند هذا الحد . .

أى ضمان تستطيع أن تضعه بين يدى وهى على هذا الخلق ؟

وا أسفاه ! لست بها جديرا . إن طرقى ليست رقيقة ، وكيفية حديثى مملة ثقيلة يا إلـهى ! لم خلقتنى هكذا .

الفصل التاسع والعشرون

السأم

[ليضح الإنسان فى سبيل أهوائه ، ولكن هل يضحى فى سبيل أهواء لا وجود لها فى نفسه ؟ ! يالك من قرن تعس ! أيها القرن التاسع عشر !]

جيروديه

أصبحت مدام دى فرفاك مشغولة بالخطابات الطويلة التى يكتبها لها چوليان بعد أن كانت تقرؤها فى غير لذة أول الأمر ، لكن شيئا واحدا كان يحز فى نفسها فتقول : أية خساره فى أن السيد سورل لم يصبح بعد قسيسا ؟ لو أنه كان ذلك لاتخذته رفيقا لى فى حياتى الخاصة ؛ ولكن هذا الثوب البرچوازى وهذا الوسام يعرضانى لأسئلة قاسية ، وبم أجيب ؟ ولم تتم فكرتها. ولعل صديقة ما كرة تستطيع أن تفترض وتذيع بين الناس أنه أحد أقاربها،أسندت إليه عملا لأنه قريب أبى ، أو هو تاجر أنعم عليه الحرس الوطنى بوسام .

كانت مدام دى فرفاك حتى اللحظة التى عرفت فيها چوليان ، يسرها كثيرا أن تكتب إلى جوار اسمها كلمة مارشالة . ثم استولت عليها كبرياء من كانت حديثة النعمة ، وهو غرور مَرَضِىّ يجرحه كل شىء ، فكانت تقاوم ما بدأت تحس فى نفسها من اهتمام به .

كانت المارشالة تناجى نفسها قائلة : من اليسير علىّ جدا أن أعينه

نائب أسقف فى أسقفية بجوار باريس ! ولـكنه السيد سورل فحسب ، وفوق هذا سكرتير المركيز دى لامول ! إنه لشيء محزن .

وللمرة الأولى أصبحت هذه النفس التى كانت تخشى كل شيء ، متأثرة بمصلحة لاتمت إلى ما يملك عليها قلبها من عجرفة الطبقات والصدارة الاجتماعية . وكان بوابها العجوز يلحظ أنه ما من مرة يحمل إليها خطابا من هذا الشاب الوسيم الذى يبدو عليه الحزن ، إلا اختفت علامات الضجر والسهو التى تظهر بها حين يقترب منها أحد خدمها .

والملل من تلك الطريقة الطَّموح التى ترمى إلى التأثير فى الجماهير ، دون أن يثير نجاحها فى قلبها أى فرح حقيقى ، قد أصبح عسيرا لا يحتمل منذ عرفت چوليان ، وكان يـكفى أن تقضى مع هذا الشاب العجيب ساعة أثناء السهرة لترضى عن وصيفاتها طول اليوم التالى . وهذه الثقة التى نشأت فى نفسها لم تتأثر بالخطابات المجهولة التى كانت تتلقاها ، وقد كتبت كتابة حسنة . ولم تجد الوشايات التى لفقها فى مهارة تانبو الصغير وأخبر بها السادة دى لوز ودى كروازنوا ودى كايلوس ، فأذاعها هؤلاء فى لذة كبيرة دون أن يتحققوا من صحة هذه الاتهامات . أفضت المارشالة إلى ماتيلد بشكوكها ، فـكانت تجد عندها العزاء فى كل وقت ، لأن نفس مدام دى فرفاك لم تـكن من تلك النفوس التى تقاوم هذه الطرق الوضيعة .

وسألت مدام دى فرفاك فى يوم واحد ثلاث مرات عن خطابات لها ، وعزمت بغتة على أن تجيب على رسائل چوليان . وفى هذا انتصار على الملل الذى استولى عليها . وفى الخطاب الثانى كادت تتوقف عن الـكتابة

لأنه لا يليق بها أن تكتب بخطها هذا العنوان المسف : إلى السيد سورل طرف السيد المركيز دى لامول .

وقالت فى المساء لجوليان بلهجة جافة : يجب أن تحضر إلى ظروفا قد كتب عليها عنوانك . فأخذ يقول : هأنذا قد أصبحت صديقا فى منزلة خادم . ثم انحنى فى سرور مقطبا وجهه، كما يفعل أرسين العجوز خادم المركيز .

وفى المساء نفسه أعطاها ظروفا ، فتسلم فى ساعة مبكرة جدا من اليوم التالى خطابا ثالثا : قرأ منه خمسة سطور أو ستة من أوله وسطرين أو ثلاثة من آخره ... وقد كتب الخطاب فى أربع صفحات بخط صغير ضيق .

ثم ألفت مدام دى فرفاك هذه العادة اللذيذة ، عادة الكتابة كل يوم . أما هو فكان يرد على خطاباتها بنسخ أمينة من الكتب الروسية ، وهذه هى ميزة الأسلوب المتصنع الذى يرمى إلى الجزالة . ولم تدهش المارشالة كثيرا من أن الردود ليس لها علاقة بخطاباتها .

ما أشد ما كانت تجرح كبرياء مدام دى فرفاك ، لو أن تانبو الصغير أخبرها بأن جوليان يلقى بخطاباتها جميعا فى الدرج كيفما اتفق دون أن يفض غلاف واحد منها ، وقد جعل من نفسه جاسوسا يتتبع حركات جوليان وسكناته .

وفى صباح يوم حمل إليه البواب فى المكتبة خطابا من المارشالة ؛ وكانت ماتيلد قد قابلت الرجل ورأت الخطاب معه وقد كتب عنوانه بخط جوليان . فدخلت المكتبة والبواب يغادرها ، وكان الخطاب لا يزال على حافة المكتب ؛ وجوليان مكب على الكتابة فلم يكن قد وضعه بعد فى الدرج .

فتناولت ماتيلد الخطاب وصاحت قائلة :

لا أستطيع احتمال ذلك . أنت تنسانى تمام النسيان ، وما أنا إلا زوجتك . إن سلوكك شائن ياسيدى .

ولم تكد تنطق بهذه العبارات حتى ذهلت كبرياؤها من شناعة ما فعلت ، فاضطربت اضطرابا شديدا ؛ وضجت بالبكاء ، ورآها جوليان بعد قليل تأخذ أنفاسها بصعوبة . أما هو فقد ذهل واضطرب ، حتى لم يستطع أن يحس ما تنطوى عليه هذه الغضبة من سعادة وتوفيق . وساعدها على الجلوس ، فكادت ترتمى بين ذراعيه .

غمره فرح شديد فى اللحظة الأولى حين أبصر هذه الحركة ، أما فى اللحظة الثانية فقد اتجه فكره إلى كورازوف ، وقال فى نفسه : إن كلمة واحدة قد تفقدنى كل هذا .

وتصلبت ذراعاه ، لأن المجهود الذى كان يبذله فى مراعاة الأدب كان شاقا . وأخذ يقول فى نفسه : لاينبغى أن أسمح لنفسى بأن أضم هذا الجسم اللدن البديع إلى صدرى حتى لاتحتقرنى وتسىء إلىّ . فياله من خلق ممقوت !

وبينما كان يسب أخلاقها ، كان حبه لها قد زاد مائة مرة عن ذى قبل ، وخيل إليه أنه يضم ملكة بين ذراعيه .

زاد فتوره الشديد فى جرح كبرياء الآنسة دى لامول ، واستولى عليها ألم كان يمزق نفسها . وفارقها هدوؤها ؛ فلم تفطن إلى أن تنظر فى عينيه لترى ما تكنه لها نفسه فى هذه الساعة . ولم تستطع أن تعمد إلى النظر إليه ، فقد كانت تخشى أن تنم نظراته عن الاحتقار .

كانت جالسة على أريكة المكتبة ، جامدة فى مكانها، ورأسها فى الناحية المضادة لجوليان ، وكانت فريسة لأشد آلام الكبر والحب،التى لاتقوى نفس بشرية على احتمالها . إنها لذلة عظيمة تلك التى ارتكبتها ، وهوان لاقبل لها به !

لقد كتب علىّ هذا ، فيا لى من بائسة ! كتب علىّ أن يدفعنى عنه ! ومن ذا الذى يطردنى ؟ فتجيب كبرياؤها المجروحة . يطردنى خادم من خدم أبى . ثم قالت فى صوت مرتفع :

إننى لا أطيق هذا .

ووقفت فى غضب شديد ، وفتحت درج منضدة جوليان وهى على بعد خطوتين منها . ولكنها ظلت جامدة مذهولة من شدة الرعب حين رأت ثمانية خطابات أو عشرة لم تفتح بعد ، وهى تشبه تماما ذلك الخطاب الذى تسلمه جوليان من البواب . وقد عرفت خط جوليان فى جميع عناوين تلك الرسائل ، وإن حوّر بعض التحوير .

فغضبت غضبا شديدا وصاحت قائلة :

إذن فليست علاقتك بها وطيدة فحسب ، ولكنك تحتقرها كذلك . أنت رجل لاتساوى شيئا ومع هذا تحتقر المارشالة دى فرفك !

وركعت أمامه واستطردت تقول : آه ! معذرة ياصديقى ، احتقرنى إذا شئت ، ولكن أحببنى ، لن أستطيع بعد الآن أن أعيش إذا حرمت حبك . ثم سقطت وقد أغمى عليها إغماءة شديدة . فقال جوليان فى نفسه : هاهى ذى إذن تلك المتكبرة عند أقدامى !

الفصل الثلاثون

مقصورة فى أوپرا بوف

[كما تنبىء السماء القاتمة عند أغزر العواصف] .
دون جوان ١ — ٧٣

وقف چوليان إزاء هذه الحركات المثيرة ذاهلا أكثر مما هو سعيد ، فقد علمته شتائم ماتيلد مقدار ما تنطوى عليه السياسة الروسية من حكمة .
وأخذ يقول . خير طريقة لسلامتى أن أتكلم قليلا وأن أعمل قليلا .

ثم أنهضها من سقطتها وأعادها إلى الأريكة ، فجعلت الدموع تترقرق فى عينيها قليلا قليلا . وأرادت أن تشغل نفسها بشىء فأخذت خطابات مدام دى فرڤاك ، فى يدها وفضتها فى بطء . وملكتها حركة عصبية شديدة حين عرفت خط المارشالة . وأخذت تنظر إلى صفحات هذه الكتب دون أن تقرأها ، وكان أكثر هذه الرسائل قد كتب فى ست صفحات .

وأخيراً قالت له فى صوت ينم عن الضراعة ؛ وهى لا تجرؤ على النظر إليه :

— أجبنى . أنت تعلم حق العلم أننى متكبرة بفطرتى . وأعترف بأن هذا أتعس ما فى موقفى وخلقى . هل استولت مدام دى فرڤاك على قلبك فسلبتنى إياه ؟ . هل ضحت لك بما ضحيت أنا به ؟

فكان جواب چوليان عن أسئلتها صمتاً مخيفاً . وأخذ يسائل نفسه :

بأى حق تطالبنى بإذاعة سرّ وهذا لا يليق برجل أمين ؟ .

وحاولت ماتيلد أن تقرأ خطابات المارشالة ، ولكن عينيها كانتا مملوءتين بالدمع،فلم تستطع متابعة القراءة .

كانت تشعر منذ شهر بشقاء كبير ، ولكن نفسها الأبية ما فكرت أبداً فى الاعتراف بما ينتابها من عواطف . والمصادفة وحدها هى التى أدت إلى هذا الانفجار . وقد تغلبت الغيرة والحب فى هذه اللحظة على الكبرياء . كانت جالسة على الأريكة على مقربة شديدة منه ، فرأى شعرها وأبصر جيدها وكأنه من مرمر أبيض ؛ فنسى كل ما أخذه على نفسه من عهود ، وطوق خصرها بذراعه ، وكاد يضمها إلى صدره .

فأدارت نحوه رأسها فى بطء : وذهلت لشدة الألم الذى ارتسم فى عينيه ، لقد كانتا تنمان عن ألم دفين أخفى عنها معالمهما الطبيعية .

وأحسّ چوليان أن قواه قد خارت ، لأنّ تكلّفه بالشجاعة كان قد حمّله فوق ما يطيق . ثم قال فى نفسه : لن ينطبع فى عينيها إلا الازدراء الشديد ، إن تركت نفسى على سجيتها فسعدت بحبها . ومع ذلك فإنه اعتذر لها عما بدر منه فى صوت خافت وعبارات لم تواته شجاعته على أن يتمها ، وأخبرها بأن كرامته هى التى دفعته إلى أن يفعل ما فعل ، قال لها :

— إنّ لى كرامة أنا كذلك . قال هذا فى صوت ضعيف خافت ، وتقاطيع وجهه مكسوّة بتعب بدنىّ شديد .

فالتفتت إليه بقوة ، لأن سماع صوته سعادة كبيرة لم تعد تؤمل فيها . ولم تذكر كبرياءها فى هذه اللحظة إلا لتصب عليها أشد اللعنات ، إذ كانت

تودّ أن تحدث أعمال خارقة بعيدة عن أن تُصدَّق ؛ لتبرهن على مقدار حبها له و بغضها لنفسها . واستطرد چوليان يتحدث :

— ربما كان السبب فى تفضيلى على غيرى فى وقت مضى هو ما يملأ نفسى عزة وكرامة ، على أن تقديرك الآن يرجع إلى هذا الحزم الجرىء الجدير برجل شجاع . قد أكون محباً للمرشالة ...

فانتفضت وشعّت من عينيها نظرات غريبة . لقد سمعت الحكم على نفسها . ولم تفت چوليان هذه الحركة فشعر بقواه تخور .

وأخذ يقول فى نفسه وهو يسمع تلك الكلمات الكاذبة التى يجرى بها لسانه ، وكأنه يسمع وقع ضوضاء غريبة عليه : آه ! ليتنى أستطيع أن ألثم خدّيك الشاحبين هذين ، دون أن تنتبهى إلى ذلك ! ثم استطرد يقول وصوته يضعف شيئاً فشيئاً :

— قد أكون عاشقاً للمرشالة . . . على أنى لا أرى دليلا قاطعاً على أنها تحبنى ...

فنظرت إليه ، لكنه استطاع أن يصمد لنظراتها ، أو كان يرجو على الأقل ألا تخونه تقاطيع وجهه . وأحسّ الحب يتغلغل فى نفسه حتى وصل إلى قلبه من الداخل . لم يعبدها من قبل كما يعبدها الآن ، كان مجنوناً كجنونها تماماً . ولو أنها تذرعت فى حركاتها بشجاعة وهدوء لجثا عند قدميها ، وأعرض عن هذه المهزلة السخيفة . لكنه كانت لا تزال لديه بقية من شجاعة ، فأخذ يناجى نفسه قائلا : آه ! ليتك هنا يا كورازوف !

كم أنا فى أشد الحاجة إلى كلمة منك ، تبين لى الخطة التى أسلكها ! وفى أثناء ذلك كان صوته يقول لماتيلد :

لو أننى أغضيت عن كل العواطف الأخرى ، لكان الاعتراف بالجميل كافياً لانتزاعى من المارشالة ؛ لقد أظهرت لى الود ، وغمرتنى بعطفها حين كنت تحتقريننى . . . إن الظواهر كلها تدل على أنها تبدى لى عطفاً شديداً يرضى كبريائى و يحسدنى غيرى عليه ، ولكن ربما لن يدوم ذلك طويلا . فصاحت ماتيلد :

— آه ! يا إلهى ! عندئذ قال لها فى لهجة حازمة قوية ، وكأنه آثر أن يدع جانباً عباراته التى يمليها عليه الحذر وتحتمها عليه السياسة :

— حسناً ! ولكن ما الضمان الذى تبذلينه لى ؟ أى ضمان يكفل لى أن ما تعرضينه على الآن قد لا يدوم أكثر من يومين ؟ فالتفتت إليه وأمسكت بيديه وقالت :

— فرط حبى لك ، وشدة شقائى من أنك لم تعد تحبنى .

التفتت إليه بقوة فانحسر رداء كتفيها عنهما قليلا . فرأى چوليان كتفيها الجميلتين ، وذكره شعرها المبعثر قليلا بشىء عزيز عليه .

كان على وشك أن يسلمها زمامه ، لكنه أخذ يقول فى نفسه : إن كلمة طائشة تجعلنى أحيا من جديد تلك الحياة المريرة التى يملؤها القنوط .

كانت مدام دى رينال تجد من الأسباب ما يحملها على عمل ما يمليه عليها قلبها : أما هذه الفتاة الأرستقراطية فلا تترك قلبها ينبض بالحب، إلا إذا اقتنعت هى بأن هناك أسبابا وجيهة تحمله على ذلك .

أدرك هو هذه الحقيقة فى طرفة عين ، وسرعان ما استرد شجاعته . فسحب يده من يدى ما تيلد وكانت تضغطها ، ثم ابتعد عنها قليلاً فى احترام كثير . وإن شجاعة الرجل لا تستطيع أن تذهب إلى أبعد من هذا .

ثم أخذ يجمع خطابات مدام دى فرفاك المبعثرة على الأريكة ، وقال فى أدب جم ، لكنه كان قاسياً أشد القسوة فى تلك اللحظة :

— هل تسمح لى الآنسة دى لامول فى أن أفكر فى كل هذا ؟ ثم ابتعد مسرعاً وغادر المكتبة ؛ وسمعته يغلق الأبواب كلها خلفه .

فقالت فى نفسها : هذا الوحش لم يضطرب أبداً ..

ولكن لم أقول وحشاً ؟ ! إنه عاقل ، حذر ، طيب ؛ أنا الذى ارتكبت خطأ شنيعاً لا يمكن تصوّره .

وظلت تفكر على هذا النحو وقتاً طويلا . وشعرت فى ذلك اليوم بسعادة كبيرة ؛ لأن الحب وحده سيطر على عواطفها كلها ؛ ومن رآها فى يومها هذا ظن أنها لم تعرف الكبرياء من قبل ، وأى كبرياء !

وجلست فى الصالون وقت المساء ، ولم يكد الخادم يعلن قدوم مدام دى فرفاك حتى انتفضت ذعراً ؛ فقد كان صوت هذا الرجل نذير سوء فى رأيها ، ولم تستطع أن تنظر إلى المارشالة ؛ فأسرعت منصرفة ، ولم يستول الكبر على جوليان كثيراً لهذا الانتصار المرير ، وكان يخشى أن تفضحه نظراته فلم يتناول عشاءه على مائدة دى لامول .

وزاد حبه وسعادته زيادة كبيرة كلما ابتعد عن زمن المعركة ؛ حتى إنه ليلام على ذلك . وأخذ يحدث نفسه قائلا : كيف كنت أستطيع أن أظهر لها الهجر ، لو أنها لم تعد تحبنى ؟ ! إن لحظة واحدة لكفيلة بأن تغير هذه النفس المتجبرة ، ويجب أن أعترف بأننى عاملتها معاملة سيئة .

وعزم فى المساء على أن يذهب إلى مقصورة مدام دى فرفاك فى أوبرا بوف . وقد ألحت المارشالة عليه فى أن يحضر : وسرعان ما تعرف ماتيلد حضوره أو تتبين غيابه الذى لا ينطوى على الأدب . وعلى الرغم من وجاهة هذا التفكير ، لم تواته الشجاعة فى أن يختلف إلى الناس فى أول السهرة ؛ لأنه إذا تكلم فقدَ نصف السعادة التى غمرته .

دقت الساعة العاشرة مساء ، وكان لزاما عليه أن يذهب إلى المارشالة . ولحسن حظه وجد مقصورتها قد امتلأت بالنساء ، فجلس وحده على مقربة من الباب ، وقد أخفته قبعات السيدات . وأنقذه هذا المجلس من سخرية كانت ستناله لا شك ؛ لأن النغمات الساحرة اليائسة التى كانت ترددها كارولين فى ماتريمونيو سجريتو ، قد جعلته يضج بالبكاء . ورأت مدام دى فرفاك دموعه التى كانت لا تلائم حزم رجولة ينم عنها وجهه ، فتأثرت بذلك ، تأثرت هذه السيدة الكبيرة بما بقى فى قلبها من مشاعر جميلة لم يقض عليها غرور جلبته حداثة النعمة . وحملتها البقية الباقية لها من قلب المرأة على أن تتحدث إليه .

فقد أرادت أن تنعم بسماع صوته فى هذه اللحظة ، فقالت له :

— هل رأيت سيدات دى لامول ؟ إنهن فى المقصورة الثالثة

فاتكأ جوليان فى الحال على حافة المقصورة بطريقة غير مؤدبة ، فرأى ماتيلد والدموع تترقرق فى مآقيها . فقال فى نفسه :

لقد جاءتا ، ومع ذلك فليس اليوم يوم مجيئهما إلى الأوبرا . فيالها من عجلة شديدة !

كانت ماتيلد قد زينت لأمها أن تذهبا معا إلى أوبرا بوف ، على الرغم من أن المقصورة التى أهدتها إليهما سيدة من المترددات على القصر لم تكن تتفق مع مكانتهما . وكانت ترمى بذهابها إلى الأوبرا إلى أن تعرف هل يقضى جوليان السهرة مع المارشالة دى فرفاك .

الفصل الحادي والثلاثون

شبح الخوف

[إن هذه لهى المعجزة الخارقة لمدنيتكم ! لقد جعلتم من الحب أمرا عاديا] . بارناف

أسرع چوليان إلى مقصورة مدام دى لامول ، والتقت عيناه أول الأمر بعينى ماتيلد المغرورقتين بالدموع ؛ فقد كانت تبكى بكاء شديدا ، ولم يكن فى المقصورة إلا بعض ناس لاخطر لهم مثل الصديقة التى أعارتهما المقصورة و بعض رجال من معارفها . وضعت ماتيلد يدها على چوليان ؛ كأنها نسيت كل خوفها من أمها . وكانت دموعها تحول بينهاو بين الكلام فلم تقل له إلا هذه الكلمة وحدها : ضمانات !

وكان كذلك متأثرا إلى حد كبير ، فأخذ يخفى عينيه بقدر مايستطيع متعللا بأن ضوء الشموع مسلط على الطابق الثالث للمقاصير، وكان يقول فى نفسه : يجب علىّ أن ألزم الصمت ، لأنى إذا حدثتها أدركت بسهولة أنى متأثر مثلها ، وسيكشف صوتى عن أمرى وفى هذا ضياعى مرة أخرى

وهذه كما يخيل إلىّ خلّة ليست من خلال چوليان ، فإن من يستطيع أن يبذل هذا المجهود ، وأن يضبط نفسه إلى هذا الحد ، لجدير بأن يقطع فى الحياة شوطا بعيدا .

وصممت الآنسة دى لامول على أن يعود معهما چوليان إلى القصر وكان المطر غزيرا لحسن الحظ ، فأجلسته المركيزة أمامها ، وأخذت تتحدث

معه طوال الوقت ، حتى لم تمكنه من أن يقول لابنتها كلمة واحدة . وكان يخيل إلى الإنسان أن المركيزة حريصة على إسعاد چوليان ؛ ولم يعد يخشى أن يفقد شيئا لأنه لن يطلق لتأثره العنان .

هل لى أن أجرؤ على أن أقول : إن چوليان لم يكد يعود إلى غرفته حتى جثا على ركبتيه ، وأخذ يقبل رسائل الحب التى أخذها من الأمير كورازوف ؟

وصاح من جنونه يقول : ياللك من رجل عظيم ! كم أنا مدين لك !

ثم أخذ هدوؤه يعود إليه قليلا قليلا . وصار يوازن بين نفسه وبين قائد كاد يكسب معركة كبيرة . ثم قال فى نفسه : لقد كسبت اليوم كسبا عظيما ، ولكن ترى ماذا سيحدث فى الغد ؟ إن لحظة واحدة لكفيلة بأن تضيع كل شىء .

وأقبل فى شغف على المذكرات التى أملاها ناپليون فى سانت هيلانة وظل ساعتين كاملتين يحمل نفسه على أن يقرأ ، كان يقرأ بعينيه فحسب ، ولكن ماذا يضيره مادام يحمل نفسه على القراءة . وبينما كان يضطلع بهذه القراءة العجيبة ، كان عقله وقلبه يعملان دون أن يحس ويحلقان فى آفاق سامية .

وأخذ يحدث نفسه : إن هذا القلب يغاير قلب مدام دى رينال ... ولم يذهب إلى أكثر من ذلك .

ثم طوح بالكتاب وصاح فجأة : علىّ أن أبث فى قلبها الرعب ، فالعدو لن يطيعنى إلا إذا أخفته ، وعلى هذا فلن يقدم على احتقارى .

وأخذ يسير فى غرفته الصغيرة وقد غمره الفرح . وقد كانت السعادة التى سيطرت على نفسه — فى الواقع — ترجع إلى الغرور أكثر من رجوعها إلى الحب .

ثم ردد عبارته فى زهو : علىّ أن أبث فى قلبها الرعب ! وقد كان على حق فى غروره . واستطرد يقول : إن مدام دى رينال كانت فى أسعد لحظاتها تخاف أن يكون حبى لها معادلا حبها لى . أما هذه فشيطان يجب أن يخضع ؛ إذن فعلىّ أن أذلها .

كان يعلم حق العلم أن ماتيلد ستذهب إلى المكتبة فى تمام الساعة الثامنة من صباح الغد ؛ فلم يذهب هو إلا فى التاسعة ، يكاد الحب يلهب نفسه ولكن عقله كان مسيطرا على قلبه . وكان يقول فى كل دقيقة : هل لى أن أتركها فريسة لهذا الشك المرير : أهى تحبنى ؟ إن مكانتها الكبيرة ، وما تسمعه دائما من ثناء ، ليبعثان فى نفسها الغرور .

ولما دخل المكتبة وجدها هناك شاحبة هادئة جالسة على الأريكة ، تبدو كأنها لا تستطيع حراكا . ثم مدت يدها إليه وقالت :

— لقد أهنتك يا صديقى ، وهذا حق لا مرية فيه ؛ فهل أنت غاضب علىّ ؟ ..

لم يكن يتوقع منها هذه اللهجة البسيطة ، وكاد أمره يفتضح . وساد بينهما صمت ، كانت ترجو أن يقطعه حبيبها بالحديث ، فلما لم يفعل استطردت تقول :

— أنت تريد ضمانا يا صديقى ، وأنت محقّ فى ذلك . اخطفنى ،

ولنذهب معا إلى لندن ... سأفقد مكانتى وشرفى إلى الأبد . . . وجدت فى نفسها الشجاعة لتسحب يدها من چوليان لتغطى عينيها . لقد استولت عليها كل معانى الفضيلة والاستقامة النسوية .. ثم تنهدت وقالت : حسنا ! تجردنى من شرفى ، فهذا ضمان بين يديك .

فقال فى نفسه : لقد كنت بالأمس سعيدا لأن الشجاعة واتتنى، فكنت شديدا على نفسى . وبعد فترة قصيرة ساد فيها الصمت ، قال لها بلهجة بالغة الفتور ، بعد أن تمكن من السيطرة على نفسه :

— من ذا الذى يضمن لى حبك ، ونحن فى طريقنا إلى لندن ، أو إذا جردت من شرفك ، على حد ما تقولين ؟ كيف أعلم أنك لا تعدين وجودى بجوارك فى مقعد العربة إزعاجا لك ؟ أنا لست شيطانا مريدا ، فإذا فقدت مكانتك بين الناس كان هذا شقاء جديدا يحل بى . ليس مركزك فى المجتمع هو العقبة ، بل العقبة الحقيقية هى أخلاقك . فهل تستطيعين أن تؤكدى لنفسك أن حبك لى يدوم ثمانية أيام ؟

وأخذ يناجى نفسه فى صوت منخفض : آه ! ليتها تحبنى ثمانية أيام ! لو أنها فعلت لمت من فرط سعادتى . وماذا يضيرنى من المستقبل ؟ وما قيمة الحياة عندى بعد ذلك ؟ إنّ هذه السعادة الكبيرة قد تبدأ من الآن ، لو أننى أردت ذلك ، فكل شىء يتوقف على أنا وحدى !

ورأته ماتيلد يفكر ، فأخذت بيده وهى تقول له :

— إذن أنا لست جديرة بك أبدا .

فقبلها چوليان ، ولكنه سرعان ما أمسكت اليد الحديدية ، يد

الواجب قلبه ؛ وقال فى نفسه : إذا تبينت مقدار حبى ضاعت منى إلى الأبد . واسترد كرامته كاملة قبل أن تفلتها ذراعاه ، استرد تلك الكرامة الجديرة برجل .

وهكذا استطاع فى ذلك اليوم ، وفى الأيام التالية أن يخفى عنها ما كان يشعر به من سعادة وهناءة ؛ وكانت تمر به لحظات يرفض فيها لذة العناق والتقبيل ، وهناك لحظات أخرى طغت فيها نشوة السعادة على كل نصيحة أملاها عليه الحذر .

اعتاد من قبل ، أن يذهب إلى الحديقة ، فيلجأ إلى عريش من بنات زهر العسل يخبأ السلم فيه ، ومن هناك يرقب مصراع نافذة ماتيلد من بعد ، ويبكى لصدها وهجرها . وكان على مقربة منه شجرة سنديان ضخمة ، يخفيه جذعها فلا يراه الرقباء .

كان يسير هو وماتيلد فى نفس المكان الذى يذكره بقوة ما لاقاه من عذاب أليم ، فكان التناقض الشديد بين الألم الذى افترسه فى الماضى ، والسعادة الهانئة التى يحظى بها الآن — أقوى بكثير من أن يحتمله خلقه ؛ فترقرقت فى عينيه الدموع ، وتناول يد صديقته فقبلها ، وقال لها :

— لقد عشت هنا مفكرا فيك ؛ وكنت أنظر من هنا إلى مصراع نافذتك ؛ ولطالما انتظرت ساعات طويلة أرقب تلك اللحظة السعيدة التى أرى فيها هذه اليد تفتح الشباك ...

وغلبه الوهن ، فأخذ يصور لها ما كان يلقاه من مرارة الألم تصويرا

صادقا ، لم يكن في حاجة إلى أن يخترعه ؛ لأنه كان يحسه ، ولكن هتافات قصيرة تدل على سعادته الحاضرة ، وضعت حدّا لهذا الشقاء الكبير ...

ثم عاد جوليان إلى نفسه فأخذ يقول : يا إلهى ! ماذا قلت ؟ لقد أضعت نفسى .

وفى سورة الرعب الذى ملكه ، ظن أنه يرى الحب فى عينيها أقل من قبل ، وكان هذا وهماً لا حقيقة ، ولكنه سرعان ما تغير وجهه وكساه شحوب كشحوب الموتى . ثم انطفأ بريق عينيه لحظة ، فنمّت نظراته بعد ذلك عن كبر شديد ينطوى على الشر ، بعد أن كان يلمع فى عينيه الحب الحق، الذى لا يعرف قيدا من القيود . فارتاعت لما رأت وقالت له فى رقة وحنان :

— ماذا بك ياصديقى ! فأجابها مغضباً :

— إننى أكذب ، نعم إننى أكذب عليك . وأنا أؤنب نفسى على ذلك ، ويعلم الله أنى أجلّك فكان ينبغى ألاّ أكذب . إنك تحبيننى ، وتخلصين لى ، فلست فى حاجة إلى أن أخترع ما أزال به رضاك من كلام .

— يا إلهى ! أكان هذا الكلام الحلو الذى قلته منذ دقيقتين شيئا اخترعته ؟

— وإنى لنادم على مافعلت يا صديقتى العزيزة . كنت أعددتها

من قبل لامرأة أخبتني و بعثت فى نفسى السأم ... هذا عيب فى خلقى ، وها أنذا أكشف لك عن نفسى فاغفرى لى .

فسالت على خديها دموع غزيرة مريرة . على حين استطرد چوليان:

— إنى لا أكاد أستغرق فى حلم ، حتى توحى إلىّ ذا كرتى اللعينة شيئا يعكر علىّ صفوى فأبالغ فيه ، وأنا أصبّ اللعنة على هذه الذاكرة .

فقالت له فى سذاجة طريفة :

— لقد ارتكبت إذن ما يسوؤك وأنا لا أدرى ؟ .

— أذكر أنى كنت أمرّ فى يوم من الأيام على مقربة من نبات زهر العسل ، فرأيتك تقطفين زهرة ، فأخذها منك السيد دى لوز ، وتخليت عنها له . كنت على بعد خطوتين منكما يومئذ . فأجابته وقد ظهرت من ملامحها الكبرياء التى طبعت عليها ، قالت له :

— السيد دى لوز ؟ هـذا مستحيل ، فما أنا ممن يفعلن ذلك .

فأجابها فى حمية شديدة :

— أنا واثق مما أقول تمام الوثوق . فغضت من طرفها فى حزن ، وقالت له :

— حسنا ! إن ماقلته صحيح يا صديقى . وكانت واثقة تماما من أنها لم تسمح لدى لوز من أن يفعل هذا منذ بضعة شهور .

فنظر إليها چوليان فى حنان شديد وقال فى نفسه : لا ، إن حبها لى لم ينقص .

وأخذت فى المساء تضاحكه وتلومه على هيامه بمدام دى فرفاك :

برجوازى يحب امرأة حديثة عهد بنعمة ! إن قلوب مثل هذه الطبقة من النساء هى القلوب التى تستعصى على حبيبى جوليان . وأخذت تعبث بشعره وتقول : لقد جعلت منك رجلا مهتما بالثياب والزينة ، وقد كان جوليان فى الوقت الذى اعتقد فيه أن ماتيلد تحتقره ، مولعا بملابسه ، حتى كان من أكثر الباريسيين أناقة . لكنه كان يمتاز عن غيره بأنه لا يفكر فى ثيابه ولا يهتم بها بعد أن يرتديها .

وداوم جوليان على نسخ الرسائل الروسية وإرسالها إلى المرشالة ، وهذا ما كان يغضب ماتيلد .

الفصل الثاني والثلاثون

النمـــر

[وا أسفاه ! لم حدثت هذه الأشياء ولم يحدث سواها؟]
بومرشيه

يقول سائح انجليزى عاش مع نمر فى مودّة وصفاء : لقد ربّيته وداعبته، ولـكنى كنت أضع دائماً على مائدتى مسدساً حشوته بالرصاص .

لم يكن چوليان يظهر السعادة التى تغمره إلا فى اللحظات التى لا تستطيع ماتيلد قراءة ذلك فى عينيه . وقد أخذ ينفذ فى دقة ما فرضه على نفسه من أن يسمعها كلمة قاسية بين آن وآن .

و إذا بلغ حنان ماتيلد و إخلاصها له منتهاهما ، حتى يكادا يفقدانه سلطانه على نفسه ، كانت الشجاعة تواتيه على أن يتركها فجأة ، و إن كانت رقتها تذهله .

لقد أحبت ماتيلد لأول مرة فى حياتها . وأصبحت ترى الأيام تمرّ سراعاً بعد أن كانت بطيئة الخطا من قبل .

و بما أن الـكبر لابد له أن يظهر فى أى لون من الألوان ، فقد أرادت ماتيلد أن تتعرض فى جرأة لـكل الأخطار التى يجلبها عليها هذا الحب . وكان چوليان هو الذى يوصيها بالحذر، فـكانت لا تنزل على إرادته إلا فيما يختص بمواجهة الأخطار . أصبحت مطيعة له، خاضعة لأمره بقدر ما كانت

تظهر لوالديها وخدمها وجميع من يقترب منها فى القصر من تعال وكبرياء .

وفى المساء كانت تناديه وهما فى الصالون على مرأى ومسمع من ستين شخصاً،ثم تتحدث إليه حديثاً خاصاً طويلا .

وجلس تانبو الصغير على مقربة منهما يوماً ، فطلبت منه أن يذهب إلى المكتبة ليحضر لها كتاب « سمولت » الذى تحدث فيه عن ثورة ١٦٨٨ . ولما رأت علامات التردد على وجهه ، قالت له فى كبرياء ظاهرة،كانت برداً وسلاماً على قلب جوليان : ليس هناك ما يدعو إلى العجلة . فقال لها جوليان عندئذ :

— هل لحظت نظرة هذا الشيطان الصغير ؟

— إن عمه قد قضى عشرة أعوام أو اثنى عشر عاماً فى هذا الصالون يؤدى خدمات ، ولولا هذا لعملت على طرده فى الحال .

وكان مسلكها نحو دى كروازنوا ودى لوز وغيرهما ينطوى على الأدب الجم شكلا ، لكنه كان فى الواقع مثيراً . وأخذت ماتيلد تلوم نفسها لوماً شديداً على ما اعترفت به من قبل لجوليان ، خصوصاً وهى لا تستطيع أن تصرح له بأنها بالغت فيما قصته عليه من قبل ، وأن علاقتها بهؤلاء السادة كانت علاقة بريئة .

وعلى الرغم من أنها كانت تصرّ كل يوم على أن تقول له : لقد شعرت باللذة وأنا أتحدث إليك،واصفة لك هذا الضعف الذى يحملنى على أن أسحب يدى، حين كان السيدى كروازنوا يضع يده على مائدة رخامية

فمس يدى مسارفيقاً . كانت تودّ أن تقول له ذلك ، ولكن غرورها النسوى كان يمنعها .

أما اليوم فلا يكاد شاب من هؤلاء الشبان يتحدث إليها بضع لحظات حتى تجد شيئاً تقوله لجوليان ، وكان ذلك ذريعة إلى أن تستبقيه على مقربة منها .

ثم أحست بالجنين فى أحشائها ، فزفت إلى جوليان البشرى فرحة مستبشرة :

— والآن هل تشك فىّ ؟ أليس هذا ضماناً ؟ إننى زوجتك إلى الأبد .

فذهل لهذا الخبر ذهولاً شديداً . وكان على وشك أن يتناسى مبدأه الذى سار عليه فى معاملة ماتيلد . وقال : كيف يتسنى لى أن أظهر بالفتور فأجرح هذه الفتاة البائسة ، التى تقضى على نفسها من أجلى ؟ لقد كان الإعياء بادياً عليها ، فلم يعد يجد فى نفسه الشجاعة على أن يقول لها كلمة قاسية ، وإن كانت ضرورية — بحسب خبرته — لمدّ أجل الحب بينهما ، نعم لم يعد يجرحها حتى فى الأيام التى كانت توحى إليه الحكمة بأن يفعل ذلك .

قالت له ذات يوم :

— أريد أن أكتب إلى والدى ؛ إنه ليس والدى فحسب ، بل وصديقى كذلك . وعلى هذا فإنى أجد أنه لا يجدر بى ولا بك أن نحاول خديعته ، ولو برهة قصيرة . فارتاع جوليان وقال لها :

— يا إلهى ! علام تقدمين ؟ فلمعت عيناها فرحاً وقالت :

— سأعمل ما يفرضه علىّ الواجب .

لقد كانت أعلى همة من عشيقها .

— ولكنه سيطردنى شر طرده !

— هذا حق له ، فعلينا أن نحترم هذا الحق . سأمدُّ لك ذراعى لنخرج معاً من بوابة القصر فى وضح النهار .

فذهل ورجاها فى أن تؤجل الكتابة أسبوعاً آخر ، فقالت :

— لا أستطيع ، إن الشرف يتكلم ، والواجب ينادينى ، فلألبِّه فى الحال .

— حسناً ! ولكنى آمرك بأن تؤجلى الكتابة . إن شرفك فى مأمن من أن يمس ، وأنا زوجك . وحالة كل منا ستتغير تغيراً تاماً بهذا العمل الهام .. وأنا بدورى لا أعدو حقى . اليوم يوم الثلاثاء ؛ والثلاثاء القادم هو يوم الدوق دى ريتز ؛ وحين يعود السيد دى لامول فى المساء إلى القصر يسلمه البواب الكتاب المشئوم .. إنه لا يفكر إلا فى أن تكونى دوقة ، وأنا على تمام الثقة من هذا ، فتصورى إذن مقدار ألمه !

— هل تريد أن تقول : تصورى مقدار انتقامه ؟

— قد أشعر بالشفقة على من أحسن إلىّ ، ويملكنى الحزن إذا أسأت إليه ، ولكنى لا أخشى ولن أخشى أى إنسان .

فصدعت بالأمر . وكانت هذه أول مرة يتحدث إليها جوليان فى سلطة وسيادة ، منذ أنبأته بحالتها الجديدة . ولم يحبها من قبل كما أحبها الآن . وكان يجد سعادة كبيرة فى أن ناحية الحنان تغلب عليه لما قد حدث لها ،

فلم يعد يسمعها كلاماً يؤذيها . لكن الاعتراف للسيد دى لامول كان يسبب له اضطراباً شديداً . وأخذ جوليان يسائل نفسه : هل سيحال بينى و بين ماتيلد ؟ ثم ما مقدار حزنها على فراقى ؟ ولكن هل ستفكر فىّ بعد أن يمضى شهر على رحيلى ؟

كانت نفس جوليان تلقى من الأذى بمقدار التأنيب العادل الذى الذى سيصبه عليه المركيز . وفى المساء ، أفضى إلى ماتيلد بالسبب الثانى لحزنه ، و بعد قليل غلبه الحب على أمره ، فحدثها عن السبب الأول .

فتغير لونها ، وقالت له :

— هل تشعر حقيقة بالألم إذا ابتعدت عنى ستة شهور ؟ !

— أشعر بألم شديد ، هو الألم الوحيد الذى أخشاه فى هذه الحياة .

فغمرت نفسها السعادة ، وواصل جوليان تمثيل دوره فى مهارة فائقة ، حتى تمكن من أن يجعلها تفكر فى أنها محبو بة أكثر منها محبة .

— وجاء يوم الثلاثاء الموعود ، وعاد المركيز إلى القصر فى منتصف الليل فوجد خطاباً بالعنوان الذى يحمله على أن يفتح الخطاب بنفسه حين يكون وحده .

والدى :

لقد انقطعت بيننا كل العلاقات الاجتماعية ، ولم يعد يربطنا إلا علاقتنا الطبيعية . وأنت بعد زوجى أعزّ إنسان علىّ فى الدنيا ، وستظل كذلك . عيناىّ تمتلآن بالدموع ... إنى أفكّر فيما أسببه لك من آلام ، ولم أشأ أن يصبح العار الذى لحقنى معروفا عند جميع النس ، وقد أردت

أن يتاح لك وقت كاف لتنظر فى الأمر وتعمل ، فلم أرغب فى أن أؤجل الاعتراف الذى أفضى به إليك . ولو أملت عليك صداقتك أن ترتب لى معاشا صغيرا لذهبت أنا وزوجى لنقيم فى أى مكان تشاء ، وليكن فى سويسرا مثلا ، وإنى لأعلم أن نفسك تحمل لى صداقة كبيرة . إن اسمه مجهول جدا ، فلن يعرف الناس أن ابنتك هى مدام سورل ، زوجة ابن نجار ڤرييرَ . هذا هو الاسم الذى يؤذينى ويحملنى على الكتابة إليك . وإنى أخشى أن تصب على چوليان جام غضبك ، وهو غضب جدّ عادل لو أننا أخذنا بالظواهر . لن أكون دوقة ياوالدى ؛ ولكنى كنت أدرك ذلك حين أحببت ؛ لأنى أنا التى أحببته أولا ، وأنا التى أغريته كذلك . لقد أخذت عنك نفسا عالية تترفع عن أن تلتفت إلى كل ما هو حقير تافه ، أو تحاول أن تفعل ذلك . وحاولت عبثا أن أفكر فى دى كروازنوا لأنال رضاك . فلماذا وضعت نصب عينى الرجل الممتاز الجدير بى ؟ لقد قلت لى حين عدت من هيير : إن الشاب سورل هو الشخص الوحيد الذى يروقنى . وهذا الشاب التعس حزين مثلى لما يسببه لك هذا الخطاب من ألم . لا أستطيع أن أحول بينك وبين الغضب كوالد ، ولكن أحببنى دائما كصديق.

لقد احترمنى چوليان . وهو إذا كان قد تحدث إلىّ فى بعض الأحيان ، فما ذلك إلا لأنه يشعر شعورا عميقا بما لك من فضل عليه ؛ لأن طبيعته المتعالية تحمله دائما على أن يجيب من هم أعلى منه إجابة رسمية . إنه يشعر شعورا كبيرا بما بين الطبقات الاجتماعية من فروق . أنا التى ضغطت ذراعه يوما ما فى الحديقة ، وكم يملكنى الخجل حين أعترف لك بهذا ، ولكنى

واثقة من أننى أكشف عن نفسى لخير أصدقائى ، ولا أفكر فى أن أقول ذلك لأى إنسان آخر .

إذ بعد مضى أربع وعشرين ساعة من تسلمك هذا الخطاب ، لم تظل غاضبا علىّ ؟ إن خطئى لا يمكن إصلاحه . وإذا صممت على شىء ، فأنا على استعداد كامل لأن أؤكد لك، بالنيابة عنه، احترامه الشديد لك ، وخوفه من أن يغضبك . ولن تظفر به بعد الآن ؛ ولكنى سألحق به أينما أراد . هذا حق له ، هو ما يفرضه علىّ الواجب ، لأنه والد طفلى . إن تفضلت علينا بستة آلاف من الفرنكات نعيش بها ، كنت مدينة لك بفضل كبير ، وإلا فإن جوليان سيقيم فى بيزانسون ليعلّم اللاتينية والأدب ، وأنا واثقة من أنه سيسمو عما قريب، وإن كان وضيع النشأة . لن أخشى أن يعيش طول حياته فى ظلام مقيم ، فأنا واثقة من أنه سيقوم بالدور الأول إن نشبت ثورة . فهل تستطيع أن تقول ما أقوله عن أى شاب من أولئك الذين أرادوا أن يتزوجونى ؟ إنهم يملكون أراضى جميلة ! وأنا لا أستطيع أن أجد فى هذا السبب وحده باعثا على أن يعجبونى . أما جوليان فسيصل إلى مركز سام حتى فى ظل هذا النظام الحاضر ، لو أن لديه مليونا من الفرنكات وتمتع برعاية أبى له ... »

كانت ماتيلد تعرف أن المركيز رجل يتبع دائما أول فكرة تطرأ عليه ، فكتبت له ثمانى صفحات.

وبينما كان المركيز يقرأ الخطاب ، كان جوليان يتحدث إلى نفسه قائلا :

ما العمل ؟ أين واجبى أولا ومصلحتى ثانيا ؟ إنى مدين له بكل شىء ،

فلولاه لـكنت من حثالة الناس ، بل من تلك الحثالة التى يصب عليها الناس كراهيتهم واضطهادهم . لقد جعل منى رجلا من رجال المجتمع ، ومتحنى هذا الصليب ، وكلفنى مهام سياسية رفعت شأنى . هذا كله خير عندى من أن يعطينى مليونا من الفرنـكات ؛ غير أنى كفرت بنعمته .

لو أنه أمسك ريشته و بدأ يصف مسلـكي ، فماذا يكتب ؟ ...

و بينما كان يسبح فى هذه الأفـكار إذ قاطعه فجأة هذا الوصيف العجوز الذى يقوم على خدمة المركيز ، وقال له :

إن المركيز يطلبك فى الحال ، سواء أكنت مرتديا ثيابك أم غير مرتديها .

ثم قال له الخادم بصوت خفيض وهو يمشى إلى جواره :

إنه غاضب أشد الغضب ، فـكن على حذر .

الفصل الثالث والثلاثون

جحيم الضعف

[كان جوهرى غير ماهر يقطم هذه المأساة ، فنزع منها بعض شرارات قوية . ماذا أقول ؟ لقد كان الفرنسى فى العصور الوسطى ... وحتى فى عصر ريشليو يتصف بقوة الإرادة]
ميرابو

وجد جوليان أن المركيز غاضب ، وكان هذا السيد سفيها وربما كان كذلك لأول مرة فى حياته . أخذ يسب جوليان سبا قبيحا بكل الشتائم التى تدور على لسانه . فذهل ونفذ صبره ، لكن اعترافه بالجميل ظل ماثلا أمامه . فكم مشروع من المشروعات الجميلة ، التى ظلت عزيزة عليه محببة إلى نفسه وقتا طويلا رآها هذا الرجل المسكين وقد قضى عليها فى لحظة واحدة !

علىّ أن أجيبه ، لأن سكوتى يزيد فى غضبه ؛ وأمده دور ترتوف بما يقوله :

— لست ملاكا .. وقد أخلصت فى خدمتك ، وكنت كريما فى دفع أجرى ... كنت معترفا بفضلك ولكننى فى الثانية والعشرين من عمرى.. وأفكارى كلها ، وأنا مقيم فى هذا المنزل ، لم تكن تتجه إلا إليك وإلى هذه الفتاة الظريفة ...

— يالك من شيطان ! ظريفة ! ظريفة ! كان عليك أن تهرب فى اليوم الذى وجدتها ظريفة فيه .

— حاولت ذلك ، وطلبت منك أن أسافر إلى لنجدوك .

وأتعبت المركيز شدة غضبه وسيره فى الغرفة ، وغلبه الألم فجلس على مقعد ، وسمعه جوليان يقول لنفسه : إنه ليس شريرا . فجثا عند ركبتيه وقال:

— إننى لست شريرا معك ، ولكن سرعان ما استولى عليه خجل شديد من هذه الحركة التى أتاها ، فنهض فى الحال .

كان المركيز شارد اللب حقا . فلما رآه يجثو ، انهال عليه مرة أخرى بالشتائم التى لا تصدر إلا من سائق عربة . وربما كانت حدة هذه الشتائم مدعاة إلى التسرية عنه .

— ماذا ؟ أستدعى ابنتى مدام سورل ! ماذا ! لن تكون ! لن تكون ابنتى دوقة !

وفى كل مرة كانت هاتان الفكرتان تظهران أكثر وأوضح ، حتى أصبحت نفس المركيز فريسة لآلام شديدة ، فلم يستطيع السيطرة على حركاته ، حتى خشى جوليان أن ينهال عليه ضربا .

أما فى اللحظات الهادئة ، وحين أخذ المركيز بعناء ماحل به من ألم ، فكان يلوم جوليان فى هدوء قائلا له :

— كان عليك أن تفر ياسيدى .. كان الواجب يحملك على أن تهرب .. إنك أحقر الرجال .. فدنا جوليان من المنضدة وكتب مايلى :

أصبحت الحياة مرة منذ وقت طويل ، من أجل ذلك عمدت إلى الانتحار ، وإنى أرجو سيدى المركيز أن يتقبل منى خالص شكرى

واعترافى بجميله الذى لا حدّ له ، وأسفى الشديد لما قد يسببه موتى فى قصره من حيرة وارتباك .

— ليسمح سيدى المركيز فيلقى نظرة على هذه الورقة . . اقتلنى أو كلف أحد خدمك أن يقتلنى . نحن الآن فى الساعة الأولى صباحا ، وسأذهب إلى الحديقة أتنزه فيها عند الجدار الداخلى . فصاح المركيز به وهو ينصرف :

— إلى الجحيم .

ثم تحدث جوليان الى نفسه قائلا : أنا أدرك أنه لن يغضب مادمت قد وكلت أمر القضاء على حياتى الى خادمه .. ليقتلنى ، على بركة الله ، هذه ترضية أقدمها له ... ولـكن يا إلـهى ! إنى أحب الحياة ... وعلى واجب نحو ابنى .

طرأت عليه هذه الفـكرة ووضحت لأول مرة فى ذهنـه ، وشغلته تماما بعد أن قضى بضع دقائق فى هذه النزهة الخطرة .

وخلق منه هذا الاهتمام الجديد بابنه انسانا حذرا ، فأخذ يقول : انى فى حاجة الى من يشير على ، مبتغيا عنـده النصح فى الطريقة التى أسلـكها مع هذا الرجل الأهوج .. ليس فى رأسه مسكة من عقل ، وهو قادر على كل شىء . وفوكيه بعيد عنى ، وهو مع ذلك لا يدرك العواطف التى تستولى على قلب كقلب المركيز .

والـكونت ألتاميرا ... ولـكن هل أنا واثق من أنه يحفظ السرّ ؟ يجب ألا يكون طلبى للمشورة مثيرا لعراك ، جالبا على موقفى تعقيدا جديدا .

وا أسفاه ! لم يبق أمامى من أشتشيره إلا ذلك الرجل القاتم النفس، ألا وهو الكاهن پيرار ... لقد أثر فيه مذهب ينسينيوس فضيق أفقه العقلى ... إن وغدا من اليسوعيين ليعرف الحياة خيرا مما يعرف ، وليستطيع أن ينير لى السبيل ... والسيد پيرار لن يتردد فى أن يضر بنى إذا ما أخبرته بجرمى.

إلا أن براعة تار توف أسعفت جوليان فقال : سأذهب إليه لأعترف أمامه . وكان هذا آخر قرار اتخذه بعد أن ظلّ يتنزه فى الحديقة ساعتين كاملتين . ولم يعد يفكر فى طلقة نار تباغته ، ثم غلبه النعاس فنام .

وفى ساعة مبكرة من صباح اليوم التالى ، كان جوليان على بعد بضعة فراسخ من باريس يطرق باب هذا الكاهن الصارم . واشد ماذهل حين رأى الأب پيرار لم يعجب كثيرا مما أفضى به جوليان إليه من أسرار .

فقال الكاهن فى لهجة حزينة أكثر منها لهجة غضبى : ربما كنت ملوما فى ذلك ، فقد خيلّ إلىّ أنى أرى هذا الحب ، ولكن صداقتى لك أيها التعس حالت بينى و بين إخطار الوالد .. فسأله جوليان فى حمية :

ماذا تظن أنه فاعل ؟

وكان جوليان يحب الكاهن فى هذه اللحظة ، ولو أن پيرار تشاجر معه لكان لذلك أسوأ وقع على نفسه .

واستطرد يقول : إنى أرى ثلاث طرق : أولاها : أن السيد دى لامول سيقتلنى ؛ ثم قص على الكاهن قصة خطاب الانتحار الذى أعطاه للمركيز وثانيتها : أنه سيغرى ابنه بى ، فيطلبنى الكونت نوربير إلى المبارزة . فغضب الكاهن ونهض واقفا وقال :

هل تقبل مبارزته ؟

إنك لا تدعني حتى أتم لك ما أقول . ومما لاشك فيه أنني لن أطلق النار على ابن من أحسن إلى .

أما الثالثة : فهي أنه قد يفكر في إبعادي . ولو طلب مني أن أذهب إلى ادنبرج أو نيويورك ما خالفت له أمرا وفي استطاعتهم إذن أن يخفوا ما بالآنسة دى لامول ؛ ولكنني لا أوافق أبدا على أن يقتل ابني .

— أؤكد لك أن هذه ستكون أول فكرة تخطر على بال هذا الرجل اللعين ...

أما في باريس ، فكانت ماتيلد قد بلغت درجة كبيرة من اليأس . كانت قد رأت أباها في الساعة السابعة ، وأطلعها على خطاب چوليان ، وكانت تخشى كثيرا أن يكون قد قتل نفسه تلبية لنداء الشرف . ثم أخذت تسائل نفسها في ألم بعثه الغضب : أيقتل نفسه دون أن يستأذنني ؟ ثم قالت لأبيها :

إذا كان قد مات ، فسأموت أنا كذلك ، وستكون أنت سبب موته... ربما كان يلذ لك ذلك ... ولكن أقسم لك بروحه أنني سألبس عليه الحداد أولا ، وسيعلم الناس جميعا أني أرملة سورل ، ثم سأرسل بطاقات الدعوة للعزاء ، فثق بهذا تماما . ولن تجد في نفسي أى لون من ألوان الجبن أو الخور .

كان حبها لچوليان قد وصل إلى حد الجنون . أما المركيز فقد ظل ساكتا لايدري ماذا يقول . وبدأ ينظر إلى هذه الأحداث في شيء من

العقل والروية . لم تتناول ماتيلد الغداء مع أسرتها ، فخففت كثيرا بغيابها عن أبيها ، وقد لحظ أنها لم تقل لأمها شيئا فسره ذلك ، وأرضى كبرياءه .

ترجل جوليان ونزل عن جواده ، فنادته ماتيلد وارتمت بين أحضانه على مرأى من وصيفاتها . لكنه لم يظهر فرحا بهذا اللقاء الذى يفيض غبطة وسرورا ، فقد أصبح على إثر حديثه الطويل مع الكاهن ، سياسيا ماهرا كثير الحيطة والحذر . وكان خياله فى شغل دائم بإحصاء ما سيحدث .

وأخبرته ماتيلد والدموع تترقرق فى عينيها بأنها رأت خطاب الانتحار ، وقالت له :

لقد يغير والدى رأيه ، فأرجو أن ترحل حالا إلى ڤيلكييه . امتط جوادك قبل أن يفرغوا من الطعام .

ولما رأته لايزال يبدو عليه الفتور والعجب ، ذرفت عيناها دموعاً غزيرة ، وصاحت قائلة فى حمية شديدة :

دعنى أنا أشرف على أمورنا . إنك تعلم أنى لا أحب أن أفارقك طائعة مختارة . اكتب إلى باسم وصيفتى ، على أن يكون العنوان بخط غير خطك ، أما أنا فسأكتب إليك مجلدات . وداعا ! اهرب .

فجرحته الكلمة الأخيرة ، لكنه نزل على إرادتها ، وأخذ يقول فى نفسه : لقد كتب على هؤلاء الناس حتى فى أسعد لحظاتهم أن يجدوا كلمة واحدة يجرحوننى بها .

عارضت ماتيلد فى كل المشروعات المعقولة التى عرضها عليها أبوها معارضة حازمة . ولم ترد إطلاقا أن تتناول المفاوضات أساسا آخر غير هذا الأساس : فهى لاتقبل إلا أن تكون مدام سورل ، وتعيش مع زوجها فقيرة فى سويسرا أو عند أبيها فى باريس . ورفضت رفضا باتا اقتراح أبيها فى أن تعمل لها عملية إجهاض ، وقالت له : لو أننى أطعتك لكنت عرضة للأحاديث ولحقنى العار . ولكنى سأقوم برحلة مع زوجى بعد زواجنا بشهرين ، وسيكون من اليسير علينا أن نقول : إن ابنى ولد بعد أن نحدّد الزمن المناسب .

لاقى المركيز ثبات ماتيلد بغضب كثير أول الأمر ، غير أن الشكوك أخذت تتسرب إلى قلبه .

وفى لحظة من لحظات الحنان والشفقة ، قال لها :

خذى ! هذا صكّ بدخل يبلغ عشرة آلاف من الفرنكات ، ابعثى به إلى چوليانك ، وحذرا أن يقع فى يدى .

وكان چوليان قد قطع أربعين فرسخا بدون جدوى ، لا لشىء إلا ليطيع ماتيلد التى يعرف عنها شغفها بالأوامر ، ذهب إلى ڤيلليكيه ليرصد حساب الفلاحين ، ثم عاد إلى باريس على أثر هبة المركيز . ذهب إلى الأب پيرار يطلب الضيافة عنده . وكان الكاهن أثناء غياب بطلنا قد أصبح لماتيلد حليفا نافعا . فكان فى كل مرة يسأله فيها المركيز رأيه يبرهن له على أن أى حل آخر غير الزواج العلنى ، يعدّ عند الله إثما عظيما .

وكان يقول له :

من حسن الحظ أن الحكمة الدنيوية لاتتعارض مع الدين . هل نستطيع أن نضمن أن الآنسة دى لامول ستحافظ على سر لاتريد هى أن تكتمه ، مع ماتعرفه عنها من خلق ثائر ؟ إننا إذا لم نوافق على هذا الطريق القويم فى الزواج العلنى ، فإن المجتمع سيتخذ من هذا الزواج الذى لاتكافؤ فيه ، مادة غزيرة للحديث وقتاطويلا. فعلينا أن نقول كل شىء دفعةواحدة ، دون التظاهر بأدنى شىء ، ودون أن يبدو فيما تقول أو تفعل ، لون من الغموض . ففكر المركيز فيما سمع وقال :

ـــ صحيح ماتقول . لـكن الطريقةالتى ترمى إلى إعلان الزواج بعد ثلاثة أيام تكشف عن رجل لا رأى له . يجب أن ننتهز فرصة حركة كبيرة من جانب الحكومة ضد اليعقوبية فنندس فى أثرها متنكرين .

كان صديقان أو ثلاثةمن أصدقاء المركيز دى لامول يوافقون الكاهن پيرار على ما يقترحه . غير أن العقبة الكبرى فى نظرهم هو هذا الخلق الحازم الذى تتمسك به ماتيلد . وعلى الرغم من تلك الحجج المنطقية الوجيهة ، فإن نفس المركيز لم تستطع أن تعتاد التنازل عن الأمل فى أن تكون ابنته من المترددات على البلاط .

كان خيال المركيز وذاكرته لايزالان محشوين بالدهاء والزيف على اختلاف ألوانهما ، مما كان فى طبعه فى شبابه . فهو يؤمن بأن الخضوع للضرورة ، والخوف من القوانين أمور تافهة مخلة بشرف من هو فى مثل مكانته . لقد أخذ يدفع الآن ثمنا غاليا لأحلامه الساحرة ، وآماله التى بناها على مستقبل ابنته العزيزة .

وأخذ يناجى نفسه قائلا : من ذا الذى كان يتنبأ بمثل هذا المصير ؟ إنها فتاة ذات نفس سامية ، ونبوغ عظيم وهى أكثر فخرا منى بالاسم الذى تحمله ! لقد طلب منى يدها خيرة شباب فرنسا وأكثرهم مجدا !

علىّ أن أدع الحذر جانبا . لقد قلب هذا القرن كل الأوضاع ! وإننا فى طريقنا إلى التخبط !

الفصل الرابع والثلاثون

رجل ذو فطنة

[كان الحاكم يركب جواده يوما ويقول :
«لم لا أصبح وزيراً ، رئيسا للوزراء ، دوقا ؟ هاهى ذى طريقتى فى الحرب ... إننى بهذه الوسيلة أكبل المجددين بالأغلال .. »]
لى جلوب

لم يستطع برهان من البراهين أن يقضى على سلطان الأحلام الجميلة التى لازمت المركيز عشرة أعوام . ثم وجد أن الحكمة تقضى عليه بألا يغضب ، ولكنه لم يقدر على الصفح . وكثيرا ما كان يقول : ليت چوليان هذا يموت فى حادث من الحوادث ... و إذن كان خياله الحزين يسبح فى آفاق للنجاة ، ليست سوى أمان وهمية تحقيقها عسير ، كانت تعطل أثر النصائح الحكيمة التى يبديها الكاهن پيرار . ومضى شهر على هذه الحالة ، لم تتقدم فيه المفاوضات خطوة واحدة .

طرأت على المركيز آراء سديدة فى هذه المشكلة العائلية ، كما تطرأ عليه فى الأمور السياسية ، وظلت تملكه ثلاثة أيام ، فكان شديد التحمس لها . من أجل هذا لم يقبل خطة عرضت عليه ؛ لأنها تستند إلى آراء حكيمة ، وهو لا يؤمن بالآراء الحكيمة إلا إذا دعمتها الخطة التى تتراءى له . وظلّ يعمل ثلاثة أيام فى جدّ وحماسة ، كما لو كان شاعرا يجد فى إتمام قصيدة لينتهى فى هذه المشكلة إلى حلّ ، وفى اليوم التالى لم يعد يفكر فيما فعل .

كان جوليان مضطربا لبطء المركيز أول الأمر ، ولـكنه بعد بضعة أسابيع اعتقد أنه ليس لدى المركيز خطة معينة فيما حدث .

أما مدام دى لامول وجميع من فى المنزل ، فقد اعتقدوا أن جوليان فى رحلة فى الريف لادارة شئون بعض الأراضى ؛ وما كان جوليان إلا مختفيا فى دار الـكاهن پيرار ، وهو يرى ماتيلد كل يوم تقريبا ؛ أما هى فـكانت تلقى أباها ساعة كل يوم ، وقد ظلا أسابيع كاملة لايتحدثان عن هذه المشكلة التى تشغلهما معا . وفى يوم من الأيام قال لها المركيز :

— لا أريد أن أعرف مكان هذا الرجل ، فأرسلى إليه هذا الخطاب .

فقرأت ماتيلد فيه :

« إن أرض لننجدوك تدرّ ستمائة وعشرين ألفا من الفرنـكات ، أمنح ابنتى منها ستمائة وعشرة آلاف وأعطى السيد جوليان سورل عشرة آلاف فرنك . فاطلب إلى الـكاتب أن يعدّ عقدى هبة منفصلين ثم يحضرهما إلىّ فى الغد ، وبعد هذا تنقطع الصلة بيننا تماما . آه ياسيدى ، هل استحق منك كل هذا ؟ » المركيز دى لامول

فقالت ماتيلد فى غبطة :

أشكرك كل الشكر . وسنقيم فى قصر آجيّون بين آجن ومار ماند ، لأن هذه المقاطعة — كما يقال — تضارع إيطاليا فى جمالها .

أذهلت هذه الهبة جوليان ذهولا شديدا . ولم يعد ذلك الرجل الصارم الفاتر الذى عرفناه من قبل . إن مصير ابنه كان يشغل أفـكاره كلها مقدما . وقد خلقت منه شخصا طموحا هذه الثروة غير المتوقعة ، والتى

تعدّ ثراء عريضا بالنسبة إلى رجل فقير مثله . لقد أصبح دخله هو وزوجته ستة وثلاثين ألفا من الفرنكات .

أما ماتيلد فقد كانت فى شغل عن هذا كله بحبها الشديد لچوليان ، ذلك الحب الذى غمر نفسها ، وفرضت عليها كبرياؤها دائما ألا تدعوه إلا بزوجها . وكان طموحها الشديد الذى تمكن من نفسها ، هو أن يعترف بزواجها منه . كانت تقضى حياتها فى المبالغة الشديدة بأنها أحسنت صنعا حين ربطت مصيرها بمصير ذلك الرجل الممتاز . فقد كانت المواهب الشخصية تملك عليها لبّها كلّه .

وكان غياب چوليان عنها ، والأعمال الكثيرة التى بين أيديهما ، والوقت القصير الذى يستطيعان التحدث فيه عن الحب . كان هذا كله عوامل خدمت السياسة الحكيمة التى ابتدعها چوليان خدمة كبيرة .

وعيل صبر ماتيلد من ندرة ماترى الرجل الذي أصبحت تحبه حبا حقيقيا عنيفا .

وفى ساعة من ساعات الغضب كتبت إلى أبيها خطابا و بدأته على طريقة عطيل :

« لقد فضلت چوليان على كل اللذات التى يقدمها المجتمع لابنة المركيز دى لامول ؛ لقد وقع اختيارى عليه ، لأنى لا أعتد أبدا بمظاهر الاحترام ولا بتلك الكبرياء التافهة . ومضت علىّ ستة أسابيع عشت فيها بعيدة عن زوجى . وهذا يدلك على مقدار احترامى لك . لكننى سأغادر منزلك قبل يوم الخميس القادم . لقد أصبحنا غنيين بما غمرتنا من كرمك .

ولا يعرف سرى إلا الكاهن الجليل پيرار . سأذهب إليه ليزوجنا ، وبعد حفل الزواج بساعة سنكون فى طريقنا إلى لنجدوك ، ولن نعود إلى باريس أبدا إلا إذا أذنت لنا فى أن نعود . غير أن ما يحزّ فى نفسى ، هو أن الناس سيتخذون من أمرى سببا فى اغتيابى واغتيابك . هل تعتقد أن الهجاء الذى سيصدر عن هذا الجمهور الأحمق ، سيحمل عزيزنا نورپير على أن يصطدم بچوليان ؟ إنه إن فعل ، ما استطعت التأثير على زوجى ، فإنى أعرف خلقه جيدا ، فنفسه نفس رجل من الشعب ثائر دائما . أى والدى ! أتوسل إليك أن تحضر زواجى فى كنيسة الكاهن پيرار يوم الخميس القادم . إن أثر وقع هذا الأمر على نفسك سيكون قد خفّ ، وستصبح حياة ابنك الوحيد وحياة زوجى فى مأمن من كل خطر ... »

وأحدث هذا الخطاب فى نفس المركيز ارتباكا عنيفا . كان عليه إذن أن يتخذ قرارا . لم تؤثر فيه العادات التافهة ، وفقد أصدقاؤه كل سيطرة عليه ، فقد كان ينظر إلى آرائهم بازدراء .

وتسلطت عليه طبائعه أيام شبابه ، تلك التى كانت تصقل نفسه ، وتذكر هذا كله فى محنته الحاضرة . لقد خلق منه شقاء الهجرة وبؤسها رجلا ذا خيال .

فبعد أن تمتع عامين بثراء عريض ومكانة كبيرة فى البلاط ، طوح به عام ١٧٩٠ فى أشد حالات البؤس ، بعد أن هاجر مع غيره من الأشراف . وقد غيرّت هذه المدرسة القاسية من اتجاهات نفسه الفتية ، نفس شاب فى الثانية والعشرين من عمره . والواقع أنه كان يعسكر الآن وسط ثروته

الحاضرة ، دون أن يتحكم فيه غناه . غير أن هذا الخيال الذى حال بينه و بين الوقوع تحت سيطرة الذهب ، زيّن له رغبة ملحّة فى أن يرى ابنته تحمل لقباً جميلا يناسبها .

استولت على المركيز دى لامول نزوة فى الأسابيع الستة المنصرمة ، فأراد أن يصبح جوليان غنياً ، لأنه كان يرى الفقر عاراً ومخلا بالشرف بالنسبة إليه ، ويعدّ شيئاً لا يطاق بالنسبة لزوج ابنته ؛ فأخذ يبذر المال عن سعة . وكان خياله فى اليوم التالى يصور له فكرة جديدة ، فقد كان يعتقد أن جوليان سينصت إلى هذه اللغة الصامتة ، لغة الجود فى بذل المال ، فيعمد إلى تغيير اسمه ، وينفى نفسه فى أمريكا ، ويكتب إلى ما تيلد يطلب منها أن تقطع كل صلة به وتعده بالنسبة إليها ميتاً . وكان المركيز يؤمن بأنه ما دام هذا الخطاب قد أصبح بين يدى ما تيلد ، فإنه استطاع أن يبسط نفوذه على ابنته من جديد . . .

وفى اليوم الذى انتزعه خطاب ما تيلد من آرائه التى لا تليق إلا بشاب ، فحمله على التفكير فى الأمر على ضوء الواقع ، بعد أن فكر وقتاً طويلا فى أن يقتل جوليان أو يخلى طريق ابنته منه ، أخذ يفكر الآن فى أن يعد له مكانة سامية . فسماه باسم ضيعة من ضياعه ، ولم يجعله ندا له فيلحقه بطبقة الأشراف ، فكثيراً ما حدثه صهره الدوق دى شون عن رغبته فى أن يخلع لقبه على الكونت نوربير ، بعد أن قتل ابنه الوحيد فى أسبانيا . .

ثم أخذ المركيز يقول فى نفسه : لا يستطيع المرء أن ينكر أن جوليان ذو مقدرة كبيرة على العمل ، وأنه جرىء ، وربما كان ذا فطنة وفكر

ثاقب . . . على أنى ألمح فى خلقه شيئاً يبعث الرعب فى النفوس . وهذا أثر يتركه فى قلوب الناس جميعاً . فهو إذن حقيقى . وكلما صعب على المركيز الشيخ أن يدرك كنه هذه الحقيقة الواقعة ، سيطر الخوف على نفسه المتشبعة بالخيال .

لقد ذكرت ابنتى هذه الحقيقة منذ أيام فى كثير من المهارة والتوفيق ، فى خطاب لم تعرض له . فقالت . إن چوليان لم يشترك فى صالون ولا يمت بصلة إلى أى حزب . ولو أنى تخليت عنه ، ما وجد من يعضده فى العمل ضدى ، ولن يعمد حتى إلى أتفه الوسائل . ولـكن هل يعد هذا جهلا منه بالحالة الحاضرة للمجتمع ؟ . . . لقد قلت له مرتين أو ثلاث مرات : إن الصالونات هى الأماكن الوحيدة التى تضمن للمرء مركزاً حقيقياً كثير النفع . . . لا ، إن نفسه لم تفطر على النبوغ الذى ينم عن المهارة والمراوغة ، كنبوغ النائب الذى لا يضيع دقيقة ولا يترك فرصة تفلت من بين يديه .

خلقه ليس كخلق عصر لويس الحادى عشر . ومن ناحية أخرى أراه يدين بالمبادىء التى تعد على جانب كبير من الوضاعة .. إنى لأضل .. هل سيستعين بهذه المبادىء ليقيم منها سوراً يقى به أهواءه ؟

وعلى الجملة فقد بقى شىء ، وهو أنه لا يصبر على الاحتقار ، إنى أملكه من هذه الناحية .

هو لا يؤمن بالحسب والنسب ، واحترامه لنا — فى الواقع — ليس غريزة فيه . . . وهذا خطأ كبير ؛ وعلى كل حال فنفس طالب العلوم الأكليريكية لا تثور إلا لحرمانها من المتعة والمال . أما هو فعلى نقيض

ذلك تماماً ، لأنه لا يصبر على الإهانة أبداً . حمل خطاب ما تيلد أباها على أن يتخذ قراراً عاجلا فى هذا الأمر ، فأخذ يحدث نفسه قائلا : المسألة تنحصر على الجملة فى : هل أقدم چوليان على مغازلة ابنتى والتودد إليها ، لأنه يعلم أننى أحبها كثيراً وأن دخلى مائة ألف إيكو فى السنة ؟

أما ماتيلد فإنها تنزهه عن هذا . . . لا ، يا سيد چوليان ، هذا أمر يجب أن أعرف حقيقته تمام المعرفة .

هل كان مدفوعاً نحوها بحب حقيقى مفاجىء ؟ أم دفعته رغبة دنيئة فى أن يصل إلى مركز رفيع ؟ إن ما تيلد بعيدة النظر ، لقد فطنت إلى أن هذا الشك جدير بأن يقضى على مكانته فى نفسى ، فاعترفت لى بأنها هى التى أحبته أولا . أتنسى فتاة رفيعة الخلق نفسها ، وتقدم على ارتكاب هذه الوسائل المادية ... تضغط ذراعه فى الحديقة ذات مساء ، فياللخزى ! تفعل هذا كما لو كانت لا تعرف مائة طريقة أخرى أقل منافاة للآداب ، لتبرهن له بها على أنه موضع رعايتها .

الاعتذار دليل الاتهام ، وعلى هذا فأنا أحذر قول ماتيلد ...

كانت آراء المركيز فى ذلك اليوم قاطعة أكثر من ذى قبل . لكن العادة تغلبت عليه ، فعزم على أن يكسب بعض الوقت ، ويكتب إلى ابنته وكان هو وابنته قد جريا على عادة الكتابة من أحد جوانب القصر إلى جانبه الآخر ؛ لأن المركيز لم يكن ليقدم على مناقشة ما تيلد وجها لوجه ؛ لأنه كان يخشى أن ينتهى كل شىء وفق ما تهوى .

خطاب

«حذار من أن ترتكبى حماقات جديدة ، و إليك شهادة لضابط فى الخيالة

. باسم السيد الفارس چوليان سورل دى لا ڤرناى . إنك ترين ما أفعله له فلا تغضبيني ولا توجهي إلىّ أى سؤال . وليسافر إلى استرا سبورج ايلحق بفرقته بعد أربع وعشرين ساعة . وإليك حوالة مالية على عميلى هناك ، وعليكما بطاعتى » . فتجاوز حب ماتيلد . فرحها كل حد يوصف ، فأرادت أن تنتهز فرصة هذا النصر وترد على خطاب أبيها فى الحال ؛ فكتبت إليه :

« لو أن السيد دى لا ڤرناى عرف ما تفضلت عليه به ، لكان الآن جاثياً عند قدميك شكراً لله واعترافاً بجميلك . لكنك يا والدى وسط هذا الفضل العميم قد نسيتنى ، نسيت أن شرف ابنتك فى خطر . وقد لحقها عار أبدى ، لا يستطيع دخل قدره عشرون ألف إيكو أن يمحوه أبداً . إننى لن أرسل البراءة إلى السيد دى لا ڤرناى ، إلا إذا وعدتنى بشرفك أن زواجنا سيتم فى الشهر القادم بصفة علنية فى ڤيلكيه . وإنى أتوسل ألا تتجاوز هذا الموعد لأن ابنتك لن تستطيع الظهور أمام الناس بعد ذلك إلا باسم مدام لا ڤرناى .

أشكرك كل الشكر أيها الوالد العزيز على أن خلصتنى من هذا الاسم : سورل ..

وكان الرد على هذا الخطاب غير متوقع :

« أطيعينى وإلا نقضت كل شيء . ارتعدى أيتها الحمقاء . إننى لم أعرف بعد شيئاً عن چوليان هذا ، وأنت تجهلين من أمره أكثر مما أجهل .

فليسافر إلى استرا سبورج ، وليضع نصب عينيه أن يسلك طريقاً مستقيما ، وسأبدى لك رأيى بعد خمسة عشر يوماً » .

فذهلت ما تيلد من هذه الإجابة الحازمة . « أنا لا أعرف چوليان » ثم أطلقت العنان لأحلامها لما قرأت هذه العبارة ، فزينت لها الأحلام فروضاً خلع عليها خيالها ألواناً ساحرة ، فآمنت بها على أنها حقائق ، وأخذت تناجى نفسها قائلة : إن نفس عزيزى چوليان لم تعتد أن تلبس لباس الذلة الذى تخلعه الصالونات على النفوس ، ومع ذلك فوالدى لا يؤمن بسمو نفسه ، لأنه شديد الإيمان بالصالونات . . .

ومع هذا فأنا إذا لم أنزل على ما يمليه هذا الخلق الضعيف ، فإنى أخشى أن تحدث فضيحة علنية ، تنقص مكانتى فى نظر الناس ، وقد تقلل من حب چوليان لى . وسنقضى بعد هذه الفضيحة عشرة أعوام فى فقر شديد ؛ وحماقة اختيار زوج ذى مواهب لن تسلم من السخرية إلا إذا بذلنا فى سبيلها المال الكثير . ولو أننى عشت بعيدة عن والدى ، فقد ينسانى لشيخوخته ... وقد يتزوج نوربير امرأة ظريفة مستقيمة : لقد أغوت دوقه برجونى لويس الرابع عشر فى شيخوخته !...

لقد عزمت على أن تطيع أمر أبيها ، ولكنها لم تشأ أن ترسل خطاب أبيها إلى چوليان ، مخافة أن يحمله ما فى خلقه من نفور إلى ارتكاب عمل جنونى .

ولما أخبرت چوليان فى المساء بأنه أصبح ضابطاً فى الخيالة ،

كان سروره لا يقدر؛ فقد تحقق ما كان يبتغيه طول حياته من طموح ، وأصبح الآن حبه لابنه يملك عليه كل نفسه ، من أجل ذلك كان فرحه كبيراً إلى أبعد حد ، وأذهله تغيير اسمه ذهولا شديداً .

وأخذ يناجي نفسه : إن قصتي — في الواقع — قد انتهت ، والفضل في نجاحها راجع إليّ وحدى ! ثم نظر إلى ما تيلد وقال : لقد عرفت كيف أحمل هذا الشيطان الغرور على أن تحبني ، إن أباها لا يطيق أن يحيا بدونها ، وهي لا تستطيع أن تعيش بعيدة عني .

الفصل الخامس والثلاثون

عاصفة

[يا إلهي ! هبني ضعة الشأن !]

ميرابو

كانت نفس جوليان مشغولة بما أخبر به ، لذلك قابل حب ماتيلد الشديد بحب ضعيف فاتر . وظلّ صامتاً عبوساً . ومع ذلك كان في نظرها أعظم وأروع في هذه اللحظة منه في أي وقت آخر ، لكنها كانت تخشى ثورة من ثورات الكبر فيفسد عليها كل أمر .

إنها ترى الكاهن پيرار يتردد على القصر في كل صباح . فهل أطلع جوليان على بعض نوايا المركيز ؟ أم كتب له أبوها تحت تأثير نزوة من النزوات ؟ وإلا فما السر في هذا العبوس في ساعة هي من أسعد ساعات حياتهما ؟ لكنها لم تجرؤ على سؤاله . إنها لم تجرؤ ! ماتيلد بنفسها ! لقد تكوّنت في نفسها منذ هذه اللحظة عاطفة تنطوي على الغموض ، وعلى المفاجأة والخوف منه : وأصبحت نفسها الغليظة تشعر بأقصى ما تشعر به نفس درجت وسط هذه الحضارة التي تُعجب بها باريس .

وفي ساعة مبكرة من صباح اليوم التالي ، كان جوليان في دار الكاهن پيرار . ثم وصل إلى فناء الدار جياد من خيل البريد ، وكرسي ممزق استؤجر من المحطة المجاورة . فقال له الكاهن الصارم في تقطيب :

— مثل هذا الركب لم يعد يليق بك . لك عشرين ألفاً من الفرنكات من المركيز دى لامول هدية لك ؛ وهو يطلب منك أن تنفق المبلغ كله فى هذا العام ، على ألا تكون عرضة للسخرية ما استطعت إلى ذلك سبيلا .

(إن وضع هذا المبلغ الكبير بين يدى هذا الشاب ليحمله على ارتكاب الآثام كما يظن هذا القسيس) .

واستطرد الكاهن يقول على لسان المركيز : على السيد جوليان دى لاقرناى أن يزعم بأنه أخذ هذا المال من أبيه ، ومن العبث أن يقول إنه أخذه من مصدر آخر . وربما وجد السيد دى لاقرناى أنه يحسن به أن يقدم هدية إلى السيد سورل النجار فى قريير، مكافأة على عنايته به فى طفولته ... واستطرد الكاهن يقول :

أستطيع أن أقوم بهذه المهمة عنك ؛ وقد حملت المركيز على مصالحة الكاهن فريلير لأنه متطرف فى اليسوعية ، بعد أن تبين لنا أن سلطانه أقوى من سلطاننا . وسيكون الاعتراف بكرم محتدك أحد الشروط الضمنية فى هذا الصلح ، إذ لا بد لنا من اعتراف ذلك الرجل — الذى يحكم بيزانسون — بما نريد .

لم يتمكن جوليان من السيطرة على نفسه لشدة فرحه ، حين وجد أنه المركيز قد اعترف به ، فعانق الكاهن ، لكن الأب پيرار دفعه عنه ، وقال :

— اخسأ ! فما هذا الغرور الدنيوى ؟ ... أما فيما يختص بسورل

وأولاده فسأرتب لهم معاشاً سنوياً قدره خمسمائة فرنك ، يدفع لكل منهم مادمت راضياً عنهم .

كان جوليان قد أصبح متعالياً فاتر اللهجة ، فشكر الكاهن بعبارات غامضة لا تربطه إطلاقاً بأى شىء . وأخذ يقول فى نفسه : أيمكن أن يقول بأننى ابن طبيعى لسيد من كبار الأشراف، نفاه إلى جبالنا نابليون الطاغية ؟

وخيل إليه من لحظة إلى أخرى أن هذا الرأى ليس بعيد الاحتمال.. ودليل على ذلك كراهيتى لوالدى ... لو أننى كنت ابنه حقاً ما كنت شيطاناً رجيما !

وبعد هذا الحديث بأيام قلائل، كانت الفرقة الخامسة عشرة للخيالة، التى هى من خير فرق الجيش كله ، فى معركة فى ميدان السلاح بأستراسبورج . وكان السيد الفارس دى لافرناى على ظهر جواد جميل من الألزاس ، كلفه ستة آلاف من الفرنكات . ونال رتبة الملازم، وإن لم يكن صف ضابط من قبل ، إلا فى فرقة لم يسمع عنها خبراً طول حياته . كان ثبت الجنان ، ذا نظرات قاسية قد تكون شريرة ، شاحب اللون ، هادىء النفس إلى حدّ كبير ، فبدأ يشتهر فى الفرقة منذ يومه الأول . وبعد قليل ظهر أدبه الجم ، الذى ينطوى على كياسة بالغة ، وبدت مهارته فى إطلاق النار وحمل السلاح ، وقد تعلمهما فى شغف لا تصنع فيه ، فلم يعد أحد من زملائه يرفع صوته ساخراً منه . ظلّ الرأى العام فى الفرقة متردداً فى أمر جوليان خمسة أيام أو ستة ، ولكنه أصبح بعد ذلك فى صالحه

تماماً ، فقد روى عنه أولئك الضباط المسنون الساخرون : هذا الشاب يتصف بكل شىء إلا بالشباب .

وقد كتب جوليان من ستراسبورج إلى السيد شيلان كاهن فرييز السابق ، الذى أصبح الآن فى آخر أيام حياته ، وبلغت به الشيخوخة منتهاها :

« لقد سررت حين بلغك خبر الظروف التى حملت أسرتى على أن تغمرنى بالمال ، وأنا لا أشك إطلاقاً فى مقدار فرحك لذلك . إليك خمسمائة فرنك ، أرجو أن تتفضل بتوزيعها على الفقراء والمحتاجين الذين كنت أنا مثلهم منذ زمن قريب ، وإنى لأعلم أنك تتصدق عليهم كما كنت تتصدق علىّ من قبل » .

كان جوليان تحت سلطان نشوة من الطموح لا من الغرور ؛ على الرغم من اهتمامه الشديد بمظهره الخارجى ، إذ كانت جياده وملابسه ، وثياب خدمه وأتباعه موضع رعاية شديدة منه ، فكأنه سيد إنجليزى ، كثير الولع بالمحافظة على مظهره . لقد أصبح ملازماً بطريق الاستثناء منذ يومين ، ومع ذلك فقد أخذ يحسب أنه سيصبح رئيس فرقة وهو فى سن الثلاثين ككلّ القواد العظام ، فيجب أن تكون رتبته وهو فى الثالثة والعشرين أعلى من رتبة ملازم، لم يكن يفكر إلا فى المجد وفى ولده .

وبينما هو غارق فيما يصوره له هذا الطموح الجامح ، أذهله أن رأى خادماً من خدم قصر المركيز دى لامول يأتى مسرعاً إليه ومعه الرسالة التالية من ماتيلد : « فقدنا كل شىء ؛ فأسرع بالحضور إلىّ ، مضحيّا

بكل شىء ، أهجر الجيش إذا لم يكن من ذلك بدّ . وانتظرنى بمجرد وصولك فى عربة على مقربة من باب الحديقة الصغيرة رقم ... المطل على شارع ... سآتى لأتحدث إليك وربما تمكنت من إدخالك الحديقة . لقد ضاع من أيدينا كل شىء ، وأخشى أن نصبح ولا مورد لنا ، ولكن اعتمد علىّ ، فستجدنى فى الشدة مخلصة حازمة . إنى أحبك » .

وفى بضع دقائق ، حصل جوليان على إذن من رئيسه الكولونل ، وغادر استراسبورج إلى باريس على عجل ، غير أن قلقه الشديد لم يسمح له بأن يواظب على هذه السرعة الجنونية بعد أن بلغ متز ، فقطع باقى المسافة فى عربة من عربات البريد ، ثم ذهب فى سرعة لا تصدق إلى باب حديقة قصر المركيز دى لامول . فتح الباب ، وظهرت ماتيلد فى الحال ، وارتمت بين ذراعيه ، ناسية كل وقارها غير مبالية بشىء على الإطلاق . ولحسن حظها كانت الساعة لا تزال الخامسة صباحاً والشارع لا يزال مقفراً من المارة ، وقالت له :

— لقد ضعنا : خاف أبى دموعى فسافر يوم الخميس مساء . إلى أين ؟ لا يعلم أحد إلى أين ذهب . وترك لى هذا الخطاب فاقرأه . ثم صعدت إلى جانبه فى العربة . « أستطيع أن أصفح عن كل شىء ، ولكنى لا أغفر مطلقاً أمر إغرائك ؛ لأنك غنية . هذه هى الحقيقة المرة أيها الفتاة التعسة . أقسم بشرفى أننى لست أوافق إطلاقا على أن تتزوجى هذا الرجل . إنى أمنحه معاشاً قدره عشرة آلاف من الفرنكات إذا قبل أن يعيش بعيداً ، خارج حدود فرنسا ، بل فى أمريكا على الأصح .

إقرئى الخطاب الذى تسلمته رداً على معلومات طلبتها . لقد طلب منى هذا الوقح بنفسه أن أكتب إلى مدام دى رينال : فأنا لا أريد أن أقرأ سطراً واحداً تكتبينه يخص هذا الرجل . لقد اشمأزت نفسى من باريس ومنك . وأطلب إليك أن تلزمى الكتمان وتحافظى على سرية كل ما حدث، تخلى تماماً عن هذا الوضيع لتجدى أباك بجانبك . »

فرغ چوليان ن قراءة الخطاب ، فقال فى فتور :

— أين خطاب مدام دى رينال ؟

ها هو ذا . لم أشأ أن أطلعك عليه قبل أن تتهيأ لذلك .

خطاب

« إننى يا سيدى تمشياً مع المبادىء السامية للدين والأخلاق أحمل نفسى هذه المهمة الشاقة التى أقوم بها من أجلك ؛ إن قاعدة لا يتطرق إليها الخطأ تأمرنى أن أذم إنساناً فى هذه اللحظة ، ولكنها تحول دون وقوع فضيحة خلقية كبرى، وإن الألم الذى أشعر به من جراء ذلك يخففه عنى شعورى بالقيام بالواجب. سلوك الشخص الذى تسألنى عنه ياسيدى قد يبدو غير مفهوم أو على جانب كبير من الاستقامة، وقد يعمد الإنسان إلى أن يخفى بعض الحقيقة ، أو أن يخلع عليها قناعا يسترها ، والحكمة تقتضى ذلك ويريده الدين . ولكن هذا المسلك الذى تريد أن تعرفه كان مسلكا شائناً إلى حد لا أستطيع وصفه . وذلك لأن هذا الشخص كان فقيراً وجشعاً ؛ وقد عمــــد إلى أبشع ألوان النفاق ، ليغرى امرأة ضعيفة تعسة ، فينال مكانة أو يصبح شخصا مذكوراً . ويخيل إلىّ أن من واجبى

الشاق أيضاً أن أرانى مضطرة إلى أن أقول : إن السيد ج ... لا يؤمن بأى مبدأ من مبادىء الدين . وأرانى مرغمة على أن أقول : إنه يعمد إلى إغواء السيدة التى يكون لها شأن فى المنزل ، متخذاً ذلك طريقة من الطرق التى تكفل له النجاح ، أقول لك هذا إرضاء لضميرى . إنه ليتذرع بمظاهر القناعة ؛ ويردّد عبارات اقتبسها من القصص ، ليصل إلى الغرض الذى ينشده، ويسعى إليه سعياً حثيثاً وهو أن يضع يده على صاحب الدار ويملك ثروته . ثم يترك من ورائه الشقاء والندم المرير ... »

هذا الخطاب الطويل الذى كادت الدموع تمحى نصفه ، كان بخط مدام دى رينال مكتوباً بعناية أكثر من المعتاد . وانتهى جوليان من قراءته فقال :

— لا أستطيع أن ألوم المركيز دى لا مول ، لأنه عادل وفطن . فأى أب يقدم على أن يزوج ابنته العزيزة رجلا هذا خلقه ؟! الوداع !

وقفز جوليان من العربة ثم جرى إلى مقعده فى عربة البريد التى كانت بانتظاره فى طرف الشارع حتى كأنه نسى ماتيلد ، فسارت خلفه بضع خطوات ، لكن نظرات التجار الذين كانوا يسيرون إلى حوانيتهم ، وكانوا يعرفونها ، اضطرتها إلى أن تهرول فتدخل الحديقة .

كان جوليان فى طريقه إلى ڤرييير . لم يستطع أن يكتب إلى ماتيلد وهو فى طريقه إلى بلدته كما كان عازماً على ذلك ؛ لأن يده كانت لا تخط على الورق إلا حروفاً لا تقرأ .

وصل إلى ڤرييير . فى صباح يوم الأحد . ودخل حانوت بائع الأسلحة

الذى أخذ يثنى عليه أجمل الثناء لثروته الحديثة . وكان هذا أهم خبر يتحدث به أهل هذه الناحية . ووجد جوليان مشقة كبيرة فى أن يفهم الرجل أنه جاء ليشترى مسدسين . وحشاهما التاجر بالرصاص كما طلبه منه جوليان .

جلجلت الدقات الثلاث ، وهى علامة يعرفها كل من فى قرى فرنسا ، تنبىء الناس ببدء الصلاة فى الحال ، بعد أن نبهتهم دقات أجراس الصباح إلى الصلاة . فدخل جوليان الكنيسة الجديدة فى ڤريير . وكانت النوافذ العليا مغطاة كلها بستائر قرمزية . ووجد نفسه خلف مقعد مدام دى رينال ببضع خطوات . وخيّل إليه أنها كانت تصلى فى حمّية وحرارة . ولما وقع نظره على تلك السيدة التى أحبها حباً جماً ، اضطربت ذراعه فلم يقو على تنفيذ مشروعه أول الأمر . وأخذ يقول فى نفسه : لا أستطيع ذلك ، إننى لا أستطيع أن أقدم على ذلك مادياً . وفى تلك اللحظة ، دقّ الشماس الذى يقوم بالصلاة علامة السمو . فخفضت مدام دى رينال رأسها الذى كان من قبل مختبئاً تماماً فى ثنايا محرمها . ولم يعرفها جوليان تمام المعرفة ، ومع ذلك فقد أطلق عليها رصاصة من مسدسه فأخطأ المرمى ، فأطلق عليها ثانية سقطت على إثرها .

الفصل السادس والثلاثون

ظروف محزنة

[لا تنتظرى أن أظهر بمظهر الضعف . لقد ثارت لنفسى . إنى أستحق الموت ؛ وها أنذا أموت ، فصلى على روحى] . شيلر

ظلّ چوليان واقفاً وهو جامد فى مكانه ، ولم يعد يرى شيئاً . وحينما أفاق قليلا وجد المؤمنين جميعاً قد غادروا الكنيسة ، وترك القسيس مكانه من المذبح . وتبع چوليان فى بطء بعض نساء كن يولولن وهن منصرفات . وكان بينهن امرأة تحاول الإسراع أكثر من غيرها ، فدفعته بقوة فسقط على الأرض . وكانت قدماه قد عثرتا فى مقعد ، أوقعه الجمهور وهو يفرّ من الكنيسة ، فوقع وحاول النهوض فشعر بضغط على رقبته ؛ كان الواقف بجواره شرطياً بملابسه الرسمية وقد قبض عليه . ورأى نفسه يحاول أن يمسك مسدسيه ليطلق النار على الشرطى ، ولكنّ شرطياً آخر كان قد أمسك بذراعيه .

واقتيد إلى السجن حيث أدخل غرفة من غرفه ، وكبّلت يداه بالأغلال ، ثم ترك وحده وأغلق الباب عليه بإحكام . . . جرى كل ذلك بسرعة عظيمة ، لكن چوليان لم يهتم إطلاقاً بالقبض عليه . ولما ثاب إلى رشده ، قال فى صوت مرتفع :

كل شيء قد انتهى فى الواقع ، فبعد خمسة عشر يوماً سأساق إلى المشنقة . . أو أقتل نفسى قبل ذلك .

لم يهده تفكيره إلى أكثر من هذا ؛ وقد شعر كأن رأسه مضغوط بشدة ، وخيل إليه أن إنساناً قد أمسك به . و بعد لحظات قليلة ، استغرق فى نوم عميق .

لم تجرح مدام دى رينال جرحاً عميقاً ، إذ اخترقت الرصاصة الأولى قبعتها وأصابتها الثانية وهى تلتفت ، فمست كتفها ، والغريب فى الأمر أن عظمة الكتف — و إن كانت قد كسرت — ردت الرصاصة فأصابت عموداً غوطياً من أعمدة الكنيسة،فاقتلعت جزءاً كبيراً من حجر العمود .

ضمّد جرحها واستغرق ذلك وقتاً طويلا،وتألمت منه ألماً شديداً ، لكن الجراح — وكان رجلا وقوراً — قال لها : إنى ضامن حياتك فلا تخافى شيئاً . فحزنت حزناً شديداً حين سمعت منه ما قال .

كانت تنتظر الموت منذ زمن طويل فى رغبة صادقة . والخطاب الذى أرغمها القسيس الذى اعتادت أن تعترف أمامه الآن ، فأرسلته إلى المركيز دى لامول، كان الضربة القاضية على هذه السيدة التعسة،التى هدمها ما تلقاه من شقاء مقيم . كان بؤسها فى غياب جوليان عنها ، كانت تناديه ، والندم يلاحقها . وقد كشف المدير الأمر ، وهو قس شاب متمسك بالفضائل، متحمس ، كان قد وصل أخيراً من ديجون .

وكانت تقول فى نفسها : خير لى أن أموت هكذا ، وألا أقتل نفسى بيدى لأنها معصية كبرى ؛ و يغفر الله لى فرحى بالموت . ولم تجرؤ على أن

تقول : والموت بيد جوليان منتهى السعادة .

ولم تكد تتخلص من الجراح ومن الأصدقاء الذين جاءوا للسؤال عنها مسرعين ، حتى استدعت إليزا وصيفتها ، وقالت لها والخجل الشديد يستولى عليها :

— إن السجان رجل قاس . ولا شك أنه سيسيء معاملته، معتقداً أنه يحسن بذلك إلىّ . . . هذه الفكرة تؤلمنى أشد الألم . أفلا تستطيعين أن تذهبي وتلقى هذا السجان كأنك ذاهبة إليه من تلقاء نفسك، ثم تعطيه هذه الصرة التي بها بضعة لويسات ؟ قولى له : إن الدين لا يسمح بأن يعامله معاملة سيئة . . وعليه ألا يتحدث إطلاقاً عن هذا المال .

وسعد جوليان بمعاملة حسنة بسبب هذا ؛ وكان السجان هو دائماً السيد نوارو ، ذلك الموظف المستقيم ، الذى ذعر ذعراً شديداً من حضور السيد آپير لزيارة السجن .

أتى إلى السجن أحد القضاة فقال له جوليان : لقد قتلت مع سبق الإصرار ، واشتريت المسدسين من فلان بائع الأسلحة وأمرته أن يحشوهما بالرصاص والمادة ١٣٤٢ من القانون الجنائى واضحة ، فأنا أستحق الموت وأنتظره . فذهل القاضى من هذه الإجابة ، وأراد أن يوجه إليه أسئلة عديدة لعل المتهم يرجع عن قوله . فابتسم جوليان وقال :

— ولكن ألا ترى أننى أعترف بأكثر مما كنت ترجو أن تحصل عليه؟ إنك يا سيدى لن تضيع الفريسة التى تطاردها . وستنال بالحكم علىّ لذة كبيرة فأعفنى إذن من حضورك !

وبعد ذلك أخذ يقول فى نفسه : بقى علىّ واجب يدعو إلى الملل ، فعلىّ أن أكتب إلى الآنسة دى لامول . وكتب لها يقول :

« لقد ثأرت لنفسى . وسيظهر اسمى فى الصحف لسوء الحظ ، ولن أستطيع أن أخرج من هذا العالم متنكراً . سأموت بعد شهرين . وكان الانتقام مريعاً ، كما كان فراقك مريراً مؤلما . لقد حرمت على نفسى منذ الآن أن أكتب اسمك أو أن أنطق به ، لا تتحدثى عنى بتاتاً حتى إلى ولدى ، فالسكوت خير طريقة لتمجيدى . أما عامة الناس فسيقولون : إننى قاتل دنىء . . . واسمحى لى أن أقول لك الحقيقة فى هذه اللحظة الأخيرة : حاولى أن تنسينى . إن هذه الكارثة الكبرى التى أنصح لك بألا تتحدثى عنها إلى أى إنسان بعد الآن ، قد قضت — إلى سنوات بعيدة — على ما فى خلقك من حب للمغامرة واندفاع وراء الخيال . لقد خلقت لتعيشى مع أبطال القرون الوسطى ، فأظهرى الآن ما كانوا يتصفون به من خلق حازم . إن كل ما سيحدث يجب أن يتمّ سرّا ، دون أن تثيرى حولك الشبهات . اتخذى لك اسما مستعاراً ، ولا تبوحى بسرك لإنسان . وإذا كان لابد لك من أن يعاونك صديق ، فأنصحك بالاعتماد على الكاهن بيرار . لا تكاشفى أى رجل آخر بما يدور فى نفسك ، وبخاصة أولئك الذين هم من طبقتك أمثال دى لوز وكايلوس .

وبعد موتى بعام تزوجى السيد دى كروازنوا ، أرجوك بل آمرك بهذا بصفتى زوجك . لا تكتبى إلىّ بعد الآن ، لأننى لن أردّ عليك . .

إننى — وإن كنت أقل أذى من ياجو على ما يظهر لى — إلا أننى أقول لك ما قاله : لن أقول منذ الآن كلمة واحدة .

لن يرانى أى إنسان أتكلم أو أكتب ؛ وهذه آخر كلماتى لك كما أبعث إليك بآخر عبارات حبى . »

ج . س

وبعد أن بعث بهذا الخطاب ، ثاب إليه رشده لأول مرة ، فشعر بشقاء كبير . وكانت آماله التى يمليها طموحه تنتزع من قلبه الواحد تلو الآخر،على أثر هذه العبارة المخيفة : إنى سأموت . لم يكن الموت فى حد ذاته مخيفاً فى نظره ؛ لكن حياته كلها كانت سلسلة من الشقاء ، إلا أنه لم يتفاد نسيان هذا الشقاء الذى يعده الناس جميعاً أشد أنواع الشقاء .

ثم أخذ يتحدث إلى نفسه ، ماذا دهانى ! لو أننى سأبارز بعد ستين يوماً رجلا ماهراً فى استعمال السلاح ، أكنت أفكر فى هذا الأمر دائماً ، والرعب يملأ نفسى ؟

وقضى أكثر من ساعة يبحث هذا الأمر بينه وبين نفسه . وحينما اتضح له ، وظهرت الحقيقة ماثلة أمام عينيه فى وضوح كمثول أعمدة السجن ، أخذ يفكر فى الندم ! ولكن لم أندم ؟ لقد امتهنت بطريقة مؤلمة ؛ لقد قتلت ، فأنا أستحق الموت ، وهذا هو كل شىء . ولكننى أموت بعد أن صفيت حسابى مع البشرية . ولم أترك أى التزام لم أقم به ، لست مديناً لأحد بشىء ، وليس فى موتى شىء يعيبه غير الآلة التى ستستعمل

فى قتلى : على أن هذا وحده كفيل فى الواقع بأن يجعل كلّ البرچواز بين فى ڤر يير يحتقروننى ، ولكن ما قيمة حكمهم إذا سلطنا عليه ضوء العقل ! لدىّ طريقة ترفع مكانتى فى نظرهم ، وهى أن أنثر الذهب وأنا مسوق إلى المشنقة . إن ذكراى ستظل مقترنة بالذهب ، وتبقى فى أذهانهم زمانا طويلا .

و بعد هذا التفكير الذى وضح فى ذهنه بعد دقيقة ، أخذ يقول : لم يعد لدىّ شىء أعمله فى الحياة . ثم نام نوماً عميقاً .

وفى الساعة التاسعة مساء ، أيقظه السجّان وحمل إليه عشاءه ، فسأله :

— ماذا يقولون فى ڤر يير ؟

— يا سيدى چوليان ، إن اليمين التى أقسمتها أمام الصليب فى المحكمة يوم عينت فى مكانى هذا ، تحتم علىّ الصمت .

ثم سكت ولكنه ظلّ فى مكانه . غير أن هذه الصورة من صور النفاق الدنىء قد سرّت عن نفس چوليان ، وقال فى نفسه : يجب أن أتركه يترقب قطعة خمسة الفرنكات التى يريدها ليبيعنى ضميره وقتاً طويلا .

ولما رأى السجان أن الوجبة قد انتهت دون أن يحاول چوليان إغراءه ، قال له فى لهجة كاذبة رقيقة :

— الصداقة التى أكنّها لك يا سيد چوليان تدفعنى إلى أن أتكلم ، ومهما قيل إن هذا مخالفة للعدل ، لأن ما أقول ربما يساعد دفاعك ... إن السيد چوليان ذلك الشاب الطيب ، سيسر حين أخبره بأن مدام دى رينال قد تحسنت صحتها . فثار وصاح قائلا :

— ماذا تقول ! أو لم تمت ؟ فأجابه السّجان فى لهجة تنم عن الغباء ، ولكنها سرعان ما دلت على الطمع الشديد :

— عجباً ! لم تكن تعرف شيئاً عن هذا ! يجمل بك ياسيدى أن تعطى شيئاً للجراح الذى يقضى عليه القانون وتحتم عليه العدالة بألا يقول شيئاً . ولكننى رغبة فى أن أدخل السرور على نفسك ، ذهبت إليه فى منزله بنفسى فقص علىّ كل شىء ... فثارت ثائرة جوليان وقال :

— الجرح إذن لم يكن خطرا ، فهل تضمن لى ذلك بحياتك؟

ومع أن السجان كان عملاقاً يبلغ ارتفاع قامته ست أقدام ، فإنه ذعر وأوى إلى جانب الباب . فأدرك جوليان أنه يسلك طريقاً معوجًّا لمعرفة الحقيقة، فجلس وألقى بنابليون إلى السيد نوارو .

ولما استطلع جوليان من قصة هذا الرجل أن جرح مدام دى رينال لم يكن مميتاً ، شعر بالدموع تترقرق فى عينيه ، فصاح به بغتة : اخرج ! فأطاع السجان . ولم يكد الباب يغلق ، حتى صاح جوليان وركع على ركبتيه ثم أخذ يبكى بكاء مرا و يقول : يا إلـهى ! إنها لم تمت !

وفى هذه اللحظة التى تعدّ من لحظات سمو النفس ، كان جوليان مؤمناً بالله . وما قيمة نفاق القسس ؟ أيستطيع هذا النفاق أن ينزع شيئاً من تلك الحقيقة السامية التى تعبر عن فكرة الإله ؟

و بدأ يشعر بندم شديد على الجرم الذى ارتكبه . واتفق فى تلك اللحظة فقط أن ذهب عنه غضبه الشديد وجنونه منذ أن غادر باريس إلى

قريير ، زايلته تلك الحالة النفسية فلم يستول عليه اليأس حين علم بأن مدام دى رينال لم تمت .

كانت دموعه غزيرة ، لأنه لم يشك إطلاقاً فى الحكم الذى سيصدر ضده . وأخذ يقول فى نفسه : إنها ستعيش إذن ! . . . ستعيش لتغفر لى ولتحبنى . . . .

وفى ساعة متأخرة من صباح اليوم التالى ، أيقظه السجان وقال له :

— أنت رجل ثابت الجنان يا سيد جوليان . لقد أتيت مرتين ولم أشأ أن أوقظك . إليك زجاجتين من أجود النبيذ يرسلهما لك كاهننا الأب مالون .

— كيف ذلك ؟ ألا يزال هذا الوغد هنا ؟ فقال له السجان فى صوت منخفض :

— نعم يا سيدى ، ولكن لاتتكلم بصوت مرتفع ، لأن هذا قد يجر عليك الأذى . فضحك جوليان فى مرح شديد وقال :

— أينالنى الأذى أكثر مما أنا فيه ؟ أنت وحدك يا صديقى الذى تستطيع إيذائى إن تجردت من العواطف الإنسانية الرقيقة . . سأجزل لك العطاء . قال له جوليان هذه العبارة فى لهجة تدل على العظمة ، ولكى يسوّغ ذلك فى الحال نفحه قطعة من النقود .

وأعاد عليه السيد نوارو كل ما سمعه عن مدام دى رينال ، ولكنه لم يخبره بزيارة الآنسة إليزا .

كان هذا السجان وضيعاً مغلوباً على أمره إلى أبعد حد . فطرأت

لجوليان فكرة: إن هذا المارد القبيح قد يكسب ثلثمائة أوار بعمائة فرنك فقط ، لأن السجن غير مزدحم بالنزلاء ؛ وفى استطاعتى أن أضمن له مبلغ عشرة آلاف من الفرنكات لو أنه فرّ معى إلى سويسرا . . . لكن الصعوبة هى كيف أقنعه بحسن طويتى ؟ . . . ثم عدل عن هذا الرأى لأن نفسه اشمأزت من الحديث الطويل الذى سيدور بينه و بين هذا المخلوق الدنىء حتى يقنعه ، وجعل يفكر فى أشياء أخرى .

وفى المساء فات أوان هذه الفكرة ، فقد أرسل إليه مقعد من مقاعد عربات البريد فى منتصف الليل . وسرّ من رجال الشرطة الذين رافقوه فى رحلته . ولما وصل فى الصباح إلى سجن بيزانسون ، ترفقوا به فوضعوه فى الطبقة العليا من برج قوطى . ورأى أن هندسته ترجع إلى أوائل القرن الرابع عشر ، وأعجب بأناقتها وخفتها التى تنطوى على المهارة .

ومن بين جدارين هناك ، رأى فرجة تطل على منظر بديع رائع .

وفى اليوم التالى ، حُقِّق معه ، ثم ظل هادئاً بضعة أيام . لقد كانت نفسه وديعة . ووجد أن مسألته تنطوى على جانب كبير من البساطة :

أردت أن أقتل فيجب أن أقتل .

ولم يعُدْ رأيه هذا النوع من التفكير . أما المحاكمة ، والضيق الذى يحمله على أن يظهر أمام الناس ، وكذلك الدفاع ، فقد كان يعد كل ذلك مضايقات يسيرة وحفلات مملة ، يكفى للتفكير فيها يوم حدوثها وحده . ولم يعد يفكر فى الموت إطلاقاً . قال : سأفكر فيه بعد المحاكمة . ولم يعد

يرى الحياة ، مملة بل نظر إلى الأشياء كلها نظرة جديدة . وولى عنه طموحه ولم يعد يفكر فى الآنسة دى لامول إلا قليلا. شغله النوم عن كل شىء ، وكانت صورة مدام دى رينال ماثلة أمام عينيه فى معظم الأوقات . وخاصة فى سكون الليل الرهيب، الذى يخيم على البرج، ولا يعكره إلا زقزقة العقاب البحرى !

وكم شكر السماء كثيراً على أنه لم يجرح مدام دى رينال جرحاً مميتاً . وأخذ يحدث نفسه قائلا : إن ما يدعو إلى العجب أننى كنت أعتقد أن خطابها إلى المركيز دى لامول ، قد قضى تماماً على سعادتى المستقبلة ، أما الآن ، أى بعد أن كتبت خطابها بخمسة عشر يوماً فلم أعد أفكر فيما كان يشغلنى من قبل ... إن دخلا يبلغ ألفى فرنك أو ثلاثة آلاف، يكفينى لأحيا حياة هادئة فى مكان جبلى مثل فرچى ... كم كنت سعيداً وأنا أعيش هناك ! ... ولكننى لم أكن أقدّر سعادتى حق قدرها ! .

وفى لحظات أخرى كان ينهض من مقعده فزعاً ويقول : لو كنت قد قتلت مدام دى رينال ، لقضيت على حياتى ... كم أنا فى حاجة إلى أن أعلم علم اليقين، بأنها لم تجرح جرحاً مميتاً حتى لا أحتقر نفسى .

أأقتل نفسى ! هذه هى المشكلة الكبيرة . هؤلاء القضاة المبالغون فى التدقيق والمتحمسون ضد كل متهم تعس ، لا يترددون فى أن يشنقوا خير المواطنين ليحصلوا على وسام ... إنّى سأنجو من سلطانهم ومن شتائمهم التى ينطقونها بلغة فرنسية رديئة ، ومع ذلك تصفها صحيفة المقاطعة بالبلاغة ...

سأعيش ما يقرب من خمسة أسابيع أو ستة ... ثم أخذ يقول بعد بضعة أيام :

أأقتل نفسى ! ولم ذلك ؟ لقد عاش ناپليون ...

ثم ضحك وقال : ومع ذلك فالحياة جميلة ، والإقامة هنا هادئة، لا يعكر صفوها أولئك الذين يبعثون الملل فى النفوس . ثم أخذ يكتب قائمة بأسماء الكتب التى يريد أن تحضر من باريس .

الفصل السابع والثلاثون

برج

[قبر صديق .]
ستزن

سمع چوليان ضوضاء شديدة فى الردهة ؛ ولم يكن الموعد الذى يصعد فيه السجانون إلى غرفته قد حان بعد ؛ وصاح العقاب البحرى فى هذه اللحظه وطار ، وفتح الباب،فرأى چوليان الكاهن المبجل شيلان يرتعد رعدة شديدة ، والعصا فى يده ، فارتمى چوليان بين ذراعيه،وقال الكاهن :

— آه ! يا إلهى ! أمن الممكن يا بنى ؟ ... أأقول:إنك شيطان !

ولم يستطع هذا الشيخ الجليل أن يقول أكثر من ذلك ، فخشى چوليان أن يقع الكاهن على الأرض ، فاضطر إلى اقتياده نحو مقعد . لقد أثرت يد الزمن فى هذا الشيخ الفانى،وقد كان على جانب كبير من النشاط . فلم ير چوليان من هذا الرجل الفتى إلا شبحاً واهياً .

وحينما استرد بعض قواه قال : لقد تسلمت أمس الأول فقط،الخطاب الذى أرسلته إلىّ من استراسبورج و به خمسمائة فرنك لفقراء ڤرير ؛ أحضروه إلىّ وأنا فى الجبل عند ليڤيرو ، حيث أعيش الآن فى عزلة عند حفيدى جان . وعلمت أمس بالكارثة ... فيا للسماء ! كيف حدث هذا !

ولم يعد الشيخ قادراً على البكاء ، وكأن الآراء قد نضبت من عقله ،

فقال بلهجة آلية : إنك فى حاجة إلى مبلغك ، وقد أحضرت لك خمسمائة الفرنك . فقال له جوليان فى رفق وحنان :

— إنى فى حاجة إلى أن أراك يا والدى ، أما المال فعندى منه ما يكفينى .

لكنه لم يسمع بعد ذلك من الكاهن جواباً معقولاً : وكان الأب شيلان يذرف من آن إلى آخر ، بعض دموع تسيل على خده ، ثم ينظر إلى جوليان فى خفة وطيش،حين يأخذ يده و يضعها على شفتيه . كان وجه الكاهن من قبل مملوءاً بالحياة ، تنطبع على صفحته أسمى العواطف ، أما الآن فلم يعد يرى الإنسان فيه غير البلادة . ثم أتى بعد ذلك فلاح ليأخذ العجوز قائلا : يجب ألا نتعبه أكثر من ذلك . وقد أدرك جوليان أنه جان ابن أخى الكاهن . سببت هذه الزيارة لجوليان شقاء كبيرا ، وحالت بينه و بين الدموع . فقد بدا كل شىء أمامه حزيناً لا يجدى فيه العزاء ، وشعر كأن قلبه قد تحجّر بين ضلوعه .

كانت هذه اللحظة من أقسى اللحظات عليه منذ ارتكب جرمه . لقد رأى الموت ماثلا أمامه فى أبشع صوره . أما ما كان يظنه من سمو النفس،ومن الشجاعة ساعة الموت،فكان مثل سحابة تبددها العاصفة .

وظلت هذه الحالة السيئة ساعات طويلة . وساءت حالته النفسية؛ فعمد إلى الترفيه عن بدنه بشرب نبيذ شمبانيا . وقد رمى نفسه بعد ذلك بالخور حين عمد إلى شرب النبيذ ليخفف ما به . وقضى يوماً ثقيل الوطأة عليه،فى التنزه فى برجه الضيق ، وفى نهاية اليوم أخذ يصيح قائلا : يالى

من مجنون ! لو أنني كنت سأموت كما يموت الناس ، لبعث منظر هذا الشيخ الفاني الأسى في نفسي ، أما الموت العاجل في زهرة الشباب فلا يجب أن يجرّ عليّ هذا الألم .

وفشل في أن يقنع نفسه ، لأنه كان في ذلك اليوم خائر النفس مضعضعها ، شقيا من أثر هذه الزيارة . ولم يعد يتّصف بالخشونة، ولا بالسمو الذى فطرت عليه نفسه، ولا بتلك الفضائل الرومانية . كان يرى الموت فوق هذا كله شيئاً لا يعد هيّنا .

وأخذ يقول في نفسه : هذا هو ميزان حرارتي . أنا الليلة خائر القوة، «فالترمومتر» يدلني على عشر درجات تحت مستوى الشجاعة التي تلزمني المشنقة . أما فيما عدا ذلك فقد كانت لي هذه الشجاعة ، ومع ذلك ، فماذا يضيرني ما دامت شجاعتي تواتيني في الوقت المناسب ! وسرّ بفكرة الترمومتر ، ونسي حزنه .

وفي اليوم التالي ، حين استيقظ من النوم خجل من نفسه ؛ لما أبداه من خور في اليوم السابق . وأخذ يقول : إنّ سعادتي وراحتي يكاد يقضي عليهما . وعزم على أن يكتب إلى النائب العام، يطلب إليه ألا يسمح بأن يزوره أحد . غير أنه أخذ يسائل نفسه : وإذا أتى فوكييه ؟ لو أنه حضر إلى بيزانسون ولم يرني . فأي ألم يستولى عليه !

كان قد مضى على چوليان شهران لم يفكر خلالهما في فوكييه . فقال في نفسه : لقد كنت أحمق أيام إقامتي في استراسبورج ؛ لأن أفكاري لم تكن تتجاوز ياقة ثوبي . وشغلته ذكرى فوكييه كثيراً ، وتركته في حالة

جنان شديد . فأخذ يتنزه فى اضطراب وهو يقول : ها أنذا قد أصبحت فى درجة العشرين تحت مستوى الموت ... وإذا زاد هذا الضعف ، فيحسن بى أن أقتل نفسى . أى فرح يستولى على نفوس أمثال الكاهن مالون وڤالنو، لو أننى قتلت نفسى كما يفعل الجبناء !

وأتى إليه صديقه فوكييه ، وكان هذا الرجل الساذج الطيب يكاد يموت حزناً على صديقه ؛ فالرأى الوحيد الذى يشغله ، إن صحّ أن لمثله أفكاراً ، هو أن يبيع كل ما يملك ويغرى السجان بالمال لينقذ چوليان . وتحدث إليه طويلا عن فرار السيد دى لاڤالت ، فقال له چوليان :

— إنك تبعث الأسى فى نفسى ، إن السيد لا ڤالت كان بريئاً ، أما أنا فقد ارتكبت جريمة . أنت تحملنى على التفكير فى هذا الفرق دون أن تشعر ... ثم انقلب بغتة حذراً كمن يدرس خلق صاحبه فسأله :

— ولكن أتقول حقاً ؟ ماذا ؟ أتريد أن تبيع أملاكك ؟

فسرّ فوكييه حين رأى صديقه قد استجاب لفكرة ملكت عليه نفسه ، وأخذ يبين له فى إطناب ودقة،ثمن كل جزء من أملاكه .

فقال چوليان فى نفسه : يا له من جهد جبار،ذلك الذى يبذله مالك من ملاك الريف ! إنه يضحى من أجلى بما اقتصد ، وبما بخل به على نفسه ، فاقتصده من شحّ كنت أخجل منه حين كان هو يقدم عليه ! إن أى شاب جميل من أولئك الذين كنت ألقاهم فى قصر دى لامول ، ممن يقرءون « رينيه » ، لا يتصف بأى لون من ألوان هذه التضحية ؛ من ذا الذى يقدم على مثل هذه التضحية ، من بين أولئك الپاريسيين

الوسماء ، إذا استثنينا الذين لايزالون صغار السن ، وقد ورثوا المال ولم يعرفوا بعد قيمته ؟

أنسى جوليان جميع أخطاء الفرنسيين والحركات العامية التى كانت تصدر عن صديقه،وارتمى بين ذراعى فوكييه . وفى الواقع أن الريف لم ينل من قبل هذا الإكرام،حين كان يقارن بباريس . وخرج فوكييه بما كان يبدو فى عينى صديقه من بريق عجيب،ظنه موافقة على اقتراحه بأن يفر من السجن .

ردّ سمو فوكييه ونبله إلى جوليان تلك القوى التى فقدها حين زاره الكاهن شيلان ، وعاد فتيّا مرة أخرى ، لكنه كان كالنبات الجميل على ما يظهر لى . فبدل أن ينتقل من الحنان إلى الحذر مثل أغلب الرجال ، أعطته السنّ طيبة هينة ، ترقّ بها عواطفه فى سهولة و يسر ، ولم يعد يفقد ثقته بالناس ، وقد كان يحذرهم حذراً يصل فى بعض الأحيان إلى حد الجنون ... ولكن ما فائدة هذا التنبؤ بالغيب الذى لا طائل من ورائه ؟

كثر التحقيق على الرغم من المجهود الذى كان يبذله جوليان ، إذ كانت كل إجاباته تهدف إلى الإيجاز فى هذا الأمر،فكان يقول كل يوم: لقد قتلت أو حاولت على الأقل أن أقتل مع سبق الإصرار . ولكن القاضى كان يحرص على استيفاء الإجراءات قبل كل شيء . فكانت تصريحات جوليان لا تؤدى إلى الإيجاز الذى كان ينشده إطلاقاً ؛ فضلا عن أنها تجرح كبرياء القاضى . ولم يعلم جوليان أنهم أرادوا نقله إلى سجن ممقوت ، فسعى فوكييه سعياً حثيثاً ؛ حتى تركوه فى غرفته الجميلة المرتفعة

التى يصعد إليها بثمانين ومائة درجة من درجات السلم .

كان الكاهن دى فريلير من بين أولئك الذين كانوا يكلفون فوكييه إحضار خشب ليستدفىء به . فذهب هذا التاجر الماهر إلى ذلك الرجل القوى ، نائب الأسقف ؛ وفرح فرحاً لا حد له حين قال له فريلير : إنه يعجب كثيراً بمزايا جوليان ، وبالخدمات الجليلة التى أداها أثناء وجوده بالمدرسة الأكليريكية ، وأنه سيوصى به القضاة خيراً . فتراءى لفوكييه أمل تخليص صديقه . ثم ركع أمام الكاهن فى خشوع عظيم ورجاه أن يوزع مبلغ عشرة لويسات فى صلاة تقام تضرعاً إلى الله أن ينجى صديقه .

لقد خدع فوكييه خديعة كبرى ؛ لأن السيد دى فريلير لم يكن على شاكلة ڤالنو ، فرفض المال ، وحاول أن يفهم هذا الريفى الساذج أنه يحسن به أن يحتفظ بماله . ولكنه رأى أن فوكييه كان واضح القصد ولكن فى حذر شديد ، فنصح له أن يتصدق بهذا المبلغ على الفقراء من المسجونين الذين يحرمون من كل شىء فى الواقع .

ثم أخذ فريلير يتحدث إلى نفسه قائلا : إن جوليان هذا مخلوق عجيب فعمله لا يمكن أن يفسّر بسهولة ، ولم أستطع الوصول بعد إلى شىء مقنع ! ... وربما كان من السهل أن أجعل منه شهيداً ... وعلى كل حال سأعرف سر هذا الأمر ، وربما وجدت فرصة لأبعث الرعب فى نفس مدام دى رينال التى لا تجلنا ، بل هى تكرهنى فى الواقع ... وربما وفقت إلى طريقة

مجدية لأصالح المركيز دى لامول ، الذى أعلم أنه يميل إلى هذا الشاب ميلا كبيراً .

كان الصلح فى القضية قد وقع قبل ذلك ببضعة أسابيع ، وسافر الكاهن پيرار من بيزانسون ، بعد أن تحدث عن مولد چوليان ، فى اليوم الذى اعتدى فيه هذا الشقى على مدام دى رينال فى كنيسة ڤريير .

وأصبح چوليان لا يخشى ، بعد خشيته من الموت ، إلا حادثاً واحداً لا يسره : هو أن يزوره أبوه . فاستشار فوكييه فى فكرة أن يكتب إلى النائب العام،طالباً منه أن يعفيه من الزيارات بأجمعها . غير أن اشمئزازه من رؤية أبيه فى مثل هذه المناسبة ، قد أدخل إلى قلب هذا التاجر البرچوازى الطيب،غضاضةشديدة . فاعتقد أنه قد أدرك السر فى أن كثيراً من الناس يكرهون صديقه كراهية شديدة . ولكنه احترم بؤس چوليان ولم يشأ أن يظهر له ما يحسه ، ثم قال له فى فتور :

— مثل هذا الأمر لن ينطبق على أبيك على كل حال .

الفصل الثامن والثلاثون

رجل قوى

[ولكن فى حركاتها كثير من الغموض، وفى قامتها
كثير من الأناقة ! فمن تكون ؟]
شيلر

فتحت أبواب البرج فى ساعة مبكرة من صباح اليوم التالى ، فاستيقظ چوليان فزعاً ، وقال فى نفسه :

— آه ! يا إلهى ! هذا أبى فيالله من مشهد أليم !

وتقدمت إليه فى نفس اللحظة سيدة تلبس الثياب الريفية،وارتمت بين ذراعيه ، فوجد صعوبة فى التعرف عليها ، مع أنها لم تكن سوى الآنسة دى لا مول ، قالت له :

— لم أعرف مكانك أيها اللعين إلاّ من خطابك . إن ما تسميه (جريمتك) ليس فى نظرى إلا إنتقاماً شريفاً،يدلنى على سمو قلبك الذى ينبض فى هذا الصدر ، إننى لم أعلم بالأمر إلا فى ڤرييرـ .

وعلى الرغم من الشبهات التى كانت تعتوره بالنسبة إلى الآنسة دى لا مول،وإن كان لا يعترف بها صراحة ، فقد وجدها على جانب كبير من الجمال . ولم ير الإنسان فى تلك الطريقة التى تعمد إليها فى العمل وفى الحديث، عاطفة نبيلة لا ترمى إلى أية مصلحة أسمى من كل ما تنطوى

عليه نفس حقيرة تافهة ؟ كان يعتقد أنه لا يزال يحب ملكة ، وبعد لحظات قليلة ، قال لها فى منطق رفيع و بيان يدل على سمو النفس :

— لقد وضح لى المستقبل وضوحاً جلياً . إننى بعد موتى أزوجك للسيد دى كروازنوا الذى سيتزوج أرملة . ولكن النفس السامية التى تميل إلى الخيال والشاعرية قليلا ، نفس هذه الأرملة الظريفة ، ستذهل وتؤمن بمبدأ الحذر والفطنة التى يسير عليه عامة الناس ، بعد أن حدثت هذه الحادثة المؤلمة العجيبة و إن كانت تعدها هى عظيمة ، وتتفضل بأن تدرك المزايا الحتمة التى تنطوى عليها نفس هذا المركيز الشاب . ستنقادين إلى السعادة بما تقدمه لك الحياة من احترام وثراء ، ومكانة رفيعة . . . ولكن يا عزيزتى ما تيلد ، لو عرف مجيئك إلى بيزا نسون لكان ضربة قاضية على السيد دى لا مول ، وهذا ما لا أغفره بتاتاً لنفسى . لقد سببت له كثيراً من البلاء ! وسيقول عضو المجمع عنه : إنه احتضن حية فأدفأها .

فكادت الآنسة تغضب وقالت :

— أعترف بأنى لم أتوقع سماع هذا المنطق الفاتر ، ولا هذه العناية الشديدة بالمستقبل . إن وصيفتى حذرة مثلك ، فقد حصلت على جواز سفر لها ، وسافرت باسم مدام ميشليه .

— وهل استطاعت مدام ميشليه أن تصل إلىّ بمثل هذه السهولة ؟

— آه ! أنت دائماً ذلك الرجل الممتاز الذى فضلته على كل الناس ! لقد قدمت مائة فرنك أولا لسكرتير القاضى الذى كان يزعم أن دخولى إلى هذا البرج أمر مستحيل . ولكنه حين تسلم المال ، طلب منى أن أنتظر

ثم أثار اعتراضات ، فظننت أنه يفكر فى سرقة مالى . . . ثم توقفت عن الكلام ، فقال لها :

— ثم ماذا ؟ فقبلته وقالت له :

— لا تغضب ياعزيزى چوليان ، لقد اضطررت إلى أن أخبره باسمى الحقيقى ، وقد كان يظننى كما صرح لى ،أننى عاملة پاريسية صغيرة دلهنى حب چوليان الجميل . فأقسمت له أننى امرأتك . وأننى سأحصل على تصريح لأراك كل يوم .

فأخذ چوليان يقول فى نفسه : لقد ارتكبت حماقة كبيرة ، ولم أستطع أن أحول بينها و بين ارتكابها . ومع كل فالسيد دى لامول رجل ذو مركز خطير ، وسرعان ما يجد الرأى العام عذراً للأميرالاى الشاب الذى سيتزوج هذه الأرملة الظريفة . إن موتى القريب سيقضى على كل شىء ؛ ثم أخذ يتمتع فى لذة كبيرة بحب ماتيلد وكان ما يفعله جنونا ، كان سمواً فى النفس، كان كل ما يوصف به أنه حقاً غريب . واقترحت عليه ماتيلد فى حزم وجد ، أن يموتا معاً .

و بعد هذه اللحظات الثائرة من الحب العنيف ، التى سعدت فيها برؤية چوليان ، ملك نفس ماتيلد حب الاستطلاع . فأخذت تنظر إلى حبيبها الذى وجدته فوق كل ما صورته لها نفسها من سمو ورفعة ، وخيل إليها أن روح بونيفاس دى لا مول قد تقمصت جسد چوليان . ولكن چوليان أشجع منه .

رأت ماتيلد خير محامى الأقليم ، لكنها جرحت كبرياءهم حين

قدمت إليهم الذهب فى غير موازبة ، ثم عادوا فوافقوا على الدفاع عنه .

وسرعان ما هداها تفكيرها إلى أن كل أمر ملتو مشكوك فيه،أو كل مسألة هامة،أو كل شىء يحدث فى بيزانسون ، إنما يرجع فيها إلى الكاهن دى فريلير؛فتقدمت للقاء هذا الرجل الخطير باسم مدام ميشليه ، فوجدت صعوبات كثيرة لا يمكن التغلب عليها ، تحول بينها و بين لقائه . غير أن أمر جمال البائعة الپاريسية ، المتيمة بحب چوليان ، والتى قدمت من پاريس إلى بيزانسون لتسرى عن نفس القس الشاب چوليان سورل، قد ذاع فى أرجاء المدينة .

كانت ما تيلد تقطع شوارع المدينة سيراً على القدمين ، وكانت تبغى من وراء ذلك ألا يعرفها أحد . كانت على كل حال تؤمن بأن قضيتها فى حاجة إلى عطف الشعب ، فحاولت أن تحدث فى نفسه أثراً كبيراً .

وقد زين لها جنونها أن تحضه على الثورة ؛ ليخلص چوليان وهو فى طريقه إلى الموت . كانت الآنسة دى لا مول تعتقد أن ثيابها بسيطة ، ثياب امرأة بائسة معذبة ، فكانت تتبعها الأبصار أينما تسير .

كانت فى بيزانسون موضع انتباه الجميع ، و بعد ثمانية أيام بذلتها فى محاولة الحصول على موعد تلتقى فيه الكاهن دى فريلير ، استطاعت أن تفوز بالموعد .

اضطربت ما تيلد — على الرغم من شجاعتها — وهى تدق جرس باب الأسقفية ، لأن ما عرفته عن فريلير ، وعما فطر عليه من فسق كبير وحذر شديد ، تسلط على نفسها ، فخافت كثيراً حتى كادت لا تقوى

على السير ، حين اضطرت إلى أن تصعد درجات السلم المؤدى إلى جناح النائب الأول . و بعث هدوء دار الأسقفية فى نفسها ذعراً ، فأخذت تقول : من الممكن أن أجلس على مقعد من هذه المقاعد ، فتربط ذراعاى وأختفى من الوجود . فأين تطلبنى وصيفتى ، ومن ذا الذى يصبح مسئولا عنى ؟ إن رئيس الشرطة سيأخذ حذره من أن يعمل شيئاً . . . . وأنا وحيدة لا عضد لى فى هذه المدينة الكبيرة !

ولم تكد الآنسة تلقى نظرة على الشقة،حتى عادت إلى نفسها السكينة رأت أول ما رأت خادماً فى ملابس أنيقة فتح لها الباب . أما الصالون الذى طلب منها أن تنتظر فيه ، فقد فرش بأثاث فخم ، يدل على سلامة الذوق ويبعث البهجة ، ليس فيه هذا اللون من الزينة التافهة ،فكان كخير منازل باريس . ولم تكد ترى الكاهن دى فريلير يقبل عليها فى هيئة تدل على الحنان ، حتى تبددت المخاوف التى تسلطت عليها من ارتكاب جريمة شنعاء . ولم تجد فى هذا الوجه الجميل حتى ذلك الطابع القاسى لتلك الفضائل القوية الخشنة ، الذى يكرهه المجتمع الپاريسى كراهية شديدة، وتلك الابتسامة الخفيفة ، التى كانت ترتسم على وجه هذا القسيس الذى يتحكم فى بيزانسون كلها،تدل على أن الرجل ظريف المعشر ، وعلى أنه كاهن مثقف و إدارى حازم . فظنت ماتيلد أنها فى باريس .

ولم يكن دى فريلير فى حاجة إلا إلى لحظات قصيرة ، حتى يحمل ماتيلد على الاعتراف له بأنها ابنة خصمه القوى المركيز دى لامول .

فقالت له وقد استردت كل ما تنطوى عليه لهجتها من كبر :

— أنا لست — فى الواقع مدام ميشليه ، وهذا الاعتراف لا يكلفنى شيئاً ، لأنى جئتك أستشيرك يا سيدى فى أمر احتمال فرار السيد دى لا ڤرناى من السجن . فهو ليس مذنباً إلا فى ارتكاب حماقة ؛ لأن المرأة التي أطلق عليها الرصاص تتمتع بصحة جيدة . ولكى نضمن سكوت المرءوسين ، فأنا مستعدة لأن أغريهم بالمال فأستطيع أن أدفع في الحال خمسين ألف فرنك ، على أن أضاعف هذا المبلغ . إننى وأسرتى كلها سنكون مدينين بالفضل لمن ينقذ السيد دى لاڤرناى ، ولن نضن عليه بشىء إطلاقاً .

دهش دى فريلير من سماع هذا الاسم ، فأطلعته ماتيلد على خطابات كثيرة من وزير الدفاع إلى السيد جوليان سورل دى لا فرناى .

— أنت ترى يا سيدى أن والدى مهتم بأمره . لقد تزوجته سراً ووالدى يريد أن يكون ضابطاً عظيما قبل أن يصبح الزواج رسمياً ، ويذيعه بين الناس؛لأنه زواج غريب لفتاة من أسرة دى لا مول .

ولاحظت ماتيلد أن وجهه الذى كان ينم عن طيبة وسرور هادئ ظريف،قد تغير حين وصل إلى هذه الاكتشافات الخطيرة ، وطبع وجهه بدهاء يمازجه خداع عميق .

وتسرب الشك إلى نفس الكاهن،فأخذ يعيد قراءة الوثائق الرسمية فى بطء . ثم أخذ يسائل نفسه : أية فائدة أستطيع الحصول عليها من هذه الاعترافات العجيبة ؟ لقد ساقت إلىّ الظروف بغتة الصديقة الحميمة لتلك السيدة الشهيرة المارشالة «دى فرڤاك» حفيدة الرجل القوى مونسنيور رئيس

أساقفة . . . الذى يملك تعيين رؤساء الأساقفة فى فرنسا . إنّ ما كنت أظنه بعيداً الآن عنى ، وتركت أمر تحقيقه للمستقبل ، قد تهيأت فرصته . وقد يصل بى إلى ما كنت أبتغيه فى الحياة .

انزعجت ماتيلد أول الأمر من هذا التغير الفجائى الذى بدا على وجه هذا الرجل القوى ، وهى جالسة وحيدة معه فى مسكن منعزل . وأخذت تقول فى نفسها : ماذا دهاه ! أليست أسوأ الفروض هى ألا أحدث تأثيراً فى نفس هذا الرجل الجشم الفاتر ، ذلك القسيس الذى يتمتع بالسلطان واللذات ؟

بهر دى فريلير من هذا الصوت المباغت السريع ، الذى انبعث أمامه مبشراً برآسة أسقفية ؛ وأذهلته براعة ماتيلد ، فنسي أن يأخذ حذره ، وقد رأته الآنسة دى لا مول يكاد يركع أمامها ، والطموح الشديد يغلبه ويهزه هزا عصبياً شديداً .

فأخذت تحدث نفسها : لقد وضح كل شىء ، فليس هناك صعوبة فى وجه صديقة مدام دى فرفاك . وعلى الرغم من شعور الغيرة المريرة التى كانت لا تزال تستولى على نفسها ، فقد وجدت فى قلبها الشجاعة على أن تخبر دى فريلير بأن جوليان كان صديقاً حميما للمرشالة ، وكان يلقى كل يوم فى منزلها مونسنيور رئيس أساقفة . . . .

فأخذ نائب الرئيس ينظر إليها ، والطمع الشديد يشع من عينيه ويضغط على كل كلمة يقولها ، ثم قال لها :

— عند ما يريدون أن يسحبوا بالقرعة خمس مرات أو ست قائمة

بأسماء ستة وثلاثين من الأعيان من سكان المقاطعة ، فإنّ لى فى كل قائمة ثمانية أصدقاء أو عشرة من خير الجماعة ومن أكثرهم ذكاء ، وإلا عددت نفسى سيء الحظ .

ستكون لى الأغلبية دائماً ، تلك الأغلبية التى تصدر الحكم ؛ إنك ترين يا آنستى أننى أستطيع فى سهولة و يسر أن أبرىء ساحته . . .

ثم توقف بغتة ، كأنه ذهل من صوت كلماته ؛ لقد كان يعترف بأشياء لا تقال أبداً لأهل الحياة الدنيا .

ولكنه بدوره أذهل ما تيلد ذهولا شديداً حين قال : إن ما عجب منه المجتمع فى بيزانسون، وزاده شغفاً بتلك المخاطرة العجيبة التى أقدم عليها چوليان ، هو أن مدام دى رينال كانت تحبه حباً شديداً ، وكانت خليلة له زمناً طويلا . ولاحظ دى فريلير أن ما تيلد قد اضطربت كثيراً من هذه القصة .

وأخذ يقول فى نفسه : لقد ثأرت لنفسي ! لقد وفقت إلى طريقة أسيطر بها على هذه الفتاة العنيدة إلى أبعد حد ؛ وإنى أخشى ألا أوفق فى ذلك . لقد أثر فى نفسه منظرها الممتاز، الذى يوحى بأنه صعب المراس ، فزاد جمالها الرائع فى ناظريه ، ذلك الجمال الذى كان يضرع له بأن ينقذ چوليان .

فعاد إليه هدوؤه ، ولم يتردد فى أن يسدد الخنجر مرة أخرى الى قلبها .
ثم قال لها فى لهجة تدل على المرح :

— لا أعجب إطلاقاً إذا علمت أن الغيرة هى التى دفعت السيد سورل

إلى أن يطلق عليها رصاصتين من مسدسه ، لأنه كان يحبها حباً كثيراً قبل ذلك . ربما كانت محرومة من اللذائذ ، لأنها منذ زمن قليل كانت ترى كثيراً كاهنا من ديجون يدعى ماركينو ، وهو شخص لا خلق له من أتباع ينسينيوس ، مثله مثل أنصار هذا المذهب جميعاً :

ثم أخذ الكاهن دى فريلير يسحق قلب الفتاة الجميلة،فى لذة شديدة وعلى مهل،حين تبين ناحية الضعف فيها .

ثم أخذ ينظر إلى ما تيلد نظرات ملتهبة و يقول : لماذا اختار السيد سورل الكنيسة فى هذا الوقت ،أكان يرمى إلى أن غريمه فى هذه اللحظة بالذات يقيم بها الصلاة؟ واستطرد يقول: والناس جميعاً يصفون الرجل السعيد الذى يتمتع بحمايتك بأنه شديد الذكاء والفطنة ، كبير الحذر . فلم لم يختف فى حدائق السيد دى رينال التى يعرفها تمام المعرفة ؟ كان هذا من أيسر الأمور عليه ، وكان يستطيع أن يقتل المرأة التى تبعث الغيرة فى نفسه ، وهو واثق تمام الثقة من أنه لن يرى ولن يقبض عليه ، ولن يشك فى أمره.

و بعث هذا الرأى الذى يبدو صحيحاً كل غيظ فى نفس ما تيلد . إن هذه النفس المتعجرفة،التى تشبعت بهذا اللون من الحذر الشديد الذى يعده الناس صورة صادقة للقلب ، لم تفطر على أن تدرك سهولة ما يلقاه الإنسان من سعادة،حين يسخر من كل حذر تعده النفس القوية عاملا فعالا فى الحياة . والطبقات الراقية فى المجتمع الباريسى الذى تحيا فيه ماتيلد، جبلت على أن تدرك أن الحب لا يخلو من الفطنة إلا فى القليل النادر ،

وأن الإنسان حين يريد أن يلقى بنفسه من النافذة ، فلا يكون ذلك إلا من الطابق الخامس .

وأخيراً رأى الكاهن دى فريلير أنه قد سيطر عليها سيطرة تامة . وأوحى إلى ما تيلد أنه سيستعين — من أجلها — بالسلطة العامة التى كافت اتهام چوليان حتى تكون فى صالحه . (ولا ريب فى أنه كان يكذب) .

وحينما يختار المحلفون الستة والثلاثون بالقرعة ، فسيتوسط لدى ثلاثين منهم على الأقل ، باذلا نفوذه الشخصى المباشر فى سبيل ذلك .

لو لم تكن ما تيلد جميلة رائعة الحسن فى نظر الكاهن ، ما تحدث إليها بهذا الوضوح ، وبهذه الصراحة إلا فى المقابلة الخامسة أو المقابلة السادسة .

الفصل التاسع والثلاثون

الدسيسة

[كاستر عام ١٦٧٦ — قتل أخ أخته فى المنزل المجاور لمنزلى ؛ واتهم هذا السيد بجريمة القتل . فوزع الاب سرا خمسمائة إيكو على المستشارين فأنقذ حياة ابنه .]
لوك : رحلة فى فرنسا

لما غادرت ماتيلد دار الأسقفية ، لم تتردد فى أن ترسل خطاباً إلى مدام دى فرفاك ، ولم يثنها عن ذلك لحظة واحدة تعريض شرفها للهوان . ورجت غريمتها أن تحصل على خطاب للكاهن دى فريلير يكتبه مونسنيور رئيس أساقفة ... كله بخط يده . وتمادت ماتيلد فتضرعت ، إليها أن تأتى بنفسها إلى بيزانسون . وكان هذا عملا يدل على البطولة؛لأنه صادر عن نفس متكبرة غيور .

نصح لها فوكييه أن تتذرع بالحكمة ، فلا تقص على چوليان ما تقوم به . وكان مجرد حضورها يسبب له اضطراباً ، لأنه كلما اقترب من الموت كان أقرب إلى الأمانة أكثر مما كان عليه فى حياته الماضية ، وقد أخذ يشعر بالندم لا من أجل المركيز دى لامول فحسب ، بل من أجل ماتيلد كذلك .

تحدث إلى نفسه قائلا : ماذا دهانى ! إنى أجد لحظات أنساها فيها

وهى معى ، وأشعر بالملل يساورنى . إنها تضيع نفسها فى سبيلى ، أفيكون ذلك جزاءها منى ! فهل أنا إذن شرير ؟ كان لا يحفل بهذا السؤال كثيراً حينما كان طموحا ، لأن عدم توفيقه فيما يسعى وراءه ، كان هو الشىء الوحيد الذى يخجله .

كان الاضطراب الأدبى الذى يلقاه بالقرب من ماتيلد على أشده ، مع أنها كانت تحبه فى ذلك الوقت حباً جنونياً عنيفا . ويدور حديثها دائماً حول التضحيات الغريبة ، التى تريد أن تقوم بها لتكتسب له النجاة .

كانت العاطفة التى تستولى عليها ترضى نفسها ، فهى فخور بها ، لا تبالى من أجلها بكبريائها ، ولا تترك لحظة من لحظات حياتها تمر دون أن تقوم بعمل خارق للعادة . وكانت مناقشاتها وأحاديثها مع چوليان لا تتناول إلا أكثر المشروعات غرابة وخطورة . أجزلت العطاء للسجانين فتركوها تتحكم فى السجن كما تشاء . وكانت آراء ماتيلد لا تنطوى على التضحية بمكانتها فحسب ، بل هى لا تبالى أن يعرف المجتمع كله صلتها بچوليان . وكان خيالها الخصب الذى فطر على الشجاعة ، يرسم لها صوراً وهمية، أقلها هى أن تركع أمام عربة الملك وهى تنهب الأرض نهبا ؛ لتطلب منه الصفح عن چوليان ، إنها بذلك تلفت نظر الأمير إليها وهى لا تبالى أن تمزقها العربة شر ممزق . أما أصدقاؤها الذين يعملون على مقربة من الملك، فسيساعدونها فى أن تلقاه فى الأرجاء الخاصة ببستان « سان كلو » .

أما چوليان فكان يعتقد أنه ليس أهلا لهذا الإخلاص الشديد ، لأنه قد ملّ البطولة فى الواقع ؛ لقد كان فى حاجة إلى شفقة بسيطة

ساذجة ، تنطوى على الحياء، على حين أن نفس ماتيلد المتكبرة، كانت تهتم بما يقوله الناس وتتناقله الجماعات .

وبينما كانت تظهر كل هذه المخاوف، وتخشى على حياة حبيبها خشية عظيمة ، وتريد ألا تعيش بعده — نازعتها فكرة أخفتها فى نفسها، واحتفظت بها على أنها سر لا يذاع ، وهى أنها كانت تريد أن تبهر الجماهير بقوة حبها وجرأة مشروعاتها .

غضب چوليان من نفسه حين ألفاها تتأثر بهذه البطولة . وماذا كان يعمل إذن،لو أنه عرف كل الأعمال الجنونية التى تقدم عليها ماتيلد وتفضى بها إلى فوكييه ،صديقه المخلص الطيب ، ذى العقل الكبير والنفس الضيقة المحدودة ؟

وفوكييه كان لا يدرى كيف يلوم ماتيلد على إخلاصها ، لأنه كان بدوره على أتم استعداد للتضحية بثروته،وتعريض حياته لأشد الأخطار؛ كى ينقذ چوليان . وأذهلته كثرة الذهب الذى نثرته ماتيلد . وقد كان يجلّ المال إجلالا شديداً ، فأدهشته المبالغ الطائلة التى أنفقت فى الأيام الأولى ، ومثله فى احترام المال كمثل أى رجل من رجال الريف .

وأخيراً وجد أن مشروعات الآنسة دى لامول كثيراً ما تتغير ، ولشدّ ما سرى عن نفسه ، حين عثر على كلمة يصف بها هذا الخلق الذى يتعبه أشد التعب،فوصفها بأنها متغيرة . وليس بين هذه الصفة وصفة العناد التى تعد أكبر لعنة فى الريف إلا خطوة واحدة .

كانت ماتيلد خارجة من السجن ذات يوم ، فقال چوليان : من

الغريب أن هذا الحب العنيف الذى تبديه لا يؤثر فى نفسى إطلاقا !
وقد كنت أعبدها منذ شهرين ! قرأت أن اقتراب الموت يزهد الإنسان فى كل شىء ؛ لكنه من الصعب على النفس أن يشعر المرء أنه منكر الجميل ، ثم لا يستطيع لذلك تغييراً ولا تبديلا . فهل أنا إذن أنانىّ ؟
وجعل يلوم نفسه على ذلك أشد اللوم . لقد مات الطموح فى قلبه ، وانبعث من الرماد شعور جديد هو الندم على أن اعتدى على مدام دى رينال . إنه كان فى الواقع يحبها حباً شديداً ، وكان يجد سعادة كبيرة حين يخلو إلى نفسه ، ولا يخشى أن يقطع عليه عزلته أحد ، ثم يسبح فى ذكريات تلك الأيام السعيدة ، التى قضاها فى فرييز أو فى فرجى . وكانت أتفه أحداث ذلك الزمن الذى مر به فى سرعة عظيمة ، تتراءى له بمظهر الجدة ، مغمورة بظرف لا يقاوم . ولم يفكر بتاتاً فيما أصابه من نجاح فى باريس ؛ لأن ذلك يبعث فى نفسه الملل .

وهذه المشاعر التى تقوى فى اطراد ، أدركت غيرة ماتيلد طرفاً منها ، ففطنت فى سرعة ووضوح إلى أن عليها أن تحارب فى چوليان حب العزلة. وكانت تنطق أحياناً باسم مدام دى رينال فى خوف ورعب . فرأت چوليان وقد اهتز جسمه هزة شديدة ، فأصبح حبها له واسعاً لا يعرف حداً ولا قدراً ، بل لقد عصف بنفسها .

وأخذت تناجى نفسها فى صدق شديد : لو أنه مات لقضيت على نفسى . ماذا تقول صالونات باريس حين ترى فتاة فى مكانتى تعبد حبيباً مصيره القتل ، هذه العبادة . على أن الشعور بمثل هذه العاطفة يرجعنا إلى عصر

الأبطال ؛ فقد كانت قلوب أهل عصر شارل التاسع وهنرى الثالث تنبض بمثل هذا الحب .

وبينما كانت تحت سلطان هذه العواطف الجامحة ، وهى تضم رأس چوليان إلى صدرها ، حدّثت نفسها فى اشمئزاز شديد قائلة : ماذا ! هل سيقطع هذا الرأس الجميل ؟ ثم تملكتها حماسة قوية ،وشجاعة لا مثيل لها فأخذت تقول : إن فعلوا هذا لجفت بعد موته شفتاى اللتان تقبلان شعره الجميل ، فى أقل من أربع وعشرين ساعة .

إن ذكريات هذه اللحظات الحافلة بالبطولة واللذة الشديدة ، كانت تربطها به برباط خفى . وسيطرت على نفسها فكرة الانتحار ، وتغلغلت فيها،وتسلطت عليها تسلطا شديداً . فكانت تحدث نفسها فى كبر قائلة : لا ، إنّ دم أجدادى لم يصل بارداً إلى قلبى . وذات يوم قال لها حبيبها :

— إن لى عندك رجاء ، وهو أن تضعى ابنك عند مرضعة فى ڤريير ، وستكون المرضعة تحت إشراف مدام دى رينال .

فامتقع لونها وقالت:

— إن ما تقوله لشديد القسوة علىّ ··· فتخلص چوليان من أحلامه واحتضنها وقال :

— هذا صحيح ، وأسألك الصفح ألف مرة على ما بدر منى .

وبعد أن جفف دموعها ، عاد إلى فكرته،ولكن فى مهارة كثيرة ، فصبغ حديثه بصبغة فلسفية حزينة ، وتطرق إلى هذا المستقبل الذى سيغلق فى وجهه بعد قليل ، فقال لها :

— يجب أن تؤمنى يا صديقتى العزيزة بأن العواطف القوية لا تمثل إلا حادثاً عرضيا فى الحياة ، ولا يصيب هذا الحادث إلا النفوس السامية .. إن موت ابنى سيعدّ فى الحقيقة سعادة كبرى ترضى كبرياء أسرتك ، وهذا ما يتنبأ به صغار الشأن من الناس . والإهمال سيكون نصيب هذا الطفل الذى خلق من الشقاء والعار ... فأرجو أن تستمعى إلى وصاياى الأخيرة،فى وقت لا أحب أن أحدده ، ولكن شجاعتى تدلنى عليه ، هذه الوصايا هى : أن تتزوجى بالمركيز دى كروازنوا .

— ماذا ! وأنا مثلوبة الشرف !

— إن العار لا يلحق اسما كاسمك . ستكونين أرملة ، وأرملة مجنون ، هذه هى المسألة . بل إنى لأذهب إلى أبعد من ذلك . فالمال لم يكن هو باعثى على الجريمة ، إذن فجريمتى غير مخلة بالشرف . ربما تتاح لنا فى الوقت الذى تتزوجين فيه ، مقننون فلاسفة لا يتمسكون بأوهام معاصريهم فيلغون الحكم بالأعدام . وعلى هذا فسنسمع صوتا يبدى لنا الصداقة يقول مثلا : زوج الآنسة دى لامول الأول كان مجنونا ، ولكنه لم يكن خبيثا ولا فاجراً ، فكان من العبث أن يقطع رأسه ... وإذن فلن تكون ذكراى ذكرى سيئة ، أو على الأقل ستنسى ذكراى السيئة بعد أن تمضى فترة من الزمن ... إن مكانتك فى العالم وثروتك ، واسمحى لى أن أقول : وعبقريتك أيضا ستتيح للمركيز دى كروازنورا إذا ما أصبح زوجك — أن يصل إلى مكانة لا يستطيع الوصول إليها وحده . لأن كرم محتده وشجاعته هى كل ما يمتاز بهما من صفات . وقد كانتا صفات

الرجولة الـكاملة سنة ١٧٢٩ ، ولـكنهما أصبحتا الآن هفوة تاريخية فى عصرنا الحاضر ، ولا تخلقان إلا الغرور . أما الآن فلا بدّ للمرء من صفات أخرى تتيح له أن يكون على رأس الشبيبة الفرنسية .

ستؤيدين زوجك فى الحزب السياسى الذى ستختارينه له بما فطرت عليـه من حسن خلق قوى أخاذ . وستـكونين بمثابة أمثال شفريز ولونجفيل فى الفروند ... ولـكنّ النار المقدسة التى تشتعل بين ضلوعك الآن يا صديقتى المحبوبة ستخبو قليلا .

واستطرد يقول لها بعد أن تحدث إليها حديثا يعدها لما يقول : إنك بعـــد خمسة عشر عاما ستنظرين إلى حبك لى ، على أنه كان حماقة لها ما يسوّغها، ولـكنها حماقة على كل حال ...

ثم توقف عن الـكلام فجأة ، وجعل يحلم ، فقد وجد نفسه مرة أخرى يذكر هذه ، الفـكرة التى أغضبت ماتيلد غضباً شديدا وهى : إن مدام دى رينال ستعبد ابنه بعد خمسة عشر عاما ، أما أنت ياماتيلد فستنسينه ! ..

الفصل الأربعون

الهدوء

[إننى الآن عاقل وقد كنت من قبل مجنونا . فياأيها الفيلسوف الذى لايرى الشيء إلاحين وقوعه ، كم أنت قصير النظر ! إن عينك لم تخلق لتتبع الأعمال الخفيةالتى تقوم بها العواطف .]

مدام جوته

قطع هذا الحديثَ عليهما تحقــيقٌ ثم حديث طويل ، جرى بين جوليان و بين المحامى الموكل بالدفاع عنه . وكانت هذه اللحظات هى اللحظات الثقيلة على نفس جوليان ، الذى كان يحيا حياة فراغ وأحلام جميلة .

قال جوليان للقاضى والمحامى : هناك قتل ، وقتل مع سبق الإصرار ، ثم ابتسم وقال : يؤسفنى أيها السادة ، أن هذا يؤدى إلى التقليل من شأن مهمتكم .

ولما خلا بنفسه ، بعد أن تخلص من هذين الرجلين أخذ يقول : ينبغى أن أكون شجاعا ، أكثر شجاعة فى الظاهر من هذين الرجلين ؛ إنهما يريان أن حالتى تدعو إلى الحزن الشديد ، والإشفاق والرعب ، فهما يعلمان مصيرى المؤلم ، لـكننى لن أفـكر فى هذا إلا يوم التنفيذ . ثم أخذ يتفلسف قائلا : وذلك لأنى قد عرفت شقاء أشد وطأة من شقائى الحاضر . لاقيت العذاب الشديد فى رحلتى الأولى إلى استراسبورج ، حينما كنت أومن بأن ماتيلد قد هجرتنى ... لـكم تمنيت فى رغبة أكيدة هذه الصداقة الخالصة التى تظهرها اليوم لى فلا أهتم بها ! ... وأنا أشعر بالسعادة فى الواقع حين

أكون وحدى أكثر مما أشعر بها حينما تكون هذه الفتاة معى ...

كان محاميه رجلا يحترم القواعد والإجراءات ، فاعتقد أنه مجنون؛ وشارك الجماهير الرأى فى أن الغيرة هى التى دفعته إلى ارتكاب ما ارتكب. وذات يوم قال له اعتباطاً :

— إن هذه الحجة سواء أكانت صحيحة أم باطلة ـ مجدية فى الدفاع. فسرعان ما يصبح بها المتهم فى طرفة عين مخلوقا متحمساً حاد الطبع.

ولم يستطع چوليان أن يسيطر على نفسه فصاح قائلا :

— أستحلفك بحياتك يا سيدى ألا تنطق بهذه الأكذوبة مرة أخرى . فذعر المحامى الحذر برهة حتى خشى أن يقتله چوليان .

وأعدّ دفاعه لأن اللحظة الفاصلة قد حان وقتها . وكانت بيزانسون والمقاطعة كلها لا تتحدث إلا عن هذه القضية المثيرة . لكن چوليان كان يجهل هذا الأمر الهام ، وقد رجا من كان يأتى إليه ألا يذكر له شيئا مطلقا عن مثل هذه الأحداث .

فى ذلك اليوم كان فوكييه وماتيلد يريدان أن يقصا عليه بعض إشاعات ذاعت بين الجماهير ، وتحمل على الاعتقاد بأن هناك أملا فى نجاته ، فقطع چوليان عليهما سبيل الكلام عندما نطقا بأول كلمة ، وقال لهما :

— لا تعكرا علىّ صفو حياتى المثالية : فالترهات التى تقصانها علىّ ، وتفاصيل الحياة المادية التى تؤذينى ، تهبط بى من سمائى التى أعيش فيها . إن الإنسان ليموت كما قدّر له ، ولكنى أحب أن أفكر فى الموت كما أريد أنا ، فماذا يضيرنى مما يقول الآخرون ؟ إن علاقتى بالناس سيقضى

عليها بغتة . فترفقوا بى ، ولا تتحدثوا إلىّ عن الناس ، ويكفى أننى أرى القاضى والمحامى .

وأخذ يقول فى نفسه : يخيل إلىّ أنه قد كتب علىّ أن أموت وأنا غارق فى أحلامى، لا ينبغى لمجهول مثلى يعلم أنه سينسى بعد خمسة عشر يوماً من مقتله ، أن يخدع نفسه فيمثل مهزلة ، يجب أن أعترف بذلك ...

ومن الغريب حقاً أننى لم أعرف فنّ الاستمتاع بالحياة، إلا منذ أدركت أننى سأموت بعد قليل .

أخذ يقضى أيامه الأخيرة يتنزه على الرصيف الضيق للبرج المرتفع وهو يدخن صنفاً فاخراً من السيجار ، أرسلت ماتيلد فى طلبه من هولنده مع رسول خاص ؛ وكان لا يعرف أن ظهوره فوق البرج يترقّب كل يوم. وأن النظارات المكبرة ترصد عليه حركاته . كانت أفكاره متجهة دائماً إلى فرجى . وكان لا يتحدث بتاتاً مع صديقه فوكييه عن مدام دى رينال ، لكنه سمعه يقول مرتين أو ثلاث مرات : إن صحتها تقدمت تقدماً سريعاً ، فكان لهذه العبارات أجمل وقع على قلب جوليان .

كانت نفسه تحلق دائماً فى جوّ من الأحلام والآراء ، على حين كانت ماتيلد لا تعنى إلا بالمسائل الحقيقية المادية ، وهذا ما ينبغى لقلب أرستقراطى ، فعرفت كيف توطد العلاقة بين مدام دى فرڤاك والكاهن دى فريلير، فكانا يتراسلان بطريقة مباشرة ، وقد وردت كلمة أسقفية فى تلك الرسائل .

كان الحبر الجليل قد عهد إليه بقائمة الرواتب الدينية ، فكتب بخطه

فى ذيل خطاب كتبته حفيدته العبارة الآتية : هذا المسكين سورل ليس إلا أحمق ، وأرجو أن يعاد إلينا .

ولما رأى الكاهن دى فريلير هذه العبارة ، لم يعد يسيطر على نفسه ، ولم يكن يشك فى أنه سينقذ چوليان . فقال لماتيلد قبل عملية سحب المحلفين الذين يبلغ عددهم ستة وثلاثين رجلا :

— لولا هذا القانون الثورى الذى يقضى بأن يشترك محلفون كثيرون فى الجلسة ، وما ذلك إلا ليقضوا على نفوذ ذوى المحتد الكريم ، وما يراد بهذا القانون غير ذلك ، لولا هذا لكنت أتحمل مسئولية رأى المحلفين . لقد برّأت من قبل الحورى …

وفى اليوم التالى سرّت ماتيلد وشاركها الكاهن دى فريلير سرورها حين وجدا أسماء خمسة أشخاص تخرج فى صندوق الانتخابات من أعضاء جمعية بيزانسون ، ثم وجد بين الأسماء الأجنبية ڤالنو ومووارو وشولان ، فقال لماتيلد : أنا مسئول أولا عن هؤلاء الثمانية ، فالخمسة الأولى بمثابة آلات فى يدى ، وڤالنو من رجالى ، ومووارو مدين لى بكل شىء ، أما شولان فهو رجل أحمق يخشى كل شىء .

وأذاعت الجريدة فى المقاطعة كلها أسماء جميع المحلفين ، وأرادت مدام دى رينال ، على الرغم من الذعر الشديد الذى أبداه زوجها ، أن تذهب إلى بيزانسون .

وكل ما استطاع السيد دى رينال الحصول عليه من زوجته، هو ألا تغادر فراشها حتى لا يساء إليها فتستدعى لأداء الشهادة ، وقال لها :

— إنك لا تدركين حقيقة مركزى ، أنا الآن من الأحرار المتخلين[1] عن حزبهم كما يقولون ، ولا شك أن هذا الوغد ڤالنو والسيد دى فريلير سيحصلان فى سهولة من النائب العام ومن القضاة على كل ما يؤلمنى .

فأذعنت مدام دى رينال فى سهولة لأوامر زوجها . وأخذت تقول فى نفسها : لو شاهدونى فى المحكمة لظنوا أنى أتيت للأخذ بالثأر .

وعلى الرغم من الوعود التى تنطوى على الفطنة والحذر التى أفضت بها إلى زوجها وإلى القسيس الذى تعترف له ، فإنها ما كادت تصل إلى بيزانسون حتى كتبت بخطها إلى كل واحد من المحلفين :

« لن أذهب يا سيدى إلى المحكمة يوم نظر القضية ، لا لشىء إلا لأن حضورى ربما يسىء إلى السيد سورل . وليس لى فى العالم إلا مطلب واحد، أريده بكل قواى هو أن تكتب له النجاة . أرجو أن تثق كل الثقة بما أقول ، فإنّ هذه الفكرة الكريهة التى تتسلط علىّ حين يموت برىء بسببى ، ستسمم الأيام الباقية لى فى الحياة . وتؤدى بى سريعاً إلى الموت . كيف تستطيع أن تحكم عليه بالإعدام ، ما دمت أنا على قيد الحياة ؟ لا ، ومما لا شك فيه أن المجتمع ليس له الحق فى أن يقضى على حياة إنسان ، وبخاصة إنسان مثل چوليان سورل . الناس جميعا فى ڤريير يعرفون أن له لحظات تختل فيها قواه العقلية . وهذا الشاب المسكين له أعداء على جانب كبير من القوة والجاه ، ولكن من ذا الذى ينكر

(١) يرى « حول مرسان » أن هذه إشارة جديدة إلى الأحداث السياسية فى ذلك العصر : إذ تحالف جماعة من حزب اليمين مع المعارضة اليسارية بعد انتخابات عام ١٨٢٧ ، وأصبح البرلمان الجديد يضم طائفة من النواب عرفوا « بالمتخلين عن اليمين »
المعرب

عليه من أعدائه الكثيرين، مواهبه الممتازة وعلمه الغزير؟ إن من ستحاكمونه ليس مواطناً عاديا يا سيدى . لقد عرفناه خلال ثمانية عشر شهراً ، فكنا جميعا نؤمن بتقواه وعقله ومهارته ، لكنه كان يصاب مرتين أو ثلاث مرات فى كل عام بحزن شديد يؤدى إلى اضطراب فى قواه العقلية . وجميع سكان ڤريير ، وكل جيراننا فى ڤرچى حيث كنا نقضي فصل الربيع ، وأسرتى كلها والسيد نائب حاكم المقاطعة نفسه . هؤلاء كلهم يشهدون له بالتقى الشديد؛ إنه يحفظ عن ظهر قلب الأنجيل كله . فهل يصبر كافر على مشقة حفظ الكتاب المقدس سنوات عديدة ؟ سيتشرف أبنائى بتقديم خطابى هذا إليك ، وماهم إلا أطفال ، فأرجو أن تتفضل ياسيدى فتسألهم عن معلمهم ، وأنا واثقة أنهم سيفضون إليك بكل المعلومات اللازمة؛ لتقتنع بأن من الوحشية أن تحكم عليه بالإعدام . إنك لن تنتقم لى إن فعلت هذا ، ولكنك ستحكم علىّ أنا بالموت .

ثم ماذا يستطيع أعداؤه أن يقولوا فى هذه الحقيقة ؟ وهى أن الجرح الذى كان نتيجة لحظة من لحظات الجنون الذى يعرفه أطفالى فى معلمهم ، كان جرحا لا خطورة فيه إطلاقا ، وقد سمح لى فى أقل من شهرين أن أسافر من ڤريير إلى بيزانسون فى عربة من عربات البريد . لو ظننت أنك تتردد قليلا ياسيدى ؛ فى أن تدفع عن هذا البرىء ماتنطوى عليه القوانين من وحشية ، لغادرت فراشى ، الذى ألزمه تنفيذاً لأوامر زوجى لا أكثر ولا أقل ، ولأتيت لأجثو عند قدميك ضارعة لك فى أن تصفح عنه .

أرجو أن تعلن ياسيدي أن سبق الإصرار لم يكن متوفرا ، ولن تندم بعد ذلك على إراقة دم رجل برىء ... »

الفصل الحادى والأربعون

المحاكمة

[إن البلاد ستذكر هذه القضية الشهيرة زمناً طويلا، فالاهتمام بالمتهم قد بلغ الذروة، وكاد يؤدى إلى الشغب. وما ذلك إلا لأن جريمته كانت عجيبة وليست شنيعة. كم كان هذا الشاب جميلا ! إن مركزه السامى — وإن كان قد قضى عليه — زاد فى تعلق الناس به. هل سيحكمون عليه ! هذا هو السؤال الذى كانت توجهه السيدات إلى معارفهن من الرجال، وكانت وجوههن تعلوها الصفرة وهن ينتظرن الجواب]

سانت بف

وأخيراً جاء اليوم الذى كانت تخشاه مدام دى رينال وماتيلد خشية عظيمة. كان منظر المدينة عجيبا، فزاد من خوفهما وقلقهما، وأثر حتى فى نفس فوكييه، تلك النفس الحازمة. لقد هرع أهل الريف إلى بيزانسون ليشهدوا هذه المحاكمة الغريبة.

وكانت الفنادق كلها قد ازدحمت منذ بضعة أيام. وكثر الإلحاف على رئيس المحكمة فى طلب تذاكر حضور المحاكمة، وكانت سيدات بيزانسون جميعاً حريصات على الحضور؛ وبيعت صورة جوليان فى الشوارع ...

كانت ماتيلد تحتفظ لهذه الساعة الرهيبة بخطاب كتبه بخطه مونسنيور

رئيس الأساقفة .. وقد تفضل هذا الحبر ، الذى يدير كنيسة فرنسا و يعين رؤساء الأساقفة جميعا ، فطلب العفو عن چوليان ، ورفعت ماتيلد هذا الخطاب إلى الرجل القوى نائب الأسقف .

وفى نهاية المقابلة ، بينما كانت ماتيلد تنصرف وهى تضج بالبكاء ، تأثر الكاهن دى فريلير وخرج عن تحفظه السياسى وقال لها :

— إنى أضمن لك قرار المحلفين ، فالإثنا عشر محلفا الذين وكل إليهم معرفة ما إذا كانت الجريمة ثابتة ، وخاصة إذا كان هناك سبق إصرار ، أعرف منهم ستة جميعهم أصدقائى و يتمنون لى منزلة سامية ، ولقد أفهمتهم أن منصب رئيس الأسقفية الذى سيسند إلىّ يتوقف عليهم . والبارون ڤالنو الذى عينته أنا عمدة لڤرييره له مطلق السلطان على اثنين من مرؤسيه وهما السيدان موارو وشولان . وقد ساق القدر لنا فى الواقع اثنين من المحلفين متعبين إلى أبعد حد ، وهما و إن كانا من الأحرار المتطرفين، إلا أنهما يأتمران بأمرى فى المشاكل وفى المسائل العويصة ، وقد أرسلت إليهما ليصوتا كما يصوت السيد ڤالنو . وعلمت أن محلفا سادسا من أصحاب الصناعة كثير المال ، حر ثرثار ، يحاول سرا أن يحصل على إذن توريد إلى وزارة الدفاع ، ومما لا ريب فيه أنه لن يحاول إغضابى . وقد أرسلت إليه كذلك أخبره أن ڤالنو يعلم باتجاهى فى هذه القضية . فقلقت ماتيلد وسألته :

— ومن يكون السيد ڤالنو هذا ؟

— لو عرفته ماشككت إطلاقا فى توفيقنا فى هذا الأمر . فهو متكلم

جرئ ، سفيه ، فظ غليظ ، خلق ليكون على رأس الحمق .

كان فى عام ١٨١٤ فقيراً جداً ، وسأعينه حاكما من حكام المقاطعات . إنه كفيل بأن يضرب باقى المحلفين إذا أبوا أن يصوتوا فى صفه .

فاطمأنت ماتيلد قليلا ، وكانت مناقشة أخرى تنتظرها فى المساء . كان جوليان قد قرر ألا يتحدث فى المحكمة ، حتى لا يطيل أمراً سيئ الوقع على نفسه،وهو واثق من النتيجة مقدما ، فقال لماتيلد :

— سيتكلم المحامى الموكل بالدفاع عنى ، وفى قوله الكفاية . إننى إن تحدثت فلن يفيدنى حديثى إلا فى أنى أعرض نفسى على أعدائى وقتا طويلا . هؤلاء الريفيون يحقدون علىّ ما أصبت من مكانة فى وقت قصير ، وأنا مدين لك بذلك ، وليس بينهم جميعا من لا يتمنى أن يحكم علىّ بالإعدام ، وإن بكى بكاء الأحمق يوم أساق إلى الموت .

— هم يبتغون هوانك ، مافى ذلك شك ، ولكنى لا أعتقد أنهم قساة القلوب .

إن حضورى إلى بيزانسون والأسى الذى ألقاه ، قد جذبا انتباه كل السيدات ؛ ووجهك الجميل كفيل بالباقى . سيكون النظارة جميعا فى صفك إن قلت كلمة أمام قضاتك ...

وفى الساعة التاسعة من صباح اليوم التالى ، غادر جوليان السجن إلى القاعة الكبرى بدار المحكمة . وقد لاقى رجال الشرطة عناء شديدا فى أن يفسحوا له طريقا بين الجمهور المزدحم فى فناء المحكمة،لقد نام جوليان فى ليلته السابقة نوما كثيرا ، فكان يبدو عليه الهدوء الشديد ، ولم يشعر إلا بشفقة

تنطوى على الفلسفة لهذا الجمهور الذى يحسده ، والذى سيصفق فى غير قسوة، لحكم الإعدام الذى سيصدر عليه . ولكم ذهل حين وجد أن هذا الجمهور لا يضمر له إلا شفقة رحيمة ، وكان قد اضطر أن يقف أكثر من ربع الساعة وسط الناس حتى يفسح له رجال الشرطة مكانا ، فلم يسمع كلمة واحدة تؤذيه ، فأخذ يقول فى نفسه : هؤلاء الريفيون ليسوا أشرارا كما كنت أعتقد .

ولما دخل قاعة المحاكمة ، أعجب بأناقة هندستها . كان طرازها قوطيا خالصا ؛ ورأى عددا كبيرا من الأعمدة الصغيرة الجميلة، المنحوتة فى الحجر بعناية شديدة . فخيل إليه أنه فى انجلترا .

ولكنه سرعان ما حول انتباهه إلى اثنتى عشرة امرأة جميلة، كن يجلسن تجاه مقعد المتهم ، وقد امتلأت بهن الشرفات الثلاث التى تطل على القضاة والمحلفين .

وحينما التفت الى الجمهور ، رأى أن الشرفة المستديرة المعدة للمشاهدين والتى تشغل الجزء الأعلى من المدرج قد ملئت بالنساء ؛ وخيل إليه أن أكثرهن صغيرات السن جميلات ؛ وكانت عيونهن براقة، وقد بدا الاهتمام فيها . أما باقى أرجاء القاعدة فقد ازدحمت ازدحاما شديدا ؛ وكانت المعارك تدور على الأبواب ، ولم يتمكن الحراس من أن يفرضوا على الناس السكون كانت العيون تبحث عنه ، وحين رآه الناس يجلس فى هذا المكان المرتفع قليلا المخصص للمتهمين ، انبعثت همهمة تدل على العجب والشفقة الكبيرة .

كان من يراه فى ذلك اليوم يعتقد أن سنه لا تزيد على عشرين عاماً، وكان يلبس ملابس بسيطة ولكن فى أناقة شديدة، وشعره وجبهته ينمان عن ظرف وجمال. وقد أرادت ماتيلد أن تشرف بنفسها على هندامه. كان شديد الشحوب فى ذلك اليوم. ولم يكد يجلس على المقعد المعد له حتى سمع الناس يقولون من كل جانب: يا إلهى! كم هو صغير السن! ... إنه لا يزال طفلا.. هو أجمل من صورته بكثير. وأخذ الشرطى الذى يجلس عن يمينه يحادثه فقال له:

— أتعرف يامتهمى أولئك السيدات اللائى يشغلن هذه الشرفة؟

وأشار إلى مكان بارز فوق المدرج الذى يشغله المحلفون، ثم استطرد يقول:

— إن هذه السيدة حرم الحاكم، وبجوارها المركيزة دى م ... وهى تحبك حبا شديدا فقد سمعتها تتحدث عنك إلى قاضى التحقيق، ثم مدام درفيل ... فصاح چوليان، واحمرت جبهته من شدة الخجل:

— مدام درفيل! ثم أخذ يقول فى نفسه: إنها حين تغادر المحكمة ستكتب إلى مدام دى رينال. وكان يجهل مجىء زوجة العمدة السابق إلى بيزانسون.

وسمعت شهادة الشهود فى وقت قصير. ولم يكد النائب العام يوجه أولى كلمات الاتهام حتى ضجت سيدتان بالبكاء، وكانتا تجلسان فى الشرفة المقابلة لچوليان. فقال چوليان فى نفسه: إن مدام درفيل لا تشعر نحوى بمثل هذه الشفقة، غير أنه لحظ أن وجهها كان شديد الاحمرار.

أخذ النائب العام يتكلم كلاما مثيرا عن وحشية الجريمة التى ارتكبت، لكن لغته الفرنسية كانت رديئة ، وقد لحظ چوليان أن جارات مدام درفيل كن يخالفنه مخالفة شديدة كما يبدو على وجوههن . وكان بعض المحلفين يتحدثون إلى هؤلاء السيدات ، وكانوا على مايبدو من معارفهن وكأنهم يبعثون فى قلوبهن السكينة. فقال چوليان فى نفسه: هذا لا يترك سبيلا إلى التفاؤل .

وكان حتى هذه اللحظة يشعر باحتقار شديد لكل الرجال الذين كانوا يشهدون المحاكمة : وقد زادته الفصاحة التافهة التى فاه بها النائب العام كراهية لهم واحتقارا . ولكن صلابة نفسه اختفت شيئا فشيئا إزاء ما كانوا يظهرونه من عطف وود .

وسرّ من هيئة محاميه التى كانت حازمة ، ولما وقف المحامى ليبدأ دفاعه طلب منه چوليان ألاّ يظهر بلاغته ، فقال له الرجل :

— لقد سرقت جزالة بوسويه واستخدمت ضدك ، ولكنها ستفيدك. والواقع أن المحامى لم يكد يتكلم خمس دقائق حتى أخرج النساء جميعاً مناديلهن . فتشجع المحامى ووجه إلى المحلفين عبارات قوية جداً .

فارتعد چوليان وشعر بحاجة إلى البكاء ، ولكنه سرعان ما قال :

يا إلهى ! ماذا يقول أعدائى إذا رأونى أبكى ؟

غير أنّ الشفقة كادت تستولى على نفسه ، ولكنه لحسن حظه ، رأى بارون دى ڤالنو ينظر إليه نظرات تنطوى على القحة . فأخذ يقول فى نفسه

إنّ عيني هذا الدنئ لتشمان ببريق عجيب ، فأى نصر نالته هذه النفس الحقيرة ! إذا كانت جريمتى لم تجلب عليّ إلاالأن أرى هذه النظرات الوضيعة فإني لألعنها أشد اللعنة . و يعلم الله ماسيقوله عني لمدام دى رينال !

وتغلبت هذه الفكرة على ما عداها . و بعدذلك بقليل ، ثاب جوليان إلى نفسه من علامات الاستحسان التي كان يبديها الجمهور . وكان المحامى قدفرغ من دفاعه . وتذكر جوليان أنه يجمل به أن يصافح محاميه وكان الزمن يمضى سريعا .

وأحضر له ولمحاميه مايشربانه ، فرأى جوليان فى عجب شديد أن السيدات جميعاً لايزلن فى المحكمة ، ولم تذهب إحداهن لتناول عشائها . قال المحامى :

— أؤكد لك أنى أكاد أموت جوعا ! وأنت ؟

— وأنا كذلك .

— أنظر ، هاهى ذى حرم الحاكم تتناول عشاءها ، ثم أشار المحامى إلى الشرفة الصغيرة وقال : تشجع ، كل شئ على مايرام . وأعيدت الجلسة .

أعلنت الساعة منتصف الليل والرئيس يسردموجزا للقضية ، فاضطر إلى أن يتوقف عن الكلام ، و بين هذا السكون الشامل الذى يسوده قلق شديد ، كانت دقات الساعة تملأ أرجاء القاعة .

فقال جوليان فى نفسه : لقد بدأ آخر يوم لى فى الحياة . وهنا انتابته

نوبة شديدة من نوبات الواجب . لقد استطاع ألا يظهر أى تأثر حتى الآن وأخذ على نفسه ألا يتكلم ، ولكن حينما سأله رئيس الجلسة عما إذا كان عنده مايقوله ، نهض واقفا :

وكان يرى أمامه عينى مدام درفيل ، وخيل إليه أنهما تبرقان . فأخذ يسائل نفسه :

أهى تبكى ؟ وكيف كان ذلك ؟

« سادتى المحلفون .

« إن الاحتقار الشديد الذى كنت أقدر أنى سأواجهه ساعة موتى هو الذى يدفعنى إلى الكلام . إننى أيها السادة لم أنل شرف الانتساب إلى طبقتكم ، فما أنا إلا ريفى ثار على ضعة مكانته .

وأنا لا أطلب منكم تسامحا ولا صفحا . ولا أحب أن أخدع نفسى ، فالموت بانتظارى ، وإنه عقوبة عادلة . لقد اعتديت على حياة سيدة جديرة بكل احترام ورعاية : فقد كانت مدام دى رينال لى بمثابة الأم فجريمتى شنيعة ، لأنى دبّرت قتلها من قبل . وعلى هذا فأنا استحق أيها السادة المحلفون عقوبة القتل : ولكن إذا كان جرمى أقل من ذلك ، فإنى أرى رجالا لا يتأثرون بما يدره شبابى من شفقة ورحمة ، فيعمدون إلى أن يقتصوا من طبقة الشبان الذين نشأوا نشأة وضيعة ، وقد أعوزهم الفقر الشديد ، وأسعدهم الحظ فتعلموا تعليما راقيا ، واختلطوا بما يسميه الأغنياء المجتمع كبرا وغرورا . نعم هؤلاء الرجال يريدون القضاء على هذه الطبقة ويوجهون لها أشد الضربات فى شخصى . هذه هى جريمتى أيها السادة ، وسأعاقب

عليها عقابا شديدا ، مادام أندادى لم يشتركوا فى محاكمتى . إننى لاأرى فوق مقاعد المحلفين فلاحا أثرى ، ولكنى أرى برجوازيين تشمئز نفوسهم من فعلتى ... »

وأخذ يتكلم بهذه النغمة عشرين دقيقة ، فقال كل ما كان يجول فى خاطره ؛ كان النائب العام يهتز فى مقعده ؛ لأنه كان يحاول أن ينال رضا الطبقة الأرستقراطية ؛ وعلى الرغم من الطابع المجرد الذى خلعه چوليان على المناقشة ، فإن النساء جميعاً قد أخذن فى البكاء : وكانت مدام درفيل نفسها تغطى عينيها بمنديلها . وقبل أن ينتهى چوليان من حديثه ، عاد فتحدث عن سبق الإصرار وعن ندمه ، واحترامه لمدام دى رينال ، وإلى حبه البنوى لها حباً شديداً ... فصرخت مدام درفيل وأغمى عليها .

ودقت الساعة الأولى فانسحب المحلفون إلى غرفتهم ، ولم تغادر أية امرأة مكانها ، وكان كثيرون من الرجال تلمع الدموع فى عيونهم . كانت مناقشات المحلفين أول الأمر شديدة جداً ، ولكن أخذ القرار يتضح قليلا قليلا ، وأخذ الهدوء يشمل الجمعية لما يلقاه المحلفون جميعا من تعب ونصب . وكانت اللحظة رهيبة ؛ فقد أخذت الأضواء تخبو . ونال التعب من چوليان ، وسمع مَنْ على مقربة منه يتناقشون فيما إذا كان هذا التأخير يعدّ نحساً أو يمنا . وكم سعد حين رأى الناس جميعاً يتمنون له النجاة . لم يعد المحلفون فى قاعة الجلسة ، ومع ذلك فلم تغادر أية امرأة مكانها .

وحينما أعلنت الساعة الثانية صباحاً ، سمعت حركة شديدة ، وفتح باب غرفة المحلفين الصغير ، وتقدم البارون دى ڤالنو فى خطوات مسرحية بطيئة ، وتبعه باقى المحلفين . ثم سعل،وأعلن بعد أن أقسم بنفسه وضميره، أن قرار المحلفين الذى صدر بالإجماع يقضى بإدانة جوليان سورل بالقتل ، و بالقتل مع سبق الإصرار . ثم توقف قليلا وقال : وهذه التهمة عقو بتها القتل . فنظر جوليان إلى ساعته ، وتذكر السيد دى لا ڤالت ، وكانت الساعة الثانية والربع ، ثم قال فى نفسه : إن اليوم يوم الجمعة .

نعم إنه لأسعد أيام ڤالنو حين يحكم علىّ . . . (وكان النساء من حوله يبكين بكاء مراً) ... إن الرقابة علىّ شديدة فلن تستطيع ماتيلدأن تخلصنى كما نجت مدام دى لاڤالت زوجها ... وعلى هذا فبعد ثلاثة أيام وفى مثل هذه الساعة سأعرف ما يجرى علىّ .

وفى هذه اللحظة ، سمع صيحة فارتد بفكره إلى الحياة الدنيا ، وكان النساء حوله يجهشن بالبكاء ، والتفت فرأى الوجوه كلها مستديرة نحو شرفة قائمة فى ركيزة قوطية . وعرف بعد ذلك أن ماتيلد كانت مختفية فيها .

لم تتكرر الصيحة فاستدارت الوجوه إلى جوليان ، وأخذ رجال الشرطة يفسحون له الطريق وسط زحام الجماهير .

ثم قال فى نفسه : علىّ ألا أتيح الفرصة لهذا الوغد ڤالنو فيسخر منى . كم كان الخداع والنفاق يرتسمان على وجهه وهو ينطق بقرار الحكم علىّ بالإعدام ! بينما كان هذا الرئيس المسكين يترقرق الدمع فى عينيه ساعة

الحكم علىّ ، مع أنه قاض منذ سنوات طويلة . يا لفرح السيد فالنو حين أتيحت له فرصة الانتقام لتنافسنا على مدام دى رينال ! ... إننى لن أشاهدها إذن ! لقد حدث ما حدث ... وإنى لأشعر أنه لن يتاح لى أن أودعها الوداع الأخير ... كم كنت أود أن أكشف لها عما أحسه من اشمئزاز كبير من جراء فعلتى !

لن أقول لها أكثر من هذه العبارة : لقد حكم علىّ ، وهو حكم عادل .

الفصل الثانى والأربعون

حينما اقتيد چوليان إلى السجن، أدخل غرفة أعدّت للمحكوم عليهم بالإعدام . ولم ينتبه إلى أنه لم يصعد إلى برجه، مع أنه لا يفوته أن يدرك أقل حركة وأتفه شيء . كان يفكر فيما يقوله لمدام دى رينال لو سعد برؤيتها قبل أن تحين ساعته الأخيرة . وأخذ يفكر فى أنها ستقاطعه، وهو يود لو استطاع أن يعبر لها عن ندمه فى أول كلمة يقولها لها . ثم أخذ يحدث نفسه : كيف أستطيع أن أقول لها بعد أن فعلت فعلتى هذه : إنى لم أحبب سواها ؟ وأنا لم أحاول قتلها إلا طموحاً منى أو حباً لماتيلد .

وآوى إلى فراشه فأحس أنه مغطى بنسيج خشن . فزالت الغشاوة عن عينيه، وأخذ يقول : آه ! إننى فى السجن المظلم، كجميع المحكوم عليهم بالإعدام . إنه جزاء عادل ...

لقد قصّ علىّ الكونت ألتاميرا أن دانتون صاح بصوته الغليظ قبل أن يعدم بيوم واحد وقال : من الغريب أن فعل « شنق » لا يتصرف فى كل الأزمنة، فيستطيع الإنسان أن يقول : سأشنق، ستشنق ولكنك لا تستطيع أن تقول : كنت شُنِقتُ .

واستطرد چوليان يقول : ولم لا، إذا كانت هناك حياة أخرى ؟ ... أنا واثق من أننى سأضيع إن لاقيت إله المسيحيين، لأنه طاغية، ولذلك فهو شديد الانتقام، وإنجيله لا يتحدث إلا عن العقاب الشديد . إننى لم أحببه إطلاقاً، ولم أشأ أن أصدق أن بين الناس من يحبه حباً صادقاً .

إنه لشديد الانتقام (ثم أخذ يتذكر كثيراً من آيات الأنجيل) إنه سينزل بي عقابا صارما …

ليتنى ألقى إله فنلون ! فلربما قال لى : إننا سنعفو عن كثير من خطاياك لأنك أحببت حباً صادقاً …

ولكن هل أحببت كثيراً ؟ آه ! لقد أحببت مدام دى رينال ولكن سلوكى نحوها كان قاسياً غليظاً . ضحيت بتلك المزايا البسيطة المتواضعة؛لأنى شغفت بما هو براق ، فكنت أسير على سنة الناس جميعاً …

ولكن أى أمل كنت أراه نصب عينى ! … أميرالاى فى الخيالة وقت الحرب، وسكرتير فى مفوضية وقت السلم ؛ ثم بعد هذا أصبح سفيراً … لأنى سرعان ما كنت أتقن ما بين يدى من الأعمال … ولو كنت أحمق غبياً ، فهل يتاح لصهرى المركيز دى لامول أن يلقى منافسة يخشى منها ؟ إنّ سيئاتى كلها كانت تغتفر بل تعدّ حسنات وأصبح رجلا ذا مواهب ، يعيش عيشة راضية هانئة فى فيينا أو لندن …

— ليس الأمر كما تظن يا سيدى فستشنق بعد ثلاثة أيام .

فأخذ چوليان يضحك كثيراً من هذه اللفتة النفسية . وأخذ يقول :

إن الرجل — فى الواقع — ذو نفس مزدوجة . فيا للشيطان ، ما هذه الفكرة الخبيثة ؟ ثم قال رداً على هذه الفكرة : حسناً يا صديقى ! نعم سأشنق بعد ثلاثة أيام . إن السيد دى شولان سيستأجر نافذة مع الكاهن مالون ، ويدفع كل منهما نصف المبلغ . فمن ذا الذى سيسرق الآخر من هذين الشخصين الجليلين ؟

ثم تذكر فجأة قطعة من ڤنسيسلاس لروترو :

لا ديسلاس

... إن روحى لعلى أتم الاستعداد .

الملك ، والد لا ديسلاس

والمشنقة كذلك،فاحمل إليها رأسك .

ثم قال : إنها إجابة رائعة ! ثم استغرق فى النوم . وفى الصباح استيقظ على أثر ضجة شديدة ، ففتح عينيه الزائغتين ، وقد ظنّ أنه بين يدى السياف ، وقال :

— ماذا ! هل حان وقت إعدامى ؟

كانت ماتيلد هى التى تحتضنه ، ولم تفهم لحسن حظه ما قاله . وقد ردت له هذه الفكرة هدوءه . ووجد أنّ ماتيلد قد تغيرت تغيراً تاماً ، كأنها ظلت مريضة ستة شهور ، فقد كانت لا ترحم نفسها . ثم قالت له وهى تفرك يديها ، ولم يمكنها الغضب من البكاء .

— إنّ هذا الحقير فريلير قد خدعنى .

— ألم أكن جميلا أمس حين تكلمت ؟ لقد ارتجلت الحديث لأول مرة فى حياتى ! وأخشى فى الواقع أن تكون آخر مرة..

كان چوليان فى هذه اللحظة يعبث بخلق ماتيلد فى هدوء شديد ، كأنه عازف ماهر على البيان ... ثم استطرد يقول : إنى لا أنكر ضعة نشأتى ، ولكن نفس ما تيلد العالية قد رفعت إليها حبيبها . فهل تعتقدين أن بونيفاس دى لامول كان خيراً منى أمام قضاته ؟

وكانت ماتيلد فى ذلك اليوم رقيقة فى غير تكلف . كأنها فتاة بائسة ممن يسكن فى الطابق الخامس من المنازل ؛ ولكنها لم تستطع حمله على أن يقول أبسط مما كان يقول . لقد أشقاها دون أن يدرى ، كما أشقته هى من قبل .

وأخذ يقول فى نفسه : إن المرء لا يعرف منابع النيل ، ولم تر عيناه ملك الأنهار جدولا صغيراً : إذن فلن تتاح لأى عين بشرية أن ترى جوليان ضعيفاً ، خائر القوى ، لأنه قبل كل شىء ليس كذلك . ولكن قلبى سريع التأثر ؛ فلو قيل الكلام السائر فى صدق و إخلاص لرق صوتى وسالت دموعى . وكم من مرة احتقرتنى القلوب القاسية من أجل هذه النقيصة ! فكانوا يعتقدون أننى أطلب الصفح ، وهذا ما لا أطيقه .

قيل إن دانتون ذكر امرأته وهو فى أسفل المقصلة فتأثر ، ولكن دانتون وهب الحياة لأمة أهلها طائشون وحال بين العدو و بين پاريس ... أنا وحدى أعرف ما أستطيع أن أفعله ، أما الآخرون فهم لا يؤمنون بقدرتى .

لو أن مدام دى رينال هى التى كانت معى الآن فى السجن بدلا من ماتيلد ، أكنت أقول هذا فى نفسى ؟ إن قنوطى الشديد وندمى البالغ قد يفسرها ڤالنو وباقى أشراف المقاطعة ، بالخوف الشديد من الموت ؛ إن فى قلوبهم خورا ، ولكنهم متكبرون إلى أقصى حد؛ لأن مركزهم المالى يضعهم دائما فوق الشبهات ! والسيدان : دى موارو ودى شولان اللذين حكما علىّ بالاعدام ربما قالا : هكذا يكون من يولد ابن نجار ! قد يصبح الإنسان عالما ، ماهرا ، ولكن القلب ! ... القلب لا يدخل فى محيط

التعليم . وحتى هذه الفتاة المسكينة ماتيلد التى تبكى الآن ، أو على الأصح التى لا تستطيع أن تبكى الآن ، قد أنساها الألم الحق جدلها المنطقى . قال هذا وهو ينظر إلى عينيها المحمرتين ... ثم ضمها بين ذراعيه ... وأخذ يحدث نفسه : ربما قضت ليلتها باكية،ولكن أى خزى تلقاه فى المستقبل حين تذكر ذلك ! ستعدّ نفسها كمن ضلت فى شبيبتها الأولى ، وأغوتها طرق تفكير شاب من عامة الشعب .... وكروازنوا ضعيف فسيتزوجها ، ويخيل إلىّ أنه يحسن صنعا ، فهى ستجعله يقوم فى الحياة بتمثيل دور !

وذلك بما للنفس القوية المتشعبة المقاصد من سلطان على النفوس الضعيفة لعامة الناس .

آه ! هذا عجيب حقا ! فمنذ حكم علىّ بالاعدام ، أصبحت أتذكر الأشعار التى كانت لاتخطر من قبل على ذاكرتى . وهذه علامة من علامات التدهور ...

قالت له ماتيلد بصوت ضعيف خافت : إنه فى الغرفة المجاورة . وأخيرا انتبه إلى ماتقول ، فحدث نفسه : إن صوتها لضعيف ، ولكنها لاتزال تحتفظ بكل ما فى خلقها من سيطرة تنم عنها لهجتها . إنها تخفض صوتها حتى لاتغضب . وسألها جوليان فى رقة وحنان :

— ومن الذى هناك ؟

— المحامى ، أتى لتوقع طلب الاستئناف .

— لن أستأنف . فنهضت وعيناها يشع منها الغضب وقالت :

— ماذا تقول ؟ لن تستأنف ! ولم ذلك من فضلك ؟

— لأنى أشعر بقوة أستقبل بها الموت فلن يسخر الناس منى . ومن يدرينى أننى بعد أن أقيم فى هذا السجن الرطب شهرين أكون متمتعا بالقوة التى أحسها الآن ؛ إنى أتنبأ بمحادثات ستجرى بينى و بين القسس و بينى و بين والدى ... وهذا أكره شىء إلى نفسى فى الوجود . فلأمت .

أثارت معارضته كل ما فى نفسها من كبر وعظمة . إنها لم تستطع أن تلقى الكاهن دى فريلير قبل الساعة التى تفتح فيها سجون بيزانسون ، فصبت جام غضبها على چوليان . كانت تعبده ، ومع ذلك ظلت ربع ساعة وهى تصب عليه اللعنات لسوء طبعه ، وتعلن ندمها الشديد على أنها أحبته ، فرأى چوليان فى هذا كله نفسها المتكبرة التى كثيرا ما كانت تسبه سبا مقذعا فى مكتبة قصر دى لامول . فقال لها :

— كان يجدر بالسماء أن تخلقك رجلا لو أنها أرادت بطبقتك خيرا .

وأخذ يقول فى نفسه : أما أنا فسأكون غرا إن عشت شهرين آخرين فى هذا المكان المرعب ، معرضا لكل ماترمينى به عصبة الأشراف من دناءة وحط من كرامتى ، وعزائى الوحيد هو أن شتائم هذه المجنونة ستنهال علىّ . . . حسنا ، سأبارز بعد غد صباحا رجلا عرف بهدوئه وحذقه الشديد . . . ويقول حزب الشيطان إنه ماهر إلى أبعد حد ، فضرباته لا تفلت أبدا . حسنا ، سأفعل ذلك (وكانت ماتيلد لا تزال تبدى فصاحتها) فقال فى نفسه : ياللشيطان ، إننى لن أستأنف !

وعندما اتخذ هذا القرار ، بدأ يحلم .. سيحمل إليهم الجريدة ساعى البريد فى الساعة السادسة كعادته ؛ وفى الساعة الثامنة حين يفرغ من قراءتها

السيد دى رينال ، تتناولها إليزا وتسير على أطراف قدميها لتضعها على سريرها . بعد هذا تستيقظ من نومها ، وتتناول الصحيفة ، فتضطرب فجأة وهى تقرأ ، فترتعش يدها الجميلة ولكنها تقرأ كل شيء حتى هذه العبارة : وفى الساعة العاشرة والدقيقة الخامسة ، انتهت حياته .

ستبكى بكاء مرا ، فأنا أعرفها ؛ وستنسى أننى حاولت قتلها . إن السيدة التى حاولت الاعتداء على حياتها ستكون السيدة الوحيدة التى تبكى لموتى بكاء حارا .

آه ! هذه على النقيض منها ! وظلت ماتيلد تتشاجر معه أكثر من ربع ساعة وهو منصرف عنها إلى التفكير فى مدام دى رينال . وعلى الرغم منه ، لم تكن نفسه تتخلى عن ذكريات غرفة النوم فى ڤريير . وإن كان كثيرا ما يجيب ماتيلد على ما تقول وهى دائبة على التحدث إليه . كان يرى جريدة بيزانسون على ذلك الغطاء الحريرى البرتقالى اللون ، ويرى تلك اليد البيضاء تتناولها فى حركة قلقة ، وكان يرى مدام دى رينال تبكى ... وكان يتتبع كل دمعة تسقط على وجهها الفاتن .

ولما يئست الآنسة دى لامول من أن تنال منه شيئا ، استدعت المحامى . ومن حسن الحظ كان هذا المحامى قائدا سابقا فى جيش إيطاليا منذ عام ١٧٩٦ ، وكان صديقا لمانول .

وأخذ يعارض قرار المتهم ، لكن چوليان أراد أن يعامله بكل احترام فشرح له الأسباب التى حملته على ألا يستأنف الحكم .

وأخيرا قال له السيد فيلكس ڤانو المحامى : اللهم إن الإنسان ليستطيع

أن يفكر تفكيرك . وأمامك ثلاثة أيام كاملة لاستئناف الحكم ؛ وواجبي يقضي عليّ أن أحضر إليك كل يوم . لو أن بركانا انفجر تحت السجن ، من الآن إلى أن يمضي شهران ، لأنقذت حياتك . ثم نظر إلى چوليان وقال له :

— قد تموت على إثر مرض .

فصافحه چوليان وضغط على يده وقال له :

— أشكرك كل الشكر ، فإنك رجل كريم . سأفكر في هذا .

ولما انصرفت ماتيلد مع المحامي ، كان چوليان يشعر نحو السيد ڤانو بصداقة كبيرة أكثر من صداقته لها .

الفصل الثالث والأربعون

بعد ذلك بساعة ، كان جوليان نائما نوما عميقا ، فأيقظته دموع تتساقط على يده . فأخذ يقول فى نفسه وهو بين اليقظة والنوم : آه ! إنها ماتيلد ، جاءت مرة أخرى لتطبق نظرية تحطيم القرار بالعواطف الرقيقة . كان يمل حدوث منظر جديد من المناظر المؤثرة المحزنة ، فآثر أن يغمض عينيه . وتذكر أشعار بلفجور وهو يفر من زوجته . لكنه سمع تنهدا عجيبا ، ففتح عينيه ، ورأى مدام دى رينال . فارتمى عند أقدامها وأخذ يقول :

— آه ! أهكذا أراك قبل أن أموت ! أواهم أنا ؟ ثم ثاب إليه رشده فى الحال وقال : ولكن معذرة ياسيدتى ، فلست فى نظرك إلا قاتلا أثيما .

— سيدى ... جئت أرجوك أن تستأنف الحكم بعد أن عرفت أنك لا تريد ذلك ... وكانت دموعها تكاد تخنقها فلم تستطع أن تتكلم .

— تفضلى بالصفح عنى . فنهضت من مكانها وارتمت بين ذراعيه وقالت :

— إن أردت الصفح فاستأنف حكم الإعدام فى الحال .

فأخذ جوليان يمطرها بالقبلات .

— هل ستأتين لرؤيتى كل يوم خلال هذين الشهرين ؟

— أقسم لك على ذلك ، كل يوم ، إلا إذا حرّم ذلك علىّ زوجى .

— أوقّع ! ماذا تقولين ؟ أتغفرين لى ذنبى ؟ هل هذا ممكن ؟ !

ثم احتضنها فى جنون ، فصاحت صيحة خافتة ثم قالت :

— لا شىء ، إلا أنك آلمتنى قليلا .

فبكى وقال :

— فى كتفك . ثم ابتعد عنها قليلا وأخذ يقبل يدها فى حرارة شديدة . من الذى كان يظن أنى سأفعل ما فعلت يوم أن رأيتك آخر مرة فى غرفة نومك فى ڤرييه ؟

— ومن ذا الذى كان يعتقد أننى سأكتب هذا الخطاب الدنىء إلى المركيز دى لامول ؟

— اعلمى أننى أحببتك دائماً ، ولم أحبّ سواك .

— أحقاً ما تقول ؟ !

كانت سعيدة بما سمعت ، واستندت إلى جوليان وهو جاث عند ركبتيها . وأخذا يبكيان فى صمت وقتاً طويلا .

لم يشهد جوليان فى حياته كلها لحظة كهذه اللحظة .

وبعد وقت طويل ، وبعد أن استطاعت أن تتكلم قالت له :

— ولكن ما شأن هذه السيدة الشابة مدام ميشليه أو على الأصح الآنسة دى لامول ؟ لأنى بدأت فى الواقع أصدق هذه القصة .

— هى ليست صحيحة إلا فى الظاهر . إنها زوجتى وليست خليلتى ...

كان كل منهما كثيراً ما يقاطع الآخر ، فلم يستطيعا أن يقص كلٌّ على صاحبه ما يجهله الآخر إلا فى عسر ومشقة . فالخطاب الذى أرسل إلى المركيز دى لامول ، كتبه القس الشاب الذى تعترف أمامه مدام دى رينال ، ونسخته هى بخطها . وقالت له :

— لقد حملنى الدين على أن أرتـكب عملا حقيراً ! على أنى خففت كثيراً من لهجة بعض فقرات الخطاب التى كانت شائنة إلى أقصى حد ..

كانت السعادة التى تغمره وفرحه الشديد بلقائها يدلانها على أنه قد غفر لها زلتها غفراناً جميلا ، لأنه لم يكن فى يوم من الأيام متطرفاً فى حبه إلى هذا الحد . ثم قالت له مدام دى رينال أثناء الحديث .

— أنا أعتقد مع ذلك أننى تقية ، إنى أومن بالله إيماناً شديداً ؛ وأومن كذلك بأن الجريمة التى ارتـكبتها شنيعة ، وقد اتضح لى ذلك . إننى حين أراك حتى بعد أن أطلقت علىّ رصاصتين ... (فانهال عليها يقبلها على الرغم منها) .

— دعنى ، لأنى أريد أن أتحدث معك حتى لا أنسى ما أريد أن أقول ... إننى حين أراك ، تختفى جميع الواجبات ، وتصبح كل ناحية فى نفسى وكل جارحة فى جسمى تشعر بالحب العنيف لك ، إن كلمة الحب واهية جداً لا تؤدى ما أرمى إليه . أشعر نحوك بما ينبغى لى أن أشعر به نحو الله فحسب : إذ يملك نفسى خليط من الاحترام والحب والطاعة ... أنا فى الواقع لا أدرى ما توحى به إلىّ . فلو أنك أمرتنى أن أطعن السجان بسكين ، لارتـكبت هذه الجريمة قبل أن أفـكر فيها . فبيّن لى سبب ذلك فى وضوح قبل أن أتركك ، أريد أن أتبين تماماً ما يدور فى قلبى ، إننا سنفترق بعد شهرين ... ثم ابتسمت وقالت : وبهذه المناسبة هل سنفترق ؟ فنهض وصاح قائلا :

— إنى أسحب ما وعدتك به ، لن أستأنف حكم الإعدام ، إذا

كنت ستعمدين إلى السم أو إلى سكين أو مسدس أو فحم أو أية مادة أخرى لتقضى على حياتك أو لتسيئى إلى نفسك .

فتغيرت ملامحها فى الحال ؛ وارتسم على وجهها أشد حالات الحنان بعد أن كان مرتسما عليه أعمق الأحلام ، ثم قالت له :

— ماذا تقول لو متنا الآن معاً ؟

— من يعلم ما سنجده فى الحياة الأخرى ؟ ربما وجدنا العذاب ، وربما لا نجد أى شىء . ألا نستطيع أن نقضى معاً شهرين لذيذين ؟ شهران... إنهما لأيام كثيرة . إننى لم أشعر بمثل هذه السعادة !

— لم تشعر بمثل هذه السعادة !

— أبداً ، وإنى أتحدث إليك كما أتحدث إلى نفسى . وقانى الله المبالغة .

فابتسمت ابتسامة خجلة حزينة ثم قالت :

— لك أن تأمرنى ، لا أن تتحدث إلىّ بهذه الطريقة .

— حسناً ! أقسمى لى بما تكنه نفسك لى من حب بأنك لن تعتدى على حياتك بطريقة مباشرة أو غير مباشرة ... واستطرد يقول :

— إعلمى أنه ينبغى لك أن تعيشى من أجل ولدى ، لأن ماتيلد ستتركه فى رعاية الخدم حينما تصبح المركيزة دى كروازنوا . فقالت فى فتور :

— أقسم لك على ذلك ، ولكنى أريد أن آخذ طلب الاستئناف مكتوباً بخطك وموقعاً عليه منك . وسأذهب بنفسى إلى النائب العام .

— حذار أن تفعلى هذا ، وإلا ثارت حولك الشبهات . فقالت له فى حزن ظاهر :

— إننى بعد أن أتيت إليك فى السجن ، أصبحت فى نظر أهل بيزانسون وسكان مقاطعة فرانش كونتى بطلة من أبطال القصص . لقد تخطيت حدود هذا الحياء الشديد ... أصبحت امرأة تجردت من الشرف ؛ الواقع أننى من أجلك ...

وكانت لهجتها تنطوى على حزن شديد ، فأخذ يقبلها فى سعادة كبيرة لم يعرف مثلها من قبل ، ولم يكن مصدرها نشوة الحب ، ولكنه الاعتراف الكبير بالجميل . ورأى لأول مرة مقدار التضحية التى أقدمت عليها من أجله .

ويظهر أن بعض النفوس الخيرة أخبرت السيد دى رينال أن زوجته تزور چوليان فى سجنه وتقضى معه وقتاً طويلا ، لأنه أرسل عربته إليها بعد ثلاثة أيام وطلب إليها أن تعود فى الحال إلى ڤرييرر .

كان هذا الفراق القاسى نذير سوء، بدأ چوليان به يومه . فقد قيل له بعد ذلك بساعتين أو ثلاث ساعات : إن قسيساً فى الشارع قائم بباب السجن منذ الصباح . إنه لقس دسّاس ومع ذلك فلم يتمكن من أن يشق طريقه بين يسوعيّى بيزانسون . كان المطر شديداً والرجل فى مكانه لا يبرحه ويزعم أنه شهيد .

كان چوليان متضايقاً ، ولكن هذه الحماقة أثرت فيه تأثيراً شديداً . كان قد رفض فى الصباح أن يستقبل هذا القس ، ولكن الرجل أصرّ على أن يعترف چوليان أمامه ؛ ليذيع اسمه بين نساء بيزانسون بالاعترافات التى سيزعم أن چوليان أفضى بها إليه .

صرّح القسيس فى صوت عال بأنه سيقضى اليوم كله والليل أمام باب السجن ، قائلا : لقد أرسلنى الله لأدخل الإيمان فى قلب هذا الكافر ... فاجتمع الناس حوله على نحو ما يفعل العامة حين يرون منظراً غريباً ، فقال لهم :

— نعم يا إخوانى ، سأقضى هنا يومى وليلتى والأيام والليالى المقبلة . لقد تحدث إلى الروح القدس ، فلدىّ رسالة من السماء ؛ إننى أنا الذى كلفت بأن أخلص روح سورل الشاب . رددوا معى صلواتى ...

كان جوليان يكره الفضيحة كراهية شديدة ، ولا يحب ما يلفت إليه الأنظار . وفكر فى أن ينتهز هذه الفرصة ليخرج من العالم مجهولا ؛ ولكنه كان يأمل فى أن يرى مدام دى رينال ، التى وله حبها .

كان باب السجن فى شارع مزدحم ، وكانت فكرة هذا القس القذر التى جمعت الناس حوله وأثارت فضيحة تؤلم جوليان أشد الألم ، فأخذ يقول : لا شك أن اسمى يردد على لسانه فى كل لحظة من اللحظات ! وكان ذلك أشق على نفسه من الموت .

واستدعى سجاناً كان يخلص له مرتين أو ثلاث مرات كل ساعة وطلب منه أن يذهب ليرى ما إذا كان القس لا يزال بالباب . فكان يقول له فى كل مرة :

— إنه يا سيدى راكع فى الوحل ، يصلى بصوت عال و يتلو أوراداً على روحك ... فأخذ جوليان يقول : يا له من وقح ! وكان قد سمع

فى تلك اللحظة ضجيج أصوات الناس وهم يرددون الأوراد . وزاد غيظه حين رأى السجان يحرك شفتيه مردداً الكلمات اللاتينية . ثم قال له :

— لقد بدأ الناس يقولون بأنك قاسى القلب ، إذ ترفض لقاء هذا الرجل الورع وتعرض عن مساعدته الروحية لك . فصاح فى غضب شديد :

— واحسرتاه عليك ياوطنى ! إنك لا تزال تتردى فى مهاوى الجهل ! ثم أخذ يتحدث بما يجول فى نفسه ولا يقيم وزناً لحضور السجان . هذا الرجل يريد أن يكتب عنه فى الصحف مقال ، وهو واثق من أنه سيحصل على ما ينبغى .

آه ! يا لكم من ريفيين حقراء ! لو أننى كنت فى باريس ما لقيت هذا الغيظ ؛ فالناس هناك أكثر علماً بالشعوذة . ثم قال للسجان :

— أحضر هذا القس القديس . وكان العرق يتصبب من جبهته غزيراً فرسم السجان علامة الصليب وخرج فرحاً مسروراً .

كان القسيس قبيحاً إلى أبعد الحدود ، وعلى جانب كبير من القذارة ، وزاد المطر البارد ، الذى كان يتساقط ، السجن رطوبة وظلاماً . أراد القس أن يقبّل جوليان وأخذ يتحدث إليه حديثاً رقيقاً . فغضب جوليان كثيراً لأن النفاق كان بادياً فى حديث القس واضحاً جلياً .

و بعد أن ظلّ القس معه ربع ساعة ، أحس جوليان جبناً شديداً . و بدا له الموت للمرة الأولى كريهاً ممقوتاً . وأخذ يذكر تعفن جسمه بعد يومين من إعدامه ... وكاد أمره يفتضح بما يبديه من ضعف وخور ، أو يهجم على القس فيخنقه بسلسلته ، إلا أن فكرة طرأت عليه وأعطى القس أربعين فرنكا ورجاه أن يصلى من أجله فى نفس اليوم .

وأوشك النهار أن ينتصف حين انصرف من عنده القس .

الفصل الرابع والأربعون

خرج القس ، فأخذ جوليان يبكى بكاء شديدا ؛ كان يبكى فزعا من الموت . وأخذ يقول فى نفسه ، بعد أن حملها على ذلك : لو أن مدام دى رينال لاتزال فى بيزانسون لأفضيت بضعفى إليها ...

و بينما كان يأسف لغياب هذه السيدة المحبوبة ، سمع وقع خطوات ماتيلد . فقال فى نفسه : إن شرّ مافى السجن ، أننى لاأستطيع أن أغلق علىّ بابى . وكان يقابل بالغضب كل ماتقوله له ماتيلد .

قصت عليه أن السيد ڤالنو كان يعلم يوم المحاكمة أنه عيّن حاكما ، فجرؤ على السخرية من السيد دى فريلير ، وترك نفسه تنعم بالحكم عليه بالإعدام . ثم أخبرته بما قاله لها دى فريلير : « أية فكرة كانت تدور فى ذهن صديقك حين أيقظ غرور الطبقة الأرستقراطية من البرجوازيين ثم هاجمها بعد ذلك ! لم أخذ يتحدث عن الطبقات ؟ لقد بين لهم ماينبغى أن يعملوه طبقا لمصالحهم السياسية : كان أولئك الحمقى لايفكرون فيما قاله، وقد كادوا يبكون . غير أن صالح الطبقات قد غطىّ على أعينهم فلم يتبينوا ماينطوى عليه الحكم بالإعدام من ضعة وقسوة . يجب أن نعترف بأن السيد سورل ليس فطنا بالأمور . إننا إذا لم نستطع أن نصل إلى الحصول على عفو عنه ، فسيكون موته نوعا من الانتحار ... »

ولم تشأ أن تخبر جوليان بما لم تكن تشك فيه وهو أن الكاهن

فريلير وجد من الخير له أن يخلف جوليان بعد أن أيقن بهلاكه ، وذلك إرضاء لطموحه .

كان جوليان قد فقد كل سيطرة على نفسه من شدة الغضب والمعارضة التى يلقاها فقال لماتيلد : إذهبى واستمعى إلى القداس الذى سيقام من أجلى ، واتركينى لحظة أنعم بالهدوء. وكانت ماتيلد شديدة الغيرة من زيارات مدام دى رينال له ، وقد علمت أنها غادرت بيزانسون ، فأدركت السرّ فى غضبه ، وأخذت تبكى .

كان ألمها حقيقيا ، لكنه لم يزد جوليان إلا غضبا على غضب . كان فى حاجة ملحة إلى العزلة ، وكيف له أن ينالها ؟ و بعد أن حاولت ماتيلد بكل الوسائل أن تستدر عطفه فلم تفلح ، تركته وحده ، إلا أن فوكيه جاء إليه نفس اللحظة التى كانت تهم فيها بالانصراف ورأى جوليان هذا الصديق المخلص فقال له :

— أنا فى حاجة لأن أبقى وحدى ... وحينما رأى فوكيه مترددا قال: إننى أكتب مذكرة فى التماس العفو ... وفضلا عن هذا ... أرجو أن تترفق بى فلا تتحدث إلىّ عن الموت . وإذا كنت أنا فى حاجة إلى خدمة خاصة فدعنى أبدأ أنا بالحديث .

ولما نال جوليان العزلة التى ينشدها ، شعر بوطأة الاضطراب والخور أكثر من قبل ، وذلك لأن البقية الباقية له من قواه كان قد استخدمها فى أن يخفى عن ماتيلد وفوكيه حقيقة مايشعر به .

وجنّ الليل، فطرأت عليه فكرة خففت عنه كثيرا :

لو أنهم استدعونى لينفذوا الحكم فىّ هذا الصباح حين كان يبدو لى الموت قبيحا كريها لحملتنى عيون الجماهير إلى المجد والفخار ، ولربما كان فى مسلكى شىء من التصنع كمثل المختال الخجول الذى يدخل أحد الصالونات . وقد ينتبه بعض الريفيين من بعيدى النظر ، إذا صحّ أن بين الريفيين أذكياء ، إلى ما أشعر به من ضعف ... ولكن لن يرى أحد ضعفى .

وأحسّ أن بعض همه يخفّ عن كاهله ، فجعل يغنى ويقول : ما أنا إلا جبان فى هذه اللحظة ، ولكن لن يعلم بذلك أحد .

وكان حادث آخر أشد مرارة ينتظره فى اليوم التالى ، وذلك أن والده كان عازما على زيارته منذ زمن طويل . وقبل استيقاظ جوليان من نومه ، كان النجار الشيخ فى سجن ولده .

وشعر جوليان بضعف شديد ، لأنه كان يتوقع من والده أشد اللوم . وقد زاد فى همه أنه أحس ندما شديدا على أنه لم يحبب أباه . وأخذ يقول فى نفسه والسجان يرتب بعض حاجات السجن : لقد ساقتنا المصادفة إلى أن يعيش كل منا على مقربة من الآخر ، وقد آذى كل منا صاحبه . إنه يجئ إلىّ ساعة موتى ليوجه إلىّ الضربة الأخيرة .

وبدأ الشيخ يؤنب ابنه تأنيبا شديدا حين خرج السجان ، ولم يستطع جوليان أن يكفكف من دموعه ، فقال يحدث نفسه فى غضب : ياله من ضعف مخجل إنه سيذهب إلى كل مكان ويبالغ فى خورى وضعفى ؟ فياله من نصر عظيم لأمثال ڤالنو وكل أولئك المنافقين الذين يحكمون فريير !

إن لهم مكانتهم فى فرنسا ، فهم يتمتعون بكل المزايا الاجتماعية . لقد كنت أقول حتى الآن : إنهم يصيبون مالا كثيرا ، ومما لاشك فيه أنهم ينعمون بكثير من التبجيل ، أما أنا فإنى أتمتع بشرف النفس . وقد أتيح لى الآن شاهد لن ينكر أحد شهادته ، ليذيع فى ڤرييير مبالغا فيما يذيع، أننى كنت خائر القوى إزاء الموت ! سأكون فى نظرهم جبانا فيما أقدمت عليه !

كان جوليان على وشك القنوط ، ولم يهتد إلى طريقة يصرف بها أباه كما أنه لم يوفق إلى طريقة يخدع بها هذا الشيخ الذكى الذى لاتخفى عليه خافية ، لأن قواه كانت لاتواتيه .

غير أن ذكاءه استعرض كل طريقة ممكنة ، ثم صاح قائلا على حين غرة :

— لقد اقتصدت بعض المال ..

فلما نطق بهذه العبارة التى تدل على العبقرية،تغيروجه الشيخ وتبدل مركز جوليان الذى أخذ يقول فى هدوء ، لأن الأثر الذى تركته عبارته قد قضى على ما كان يشعر به من مركب النقص :

— ماذا أفعل بهذا المال ؟

كان النجار العجوز يرغب فى أن يستولى على كل هذا المال رغبة شديدة ، وقد خُيِّل إليه أن ابنه سيعطى جزءا منه لأخويه ، وأخذ الشيخ يتحدث فى قوة وحرارة ، وجوليان يصغى إليه ساخرا ، ثم قال :

— حسنا ! لقد ألهمنى الله وأنا أكتب وصيتى ، وسأعطى كل أخ من اخوتى ألف فرنك ولك الباقى .

— حسنا ! ولكنك مدين لى بهذا الباقى ؛ وبما أن الله قد بعث الطيبة فى قلبك ، فأردت أن تموت مسيحيا مخلصا ، فيجب إذن أن تدفع ماعليك من ديون. أنت مدين لى بما أنفقته عليك من طعام وتعليم ولكنك لاتفكر فى هذ ...

وانصرف الشيخ فأخذ جوليان يقول فى غضب شديد : هذا إذن هو حب الأب لابنه ! ثم أتى إليه السجان وقال له :

— لقد اعتدت ياسيدى أن أحمل لضيوفى بعد زيارة أهليهم زجاجة من نبيذ شمبانيا ، وهو نبيذ طيب و إن كان غالى الثمن ، فالزجاجة بستة فرنكات ولكنها تنعش القلب .

فأجاب جوليان فى عجلة شديدة جديرة بالأطفال :

— أحضر ثلاث كؤوس ، وأدخل اثنين من المساجين الذين أسمع وقع خطاهم وهم يتنزهون فى الممر .

فأحضر له السجان اثنين من المجرمين العائدين يستعدان لأن يرجعا إلى المنفى . إنهما وغدان على جانب كبير من المرح ، ودقة الفهم والشجاعة والهدوء. قال أحدهما لجوليان :

— إن أعطيتنى عشرين فرنكا ، قصصت عليك حياتى بالتفصيل، وهى قصة ممتعة .

— ولكن هل تكذب علىّ ؟

— لا ، إن صديقى هذا لتتحرق نفسه غيرة من العشرين فرنكا ، فلو أنى عمدت إلى الكذب فى قصتى لأخبرك بذلك .

إن قصة هذا اللص كريهة، تدل على قلب شجاع خلا من المشاعر كلها، ماعدا حبه للمال .

و بعد انصراف المسجونين ، تبدل حال جوليان ، وذهب عنه غضبه وحنقه على نفسه . كان الألم الشديد الذى يلقاه ممزوجا بخور كبير ، منذ رحيل مدام دى رينال ، قد تبدل حزنا .

وأخذ يحدث نفسه : لو لم تخدعنى المظاهر ، لوجدت صالونات باريس قد غصت برجال أمناء كوالدى ، أو بلصوص ماهرين كهذين المسجونين . إنهم لعلى حق ؛ فرجال الصالونات حين ينهضون فى الصباح من نومهم لاتشغل أذهانهم هذه الفكرة اللاذعة : أين أتناول اليوم غدائى ؟ ومع ذلك فهم يدّعون الأمانة ! وحينما يختارون محلفين ، يحكمون فى نزاهة على رجل كاد يقتله الجوع ؛ فسرق بعض أوان من الفضة .

ولكن إذا وجد بلاط يحرص على أن ينصب وزيرا أو يسقط آخر ، فإن رجال الصالونات الأمناء ، يرتكبون جرائم مماثلة تماما للجرائم التى يرتكبها هذان المسجونان ، مدفوعين بشدة الفاقة . .

لم يعد فى العالم حق طبيعى ، لقد أصبحت هذه الكلمة تدل على غفلة قديمة ، لايعتد بها إلا النائب العام الذى كان يطاردنى منذ أيام والذى أثرى أحد أجداده من مصادرة ، أمر بها لويس الرابع عشر .

ليس هناك حق إلا إذا وجد قانون يحرم مثل هذه الأشياء ، ويفرض عقوبة على مرتكبها . إذا لم يسن قانون ، فلن يكون هناك حق طبيعى إلا قوة الأسد ، أو حاجة الرجل الجائع الذى يطارده البرد القارس ، الحاجة

على كل حال ... لا ، إن كثيرين من الناس الذين تجدونهم ليسوا إلا لصوصا، سعدوا بعدم القبض عليهم ، وهم متلبسون بالجريمة . والشخص الذى وكلت إليه الجماعة أمر اتهامى قد أثرى بطريقة غير شريفة ... لقد ارتكبت جريمة قتل ، فحكم على بالعدل ، ولكن ڤالنو الذى حكم على قد أساء إلى المجتمع ، أكثر مما أسأت إليه . ثم استطرد فى حديثه حزينا لا غاضبا ، فقال :

— حسنا ! والدى على الرغم من بخله خير من أولئك الناس جميعا . إنه لم يحبنى قط، وقد زدت الطين بلة بموتى الذى لا شرف فيه، والذى سيجر عليه العار . وخوفه من فقد المال ، وتلك النظرة التى بالغت فيها قسوة الرجال ، والتى يسمونها بخلا ، قد دفعاه إلى انتحال باعث قوي لمصالحتى ، ووجد فى المبلغ الذى أتركه له وهو ثلثمائة أو أربعمائة لويس، أمانا وضمانا من الفقر . إنه سيطلع كل حساده فى ڤرير على الذهب الذى يملكه ، فى يوم من أيام الآحاد بعد العشاء ، وستنطق نظراته بهذه العبارة : من منكم لا يود إذن أن يكون له ابن يموت مشنوقا ؟

قد تكون هذه الفلسفة صحيحة ، ولكن عليها طابعا يدفع الإنسان إلى أن يتمنى الموت . انقضت خمسة أيام طويلة على هذا الحال . فكان مؤدبا ظريفا مع ماتيلد ، التى كانت الغيرة الشديدة تأكل قلبها . وفكر جوليان جديا فى أن يقتل نفسه فى إحدى الأمسيات ؛ إذ كانت نفسه تنطوى على الأسى الشديد لرحيل مدام دى رينال . ولم يعد معجبا بشىء لا فى حياته المادية ولا فى حياته العقلية . كان طول إقامته فى السجن يحال

بينه و بين الرياضة؛ فضعفت صحته، وأصبح خلقه متحمسا ضعيفا كأنه خلق طالب ألمانى . وفقد الرجولة المتعالية، التى تدفع عنه بيمين قوية بعض الآراء العقيمة ، التى تصدر عن النفوس الوضيعة .

لقد أحببت الحقيقة ... فأين هى الحقيقة ؟ إن الإنسان ليجد النفاق فى كل مكان ، أوعلى الأقل يلقى الشعوذة ، حتى عند أولئك الذين يتصفون بالفضائل ، وحتى عند عظماء الرجال . و بانت على شفتيه علامة الامتعاض والاحتقار ... لا ، إن الرجل لايستطيع أن يثق بالرجل .

كانت مدام ... تجمع الصدقات لليتامى الفقراء ، فقالت لى: إن الأمير فلانا أعطاها عشرة لويسات ، هذا كذب . ولكن ماذا أقول ؟ إن نابليون فى سانت هيلانة ! ... إنها شعوذة حقيقية ، و إعلان فى صالح ملك إيطاليا .

ياإلهى ! إذا كان مثل هذا الرجل يسف فيعمد إلى الشعوذة ، فماذا ينتظر من باقى البشر؟ ... إن الشقاء يناديه فى قسوة أن يؤدى واجبه .أين الحقيقة ؟ فى الدين ... ثم ابتسم ابتسامة مرة، تنطوى على الاحتقار الشديد وقال : نعم ، فى أفواه أمثال مالون وفريلير وكاستاند ... ربما وجدت فى المسيحية الحقيقية ؛ حيث لايتناول القس من المال إلا بمقدار ما كان يأخذه الحواريون ...؟! ولكن القديس بولص كان أجره اللذة فى الحكم، وفى الحديث وفى التحدث عنه ... آه ! ليت لنا دينا قويما ... يالى من أحمق ! أرى كنيسة قوطية وزجاجا جميلا ، فيندفع قلبى الضعيف يذكر قسيس هذه الكنيسة ... و نفسى تدرك ذلك ؛ لأنها فى حاجة إليه ...

ولـكنى لا أجد إلا رجلا بليدا ذا شعر قذر ... أو رجلا معنيا بزينته، مثل الفارس دى بواڤوازيه .

ولـكن أين القس الحقيقى ؟ أين ماسيون وأين فنلون ؟ إن مذكرات سان سيمون قد أفسدت ، على ما أرى، فنلون ، و إن كان قسّا حقيقيا ... وعلى هذا فستجد النفوس الـكريمة ، تتجمع كلها حول نقطة واحدة فى هذا العالم ... إننا لن نعيش فى عزلة ... وهذا القس الصالح سيتحدث إلينا عن الله . ولـكن أى إلـه ؟ ليس إله الأنجيل ، ذلك الطاغية الصغير القاسى، المتعطش إلى الانتقام والذى لا يغفر ولا يصفح ... نريد إلـه ڤولتير ، نريد الإلـه العادل ، الطيب الذى وسعت رحمته كل شىء ...

وهزته نصوص الإنجيل الذى يحفظه عن ظهر قلب ... وأخذ يسائل نفسه : ولـكن كيف يتأتى لنا إذا كنا ثلاثة معا ، الإيمان بهذا الاسم الـكبير : الله بعد أن أساء إليه القسس إساءة كبرى ؟

و بعد أن جعلوا الحياة فى عزلة ! ... ياله من شقاء ! ...

ثم ضرب بيده على جبهته وقال : لقد أصبحت مجنونا غير عادل ، إنى أعيش فى هذا السجن بمنأى عن الناس ، ولـكنى لم أعش على الأرض معتزلا الناس ، وكنت أومن بواجبى إيمانا كبيرا . لقـد كان الواجب الذى كتب علىّ أداؤه ، إن صوابا و إن خطأ، كجذع الشجرة، استند إليه فى وقت العاصفة ... كنت أتأرجح وأضطرب ؛ لأنى لم أكن إلا رجلا ... ومع ذلك فلم تقتلعنى العاصفة .

إن الهواء الرطب الذى أحسه فى هذا السجن ، هو الذى يدفعنى إلى التفكير فى العزلة .

ولم أظل منافقا وأنا ألعن النفاق ؟ ليس الموت ولا السجن ولا الهواء الرطب، هى التى تحزننى، وإنما يحزننى غياب مدام دى رينال عنى . لو أننى اضطررت إلى العيش أسابيع طويلة، مختفيا فى قبو منزلها بفرييز، بغية أن أراها أترانى كنت أضجر من ذلك ؟

ثم ابتسم ابتسامة مرة ، وقال بصوت مرتفع : إن أثر معاصرى فىّ لقوى إلى أبعد حد . إنى لأتحدث إلى نفسى ، وأنا قاب قوسين أو أدنى من من الموت ، ومع ذلك فمازلت منافقا … فيا للقرن التاسع عشر ! … يطلق الصياد رصاصة فى غابة فيقتل فريسته ، ثم يجرى ليأخذها ، ويرتطم حذاؤه بمسكن النمل الذى لا يزيد ارتفاعه على قدمين، فيحطمه ويلقى بالنمل بعيدا ويقضى على بيضه … إن أكثر النمل فلسفة، لا يستطيع أن يدرك هذا الجسم الأسود ، الضخم ، المخيف ، ألا وهو حذاء الصياد الذى وطئ مسكنه فى سرعة خاطفة ، وسبق ذلك ضوضاء شديدة ، صحبها وميض من نار حمراء …

هكذا الموت والحياة والخلود ، هى أشياء بسيطة عند أولئك الذين تتسع حواسهم لإدراكها …

قد تولد ذبابة فى الساعة التاسعة من صباح يوم من أيام الصيف ، لتموت فى الساعة الخامسة مساء ، فكيف تفهم كلمة ليل ؟ إنها ابنة يومها ، لو أنها عاشت خمس ساعات أخرى ، لرأت وأدركت الليل .

وأنا كذلك ، سأموت فى الثالثة والعشرين من عمرى ، فامنحنى خمس سنوات أخرى لأعيشها مع مدام دى رينال .

ثم أخذ يضحك ضحكة شيطانية ويقول : ما أشد حماقتى إذ أناقش مثل هذه المسائل العويصة !

إننى منافق فى حديثى مع نفسى ، كما لو كان هناك من يسمعنى .

إننى أنسى الحياة والحب ، مع أنه لم يبق لى إلا أيام معدودة أعيشها !

... واأسفاه ! مدام دى رينال غائبة ، وربما لا يتركها زوجها تعود إلى بيزانسون ، وتهدر عرضها وشرفها .

هذا هو السبب الحقيقى فى حنقى وغيظى ، وليس هو عدم وجود إله عادل طيب قوى ، ليس متكبرا ولا جبارا ، ولا متعطشا إلى الانتقام ...

آه ! لو وجد هذا الإله ... واأسفاه ! لكنت أخر له ساجدا . ولقلت له : لقد حق على الموت ، ولكن أيها الإله العظيم ، أيها الإله الطيب ، أيها الغفور الرحيم ، رد إلى تلك التى أحبها !

كان الليل قد تقدم ، وبعد أن نام جوليان نوما هادئا مدة ساعة أو ساعتين ، أتى إليه فوكيه .

أحس جوليان فى نفسه القوة والعزم ، كرجل يعرف تماما مايدور بنفسه .

الفصل الخامس والأربعون

قال چوليان لفوكيه : أنا لا أود أن أمثل هذا الدور الخبيث ، مع الكاهن شاس برنارد ، فلا أحب أن أستدعيه ؛ لأنه لن يأكل ثلاثة أيام إن أتى إلىّ ، ولكن اجتهد فى أن تعثر على قس من أنصار ينسينيوس يكون صديقا للكاهن پيرار ، ولا يقبل الاشتراك فى دسيسة .

كان فوكيه ينتظر هذه البداية بفارغ الصبر . وأتم چوليان واجباته أمام الرأى العام فى الريف ، فى وقار شديد . فبفضل الكاهن دى فريلير ، وعلى الرغم من سوء اختياره للقس الذى اعترف أمامه ، كانت رعاية المجتمع تحوطه فى سجنه ، حتى لو أنه وهب بعض الذكاء فى مسلكه لاستطاع أن يفرّ . ولكن رداءة جو السجن ، أحدثت أثرها فى نفسه ، فقلّ إدراكه . وكم سرّ بعودة مدام دى رينال إليه . قبلته وقالت له :

— أول واجب علىّ نحوك هو أنى هربت من فريير …

ولم يعد چوليان يظهر أمامها بالعزة ، فقص عليها كل ما انتابه من ضعف ، فكانت معه طيبة رقيقة .

ولم تكد تغادر السجن فى المساء ، حتى أرسلت فى طلب هذا القس الذى كان يمسك بتلابيب چوليان كأنه فريسة اقتنصها ، ليتذرع بالتشبث به إلى كسب قلوب سيدات الطبقة الراقية فى بيزانسون ، أرسلت تستدعيه عند عمتها ، وكلفته الذهاب إلى دير « براى لاهو » لعمل تساعية ، فقبل ذلك عن طيب خاطر .

لقد كان جوليان يحب مدام دى رينال حبا عنيفا ، لا نستطيع وصفه . وقد تمكنت هذه السيدة من الحصول على إذن ؛ لكى تراه فى اليوم مرتين ، وذلك بفضل الذهب الذى أنفقته ، و بفضل عمتها تلك السيدة الثرية المعروفة فى أوساط بيزانسون .

وقد اضطرمت الغيرة فى قلب ماتيلد اضطراما شديدا أفقدها صوابها . واعترف لها الكاهن دى فريلير بأنه يجمل بها — حفظا لمكانتها — ألا ترى صديقها إلا مرة واحدة فى اليوم . وكانت ماتيلد قد بثت حول مدام دى رينال العيون ؛ لتعرف كل ماتعمله . و بذل الكاهن دى فريلير كل ما تنطوى عليه نفسه من مرونة وذكاء ، ليبرهن لماتيلد على أن جوليان ليس جديرا بها . وعلى الرغم من هذه المتاعب جميعا كانت ماتيلد تزداد له حبا ، وتتشاجر معه كل يوم مشاجرة عنيفة .

أما هو فقد حاول جهده أن يظل أمينا حتى النهاية ، مع هذه الفتاة التى لوثت سمعتها وأضاعت شرفها ، ولكن الحب الجامح الذى يضمره لمدام دى رينال كان يغلبه على أمره . ولما أخفق فى إقناع ماتيلد ببراءة زيارات مدام دى رينال ، قال فى نفسه : ستنتهى عما قريب هذه المأساة ؛ وهذا عذر أنتحله ؛ مادمت لا أحسن المداراة .

علمت الآنسة دى لامول بموت المركيز دى كروازنوا . ذلك أن السيد دى تالير ، ذلك الرجل ذو الثراء العريض ، سمح لنفسه بأن يذكر أشياء شائنة عن اختفاء ماتيلد ؛ فذهب إليه المركيز دى كروازنوا ، ورجاه فى أن يكذب ماقال ، فأطلعه دى تالير على خطابات مجهولة ، أرسلت إليه ، وقد ورد

فيها كثير من التفصيلات التى تقرب مما قاله ، وقد سردت فى لباقة شديدة ، فكان من العسير على المركيز البائس ألا يصدقها .

وسمح دى تالير لنفسه بأن يسخر ويعبث فى غير لباقة ، فاستولى الغضب الشديد، والألم المر على دى كروازنوا، وطلب من دى تالير تعويضات جسيمة على هذه الإهانات ، فرفض المليونير وفضل المبارزة .

وانتصرت الحماقة ، ومات شاب من أفضل رجال باريس، ومن أحبهم إلى القلوب ، ولما يبلغ الرابعة والعشرين من عمره .

أثر هذا الموت فى نفس جوليان التى ضعفت ، تأثيرا غريبا مرضيّا ، وأخذ يتحدث إلى ماتيلد قائلا :

— كان المسكين كروازنوا عاقلا جدا، وأمينا إلى حد بعيد بالنسبة إلينا، كان يكرهنى ويحاول أن يتشاجر معى ، حين كنت ترتكبين حماقاتك فى صالون السيدة والدتك ، لأن الكراهية التى تلى الاحتقار ، تكون شديدة فى العادة .

غيّر موت دى كروازنوا كل آراء جوليان فى مستقبل ماتيلد ، وظلّ عدة أيام يدلّل على ضرورة قبول السيد دى لوز زوجا لها . وقال لها :

— إنه رجل خجول ، ليس كثير النفاق ، ولا ريب أنه سيكون مطيعا لك . إن طموحه معقد، وأكثر تطلعا من طموح المسكين كروازنوا . ليس فى أسرته دوقية ، ولذلك لن يقيم أية عقبة فى أن يتزوج أرملة جوليان سورل . فقالت له ماتيلد فى فتور :

— وأرملة تحتقر العواطف العنيفة الجامحة : لأنها عاشت طويلا ورأت

حبيبها يفضل عليها بعد ستة شهور امرأة أخرى ، امرأة كانت هى أصل كل بلاء !

— إنك ظالمة ، فزيارات مدام دى رينال ، ستمد محامينا فى باريس بأقوال غريبة ، حين يطلب العفو عنى . فهو سيصور القاتل فى صورة يلتى فيها من ضحيته عناية شديدة . قد يكون لهذا أثره ، وربما رأيتنى يوما من الأيام موضوع رواية محزنة ذات ألحان ...

ملكت ماتيلد غيرة عمياء ، ولكنها لم تكن تستطيع الانتقام من غريمتها ، وهدّ قواها الشقاء الدائم ، الذى لا أمل فى أن تخرج منه ، ثم الخزى والألم من أن تحب هذا الخائن أكثر من أى وقت آخر . وحملها كل ذلك على صمت رهيب لم تستطع عناية فريلير الشديدة ، ولا صراحة فوكيه الجافة أن تخرجاها منه . ولو فرضنا جدلا ونجا جوليان ، فكيف تستطيع التسلط على قلبه من جديد ؟

كان جوليان يحيا حياة خالصة للحب ، ولا يكاد يفكر فى المستقبل ، إلا فى اللحظات التى كانت تغتصبها منه ماتيلد . والعجيب فى هذا الحب أنه كان حين يبلغ أقصاه ولا يُرى أثر التكلف فيه ، كانت مدام دى رينال تبادل حبيبها عدم المبالاة والسرور الرقيق . قال لها جوليان :

حينما كانت السعادة قريبة منى ، ونحن نتنزه معا فى غابات فرجى ، كان طموح شديد يحمل نفسى على التحليق فى أماكن خيالية . فبدلا من أن أضم ذراعك الجميلة إلى قلبى ، وقد كانت على مقربة من شفتى ، كنت أرى المستقبل يحول بينى و بينك ؛ لقد كان علىّ أن أخوض معارك

شديدة لأحرص على هذه المكانة الكبيرة ... لا ، لقد كنت على وشك أن أموت ، دون أن أعرف هذه السعادة لو لم تجيئى إلىّ فى هذا السجن .

وقعت حادثتان عكرتا صفو هذه الحياة الهادئة . فالقس الذى اختاره جوليان ليعترف أمامه ، من أنصار ينسينيوس ، لكنه لم ينج من مؤامرة يسوعية ، فأصبح على الرغم منه أداة فى أيديهم .

وجاء ذات يوم يقول لجوليان : إنه إذا لم يرتكب هذا الإثم الكبير ، إثم الانتحار ، فعليه أن يعمد إلى كل الوسائل الممكنة لينال العفو . و بما أن لآل الكهنوت تأثيرا كبيرا فى وزارة العدل بباريس ، فهناك طريقة سهلة يسيرة : هى أن ترجع إلى الإيمان الصحيح على ملأ من الناس ...

— على ملأ من الناس ! آه ! إنى لأتبين ياوالدى أنك تمثل المهزلة التى يمثلها أى مبشر ...

— إن سنك يابنى ، وجمال وجهك الذى وهبك الله إياه ، والباعث على الجريمة الذى ظل غامضا ، ومساعى الآنسة دى لامول ، التى تدل على بطولة كبيرة فى سبيل العفو عنك ، وحتى تلك الصداقة الغريبة التى تبديها لك ضحيتك ، كل هذا قد خلع عليك بطولة فى أذهان نساء بيزانسون كلهنّ . لقد نسى النساء كل شىء بسببك حتى السياسة ...

سيكون لرجوعك إلى الإيمان وقعه فى القلوب ، وسيترك أثرا عميقا فى النفوس . وفى استطاعتك أن تخدم الدين خدمة صادقه ، و إنى لا أومن بالباعث التافه ، الذى يحمل اليسوعيين على أن يسلكوا الطريق الذى أسلكه مثلك الآن ! وهم حتى فى هذه الحالة الخاصة ، التى لا يصل

إليهاطمعهم ، يفسدون أيضا ! ومهما يكن من أمر ، فإن الدموع التى ستذرفها العيون بسبب رجوعك إلى الإيمان ، ستقضى على الأثر السيء الذى تتركه عشر طبعات من كتب فولتير التى تحمل الإلحاد . فقال جوليان فى فتور :

— وماذا يبقى لى حين أحتقر نفسى! لقد كنت طموحا ، ولا أحب أن ألوم نفسى ؛ وقد سلكت الطريق الذى رسمه لى العصر الذى أعيش فيه . وأصبحت الآن أعيش من يوم إلى يوم . ولكننى سأكون شقيا جدا إذا أتيت عملا يدل على الجبن ...

أما الحادثة الثانية التى أثرت فى نفس جوليان ، فقد جاءته من مدام دى رينال . ولا أدرى أية صديقة ما كرة ، استطاعت أن تقنع هذه النفس الساذجة الحيية ؛ بأن واجبها يقضى عليها أن تذهب إلى سان كلو لتجثو عند أقدام الملك شارل العاشر .

لقد وطدت العزم على أن تضحى بلذتها فى البقاء مع جوليان ، و بعد أن قامت بهذا المجهود الجبار ، لم تكن تعنى بعد ذلك بأن تقدم على هذا العمل ، ويقول الناس فيها مايقولون . وكانت من قبل تخشى هذا أكثر من خشيتها الموت . قالت له :

— سأذهب إلى الملك ، وسأعترف له صراحة بأنك عشيقى : إن حياة رجل ، ورجل مثل جوليان ، يجب أن توضع فوق كل اعتبار . سأقول : إن الغيرة هى التى دفعتك إلى أن تعتدى علىّ . هناك أمثلة كثيرة لشبان مساكين، أنقذتهم فى مثل هذه الحالة شفقة المحلفين أو رحمة الملك ...

— لن أراك بعد الآن ، سأغلق السجن فى وجهك ، وفى اليوم التالى

سأقتل نفسى يأسا ، إذا لم تقسمى لى بأنك لن تقدمى على هذا العمل ، الذى يجعلنا مضغة فى أفواه الجماهير . هذه الفكرة التى ترمى إلى الذهاب إلى باريس ليست فكرتك ، فاذكرى لى اسم تلك التى أوحت بها إليك ...

لنكن سعداء فى تلك الأيام القليلة التى سأعيشها . لنخف حياتنا ، فإن جريمتى واضحة جلية . إن الآنسة دى لامول ذات أثر كبير فى باريس ، فثقى بأنها تعمل كل ما فى طاقة البشر عمله . أما هنا فى الريف ، فجميع الأثرياء وذوو المكانة يعملون كلهم ضدى ، سيزيد ما تعتزمين الإقدام عليه ، سخطهم وكراهيتهم لى ، لأنهم أغنياء معتدلون ؛ والحياة عندهم سهلة هينة .. فلا تعرضينا لسخرية أمثال مالون وڤالون وغيرهما ممن هم خير منهما .

أصبح چوليان لايطيق جو السجن . وفى اليوم الذى عرف فيه خبر إعدامه ، كانت الشمس ساطعة لحسن الحظ ، والطبيعة مزدهرة ، وچوليان يتمتع بشىء من الشجاعة . وكان السير فى الهواء الطلق منعشا له إلى أبعد حد ، فكان مثله مثل ملاّح يتنزه على اليابسة ، بعد أن غاب عنها وقتا طويلا . وأخذ يقول فى نفسه : هيا بنا ، فالحالة والحمد لله على مايرام ، إننى لاتنقصنى الشجاعة .

ولم يكن رأس چوليان جميلا شاعريا مثل ما كان فى ذلك اليوم ، الذى قطع فيه . فأخذ يستعيد ذكريات الساعات اللذيذة ، التى تمتع بها فى غابات ڤرچى ، وقد تجمعت كلها فى ذهنه فى قوة ونشاط .

وتم تنفيذ الحكم فى بساطة ووقار ، ولم يكن چوليان بدوره متكلفا فى

مسلكه[1] . لقد قال لفوكيه قبل أن يموت بيوم واحد :

— أما الانفعال فلا أضمنه ، لأن هذا السجن القبيح الرطب يؤثر فىّ فتصيبنى الحمى بعض الأحيان فلا أعرف نفسى ؛ وأما الخوف فلا تخشه ، لن يرانى أحد شاحب اللون .

وقد أعدّ جوليان غدته مقدّما فكلّف فوكيه أن ينتزع ماتيلد ومدام دى رينال من السجن، فى صباح اليوم الأخير . ثم قال له :

— خذهما معك فى عربة واحدة ، وأعد العدة فى أن تركض خيل البريد دائما ، فربما وقعت إحداهما بين ذراعى الأخرى ، أو أظهرت كل منهما الكراهية الشديدة لصاحبتها . وعلى كل حال فهاتان السيدتان المسكينتان ، ستنسيان قليلا لوعتهما الشديدة .

وكان قد ألحّ على مدام دى رينال فى أن تعيش لتعنى بابن ماتيلد ، وأقسمت له على ذلك . ثم قال لفوكيه :

— من يدرى ؟ ربما كانت هنا لك بعد الموت لذات ! إنى أود أن أرقد فى هذا الكهف الصغير، الذى يوجد بالجبل الكبير المطل على فرير . لقد قلت لك مرات كثيرة: إننى ذهبت إلى هذا الكهف ذات ليلة ، وامتد بصرى بعيدا فوقع على أكثر أراضى فرنسا ثراء ، فألهب الطموح قلبى ، فكان هذا أكبر هوى لى فى الحياة ... هذه المغارة عزيزة علىّ ، وليس

---

(١) لقد اتخذ ستندال شخصية « انطوان برتيه » نموذجا لبطله جوليان سورل ونحن نعلم أن برتيه كان قد أعدم فى الساعة الحادية عشرة من صباح يوم السبت ٢٣ من فبراير سنة ١٨٢٨ بميدان جرينيت فى جرينوبل ، حيث أبدى ساعة موته شجاعة حقيقية لاتصنع فيها. «المعرب»

هناك من ينكر أن موقعها جميل ، تطمح إليه نفس كل فيلسوف ... وعلى هذا ، فاعلم أن أعضاء مجمع بيزانسون ، يجمعون المال بكل الوسائل ، فاذا استعملت معهم المهارة ، استطعت الحصول على جثتي .

نجح فوكيه في هذه المهمة المؤلمة . وكان يقضي الليل في غرفته بجانب جثة صديقه ، ولشد ما دهش حين رأى ماتيلد تدخل الغرفة ، لأنه تركها قبل ذلك بساعات قليلة ، على بعد عشر فراسخ من بيزانسون . وكانت نظراتها زائغة ، وعيناها مضطربتين . وقالت له :

— أريد أن أراه .

وكانت شجاعة فوكيه لاتواتية ، فلم يستطع النهوض ولا الكلام . وأشار بأصبعه إلى المعطف الأزرق فوق أرض الغرفة ، وقد لفّ فيه ما بقي من چوليان .

فركعت على ركبتها ، ومما لاشك فيه أن ذكرى بونيفاس دي لامول ومرجريت دي نافار ، قد أمدتها بقوة فوق قوى البشر . وفتحت المعطف بيدين مرتجفتين . فأدار فوكيه رأسه حتى لا يرى .

وسمع ماتيلد تمشي في الغرفة على عجل ، وقد أوقدت عدة شموع . وحين واتته الشجاعة في أن يلتفت ، رأى أنها وضعت رأس چوليان على منضدة صغيرة من الرخام ، وقبلت جبهته ...

وشيعت ماتيلد حبيبها إلى القبر الذي اختاره ، وسار خلف نعشه عدد كبير من القسس . أما ماتيلد، فقد ظلت وحدها في عربتها المغطاة ، وقد وضعت على ركبتيها رأس الرجل الذي أحبته حبا شديدا .

وصل الركب على هذه الصورة إلى أعلى نقطة فى جبال چورا ، فى منتصف الليل ، ووقف عند هذا الكهف وكانت الأنوار البديعة تسطع فيه ، فأوقدوا شموعا كثيرة ، وصلّى عشرون قسيسا صلاة الموتى . وأخذ سكان القرى الجبلية، التي مرّ بها الركب يتبعونه لغرابة هذا المأتم الذى لم يعتادوه من قبل .

ووقفت ماتيلد فى وسطهم وقد لبست ثياب الحداد . ولما انتهى الحفل الدينى، نثرت بضعة آلاف قطعة من ذات خمسة الفرنكات على الحاضرين .

وحينما انفردت بفوكيه ، أرادت أن تكفّن رأس حبيبها بيديها . وقد كاد فوكيه يجنّ من شدة الألم .

وأصبح هذا الكهف الذى كان موحشا من قبل، مزينا بالرخام الإيطالى؛ وذلك بفضل عناية ماتيلد التى لم تضن عليه بالمال .

ووفت مدام دى رينال بما وعدت ، فلم تحاول أن تعتدى على حياتها بأية وسيلة ؛ ولكنها ماتت بعد چوليان بثلاثة أيام وهى تقبل أبناءها[١] .

---

(١) إن من مثالب سيطرة الرأى الحر أنه ، وإن كان يكفل الحرية للناس ، فإنه يتدخل عادة فيما لا يعنيه ... فى حياتهم الخاصة مثلا . ومن هنا ، نشأت المساوىء التى نشاهدها فى أمريكا وأنجلترا . ولكى يتجنب المؤلف كل ما يمس الحياة الخاصة ، فقد عمد إلى اختراع بلدة صغيرة أطلق عليها اسم « فريير » . وحينما كان يجد نفسه فى حاجة إلى ذكر قس أو قاض أو محكمة ، كان يختار أولئك جميعا من بلدة بيزانسون التى لم يزرها مرة واحدة فى حياته . « ستندال »

فهرس

الإشـــــراف الفنـــــى: حـــسن كامـــل

التصميم الأساسى للغـلاف: أســـامة العبـــد

تم طبع هذا الكتاب من نسخة قديمة مطبوعة

"الأحمر والأسود" رائعة الكاتب الفرنسى الشهير ستندال، التى اقتبس مؤلفها فكرتها من حادثة مأساوية واقعية، وأضاف إليها ما رآه لازما لشخوص الرواية. وهى رواية تاريخية تكشف عن خفايا ثورة سنة **1830** فى باريس، مع دراسة المجتمع الفرنسى آنذاك وما به من تعارض واضح بين طبقة النبلاء والبرجوازيين والطبقة الدنيا، وبين أنصار المذاهب الدينية المتشددة وغيرهم، كما يعرض ستندال لأفكاره ومشاعره وحيله التى تتحكم فى سلوكه وتردده بين "الأحمر" الجيش و"الأسود" رجال الدين، واستطاع أن يوفق بين رومانسيته القلقة، وواقعيته الحازمة.

تصميم الغلاف: سيد هلال